موسى

من وحي القرآن والسُنّة

تأليف

د. عقيل حسين عقيل

القاهرة

2017م

المحتويات

المقدّمة 7
موسى من وحي القرآن 34
من صفات النبي موسى.. 43
1 . مبتلى:.. 43
2 . وجيه: 43
3 . مُتحدٍّ: 44
4 . مُتَّبع:.. 45
5 . النسيان:.. 46
6 . الخوف: 48
7 . مُتضرّع: 49
8 . مُخلَصُ: 50
9 . رسول نبي:.. 51
10 . شكور: 51
11 . مُوعِظ: 52
12 . مُهدي:.. 52
13 . مُنذر: 53
14 مُكلّم:.. 54
15 . نصوح: 57

16. تائب: 58
التوبة على وجهين: 58
17 . غضبان: 60
18 . متسامح: 64
19 . غَفور: 65
20 . عدل: 65
21 . إمام: 66
22 . مُذكِّر: 67
23 . مُعلَّم: 68
موسى في طفولته: 69
موسى في شبابه: 78
التحولات في حياة موسى: 87
عصا موسى: 91
المواجهة مع فرعون: 99
مواجهة السّحر: 107
شخصيات في حياة موسى: 110
ذبح البقرة: 119
مقدّمات يوم الزينة: 127
مؤمن آل فرعون: 153

فرْق البحر: 159
ميعاد التكلّيم:.. 166
المواعدة والرؤية والنظر: 174
مترتبات التكلّيم: 192
عبادة العجل:.. 197
العبد الصّالح: 208
صبرُ موسى وعلمه في دائرة الممكن: 216
حديث الفتون:.. 279
فتنة العجل: 289
الفتنة بين موسى والعبد الصّالح:............................ 293
موسى والسامري: 294
موسى وقارون:.. 327
معطيات التيه: 384
أثر يوم الزّينة: 392
النساء في رسالة موسى:.................................... 404
أمّ موسى: 412
أخت موسى:.. 424
امرأة فرعون: 438
زوج موسى: 444

خت زوج موسى: 458

الاستبدالات عند قوم موسى:..................................... 459

النبي موسى من السُنّة 489

آيات موسى: 494

موسى والاستغاثة:... 495

موسى والسيد الخضر: 496

موسى مبشر بمحمّد: 498

كلام موسى مع ربّه:... 499

تفضيل موسى:.. 501

موسى أهل علم: 504

دعاء موسى: 505

قصة قارون مع موسى:... 508

السبت عند اليهود:... 509

عصا موسى:.. 509

خوف موسى: 512

الخوف معيار التوازن 524

الخوف نقطة الانطلاق الموجبة: 528

التوجّس: 529

الحذر: 531

الخشية: 532

التخاذل: 536

الجبن:... 538

الخوف بين الفطرة والغريزة: 542

الخوف صفة فطرية ملازمة: 548

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم.

دعا الله سبحانه وتعالى النّاس جميعا إلى عبادته، وذلك عن طريق رسله وأنبيائه عليهم الصّلاة والسّلام، هذه الدّعوة ابتدأت بنزول آدم صلّى الله عليه وسلّم؛ ففيها بيان وإيضاح في كيفية عبادة الله تعالى وتوحيده، فالخليقة من بعد آدم عليه السّلام لم تكن كلّها على وتيرة واحدة من التوجه أو المعتقد أو الاعتناق أو حتى السّمة الأخلاقية، فالاختلاف حاصل بينهم في كلّ شيء، إذ كان لكلّ قوم سمة خاصّة مختلفة عن الأقوام الأخرى، فضلا عن ذلك أنّ كثيرا منهم لم يستمر وجدودهم الأرضي، فقد انتهوا ولم تبق لهم باقية كعاد وثمود.

إنّ الاختلاف الحاصل للأقوام صاحبه تعدد في الأنبياء، ذلك أنّ كلّ نبي جاء لكي يصحح ما هو حاصل أو يضيف أمرا جديدا، فكان لكلّ قوم نبي يأتي مصلحا وموجها وحاثا، كي يعالج ما يجد عندهم من انحراف عقائدي أو خلقي. وهذا الكتاب يتناول حياة الرّسول النبي موسى صلّى الله عليه وسلّم، فقد آثرنا فيه أن نعرض القضايا الفكرية التي مثلت نقطة استظهار واضحة في مواجهة فرعون بوصفه أبرز المرتكزات الذي تدور حوله دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم.

موسى عليه الصّلاة والسّلام نبي ولد في ظروف صعبة حيث كان في زمنه فرعون حاكما لمصر، وهو قد طغى في الأرض حتى أنّه قرر قتل المواليد الذكور خوفا من منافس ومتحدّ يخلّص المصريين من فساده في

الأرض، ومع ذلك وُلِد موسى، وسلم موسى، بل وعاش في بيت فرعون كونه آية من آيات الخالق تعالى.

فذلك الطّاغية فرعون ذات ليلة رأي في منامه أن نارا تأكل ملكه وتقتّل شعبه وهي آتية من ناحية بيوت بني إسرائيل، قام فرعون مفزوعا خائفا من نومه، فأسرع باستدعاء السحرة والكهنة وحكي لهم ما رأي، فأخبروه تفسيرا أنّه سيولد في بني إسرائيل مولودا يكون سببا في ذهاب ملكه وهلاكه؛ ففزع فرعون وأمر جنوده وحاشيته أن يقتلوا كلّ من يولد ذكرا من بني إسرائيل. وفي تلك الفترة كانت امرأة عمران حاملا بنبي الله موسي عليه السّلام، ولدت موسى في هذه الظروف الصّعبة، قال تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حقّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}1. في هذه الآيات العظيمات كانت الأسرار والإعلان عنها؛ فأمّ موسى عليهما السّلام أعلمها الله بكلّ ما سيحدث لابنها، وقد طمّنها يقينا، ولكن يظل الإنسان مهما عظم غير كاملا؛ فكان الخوف مسيطرا على أمّ موسى إلى أن عاد إليها أمّا

[1] القصص 7. 13.

ومرضعة، وفوق ذلك بشّرت بمستقبل موسى أنّه سيكون رسولا. قال تعالى: {إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}2.

وعليه حفظ الله موسى فلم يعلم جنود فرعون بأمره، وقذف الله في قلب أمّ موسى أنّها إن خافت عليه تضعه في صندوق وتربطه ببيتها وتلقيه في النهر لكي لا يراه أحد من جنود فرعون الظالم، وترضعه كلّ فترة. و ولكن في يوم خرجت أمّ موسي لتضرع ابنها، فإذا بها تجد أنّ الحبل قد قطع وأن الصندوق قد جري في النهر حتي رآه جنود فرعون فأخذوه إليه؛ فعندما رأته امرأة فرعون طلبت منه أن تأخذه ولدا لها، ولكن موسي عليه السّلام رفض أن يرضع من جميع المرضعات، حتي علمت أخت موسى بأمره، فقالت لامرأة فرعون أنّها تعرف من يرضع هذا الطفل، وطلبت من أمّ موسى أن تأخذ الطفل لترضعه؛ فوافقت امرأة فرعون، وعاد موسي لأمّه آمنا.

كبر موسى وكان شابا قويا، وفي يوم وجد رجلان يتقاتلان أحدهما من بني إسرائيل والآخر من جنود فرعون، وهما يتعاركان استنصره من هو من شيعته فنصره موسى حيث وكز جندي فرعون فقتله، وهذا الأمر هو الذي جعله يخرج من مصر مهاجرا إلى مأمن؛ فذهب إلى مدينة مدين.

وعندما دخل موسى مدين وجد أناسا يسقون حيواناتهم، وقد لاحظ فتاتين لم يقمن بالسّقي أدبا وتجنبا للاختلاط بالرّجال، فأخذ موسى أغنامهما وسقي لهما، فعادت الفتاتان إلى أبيهما وقصّتا عليه ما حدث، فاستدعاه واستمع إليه ثمّ طمئنه خوفه، وطلب منه أن يعمل عنده مقابل أجرة، ويزوجه إحدى ابنتيه، فوافق موسى وعاش في مدين

---

[2] القصص 7.

سنين التعاقد والتعهّد وأكثر من ذلك استيفاء واضحا لما تم الاتفاق عليه مع ذلك الرّجل الصّالح. فعن ابْنُ مُصَفًّى، عَنْ مَسْلَمَةَ بْنِ عُلَيٍّ، حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ أَبِي أَيُّوبَ، عَنِ الْحَارِثِ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ رَبَاحٍ قَالَ: سَمِعْتُ عُتْبَةَ بْنَ النُّدَّرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا " فَقَرَأَ طس حَتَّى إِذَا بَلَغَ قِصَّةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ آجَرَ نَفْسَهُ ثَمَانِي سِنِينَ أَوْ عَشْرَ سِنِينَ عَلَى عِفَّةِ فَرْجِهِ وَطَعَامِ بَطْنِهِ"3

أخبر الرّسول موسى ببعثة محمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهما وَسَلَّمَ كما هو موجود في التوراة "التي جاء بها موسى عليه السّلام، ومصداقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرّسول النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ والإنجيل يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ}4؛ فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ، حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا فَبَاعُوهَا، وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا "قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: فَلَمْ يَزَلْ مَا حَرَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، الْيَهُودَ خَاصَّةً، وَغَيْرَهُمْ عَامَّةً، مُحَرَّمًا مِنْ حِينِ حَرَّمَهُ، حَتَّى بَعَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَفَرَضَ الْإِيمَانَ بِهِ، وَأَعْلَمَ خَلْقَهُ أَنَّ دِينَهُ الْإِسْلَامُ، الَّذِي نَسَخَ بِهِ كُلَّ دِينٍ قَبْلَهُ، وقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: فَقِيلَ، وَاللهُ أَعْلَمُ: أَوْزَارُهُمْ وَمَا مُنِعُوا بِمَا أَحْدَثُوا قَبْلَ مَا شُرِعَ مِنْ دِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"5

[3] الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم، 3، ص 63.

[4] الأعراف 57.

[5] السنن الكبرى للبيهقي، 10، ص 14.

وكذلك عيسى- عليه السّلام أخبر بمحمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمر بالإيمان به {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}6، فعيسى عليه السّلام بشّر بني إسرائيل بمحمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا معناه: أنّه أمرهم الإيمان بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فكفروا بعيسى، لأنّه بشرهم بمحمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"7

حدثنا ابن عباس عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: "عُرضت عليَّ الأمم، فرأيت النّبي ومعه الرّهْط، والنّبي ومعه الرّجل والرّجلان، والنبي وليس معه أحد؛ إذ رُفع لي سواد عظيم، فظننت أنّهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه"8.

في زمن موسى ومن قبله انتشر السّحر، حتى أنّ القوم قد مهروا فيه، فأثروا به على النفوس، وسحروا به أعينَ الناظرين؛ فكان ما آتاه اللهّ نبيه موسى فوق ما تبلغه القوى والقدر، وما لا يدرك بالأسباب والوسائل، وقد أوضح الله ذلك في كثير من الآيات، منها قوله- تعالى- : {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى}9، ولهذا بُهت السّحرة، وبطل ما جاءوا به من التمويه والتضليل، وامتاز الحقّ عن الباطل"10؛ وهنا استسلم السّحرة وأسلموا

[6] الصف 6.

[7] إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، 1، ص 70.

[8] إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، 1، ص 85.

[9] طه 17 . 23.

[10] مذكرة التوحيد، ص 61.

إلى الله ربّ العالمين، {وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ}11

وعليه فالسّحر لا أحد ينكره؛ فهو مُتَحقّقٌ وُقُوعُهُ وَوُجُودُهُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا حقّيقَةً لَمْ تَرِدِ النَّوَاهِي عَنْهُ فِي الشَّرْعِ وَالْوَعِيدُ عَلَى فَاعِلِهِ وَالْعُقُوبَاتُ الدِّينِيَّةُ وَالْأُخْرَوِيَّةُ عَلَى مُتَعَاطِيهِ وَالِاسْتِعَاذَةُ مِنْهُ أَمْرًا وَخَبَرًا. وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ كَانَ مَوْجُودًا فِي زَمَنِ فِرْعَوْنَ وَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُعَارِضَ بِهِ مُعْجِزَاتِ نَبِيِّ اللَّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَأَلْقَوْا تِلْكَ الْحِبَالَ وَالْعِصِيَّ فَرَآهَا النّاس حَيَّاتٍ عِظَامًا ضِخَامًا، ولكن بعد ما رمى موسى المعجزة (العصا) لقفت كلّ ما ألقوا من سحرٍ"12.

وهكذا هو حال السّحر والسّحرة تفريق النّاس والإضلال بهم؛ فهم جميعهم لا يعملون شيء إلّا فتنة وفرقة، وفي المقابل دين الله يوّحد المفرّقين تحت كلمة واحدة (لا إله إلّا الله ولا شريك له)؛ فعن عمرو بن عوف رضي الله عنه: "أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "ألا إنّ بني إسرائيل افترقت على موسى عليه السّلام سبعين فرقة؛ كلّها ضالة؛ إلا فرقة واحدة: الإسلام وجماعتهم"13

كان موسى حذرا خائفا حيث ورد تخوّفه في أكثر من مشهد فهو قد كان خائفا ممّا فعل بتلك الوكزة التي كانت قاتلة، وله من بعدها مخاوف أخرى، {فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ}14

---

11 الأعراف 120 . 122.

12 معارج القبول بشرح سلم الوصول، 2، ص 544.

13 إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة، 1، ص 263.

14 القصص 18.

وقال تعالى ف مشهد آخر: {فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}15

وهكذا كان الخوف حذر يتكرر مع سيدنا موسى عليه السّلام ذلك لأن جميع خوف موسى هو خوف موج وللضرورة، {فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}16، وهنا يطمئنه الله تعالى بقوله: {يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ17، ويؤكّد له ذلك بقوله: {يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ}18.

وقال تعالى: في مشهد آخر يطمئن الله فيه موس حتى يثق في أنّه محفوظ من كلّ ما يخيف، قَالَ: {خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى}19

ومع ذلك فقد أوجس موسى في نفسه من الخوف ما أوجس، وبالرّغم من ذلك الله معه يطمئنه في كلّ مشهد، {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى}20.

وعليه فإنّ الخوف توقّع حذري قبل وقوع الفعل؛ فهو يستوجب اتقاء ما سيقع، وقد يُحدث أمرا غير مُرضيا، أو أنّه يُحقّق ألما، والخوف هو ما ليس بجُبنٍ، فالجبن لا يكون ساكنا إلّا في نفس من يعرف

---

[15] القصص 21.

[16] القصص 25.

[17] القصص 31.

[18] النمل 10.

[19] طه 21.

[20] طه 67 . 68.

الحقّيقة تجاه ما يجب ولا يقدم عليه، والخوف لا يكون إلّا في دائرة المتوقّع من أجلّ الإقدام على، أو الانتهاء عن، دون تأخّر ولا جبن.

ولذا فالخوف استشعار للمستقبل واستطلاع لِما قد يَحلّ به وقد يؤثّر تأثيرا سالبا على الفرد أو الجماعة أو المجتمع وما يمتلكون، وحتّى لا يحدث تُبْذل الجهود من قِبل مستشعريه وقاية منه أو استبدالا له، أو استغناء عنه في دائرة الممكن.

ومع أنّ معظم معلومات العامّة من النّاس عن الخوف هي معلومات عن سالبٍ، إلّا أنَّ حقّيقة أمره لا تربطه بسالبٍ؛ فالعامة على سبيل المثال يخافون من الظلمة، ولكن هل يوجد شيء من مكوّنات الظُّلمة يخيف؟

بالتأكيد الظلمة لا تُخيف، ولكن ما قد يفاجئك وأنت في زمن الظلمة قد يُلحقّ بِكَ ألما أو ضررا، ولهذا ينبغي أنْ تكون عند الظلمة حذِرا متيقّظا، وإن لم تكن كذلك فقد تفاجأ بما هو غير متوقّع، وعندها قد تحدث الخسارة، ولكن بفضل الله علينا خلق الخوف في أنفسنا وجعله قابلا للاستشعار العقلي ليتّخذ الإنسان حذره ممّا يُخيف.

وعليه فالخوف الذي هو من خلق الله فينا خلقا، هو دائما موجب، ولذا لا حجّة للبعض الذين يرون أنّ الإنسان قد خُلق على السلبية في مقابل قوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[21]؟

ولأنَّ الخوف موجب فكلّ عاقلٍ منّا يخاف المرض ولا يخاف الموت، ذلك لأنّ للمرض دواء؛ فكلّنا نسعى إلى بلوغه والعمل من أجلّ الحصول عليه؛ فتجرى التطعيمات الوقائية للناس عن المرض استباقا،

[21] التين 4.

خوفا من حدوثه، أمّا الموت فلا دواء له، ولهذا لا أحد يفكّر في علاج الموت.

ولأنّ الخوف يصنع المستقبل؛ فكلّنا نسعى لتوفير الماء قبل أن يلمَّ بنا العطش، ولأنّنا نجوع؛ فنسعى لتأمين غذائنا قبل أن تلمّ بنا أزمة الغذاء وألم الجوع، ولأنّنا نخاف من الوِحدة، فنسعى جميعا من أجلّ تحسين علاقاتنا الاجتماعيّة مع الآخرين أبوة وأخوة وعمومة وقرابة وجيران كرام كي لا يلمّ بنا ما يخيف، وحينها نتمكّن من بلوغ السكينة.

ولأنّنا نعرف ما تتركه السرقة من ألم؛ فنسعى للتأمين على ما نمتلكه قبل أنْ تحدث السرقة، ولذا فمن لم يكن خائفا فطنا سيدفع ثمن غفلته ألما.

وهكذا بأسباب الخوف من الجهل تسعى النّاس لنيل التعليم، ولذلك دائما من لا يخاف على مستقبله لا يسعى لتأمينه، ومن لم يرسم الاستراتيجيات والخطط لمستقبل أفضل، لن يجد لنفسه مكانة يتبوّؤها بين النّاس، ولن يكون له مستقبلا مفضّلا ولا مقدّرا، بل قد يجد نفسه على الرصيف جالسا على قارعة الطريق متسوِّلا، أو سجينا بين الجدران بأسباب فقدانه مشبعات الحاجة.

ولأنّ الخوف نعمة من نعم الله علينا؛ فكلّ عاقل ليس له بدٌّ إلّا أنْ يُفكّر في كلّ ما من شأنه أن يجنِّبه ما يخيف.

وعليه: فالعاقل دائما يسعى لتأمين مستقبله من الكوارث. وهكذا كلّ من يخاف من العدوان يسعى لإعداد العُدَّة قبل أن يحدث العدوان، وذلك لأجلّ إرهاب العدو ووضع حدّ له يقف عنده.

ولمتسائل أن يسأل:

الخوف من أجلّ ماذا؟

نقول:

من أجلّ السلامة، ولذا فمن يحرص على الإقدام على ما يخيف من أجلّ التخلّص منه أو تجنَّبه بما يحقّق السكينة والأمن، سلم. وإلّا لماذا الآباء هم يخافون على أبنائهم؟

بطبيعة الحال خوف الآباء على أبنائهم هو من باب الحرص عليهم وتحقّيق السلامة لهم. ولذلك فمن خاف سلم، ومن لم يخف ألقى نفسه في التهلكة.

وعليه فالعلاقة قويّة بين الخوف والتدبُّر، وبينه وبين التفكّر، والتذكّر، أي لماذا الإنسان العاقل ينبغي عليه أن يتدبّر أمره، ويتذكر ماضيه، ويفكّر في مستقبله؟

نقول:

يتدبّر حاله في الزمن الآن من أجلّ أن يستمدّ القوّة التي بها يتمكّن من التذكّر والتفكّر، ويتذكّر الماضي لكي يتدبّر حاضره عن بيّنة، ويعرف ما يجب أن يَقدِم عليه في مستقبله، أمّا التفكّر فلا يكون إلّا في كلّ ما من شأنه أن يحفّزه على صناعة المستقبل.

وكما أنّ هناك علاقة موجبة بين الخوف والتدبّر والتفكّر والتذكّر؛ فكذلك هناك علاقة سالبة بين الخوف والوهم؛ فالوهم مجرد افتراضات لا علاقة لها بالواقّع (تخيّل ليس إلّا)، أمّا الخوف فلا وجود له إلّا مع واقع، ولهذا فالفرق كبير بين متخيلات الوهم وبين ما يكشفه الخوف حقّيقة. فالآباء في كثيرٍ من الأحيان يرسمون صور وهميّة في أذهان أبنائهم عن المجهول بالنسبة لهم بغرض السيطرة عليهم وجعلهم تابعين؛

فالغول الذي ليس له صورة لعدم وجوده حقّيقة، صورته لم تمحَ من أذهان الكثيرين من أبناء العالم المتخلّف.

ولأنّ للخوف علاقة وثيقة مع المستقبل؛ فالنّاس تخاف من مفاجِئات الزلازل؛ فتسعى في البحث لأجلّ أن تتمكّن من المعرفة العلمية التي تكشف مؤشرات الزلازل قبل وقوعها تفاديا لِما قد تحدثه من كوارث، ولذا فالمهندسون وخاصة المعماريون هم دائما يبحثون عن كيفية إيجاد تصميم معماري يُسهم في تفادي الهزات الأرضية أو الحدّ ممّا تؤدّي إليه من أضرار.

ولأنّ الخوف فطري؛ فكلّ المخلوقات الحيوانية حالها كحال الإنسان تخاف فطرةً لا تعلّما؛ فالخروف بدون شكّ يخاف الذئب، والذئب يخاف الكلّب، والكلّب يخاف صاحبه ولا يخاف أعداءه، وهكذا الدجاج يخاف الثعالب، والثعالب تخاف الصيادين، ولكن دون تدبّر؛ فكلّ سلوك حيواني يكون الحسم فيه أثناء المواجهة للأقوى، ممّا يجعل للمفاجئة مكانة في إلحاق المغالبة بين حيوانا وآخر.

والفرق بين الخوف على المستوى العاقل والمستوى الحيواني هو أنَّ الإنسان يخاف فيتدبّر أمره مسبقا من أجلّ أن يتفادى المخاطر المقدّرة تقديرا بحسبان؛ فالمسلم يعلم أنّ أمامه مستقبل بين (سكينة وألم) وله أن يختار إرادة (جنّةً أم نارا) ولهذا فالمؤمن في حياته الدنيا يتّقي الشرور ويبتعد عن ارتكاب المظالم خوفا من النّار وحبّا في الجنّة، ولهذا فهو يُصلّي ويُزكّي ويصوم ويتّبع أمر الله ونهيه، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويسعى للإصلاح في الأرض وإعمارها وفلاحها، أمّا غيره من بني جنسه (الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم)؛ فهم غافلون، ولهذا لم يعملوا على صناعة مستقبلهم وهم في الحياة الدنيا، ولذا فالخوف تفادٍ للفعل المؤلم سواء أكان هذا الفعل في الحياة الدنيا أم أنّه عندما يكون

مترتِّبا عقابا في الحياة الآخرة على ما لم يُفعل في الحياة الدنيا أو أنّه فُعل عن غير طاعة لما يجب أن يُفعل إرادة.

ولأنّ الخوف يُجنّب الألم؛ فالواعون دائما يتجنّبون لحظة الغضب بحكمة وتدبّر، بغرض إضاعة الفرصة على الغاضب وإعادته لرشده، ولذا فإنْ لم يتمّ تفادي الغضب لحظته تحدث المواجهة المؤلمة؛ فتتأزّم الأمور ويتصدّع البناء الأسري أو العشائري أو أيّ بناء اجتماعي وإنساني على مستوى الأفراد والجماعات وحتى الدول.

وهكذا العالم المتقدّم دائما يَقدم على كلّ شيء يمكن أن يُسهم في صناعة المستقبل الأفضل؛ فبالنسبة له كلّ شيء بحسابه؛ ولذا كلّ يوم نلاحظ أسعار النفط والذهب والفضة والعملات وأسعار الأسهم وما شابهها اقتصاديا تتغيّر وتتبدّل قيمها أحياناُ بتعديل رؤية في سياسة منظّمة الأوبك أو تصريح من رئيسها أو تصريح من أيّ رئيس له أثر فعّال على الساحة العالمية، أو إذا وقعت كارثة طبيعية أو غير طبيعية من حروب أو حتّى تهديدات باردة ترتفع بأسبابها أحيانا جميع الأسعار عقاريّة ومالية وذهبية ونفطية وفضيّة وغيرها، وكلّ ذلك بأسباب الخوف التي تجعل الكلّ يأخذ حذره الذي به يتمكّن من تأمين مستقبله.

وعليه: النّاس جميعا يخافون في ظروف متشابهة أو ظروف مختلفة، ولذا فالخوف انفعال طبيعي مرتبط بالفطرة، وثمّة مخاوف تكون وهميّة لدى البعض إذا تكرّرت بانتظام في غياب مخاطر حقّيقية، وتكون هذه المخاوف ما بعد الفطرة في بعض الحالات، وهي مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بتجربة مخيفة نتج عنها رعب؛ فالذي يخاف من حيوان معيّن أو من أكثر من حيوان قد يكون هذا الخوف تأصّل في نفسه بعد أن تعرّض أو عرف وراء من تعرّض لهجوم من حيوان معين، وهكذا لو وقع طفل في حفرة؛ فهو يخاف أيّ حفرة مشابهة، ممّا يجعله أكثر حذرا في

مستقبله من أجلّ السلامة، وهذا النوع من الخوف هو خوف زائد على الفطرة، لأنّه ناتج عن تجربة سبّبت أذى نفسيا كبيرا أو ألما جسديّا، جعلت صاحب هذه التجربة يخاف الأشياء التي مرّت به وسبّبت له ألما أو أذى نفسيّا أو جسديّا؛ فأصبح هذا الخوف نوعا من المرض الذي يجب علاجه، أمّا الخوف الطبيعي فهو خوف فطري لدى جميع البشر، وهو صفة من صفاتهم اللازمة، والذي لا يخاف يكون مريضا وجب علاجه أيضا.

الخوف هو صفة للخائف مثله مثل أيّ صفات أخرى يمكن أن يتّصف بها الإنسان، وطالما أنّ الخائف موصوف بما يمكن أن يتّصف من صفات ومن ضمنها الخوف؛ فإنّ الصفة التي اتّصف بها ـ أيّة صفة ـ إمّا أن تكون صفة عارضة تزول بزوال مسببها، كاصفرار الوجه الذي يسببه المرض مثلا، أو أنّها صفة لازمة خلقية كلّون البشرة والشعر والأعين، أو فطرية غريزية من الصفات الإنسانية التي تنقسم إلى مادية وإلى نفسيّة روحية، فالمادية كالشعور بالجوع والعطش التي تزول بزوال مسبباتها بعد الأكلّ والشرب وإن تكرّرت بانتهاء مشبعاتها ويكون المنبّه عليها داخلي يشغل حيزا ماديا معيّنا، وأمّا النفسيّة الروحية التي لا تنفكّ عن الجسد ولا يعرف موطنها فيه، كالشجاعة والجبن، والكرم والبخل، والخوف والأمن، تسكن في الحيّز الإنساني فطرة غريزيّة لا يعرف موطنها، وتفترق عن الصفات المادية بأنّها تستثار وتهدأ بمثيرات خارجية وهي ملازمة في الحالين:

ـ حالة الاستثارة.

ـ حالة الهدوء.

فالكرم صفة مثل صفة الخوف، ذلك أنّ الذي يتّصف بها يكون كريما، ولا تظهر فيه صفة الكرم إلاّ بمثيرين اثنين:

الأوّل: من يقوم الكريم بإكرامه.

. الثاني: ما يقدّمه لمن يكرمه.

فإذا تلاشى كلّا هذين المثيرين لهذه الصفة أو أحدهما، فإنّ صفة الكرم تهدأ في نفسه ولا تتلاشى، وذلك إمّا لأنّه لم يجد من يكرمه، أو أنّه لا يجد شيئا يُكرم به، وبهذا تبقى الصفة قائمة في النفس لحين استحضار مثيراتها ودوافعها من الأسباب.

والخوف أقرب ما يكون إلى صفة الكرم؛ فهو ليس من الصفات المكتسبة، إذ لو كان الخوف مكتسبا لَعمِلنا جاهدين على إيجاد نقائض أسبابها بطريقة الكسب، وتخلّصنا منه إلى النهاية.

وعليه: فالخوف صفة لازمة للخائف ولغيره، وذلك أنّ الخائف تكون صفة الخوف لديه لازمة ظاهرة، وأمّا غير الخائف؛ فإنّ صفة الخوف لديه لازمة باطنة، وهذا يعني أنّ الخوف جزء من تكوين الإنسان النفسي كونه فطريا غريزيا، ومعلوم أنّ الصفات الفطرية التي ترتبط بالجانب النفسي لها علاقة مباشرة في حياة الإنسان؛ فإن أحسن الإنسان استخدامها، أدّت وظيفتها الإيجابية التي وجدت من أجلّها، وإن كان غير ذلك؛ فلابدّ أن تكون النتائج عكسيّة.

ولما كان الخوف صفة فطرية لازمة؛ فلابدّ أن تتناسب هذه الصفة مع مراحل الإنسان الحياتية وتنمو مع نموّه بما يناسب التحذير من المخاطر التي تحدق به في كلّ مرحلة من مراحل حياته، إذ لولا الخوف الفطري لهلك كثير من النّاس وخاصة الأطفال الذين لم يصلوا إلى مرحلة التمييز العقلي، وهنا تظهر صفة الخوف نعمة ممّا أنعم الله تعالى بها على

خلقه، ولذلك يكون الخوف عندهم نوعا من الحواجز التي تردعهم عن المخاطر في تلافيهم إيّاها، وكلّما كبر الإنسان كبر خوفه بنموّي عقله خوفا تحسبيّا، لا بمعنى الجبن والتخاذل، وإنّما بمعنى تقدير المخاطر التي تؤدّي إلى ضرر، ومعرفة المكاسب التي تؤدّي إلى النفع.

تعرّض موسى عليه السّلام إلى مواقف ومشاهد وابتلاءات ولكنّه قد أخذ منها العبر والدروس؛ وخير الدروس التي عاشها مع العبد الصّالح، ففيها عرض لأحداث مختلفة أخذت كلّ واحدة منها شكلّا معرفيا جديدا في حياة موسى صلّى الله عليه وسلّم، فمن البداية ارتسمت عليه المعرفة المترامية الأطراف التي لم تجد لها من يحدها سوى العبد الصّالح، الذي أراد في الأحداث الثلاثة أن ينهي لقاءه مع موسى صلّى الله عليه وسلّم، إذ يقول تعالى: {قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا}[22] ثم ينهي هذه الفتنة بعد استيضاح ما بدر منه من أفعال بقوله تعالى: {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}[23]. إنّ اعتراف موسى صلّى الله عليه وسلّم من علم هذا العبد الصّالح جعله يخرج من الدائرة التي كان يعتقد فيها أنه على علم واسع، ودخل في الدائرة التي يتمحور فيها العلم بأنه ناقص، فهو كالقطرة التي يأخذها الطائر من البحر الواسع.

عليه: نرى في الفتن التي تعرض لها نبي الله موسى صلّى الله عليه وسلّم دروسا وعبرا، هذه الدروس والعبر لم تكن مقيدة بموسى صلّى الله

[22] - الكهف 70.

[23] - الكهف 82.

عليه وسلّم بل هي مفتوحة ضمن نسق الهي بيّن فيه أن موسى صلّى الله عليه وسلّم وغيره من الأنبياء يكون بهم التأسّي، ففي النبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم يقول الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا}24 وفي النبي إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم، يقول الله تعالى{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}25، هذا هو المنهج الإلهي المختار للجماعة المسلمة المختارة، التي ناط بها الله تحقّيق منهجه الذي يريده للحياة الإنسانية، في صورة واقعية عملية، كما يستقر في الأرض نظاما ذا معالم وحدود وشخصية مميزة؛ تبلغ إليه البشرية أحيانا، وتقصر عنه أحيانا، ولكنها تبقى معلقة دائما بمحاولة بلوغه؛ وتبقى أمامها صورة واقعية منه، تحقّقت يوما في هذه الأرض.

وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقوم في يقظة دائمة وإلهام بصير، بالتقاط الأحداث والوقائع والمناسبات في كلّ فرصة،

[24] – الأحزاب 21، 22.

[25] – الممتحنة 4 – 6.

واستخدامها بحكمة بالغة في بناء هذه النفوس. والوحي والإلهام يؤيدانه ويسددانه صلّى الله عليه وسلّم حتى تصنع تلك الجماعة المختارة على عين الله. بتوفيق الله. على يدي رسول الله.

هذه الآيات الكريمة حلقة في سلسلة ذلك الإعداد الطويل، تستهدف مع غيرها ممّا جاء في مثل موضوعها إقامة عالم رباني خالص في ضمير المسلم[26].

ولقد عظّم الله موسى بالتكليم، الذي يتفصّل تبيانا إلى:

أ ـ مكلّم، وهو الله جلّ جلاله الذي كلّم الملائكة والجنّ ثم كلّم آدم من بعدهم وكلّامه جلّ جلاله لآدم هو كلّام نوع حتى وإن كان آدم مفردة فهو أصل النوع البشري، وهكذا الملائكة والجن وإن كانا أصل لنوعيهما المختلفين. وهكذا كلّم موسى تكلّيما {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكلّيمًا}[27].

ب ـ مكلّم، المكلّم من عند الله هو المرسل له الكلّام، قال تعالى: {يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآَهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ}[28] وقال تعالى: {قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}[29].

[26] – في ظلال القرآن، ج 7 ص 174

[27] – النساء 164.

[28] – النمل 9، 10.

[29] –طه 68، 69.

ج ـ رسالة أو نبأ، والذي نعنيه بالرسالة أو النبأ هو الذي لا يكون إلا من عند الله تعالى ولا يكون إلا للأنبياء والمرسلين، {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِّمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ}30، ولذلك فالكتب والفرقان والصحف والألواح والزبور والتوراة والإنجيل والقرآن كلّها رسالات من الله تعالى إلى المصطفين من الأنبياء والرّسُل صلوات الله وسلامه عليهم.

وعليه: فالتكلّيم في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع يمكن أن يكون وفقا لما يأتي:

أ ـ تكلّيم الله لمن أراد من الأنبياء والرّسُل، لقد اصطفى آدم صلّى الله عليه وسلّم على جميع الأنواع ليكون خليفة في الأرض مصلحا ومعمرا فيها لا سافك دماء، قال تعالى: وقال تعالى: {قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}31.

وكلّم إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم بقوله تعالى: {قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كلّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}32.

وكلّم موسى تكلّيما مصداقا لقوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ ربّه}33.

---

[30] -الصافات 171.

[31] -البقرة 33 ـ 35.

[32] - البقرة 260.

ب . تكلّيم بعض من الأنبياء والرّسُل لله تعالى، كما هو حال إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كلّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}34، وتكلّيم موسى لربّه في قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ ربّه قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجلّى ربّه لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أوّل الْمُؤْمِنِينَ}35، وقال تعالى: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى}36.

ج . تكلّيم العباد لخالقهم، توجُّه العباد بالدعاء لربّهم تعالى الذي يثقون ويؤمنون يقينا أنه السميع المجيب ألا يكون هذا الأمر كلّاما مباشرا مع الله تعالى؟ مع أنّه لن يكلّمهم ولكنه السميع المجيب مصداقا لقوله تعالى {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}37 وهنا أتساءل: ألا يكون الدعاء كلّاما؟ وإذا كان كذلك، ألا يكون الدعاء المباشر كلّاما

[33]- الأعراف 143.

[34]- البقرة 260.

[35]- الأعراف 143.

[36]- طه 23 . 37.

[37] -البقرة 186.

مباشر مع الله تعالى؟، وبما أنّه السميع، ألا يوجب ذلك علينا مناجاته ودعائه وتكلّيمه بالطاعة والتضرُّع إليه؟، ولأنه مجيب أي متصل الإجابة ألا تكون إجابته على الكلّام التضرعي أو الدعائي أو المطلبي عند كلّ حاجة أو ضيق لأجلّ فك رقبة أو كربة من كرب الدنيا ومآسيها؟

دخل النبي موسى صلّى الله عليه وسلّم مرحلة جديدة، بيّنها القرآن الكريم من خلال مفردتين اتسمتا بالبناء الأوّلي لشخصية النبي موسى صلّى الله عليه وسلّم ،إذ يقول تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}38 تحدد التقديم والتأخير في هذين المفردتين (الحكم والعلم) وذلك أن النبوّة بدأت خيوطها بالظهور والتبلور في شخصية موسى صلّى الله عليه وسلّم، فهنا تتضح الصورة التي يؤسس على أساسها التكلّيف المراد منه، وبما أن الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم بشر، فالتكلّيف يأتي عليهم وفق القاعدة البشرية ولا يتجاوزها إلا ضمن استثناءات أريد لها أن تتحقّق حتى تتفق مع المعجزة المصاحبة لهم، وذلك كحال آدم وعيسى ويحي صلّى الله عليهم وسلّم.

إنّ المرحلة التي ذكرها القرآن الكريم بقوله: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى) أُختلف فيها فلم يتحدد عمر بعينه "اختلف في زمان بلوغ الأشد والاستواء فأخرج ابن أبي الدنيا من طريق الكلّبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال الأشد ما بين الثماني عشرة إلى الثلاثين والاستواء ما بين الثلاثين إلى الأربعين فإذا زاد على الأربعين أخذ في النقصان، وأخرج عبد بن حميد. وابن المنذر. وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال الأشد ثلاث وثلاثون سنة والاستواء أربعون سنة وهي رواية عن ابن عباس أيضا وروي نحوه عن قتادة وقال الزجاج مرة بلوغ الأشد من نحو سبع عشرة سنة إلى الأربعين وأخرى هو ما بين الثلاثين إلى

---

[38] - القصص 14.

الأربعين واختاره بعضهم هنا وعلل بأنّ ذلك لموافقته لقوله تعالى: {حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً}39 لأنّه يشعر بأنّه منته إلى الأربعين وهي سن الوقوف فينبغي أن يكون مبدؤه مبدأه ولا يخلو عن شيء والحقّ أن بلوغ الأشد في الأصل هو الانتهاء إلى حد القوّة، وذلك وقت انتهاء النمو وغايته، وهذا ممّا يختلف باختلاف الأقاليم والأمصار والأحوال، ولذا وقع له تفاسير في كتب اللغة والتفسير، ولعل الأوّلى على ما قيل: أن يقال إنّ بلوغ الأشد عبارة عن بلوغ القدر الذي يتقوى فيه بدنه وقواه الجسمانية وينتهي فيه نموه المعتد به والاستواء اعتدال عقله وكماله ولا ينبغي تعيين وقت لذلك في حقّ موسى صلّى الله عليه وسلّم إلا بخبر يعول عليه لما سمعت من أنّ ذاك ممّا يختلف باختلاف الأقاليم والأمصار والأحوال نعم اشتهر أن ذلك في الأغلب يكون في سن أربعين"40. إنّ هذه الآراء المختلفة تمثل لنا تداعيات حاضنة لقوالب جاهزة تملأ حين تكسب الدرجة القطعية فيما يوافق التنظير الذي تنتمي إليه، فالثلاثون والأربعون وغيرها تتحقّق فيها النبوّة ضمن إرادة الله تعالى المطلقة فيما يريد ويختار.

ابتدأت حياة موسى الجديدة بواقعة أشبه بالحلم الذي يتبدد عند ساعات النهار الأوّلى، إذ يقول تعالى: {وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ}41. دخل موسى صلّى الله عليه وسلّم المدينة حين خف وجود النّاس، فوجد رجلّان يقتتلان واحد من بني إسرائيل والأخر من القبط، وموسى صلّى

[39] – الأحقّاف 15

[40] – تفسير الألوسي، ج 15، ص 89.

[41] – القصص 15.

الله عليه وسلّم يشاهد هذا الموقف، فلا يقف موقف المتفرج؛ إنما يتصرف وفق الاستصراخ الذي يحمل دلالات طلب المعونة العاجلّة، والاستغاثة المتحقّقة هنا جاءت وفق استدعاء للصورة التي كان عليها بنو إسرائيل بعد إرضاعهم لموسى صلّى الله عليه وسلّم "وذلك أنّ موسى صلّى الله عليه وسلّم كانت له بديار مصر صولة بسبب نسبته إلى تبني فرعون له وتربيته في بيته وكانت بنو إسرائيل قد عزوا وصارت لهم وجاهة وارتفعت رءوسهم بسبب أنهم أرضعوه وهم أخواله – أي من الرضاعة – فلما استغاث ذلك الإسرائيلي موسى صلّى الله عليه وسلّم على ذلك القبطي أقبل إليه موسى (فوكزه) قال مجاهد: أي طعنه بجمع كفه وقال قتادة: بعصا كانت معه (فقضى عليه) أي فمات منها، وقد كان ذلك القبطي كافرا مشركا بالله العظيم ولم يرد موسى قتله بالكلّية وإنما أراد زجره وردعه"42، هذا الموقف وان حمل دلالات النصرة، إلا أنّ موسى صلّى الله عليه وسلّم قال {قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ}. فهنا تتكشف شخصية موسى صلّى الله عليه وسلّم التواقة نحو السلم، فالقتل ليس من سمات الأنبياء، وحتى ليس من سمات عباد الله الصّالحين إلا بالحقّ، لذلك لجأ موسى صلّى الله عليه وسلّم إلى طلب المغفرة رغم أنّه لم يقصد قتله، إذ يقول تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحيم قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ}43.

إنّ حادثة مقتل العدو ألقت بظلالها على نفسية موسى صلّى الله عليه وسلّم، فالسمة البشرية ظهرت عليه، يقول تعالى: {فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ

[42] – القصص الأنبياء، ج 2، ص 13.
[43] – القصص 17،16.

مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ}44 ظهرت حالته السيكولوجية ضمن حالة الترقب التي أمسكت به، ذلك أن البحث عن مخرج يتطلب قرارا فوريا، إلا أنّ هذا القرار لم يتحقّق فقد اصطدم بدهشة، فالحلم الذي تبدد عاد من جديد ليعيد الفزع والهلع والاضطراب إلى نفسيته {فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ}45.

هذه الحادثة أُختلف فيها، إذ حمل الاختلاف فيه وجهان "إنّما قال هذا الكلّام الإسرائيلي الذي اطلع على ما صنع موسى بالأمس وكأنه لما رأى موسى مقبلا إلى القبطي اعتقد أنه جاء إليه لما عنفه قبل ذلك بقوله: (إنك لغوي مبين) فقال ما قال لموسى وأظهر الأمر الذي كان وقع بالأمس فذهب القبطي فاستعدي فرعون على موسى وهذا الذي لم يذكر كثير من النّاس سواه ويحتمل أنّ قائل هذه هو القبطي وأنّه لما رآه مقبلا إليه خافه ورأى من سجيته انتصارا جديدا للإسرائيلي فقال ما قال من باب الظن والفراسة: إنّ هذا لعله قاتل ذاك القتيل بالأمس أو لعله فهم من كلّام الإسرائيلي حين استصرخه عليه ما دله على هذا والله أعلم"46 والخلاف المتحقّق في هذا النص لا يفضي إلى خلاف جذري في وصول موسى إلى درجة الخوف والحذر الشديدين، فلأمور ازدادت سوء، وأصبحت صورة موسى تبتعد عما كانت عليه في حضرة فرعون، فلابدّ من الفرار والخروج من أرض مصر.

إنّ سمة الإطلاق لم تتحقّق من آدم صلّى الله عليه وسلّم إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، فالخير والشر متحقّقان في الأرض، ويتواجدان بأشكال وصور مختلفة، فالصورة الضبابية التي غطى بها اسم

[44] – القصص 18.

[45] القصص 18.

[46] – قصص القرآن، ج 2، ص 15.

فرعون عهده حملت على القول أنّ الخير لم يظهر على السطح إنما هو قابع في ردهات مظلمة يأبى أن يظهر، أو قد لا يجد له شكلّ يظهر به؛ لانّ كلّ الأشكال لا تستوعبه، ولا يدخل تحت أي من مسمياتها، هذه الصورة خرج منها ما هو منقذ بالدلالة الإنسانية، أراد أن ينقذ المنقذ المنتظر الذي طال انتظاره، إذ يقول تعالى: {وَجَاءَ رَجلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}47 إنّ الخطر الذي ينتظر موسى صلّى الله عليه وسلّم يوشك أن يتداعى عليه، ذلك أنّ المكان الذي فيه موسى ليس بمنأى عن فرعون وجنوده ولهذا اضطر إلى البحث عن مكان جديد يجد فيه ضالته التي ينشدها، وفي هذا الموقف يعاد التاريخ مرة أخرى مع سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم حين خرج من مكة إلى المدينة مهاجرا بدينه وليؤسس دولة الإسلام فيها، هذا الأمر غير مقتصر على الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم فقط، بل هو دعوة من الله تعالى لكلّ المسلمين، إذ يقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}48.

ألهم الله موسى عليه الصّلاة والسّلام أن يقصد بلاد مدين إذ يجد فيها من يبصره بآداب النبوّة ولم يكن موسى يعلم إلى أين يتوجه ولا من سيجد في وجهته، يقول تعالى: {وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ}49.

---

[47] – القصص 20، 21.

[48] – النساء 97.

[49] – القصص 22.

وصل موسى صلّى الله عليه وسلّم أرض مدين وفي جعبته أفكار متلاطمة يحاول نسيانها أو تجاوزها، فإذا به أمام أمة من النّاس يسقون، يقول تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النّاس يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}[50] إن سؤال موسى لهاتين المرأتين ليس سؤلا عاديا، إنما هو سؤال المصلح الذي لا يتوانى عن تغيير أي شيء أمامه مهما كان حجمه أو تأثيره، والعمد إلى الحديث مع هاتين المرأتين يبرر أنّ الإصلاح لا يتقيد ولا يتحدد بأي شيء، فنوع الجنس ليس عائقا.

وفي القرآن الكريم فيه قضايا متنوعة يعكف عليها الفكر فيقرأها قراءة جديدة يحاول من خلالها الوصول إلى نتائج أو حتى إلى حقّائق جديدة لم تمرّ عليها قوافل أهل العلم من قبل، وصدق رسول الله محمّد صلّى الله عليه وسلّم إذ قال: "وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الَّذِى لاَ تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ وَلاَ تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ وَلاَ يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلاَ يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ"[51].

إنّ حياة موسى صلّى الله عليه وسلّم كانت حافلة بالأحداث المختلفة من بداية إلقاء أمّه له في اليم إلى أن التحقّ بالرفيق الأعلى، فقد آثرنا أن يكون عرضنا لحياته وللقضايا الفكرية التي تحملها دعوته في كثير من الأحيان بطريقة السرد التحليلي، فتنقلاته والأماكن المختلفة التي وقف عليها منحتنا أو رغبتنا بإتباع السرد الروائي، ذلك أنّ الإثارة

---

[50] – القصص 23 – 24.

[51] – سنن الترمذي ج 11 ص 93

في الأحداث تثير المتلقي في تتبع الأحداث المختلفة، فهذه الطريقة كما نعتقد هي من الطرق المهمّة في الوصول إلى عقل وقلب المتلقي.

إنّ الشخصيات المختلفة التي رافقت موسى صلّى الله عليه وسلّم في دعوته كانت لها بصمة واضحة في حياته، فقد استعرضناها وحاولنا إعطاءها الدّور المناسب في الظهور والاختفاء، حتى أنّ المسميات كانت بما ورد في القرآن الكريم فلم نسمّ الشيخ الذي قابله في مدين بشعيب، ولا العبد الصّالح بالخضر، ذلك أنّ منهجنا يتبع النصّ القرآني ويستند عليه، فمؤلفنا ليس مقصورا على المسلمين، ففيه من الأفكار ما ترتبط ارتباطا مباشرا بهم، وهذا حتم علينا أن يكون مصدرنا الأساس هو القرآن الكريم ثم السُنّة الكريمة.

اتبع منهج المؤلّف منهجا يتلاءم مع حياة موسى صلّى الله عليه وسلّم، فكان التقسيم المتبع يتطابق مع بداية حياته وتحركاته المختلفة قبل الدّعوة وبعدها، كما رافق هذا العرض استبطان الحالة السيكولوجية لكلّ شخصية محاولين ما استطعنا تحليل كلّ كبيرة أو صغيرة فيها، وهذا ما تحقّق صداه في كثير من المواقف التي وقفنا إزاءها؛ فالشخصيات تنوّعت في حياته صلّى الله عليه وسلّم، فالأم والأخت والأخ والزّوجة والشّيخ والعبد الصّالح مثلت الجانب الإيجابي من دعوته صلّى الله عليه وسلّم، أمّا فرعون وهامان والسامري وقارون فقد مثلت الجانب السّلبي من الدّعوة، هذه الإيجابية والسّلبية تفاعلت في مختلف الأحداث وأنتجت دروسا وعبرا شكلّت فيما بعد منعطفا كبير في سياق الفكر الديني.

ختاما نأمل أن يكون هذا الكتاب عنوانا جديدا من عناوين الدّعوة إلى الله تعالى في زمن اختلطت فيه الأمور وتشظت؛ فلم يعرف لها قرار إلا بالإيمان بالله تعالى والرّكون إلى دينه الإسلام، إذ يقول تعالى: {قُلْ

آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[52] .

اللهم أرنا الحقّ حقّا وارزقنا إتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه.

والحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على سيّد الأوّلين والآخرين نبينا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم.

أ د عقيل حسين عقيل

القاهرة 2017

[52] – آل عمران 84 – 85

موسى

من وحي القرآن

ولد موسى صلّى الله عليه وسلّم في زمن فرعون وطغيانه، وتربّى في قصره حيث كانت المشيئة، وأُرسل إليه وملئه نبيا ورسولا، كانت أمّه الكريمة مثله آية خائفة عليه من فرعون وظلمه فألقته في اليمّ وقالت لأخته قصّيه فبصرت به عن جنب فالتقطه آل فرعون وقالت امرأته قرّة عين لي، وكان وعد الله عودته إلى أمّه حقّ قرّة عين سالما بعد أن حرَّم الله عليه المراضع.

لقد اصطنعه الله لنفسه فكان خير خليفة كغيره من الأنبياء في الأرض يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويسبّح بحمد ربّه ويتّقيه في القول والفعل والعمل، فعندما بلغ أشدّه واستوى آتاه الله حكما وعلما، وبحكمه وعلمه الذي آتاه الله إياه كان مناصرا للمظلوم وحاقا للحقّ، ولذلك ناصر الذي من شيعته أي من جماعته الذين ينتمون إلى موسى حاقّ الحقّ وزاهق الباطل، إنّه من المصطفين الأخيار الذين لا يمكن لهم أن يناصروا مشركا أو كافرا، بل يناصرون الحقّ وأصحابه، وإلا هل يعقل أن يناصر رسول أو نبي ظالما أو طاغيا؟

أقول:

الناصر المطلق هو الله، وهو لا يناصر إلّا حقّا وعدلا، ورسل الله هم الآخرون لا يمكن أن يناصروا ظالما، ولهذا فمناصرة موسى لمن هو في شيعته هي مناصرة معرفة، قال تعالى: {وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى

عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحيم قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ}53. فالموقف الذي اتخذه موسى أو وجد نفسه فيه هو الموقف الذي لا يتخذ إلّا من عدوٍّ. ومع ذلك هناك أراء مختلفة في هذا الأمر وسيتم تفصيله في هذا المؤلّف. أمّا الذي يهمنا هنا هو أن المناصرة ينبغي أن تكون على حقّ، ذلك لأنّ الله الناصر لا ينصر عباده إلّا على الحقّ.

وفعل النصر أو أفعال المناصرة بشكل عام لا تكون إلّا بامتلاك القوّة والقدرة، ولا تكون على المستوى البشري إلّا على يدّ من يمتلك الإرادة مع الاستطاعة من حيث:

أ . التهيؤ: الذي هو تطلُّع ورغبة وتأهب لتلبية النداء متى ما صدر من مصدره الحقّ، ومن لم يكن متهيئا يكون متثاقل إلى الأرض وهو راضيا بالحياة الدنيا ولا يكون من المتطلّعين إلى الحياة العليا التي فيها فوز ونصر كبير، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}54.

---

[53] القصص 15 . 17.

[54] التوبة 38 . 40.

ب ـ الاستعداد: إعداد العدّة التي تُمكِّن من دخول الميدان دون خسائر أو بأقل ما يمكن من الخسائر، قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}55.

ج ـ الفعل: وهو دخول ميادين المواجهة وميادين العمل بعزيمة وقوّة مع تيقُّن بأنّ النصر أو الفوز حليفا لمن هو على حقّ حتى وإن طال الزمان.

ومن ثمّ فالنصر يتحقّق بتوفر أمور منها:

ـ الإيمان بأنّ النصر حقّ وليس للمرء بدّا إلا بلوغه طاعة في سبيل الله عزّ وجلّ، قال تعالى: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الحقّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحقّ الحقّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}56.

ـ انتزاع الخوف من النفس انتزاعا، قال تعالى: {بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ

55 الأنفال 60.

56 الأنفال 7 ـ 10.

إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ}57.

. قبول التضحية بالأموال والأنفس، قال تعالى: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}58، ولذلك الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم هم أولياء بعضهم بعضا والذين آمنوا ولم يهاجروا لا ولاية لهم حتى يهاجروا مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حقًا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}59.

. إظهار القوّة دون تردّد ولا رأفة على المعتدين إلا إذا جنحوا للسلم، قال تعالى: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ

[57] آل عمران 125 . 127.

[58] النساء 95، 96.

[59] الأنفال 72 . 75.

وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}60 وقال تعالى: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}61.

. القدرة على المغالبة وهي لا تكون إلا بغرس الثّقة في النفس لتطمئن بما هي عليه من قوّة إيمانية وغير قابلة لأن تهتز.

. الصّبر على الألم ولا استسلام لضغوطه المؤلمة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}62.

ولهذا فالمؤمن يعلم يقينا أنّ النّصر سيكون حليفه في كل مُدخل أو مُخرج بما أنَّ النّاصر جلّ جلاله مناصرا له ولن يخذله، ولن يغالبه أحدٍ بما أنَّه بمناصرته مناصر، وفي مقابل ذلك من يخذله النّاصر تعالى فلن يجد له ناصرا، مصداقا لقوله تعالى: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}63. أي لو يخذلكم النّاصر بخذلانكم له فمن بإمكانه أن ينصركم؟

هذا الأمر أمر تسليم بالمطلق حيث من لا ينصره النّاصر عزّ وجل فلا يمكن له أن ينتصر. ولذلك قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}64، أي لو لم تنصروه لن ينصركم، بمعنى أن خذلتموه بعدم الطاعة وارتكاب الفواحش وعدم تجنب ما نهى عنه وتكفرون به أو تشركون فلن يكون مناصرا لكم، ولذا

---

[60] التوبة 14، 15.

[61] الأنفال 61.

[62] آل عمران 200.

[63] آل عمران 160.

[64] محمد 7.

عندما تشتدّ عليكم دوائر السّوء لن تجدوا مناصرا لكم غيره؛ فناصروه ينصركم.

الحياة جميعها مترتبة على سببٍ ومسبِّبٍ ومسبَّب وهو المترتّب على وجود الأسباب وفاعليها، (المسبِّبين لها) ولأنّ الحياة هكذا، فهكذا يكون النصر فهو لا يمكن أن يكون إلا وان تكون من ورائه أسباب وأن يكون من وراء الأسباب مسبِّبٍ لها ليكون النصر هو النتيجة وهو (المسبَّب) مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}65، وإلّا هل هناك من يظنّ أن يتحقّق النصر ولا أسباب ولا مسبِّبٍ للأسباب من ورائه؟

ولهذا فلا نصر إلّا من عند الله، (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ).

ولأنّ الناصر تعالى ينصر بنصره من يشاء من عباده فكان نصره سببا لنُصرةِ من شاء، ولهذا كان نصره تعزيزا ورحمة على الذين شاء الله أن ينصرهم مصداقا لقوله تعالى: {وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرّحيم}66 وقال تعالى: {رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}67.

ولأنّ النّصر من عند الله؛ انتصر من ناصره موسى على عدوه؛ أي لو لم يشاء الله نصره؛ فهل له أن ينتصر أو يهزم عدوه؟

وهكذا كان أمر موسى صلّى الله عليه وسلّم مع العبد الصّالح فما كان يراه موسى ليس كما كان يراه العبد الصّالح (وهو الحقّ).

---

65 آل عمران 126.

66 الروم 4، 5.

67 البقرة 286.

موسى صلّى الله عليه وسلّم هو صاحب العصا المعجزة واليد البيضاء المعجزة تسخيرا من الله ومناصرة له على السّحرة الذين أكثروا الفساد في البلاد بين العباد، بعثه الله ليبطل السحر ويخلِّص النّاس من المشعوذين والكفرة والمشركين ويبشّر بالحقّ ويعمل به وعليه، فنعم الرّسول الكريم، قال تعالى: {قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النّاس وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الحقّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ وَأُلْقِيَ السّحرة سَاجِدِينَ}68.

العصا المعجزة هي التي ضرب بها الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا وضرب بها البحر فانفلق، {فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كلّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ}69.

خرج من المدينة مهاجرا يترقب خائفا من القوم الظالمين والطاغين فأنجاه الله بعد أن جاءه رجلٌ من الناصحين يبلغه بتآمر الملأ عليه بالقتل، توجّه تلقاء مدين فهداه الله سواء السبيل حتى بلغ بئر حيث يرد الرعاء فوجد أمّة من النّاس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان فسقى لهما بعد أن صدر الرعاء، ثم استراح بالظل وهو يدعو السميع العليم ليشبع حاجته فكانت الإجابة مع الدعاء حيث جاءته إحدى ألامرأتين وهي تمشي على استحياء {قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ

---

68 – الأعراف 116 . 120.

69 – الشعراء 63.

أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}70.

بعد أن قضى موسى الأجلّ بالتمام ومعه أهله في الطريق عائدون إلى مصر شاهد نارا فتوجه تجاهها وأهله ماكثون ليأتيهم بجذوة من النّار للتدفئة ولما يترتب عليها، فلما أتاها ناداه المنادي {أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}71 وبعث في عصا موسى أسرار الآية فألمَّ الخوف بحال موسى صلّى الله عليه وسلّم ولكن الله طمأنه فكان من الآمنين، ثم أظهر له آية أخرى وهي يده البيضاء من غير سوء، وجاءه التكلّيف المباشر، {اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}72، فتذكّر أنّه قد قتل من قوم فرعون نفسا فخاف ومع ذلك لقد استجاب مع طلبه أن يبعث معه أخاه هارون الذي له علاقات اجتماعية واسعة في مصر وهذه المكانة تجعله أكثر فصاحة واستئناسا بين النّاس من موسى صلّى الله عليه وسلّم فشد الله عضده به وأتاه الكتاب والفرقان ليهدي للتي هي أحسن.

موسى هو كلّيم الله وصاحب الألواح نبيا مرسلا لبني إسرائيل والكتاب الذي جاء به نورا وهدًى للناس، ومع ذلك فقد ابتلاه ربّه بفرعون وقومه الذين تخلوا عنه عند الحاجة وقالوا له: {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}73، وبالرغم من ذلك نصره الله وأخاه

---

70 – القصص 25 . 28.

71 – القصص 30.

72 – القصص 32.

73– المائدة 24.

هارون ونجاهما وقومهما من الكرب العظيم فكانوا هم الغالبين سلام على موسى وهارون.

إنّه صاحب الآيات التسع المحصية في القرآن الكريم، وهو بالغ مجمع البحرين والملتقى بالعبد الصّالح الذي أظهره الله على علم من علمه الواسع، ولذلك تعلَّم موسى دروسا ممّن علَّمه الله من علمه الواسع الذي لم يَعلَمه موسى لو لم يُعلَم به؛ فهل أتاك حديث موسى؟

من

صفات النبي موسى

1 . مبتلى:

الابتلاء لا يكون إلّا مع الأنبياء والمرسلين والصّالحين وأهل الخير الكرام ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، ولأنّ موسى رسولا ونبيا ومن الصّالحين فقد أُبتلي وقومه بفرعون الطاغية فصبر وصمد وقاوم وانتصر، قال تعالى: {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ}[74].

كذلك موسى صلّى الله عليه وسلّم قد أبتليَّ بقومه الذين تخلوا عند الحاجة إلى دخولهم بيت المقدس وهم يستهزئون {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}[75]، وعليه فالمبتلين هم الذين اخصهم الله بمزيد من التقوى ومخافته وأتباع أمره في الكبيرة والصغيرة، ولهذا تكون عاقبة الابتلاء فوز ورحمة للمتقين.

2 . وجيه:

مكانة ورفعة عند الله، وكذلك بين النّاس، مكانة لا تكون إلا بأمر عظيم رسالةٍ أو نبوّةٍ أو فوزٍ بمكارم الأخلاق، فالوجيه هو من ينال

---

[74] - البقرة 49.

[75] - المائدة 24 . 26.

المنزلة الرفيعة التي تستوجب التقدير والاعتبار والاعتراف، ولذلك كان موسى صلّى الله عليه وسلّم وجيها مصداقا لقوله تعالى: {وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا}76، ومن يكون عند خالق العباد وجيها ليس في حاجة لوجاهة من العباد، ومع ذلك ينال المنزلة بينهم بقوله الصادق وعمله الصادق حتى وإن كفر البعض أو أشرك وضل ولذلك فالوجاهة علو في المكانة والمقام على مستوى التمسك بالفضائل التي من عند الله أو القيم التي اختارها النّاس من نواميس الحياة الفاضلة.

3 . مُتحدٍّ:

اتخاذ مواقف أو مجموعة من المواقف عند كلّ تيقُّن ولا يكون إلا بأربعة أمور:

أ . امتلاك الحجّة، {وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}77.

ب . قبول المحاجّة، {فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النّاس ضُحًى}78.

ج . إظهار الحجّة والاستعراض بها، {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الحقّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ وَأُلْقِيَ السّحرة سَاجِدِينَ}79

[76] - الأحزاب 69.

[77] - البقرة 53.

[78] - طه 58، 59.

[79]- الأعراف 117 . 120.

د . شخصية إن تقل تفعل، {قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجلّ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النّار لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ}80.

وعليه: فالتحدي لا يكون إلا على الحقّ بالحقّ حيث لا ظالم ولا مظلوم، {فَوَقَعَ الحقّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ وَأُلْقِيَ السّحرة سَاجِدِينَ}81 ولذلك فالتحدي اختياري لا إكراه فيه ومن يُغلب فعليه بقبول النتيجة مع فائق التقدير إن كان من الصادقين، وإن كان من غيرهم فلعنة الله على الكاذبين.

4 . مُتَّبع:

الإتباع هداية لا تكون من رسولٍ إلا بالحقّ ولأجلّ الحقّ، والمتّبع هو المتبيّن للرشد والسالك له بعد كلّ تبينٍ؛ فهو إن تبيَّن ليس له بدٌّ إلا أن ينتهج السبيل كي لا يكون عاصيا لِما يجب أن يُتَّبع.

وعليه: فالإتباع بالنسبة لموسى هو طاعة الحقّ من بعد التبيُّن، ولذا فالإتباع لا يكون إلا استرشاد لِما هو أفضل.

ولهذا؛ فقد اتصف موسى صلّى الله عليه وسلّم بصفة من صفات البشر فهم لم يخلقوا على الكمال ولا غيرهم خُلق عليه فالكمال لله وحده، ومع أنّ القلق كان من صفات موسى صلّى الله عليه وسلّم إلا أنه كان حريصا على أن يتعلم الصبر (أي إنّه من أجلّ أن يكون صبورا) ومع ذلك كان أمر تعلم الصبر صعبا، قال تعالى: {قَالَ لَهُ

[80] – القصص 28، 29.

[81]– الأعراف 118 . 120.

مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}[82].

قلق موسى صلّى الله عليه وسلّم وفقا لدائرة الممكن المتوقّع ولما لديه من معارف كان مؤسسا من وجهة نظره على الحرص، ولم يكن قلق رغبة في مصلحة أو منفعة أو ما يشبع حاجة.

5 . النسيان:

هو الآخر صفة من صفات البشر فهم لم يؤتوا من العلم إلا قليل ذلك بأسباب ضيق سعة الذاكرة أمام الفيض الكبير من المعلومات التي لا يعلمها بالمطلق إلا الله، ولهذا فهم على مستوى من مستويات المعرفة المحدودة، فالنسيان علامة من علامات منها:

أ . ضياع المعلومة.

ب . أو فقدان المعلومة.

[82] – الكهف 66 . 78.

ج . عدم المقدرة على استرجاع المعلومة.

ولهذا، كلّ المعلومات التي يتم تعلمها تسجلّ في الذاكرة وتستوجب استدعاءً عند الحاجة وبأسباب النسيان تسجلّ المعلومة وتحفظ في الذاكرة ولا يتمكن الإنسان في بعض الأحيان من استدعائها ممّا يجعله فاقدا لحجّة من الحُجج.

وللنسيان أسباب منها:

* ضعف الذاكرة.

* المرض.

* الشيخوخة.

* أسباب الشيطان كما هو الحال عند موسى صلّى الله عليه وسلّم، قال تعالى: {قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ}[83].

النسيان في بعض الأحيان يتطلب معذرة حتى لا يعتبره البعض عن قصد أو عن سوء نية مُبيّته وفي هذا الأمر يظهر حُسن التأدب وطيب النفس ولهذا يتم التعذّر على ما ينسى في بعض الأحيان كما هو حال موسى صلّى الله عليه وسلّم، في قوله تعالى: {قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا}[84].

---

[83]- الكهف 63.

[84] -الكهف 73.

6. الخوف:

لا يكون إلا بأسباب عدم الثقة في الآخر ولهذا كان موسى وهارون خائفين من الذهاب إلى فرعون ولكن الله ثبت أقدامهما على الحقّ وذهبا إليه مصداقا لقوله تعالى: {قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}[85]، وقال تعالى: {يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ}[86]. ولأنّ الأمر عظيم جدا ولم يكن موسى معتاد عليه من قبل خاصة وأن الصورة التي تبدلت العصا إليها هي الثعبان والبشر بطبيعة أحوالهم يعرفون أن الثعبان سام ولهذا فهم يخافون في دائرة أخذ الحيطة والحذر والاحتراس وهذا الخوف موجب ومن حقّ العقلاء أن يحتاطوا في كلّ أمر سواء في حالة الخوف منه أم في حالة الخوف عليه، ولذا فإن أخذ الحذر ضرورة عند الخوف ولا ينبغي الإغفال عنه مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا}[87]. إذا أخذ الحذر ضرورة لا ينبغي أن يغفل عنها العقلاء تحت أي ظرف من ظروف الحياة وفي كلّ درب من دروبها.

---

[85]- طه 45، 46.

[86]- النمل 9، 10.

[87]- النساء 102.

والخوف على أوجه منها:

أ ـ الخوف من الظلم، وهذا حال العباد المؤمنين.

ب ـ الخوف من الحقّ، وهذا حال العباد المشركين والضالين.

ج ـ الخوف من المجهول وهذا حال كلّ العباد.

د ـ الخوف من غير العاقل، وهذا حال معظم العباد، ولذلك يكون الخوف واتخاذ الحذر من فاقدي العقول والسكارى، ومن الحيوانات المفترسة ومن الحشرات الضارة.

هذه المخاوف الأربعة لها مبرراتها الموضوعية أمَّا الخوف من غيرها فالأمر نسبي كالخوف من المرض والحاجة، فالمرض مع أنّه مخيف إلا أنّه ضعيف جدا تحت سيطرة العلاج والدواء ممّا يجعل الشفاء نتيجة موجبة لكلّ مرض وداء، ولذلك يوقن المؤمن أنه إذا مرض يشفى، وإذا احتاج بحث عن عمل يشبع حاجته ولا يقنط أبدا.

7 ـ مُتضرِّع:

عندما يكون بين العبد وربّه يكون التضرع طاعة وهداية، وعندما يكون بين البشر يكون مذلة وإهانة، ولذا فمن أراد أن يكون له شأن فعليه أن يتضرع ربّه، وكذلك من كان له شأن ليس له بد إلا أن يزيد تضرعا لربّه، ولهذا كان موسى صلّى الله عليه وسلّم متضرعا لله رب العالمين فكانت له الإجابة مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ

نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى}88.

وعليه: التضرع بالنسبة لموسى وللمسلمين المؤمنين هو طلب عن وعي مع معرفة تامة بحصول الإجابة، والتضرع صفاء نية مع حسن خطاب ورفعة ذوق وتوسل في المحبَّة، ولذا فمن يطلب من الحقّ حقّ يُحقّ له، اللهم يا من حفظت الأنبياء والمرسلين والصديقين والصّالحين أحفظنا من كلّ شر وحسد، وسحر وسوء نية، وفقر ومرض، ومكر وكيد فأنت خير الماكرين والكائدين، بك آمنت، وعليك توكلّت، وأوّليت أمري وأسرتي وما املك إليك، سبحانك لا إله إلا أنت الحفيظ جلّ جلّاك.

8 . مُخلَصُ:

الشخصية المخلصة هي طائعة لله مصلحة في الأرض ومُعمِّرة لها صادقة الوعد قائلة الحقّ وفاعلة له هكذا كان موسى صلّى الله عليه وسلّم مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا}89، أي مخلص فيما يقول ومخلص فيما يعمل ويفعل من عبادات وتضرع وكلّ ما من شأنه أن يؤدّي به إلى حمْل أعباء الرسالة كونه مخلَصُ، وهذه المعطيات هي التي جعلت منه رسولا ونبيا وصاحب الآيات التسع التي ذكرت في القرآن الكريم، وصاحب اليد البيضاء والعصا التي فلقت البحر والحجر حتى انبجست منه الينابيع. ولذا؛ فالإخلاص نقاوة من العيوب ودليل على صفاء النفس وطهارتها من الذنوب.

---

[88] –طه 25 . 37.

[89]– مريم 51.

9. رسول نبي:

الرّسول والنبي لا يصطفى إلا من الله تعالى، يخلقه ويسويه ويصطنعه لنفسه ويهيئه لتلقي الرسالة أو النبأ أو الاثنين معا كما هو حال موسى صلّى الله عليه وسلّم، قال تعالى: {وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا}[90].

الرّسول والنبي هو من لا ضلالة به فهو المهتدي للحقّ بالحقّ، وهو العامل على إحقّاقه وفقا للتكلّيف الإلهي للرسالة الخاصة أو العامة وهو الناصح للعباد والمنذر لهم وهو الذي يعلم من ربّه ما لم يعلمه غيره، قال تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[91].

الرّسول هو من يُصطفى من النّاس على النّاس برسالات وكلّمات كاملات وتامات من عند الله تعالى، {قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النّاس بِرِسَالَاتِي وَبِكلّامِي}[92]، ولهذا كان موسى طائعا لله جلّ جلاله ربّ العالمين.

10. شكور:

كثير الشكر، والشكر لا يكون إلا بعد اعتراف وتقدير، وبعد إيمان وطاعة، والشكر في مقابل العطاء ولا يكون إلا من المعطي الذي يعطي ولا ينتظر مقابل لما أعطى، ولهذا فالشكر في مقابل العطاء يكفي بالتمام، ولأنّ المعطي لموسى صلّى الله عليه وسلّم هو في غير حاجة ولكنه يريد عبده على قناعة وافية بما أعطي له سواء أكان متوقّعا له كما هو الحال عندما يكون مؤسسا على الطلب أو انه غير متوقّع له

---

[90]- مريم 51.

[91] -الأعراف 61، 62.

[92] -الأعراف 144.

كما هو الحال عندما يكون هبة أو عطاء غير مجذوذ، قال تعالى: {فَخُذْ مَا آَتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ}93.

11. مُوعِظ:

في الموعظة بشرى تستوجب الحمد والشكر على ما فيها من نعم ومكارم وهي التي بها يُردع الإنسان عن القبيح، ولذا، بها تتم التقوى والمخافة من ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولذلك كتب الله تعالى لموسى صلّى الله عليه وسلّم في الألواح من كلّ شيء موعظة مصداقا لقوله تعالى: {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كلّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكلّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقوّة وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ}94.

إذا الموعظة تؤخذ ويؤخذ بأحسنها، ومن أخذ بأحسنها اتعظ واعتبر، ولهذا كان موسى متعظا واعظا.

12. مُهدي:

الهداية لا تكون إلا بعد إيمان وطاعة لله ربّ العالمين، والمهدي هو من اهتدى بالحقّ أو اهتدى إليه ثم عمل من أجلّه طاعة وإرادة وإيمانا وقناعة تامة بالهادي جلّ جلاله وما يهدي إليه.

ولأنّ موسى صلّى الله عليه وسلّم مُهدي للحقّ والصراط المستقيم فأتاه الله الكتاب والفرقان ليهدي النّاس للتي هي أحسن، قال تعالى: {وَإِذْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}95، وعليه كلّ الكتب والرسالات التي هي من عند الله تعالى هي لأجلّ هداية النّاس

---

[93] – الأعراف 144.

[94] –الأعراف 145.

[95] –البقرة 53.

بالتي هي أحسن قال تعالى: {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحقّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ}96.

13. مُنذر:

الإنذار لا يكون إلا حيث تكون الغفلة أو الجهالة والمنذر هو الموقظ من الغفلة والجهالة، ولذلك بُعِث الرّسُل مبشرين ومنذرين لمن غفلوا أو جهلوا وضلوا، فعندما اتخذ قوم موسى العجل إلها من دون الله أنذرهم موسى بقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعجل فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ}97، وهكذا كان المنذرون في كلّ الأقوام والأمم والشعوب مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوّلِينَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ}98.

وعليه فالمنذر هو المسمع للحقّ والمبلّغ به والمرشد إليه، وهو إعلام بالحقّ وبلاغ بما يترتب عليه من خيرات حسان للمجيبين وما يترتب عليه من شر للممتنعين، ولذا فالمنذر هو التقي المصلح وهو من يُعلِّم النّاس ما يفيدهم وينفع حاضرهم ومستقبلهم القريب والبعيد.

المنذر ناهٍ عن ارتكاب المفاسد ومحرض على أفعال المحاسن، قال تعالى: {وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}99، وقال تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا

---

[96] – آل عمران 2، 3.

[97] – البقرة 54.

[98] –الصافات 71. 74.

[99] –البقرة 60.

قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}100.

14 مُكلّم:

التكلّيم الذي نقصده هنا هو تعظيم الله بالاصطفاء للأنبياء والرّسُل بكلّام منه مباشرة لخصوصية وتميُّز فيهم تكلّيفا وهداية بنبأ أو رسالة، وقد يكون الكلّام من الرّسُل تعظيما لله في ذاته وتضرعا له بالمطالب التي تكون إجابتها لأجلّ مناصرة الحقّ وكف الشر بكلّام منهم ولذلك فالتكلّيم يستوجب ثلاثة أمور:

أ ـ مكلّم، وهو الله جلّ جلاله الذي كلّم الملائكة والجن ثم كلّم آدم من بعدهم وكلّامه جلّ جلاله لآدم هو كلّام نوع حتى وإن كان آدم مفردة فهو أصل النوع البشري، وهكذا الملائكة والجن وإن كانا أصل لنوعيهما المختلفين. وهكذا كلّم موسى تكلّيما {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}101.

ب ـ مكلّم، المكلّم من عند الله هو المرسل له الكلّام، قال تعالى: {يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ}102 وقال تعالى: {قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}103.

[100] -الأعراف 74.
[101] - النساء 164.
[102]- النمل 9، 10.
[103] -طه 68، 69.

ج ـ رسالة أو نبأ، والذي نعنيه بالرسالة أو النبأ هو الذي لا يكون إلا من عند الله تعالى ولا يكون إلا للأنبياء والمرسلين، {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ}104، ولذلك فالكتب والفرقان والصحف والألواح والزبور والتوراة والإنجيل والقرآن كلّها رسالات من الله تعالى إلى المصطفين من الأنبياء والرّسُل صلوات الله وسلامه عليهم.

وعليه: فالتكلّيم في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع يمكن أن يكون وفقا لما يأتي:

أ ـ تكلّيم الله لمن أراد من الأنبياء والرّسُل، لقد اصطفى آدم صلّى الله عليه وسلّم على جميع الأنواع ليكون خليفة في الأرض مصلحا ومعمرا فيها لا سافك دماء، قال تعالى: وقال تعالى: {قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}105.

وكلّم إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم بقوله تعالى: {قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}106.

وكلّم موسى تكلّيما مصداقا لقوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّه}107.

---

[104] ـالصافات 171.

[105] ـالبقرة 33 ـ 35.

[106]ـ البقرة 260.

ب . تكلّيم بعض من الأنبياء والرّسُل لله تعالى، كما هو حال إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كلّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}108، وتكلّيم موسى لربّه في قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ ربّه قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى ربّه لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أوّل الْمُؤْمِنِينَ}109، وقال تعالى: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى}110.

ج . تكلّيم العباد لخالقهم، توجّه العباد بالدعاء لربّهم تعالى الذي يثقون ويؤمنون يقينا أنّه السميع المجيب ألا يكون هذا الأمر كلّاما مباشرا مع الله تعالى؟ مع أنّه لن يكلّمهم ولكنه السميع المجيب مصداقا لقوله تعالى {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}111 وهنا أتساءل: ألا يكون الدعاء كلّاما؟ وإذا كان كذلك، ألا يكون الدعاء المباشر

[107]- الأعراف 143.

[108]- البقرة 260.

[109]- الأعراف 143.

[110]- طه 23 . 37.

[111] -البقرة 186.

كلّاما مباشر مع الله تعالى؟، وبما أنّه السميع، ألا يوجب ذلك علينا مناجاته ودعائه وتكلّيمه بالطاعة والتضرُّع إليه؟، ولأنه مجيب أي متصل الإجابة ألا تكون إجابته على الكلّام التضرعي أو الدعائي أو المطلبي عند كلّ حاجة أو ضيق لأجلّ فك رقبة أو كربة من كرب الدنيا ومآسيها؟

قال تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}[112]، ولأنّه القريب والأقرب إلينا من حبل الوريد ألا يكون هو من يجب الالتجاء إليه بالكلّام والدعاء لطلب المغفرة والتوبة والرحمة؟ وبما أن الكلّام ناموس الحياة بين بني آدم المستخلفين في الأرض هو القاعدة لتنظيم العلاقات بين الأفراد والجماعات والمجتمعات ألا يكون من الأفضل والأوّلى أن ينظم الإنسان علاقته مع خالقه الذي هو أقرب إليه من حبل الوريد؟

15. نصوح:

النصح في دائرة الموجب لا يكون إلا بمعرفة ومن متعرّف أو متعلّم إلى غير المتعرّف أو الجاهل، ومع ذلك فالنصح يتطلب الآتي:

أ. حسن النية.

ب. الصدق.

ج. الإحساس بالآخر.

د. الاهتمام بالآخر.

هـ. الحرص على الآخر من أجلّ المستقبل الذي ينتظره حتى لا يقع في المحاذير والمخاطر ويعرف كيف يتلافها، ولهذا كان موسى صلّى الله

---

[112] -الأعراف 56.

عليه وسلّم ناصحا لقومه، {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ}113.

النصوح هو من يكون صادقا مع الله ومع نفسه ومع قوله وعمله وفعله أي يكون نصوحا مخلصا طائعا لله عزّ وجلّ، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا}114.

16. تائب:

التائب هو من لا يكون على الضلال إي هو المهتدي بالحقّ إلى الحقّ، وفي دائرة النسبية التوبة هي كمن يتوب ويعود من توبته أيضا ثم يعود إليها ثانية، والتوبة المطلقة هي التي لا عودة من بعدها إلى ارتكاب المظالم والمفاسد في الأرض، فهي البقاء على الحقّ والتمسك به.

التوبة على وجهين:

أ ـ توبة من الله على عباده الصّالحين اصطفاء، فهم لم يرتكبوا المظالم ولم يفسدوا في الأرض ولم يسفكوا الدماء فيها بغير حقّ، يقولون الحقّ ويتبعونه ويهدون إليه وهؤلاء هم الصديقون والأنبياء والرّسُل والصّالحون، وهؤلاء هم في رضا الله تعالى، فهم خُلِقوا على التوبة قال تعالى: {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}115 ولأن هذه التوبة هي توبة أصل، خلق بعض العباد

---

113 -الأعراف 128، 129.

114 -التحريم 8.

115 -التوبة 112.

عليها من الصّالحين والصديقين والأنبياء والمرسلين فجاء ذكرها في الآية الكريمة السابقة أوّلا ثم من بعدها تلاها (الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآَمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ).

ب ـ توبة التجاء، الالتجاء إلى الله مكلّل بالاستجابة، قال تعالى: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرّحيم}[116]، فهؤلاء الثلاثة الكرام أيقنوا حقّا أنه لا ملجأ منه إلا إليه، فتاب عليهم ومن سبب توبته عليهم ليتوبوا عن تكرار ما فعلوا من تخلُّف عن الرّسول، ولذا فهم بأسباب توبته عليهم تابوا إليه تعالى؛ وبالعودة إلى الآية السابقة للآية السابقة عليها في قوله تعالى: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} أقول هناك أمران:

* توبة الله على النبي توبة اصطفاء وهي أصل التوبة.

* توبة الله على المهاجرين والأنصار توبة التجاء في ساعة العسرة.

وكذلك توبة الالتجاء تترسَّخ بالدعاء، مصداقا لقوله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}[117].

---

[116] – التوبة 118.

[117] –البقرة 286.

ج ـ توبة تخلي: بعد ضلال وانحراف ومفسدة في الأرض ينقلب مرتكبها إلى الحقّ واتباعه ليصلح ويكفّر عن سيئاته التي ارتكبها بغير حقّ، {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}118.

17. غضبان:

الغضب على الظلم والمفاسد وعلى الكفر والشرك يعد غضب محبوب ومفضَّل لدى أهل الفضائل والقيم الحميدة، ولهذا فالإنسان يغضب من أجلّ كرامة تهان أو عِرض ينتهك أو شعبٍ يسبى أو بلدٍ يدمر ويحتل بغير حقّ، أو اتباع شرك أو كفر أو دينٍ لا يُقدَّر أو رسولٍ من الله تعالى لا يحترم، ولهذا كان موسى على ذلك غاضبا على ما فعل قومه من شرك، قال تعالى: {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعجلتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}119.

الغضب (على)، يختلف في المعنى عن الغضب (من)، فالغضب (على) لأجلّ تصحيح أخطاء وانحرافات عن الحقّ، ولذلك لم يكن غاية في ذاته بل لأجلّ غاية التصحيح ولهذا يزول بممّارسة فعل التصويب والتصحيح وعودة الحقّ إلى نصابه، قال تعالى: {وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ}120.

---

118 -المائدة 39.

119 -الأعراف 150، 151.

120 -الأعراف 154.

إمّا الغضب (من)، فهو يرتبط بالقضايا الشخصانية، التي تسيطر المنفعة عليها أكثر ممّا يسيطر الإيمان وإحقّاق الحقّ، أي أن الغضب (من)، يرتبط بالغضب من الأشخاص، أما الغضب على، فيرتبط بالقضايا ذات الفضائل والقيم الحميدة، ولهذا كان غضب موسى حقّ لأجلّ إحقّاق الحقّ.

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعجل سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجلا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ}[121].

إن موقف عبادة العجل جعل موسى عليه الصّلاة والسّلام يتصرف تصرفا فيه دلالة:

. الرّفض.

. الاستهجان.

. الحيرة.

. النسيان.

فكان الغضب سيد الموقف، ففيه كلّ الدلالات التي يتبين من خلالها أن موسى صلّى الله عليه وسلّم دخل فتنة جديدة:

121 - الأعراف 152 – 155.

- كيف يتصرف مع هذه الفتنة؟

- من يخاطب؟

- من يعاتب؟

- من يستفهم؟

- من يتحمّل هذا الوزر؟

- كيف يعيد بني إسرائيل إلى ما قبل هذا الموقف؟

- كيف يصحح هذا الموقف؟

- كيف يستدرك هذا الموقف؟

- من أين يبدأ؟

- هل يبدأ بالسامري؟

- هل يبدأ ببني إسرائيل؟

- هل هناك طريقة أخرى لكي يبدأ؟

إنّ هذه التساؤلات في هذا الموقف تقف عند حاجز الغضب، فبزواله تبدأ استنطاقات موسى صلّى الله عليه وسلّم لأخيه فهو الموكلّ من بعده فيأخذ بلحية أخيه، إذ يقول تعالى: {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعجلتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}122والأخذ هنا فيه دلالة:

- الحرص.

- الخوف.

- هول المنظر.

- الغيرة على الدين.

وهنا، تبدأ الاستدراكات النبوية في معالجة الموقف ضمن البحث عن رأس الفتنة الذي صاغها وفق منظور بدائي فيه تقاطيع الكفر والإشراك بالله تعالى. هذه النقطة مهمة جدا ذلك أن هذه الفتنة قد تتكرر بأشكال مختلفة، إلا أنّ طريقة المعالجة هي واحدة، ذلك أن الرأس في كلّ الفتن يجب إمّا أن يدخل في دائرة الإصلاح، وإما أن يدخل في دائرة العقوبة المتحقّقة من خلال فعله، فالنسق الذي تتابع لنا من آدم صلّى الله عليه وسلّم يتمثل أمامنا في هذا الموقف، فقصة إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم انبرى فيها موقف الفتى الذي هشم صورة الكفر والإشراك بالله تعالى، فالفتى خاطب الرأس ودحضه، ورمى بين يديه مفاتيح الإيمان التي يكون من خلالها تحويل هذا الجمع الهائل بلحظات معدودة إلى حالة جديدة مطلوبة من قبل ربّ هذا الفتى، إذ يقول تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي ربّه أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}123، فموسى صلّى الله عليه

[122] - الأعراف 150 – 151.

[123] - البقرة 258.

وسلّم تحدث مع السامري لأنه عرف أن كلّ ما تحقّق كان بسبب السامري لذلك عمد إلى معالجة هذه الشخصية والفتنة بطريقة تؤدها وتقتلعها من جذورها، فعن السامري يقول الله تعالى: {قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرّسول فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كلّ شَيْءٍ عِلْمًا}[124] أما الإله وهو العجل فقد حرقه ونسفه في اليم، هذا الفعل فيه محو لكلّ آثار الكفر والإشراك، حتى لا يبقى لهم أي اثر وهذا ما فعله الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم حين فتح مكة، فقد كسر كلّ الأصنام التي فيها ولو تحرق لحرقها، فقد جعلها جذاذا كما جعلها نبي الله إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم.

ذهبت هذه الفتنة وأصبحت في غياهب الماضي إلا أنّ ما حدث فيها حمل دلالات واضحة، يتبين من خلالها:

كيف تعامل موسى صلّى الله عليه وسلّم معها؟

وكيف خرج منها منتصرا؟

18 . متسامح:

التسامح دليل المحبة والمقدرة على استيعاب الآخر هو كما هو لأجلّ نقله إلى ما هو أفضل وأجود وأنفع، ولذا فالتسامح قيمة حميدة بين العباد لا يؤسس إلا على مغفرة لله تعالى، أو بأسباب التوبة، والمتسامح هو من يدرك العاقبة الحميدة المترتبة على تسامحه، ولم يكن

[124] - طه 95 – 98.

التسامح قيمة موجبة لو لم يكن الخطأ قيمة سالبة، ولذا فبالتسامح تُغتفر الأخطاء ويتم تجاوزها بما يقوي العلاقات ويرسِّخ المحبة بين النّاس الذين يراد لهم أن يكونوا خلفاء في الأرض ويراد لهم أن يكونوا الوارثين. هذا الأمر ينطبق بالتمام على موسى صلّى الله عليه وسلّم مصداقا لقوله تعالى: {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعجلتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}125.

19. غفور:

الغفور هو من يعطي الفرصة تلو الفرصة لأجلّ توبة نصوح، والغفور صفة استمدها موسى من اسم الله تعالى (الغفور) في تعامله مع أخيه وقومه مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}126 وقال تعالى: {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ}127.

20. عدل:

العدل هو الحقّ، والعادل هو محقّ الحقّ، وعَدَلَ، حَكَمَ (حكم بالحقّ) وكان موسى صلّى الله عليه وسلّم عدل في قومه حتى استمد

125 -الأعراف 150، 151.
126 -الأعراف 151.
127- الأعراف 155.

قومه منه هذه الصفة الكريمة مصداق لقوله تعالى: {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحقّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ}128.

21. إمام:

الإمامة صفة قيادية على وجهين:

أ. إمامة على الحقّ وإلى الحقّ، كما هو حال جميع الأنبياء والرّسُل قال تعالى: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ ربّه وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً}129، وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا}130 وقال تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ ربّه بِكلّمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}131.

في مثل موجبات هذه الآيات الإمام هو محل الثقة لدى المؤمنين وهو من يتصدَّر القوم لأعمال وأفعال الهداية والطاعة، وهو من يوجّه العباد إلى الحقّ ويتوجَّه بهم إلى إحقّاقه، وهنا يكون الإمام مرشدا وهاديا ودليلا إلى ما يجب اتباعه على الهداية.

ب. إمامة على الباطل وإلى الباطل، هي تلك الإمامة التي تقود إلى المفاسد ومن غاياتها إبطال الحقّ وتقويض أهله، وأصحابها طغاة تستوجب مقاتلتهم وهؤلاء هم الذين لا إيمان لهم مصداقا لقوله تعالى:

128- الأعراف 159.

129 - هود 17.

130 -الفرقان 74.

131 -البقرة 124.

{وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ}132.

وفي مثل ما تدلّ عليه الآية السابقة من سلبيات الإمام هو من يُجمّع القوم على الضلال ويقودهم إليه، وهو من يقود النّاس إلى الكفر والشرك ومعصية الرّسول.

22. مُذكّر:

المذكِّر هو الموقظ من الغفلة، والتذكير لا يكون إلا بالكلّمة أو القصص أو الحكمة، أو الحركة والفعل، ولأن التذكير غايته الإيقاظ فالمذكَّر المتيقن من التذكير يتهيأ ويستعد للإقدام على ما يجب، ولذلك ذكَّر موسى قومه بقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ}133، وقال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكلّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}134.

---

[132] -التوبة 12.

[133]- إبراهيم 6 . 9.

[134] -إبراهيم 5.

23. مُعلَّم:

هو التمكن من المعرفة الواعية الممكِّنة من التميز والتمييز عن طريق الإتيان المباشر من الله تعالى أو عن طريق من أتي علما من علمه الواسع وهو صفة من صفات موسى صلّى الله عليه وسلّم مصداقا لقوله تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}135.

وعليه: علم موسى صلّى الله عليه وسلّم عل وجهين:

الأوّل: علم أتاه له الله تعالى مباشرة.

الثاني علم مُتلقَّى من عليم علَّمه الله من علمه الواسع وهو العبد الصّالح {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا}136. فعند التقاء موسى مع العبد الذي أتاه الله عزّ وجلّ علما متميزا لم يعلمه موسى من قبل، قال له وفقا لما نزل في القرآن الكريم: {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا}137. فاتبعه فعلمه ممّا علم رشدا مصداقا لوله تعالى: {قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ

---

[135] -القصص 14.

[136] -الكهف 65.

[137] -الكهف 66.

يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كلّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}[138].

موسى في طفولته:

استيقظ أهل مصر على صوت أقدام جنود يدخلون منزلا ويخرجون من آخر، إذ لم يجدوا هذا الأمر اعتباطيا بل وجدوه مرتبا ضمن سياقات أعدت من قبل، هذا الأمر المفاجئ هو للبحث عن طفل سيولد، وهنا تتعدد الأسئلة وتتعدد الأجوبة للبحث عن كينونة هذا الأمر وتداعياته، فلم تسعفهم ذاكرتهم الجمعية على حل هذا التشتت من الأفكار، فسياق الحياة لم يحتم في يوم من الأيام البحث عن طفل سوف يولد، كما أن استدراكات العقل المتاحة لم تستطع أن تحيل كلّ ما يقال إلى أي تنظير أو قراءة تفتح آفاق البحث لقبول هذا الأمر أو رفضه.

أراد الله سبحانه وتعالى أن ينقذ بني إسرائيل من الذل الذي يعيشون فيه، فكان إنقاذهم على يد موسى صلّى الله عليه وسلّم، إذ يقول تعالى: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ

[138]– الكهف 70 . 82.

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}139 إن المنقذ لم يظهر فجأة أمام النّاس ويبدأ مشواره التغييري مع فرعون بل اكتسب صفة التدرج البشري التي من خلالها يكون الإنقاذ المتحقّق، ويتبين من خلالها عظمة الله تعالى في تسخير وتسهيل الأمور العظام، فشخصيته مرت بمراحل عدة، فمرة هو طفل، ومرة هو شاب ينفعل بسهولة تدفعه إلى القتل، ومرّة رجلٌ عائد بأهله، ثم رسول إلى فرعون، ثم قائد منقذ يسير بقومه إلى فلسطين، فحتى يصبح قوم موسى أئمة، ويصبحوا الوارثين جاءهم هذا الطفل المنقذ الذي سيكون على يديه تغيير العبادة التي أوجدها فرعون، إنّ التعرف على سيدنا موسى صلّى الله عليه وسلّم كان من خلال أوّل لفظة تعلقت به وهي لفظة أوحينا في قوله تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}140 والوحي لم يرد إثناء الحمل أو عند بدايته، وهكذا كانت البداية مع نهاية الحمل وبداية الرضاعة "والوحي هنا وحي إلهام يوجد عنده من انشراح الصدر ما يحقّق عندها أنه خاطر من الواردات الإلهية. فإنّ الإلهام الصادق يعرض للصالحين فيوقع في نفوسهم يقينا ينبعثون به إلى عمل ما ألهموا إليه. وقد يكون هذا الوحي برؤيا صادقة رأتها"141 والحمل بموسى لم يعرض له في القرآن الكريم، ولم يكن محورا في السياقات المتعددة التي وردت في التعرض لقصة موسى صلّى الله عليه وسلّم، إلا أنّه يمكن القول أن صورة التابوت الذي وضع فيه موسى في النهر هو معادل موضوعي للحمل، فالتابوت هو الرحم وماء النهر هو ماء الرحم الذي حفظ موسى صلّى الله عليه

---

139 - القصص 4- 5.

140 - القصص 7.

141 - تفسير التحرير والتنوير، ج 10، ص 353.

وسلّم طيلة الأشهر التسعة التي قضاها في بطن أمه، فالذي حفظه في بطن أمه قادر على أن يحفظه بعد ذلك في كلّ المواضع.

عاش موسى صلّى الله عليه وسلّم بين أحضان أمّه التي ينبض قلبها دائما سريعا خوفا عليه وعلى مصيره الذي يراودها بين حين وآخر من أن يكون كمصير كثير من الأطفال الذين يقتلون على يد جنود فرعون، فالحالة النفسية التي تعيشها في هذا الجو مشحونة بالترقب والانتظار، فالجواسيس عيونهم تتابع كلّ أم حامل، لا ينفكون عنها إلا أن تضع حملها. هذا الاضطراب السلوكي الذي يعيشه بنو إسرائيل لم يدم طويلا فالمنقذ قادم يسير إلى الظالم بصندوق خشبي تدفعه تيارات اليم المتعطشة للوصول إلى ساحل فرعون، لتسلم لهم المنقذ الذي طال انتظاره.

إنّ فكرة قتل أطفال بني إسرائيل كانت وفق رؤيتي نقلتهما الكتب التي تعرضت إلى قصة موسى صلّى الله عليه وسلّم، فقد "كان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه وذلك – والله أعلم – حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل فتحدث بها القبط فيما بينهم ووصلت إلى فرعون فذكرها له بعض أمرائه وأساورته وهم يسمرون عنده فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل حذرا من وجود هذا الغلام ولن يغني حذر من قدر!

وذكر السدي عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة: أن فرعون رأى في منامه كأن نارا قد أقبلت من نحو بيت المقدس فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم

تضر بني إسرائيل فلما استيقظ هاله ذلك فجمع الكهنة والحذقة والسّحرة وسألهم عن ذلك فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان"142 ومهما كان من أمر الروايتين فان المغزى هو متحقّق، ألا وهو قتل الأطفال من بني إسرائيل وأنّه لأمر عجاب يخرج عن دائرة المتوقّع وغير المتوقّع.

إنّ أمر التابوت لم يرد في خلد أم موسى، فهل من المعقول أن تضع أم ابنها في تابوت تنقله من الحياة إلى الموت بيديها؟ لا يمكن أن يتحقّق هذا وفق السياق المعرفي الإنساني، إلا أنّه يتحقّق وفق سياق القدرة الإلهية، فالتابوت اسم لا يدلّ على الحياة في أي صورة من صورها، إنّما يدلّ على الموت المتحقّق ضمن صورته النهائية بهذا الشّكل الدنيوي.

وضعت أمّ موسى صلّى الله عليه وسلّم في التابوت كيفما أوحي لها، وألقته في اليم إلقاء ينمّ عن إيمان كبير بالله تعالى، وبما وعدها به تعالى برد موسى صلّى الله عليه وسلّم لها، إذ يقول تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}143، وفي هذا الموقف تتجلّى صفة الإيمان المتحقّقة في أم موسى، إنها سمة يتحلى بها المؤمن الحقّ الذي ينفذ أمر الله تعالى في كلّ ما يؤمر به، ذلك لأنه يدرك أن أموره كلّها خير، كما يقول الرّسول الكريم محمّد صلّى الله عليه وسلّم "عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كلّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ

---

[142] – قصص الأنبياء، لابن كثير، ج 1، ص 282.

[143] – القصص 7.

سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ"144؛ فكانت أم موسى حاضنة للمنقذ الذي أركبته قطع الخشب المرصوفة التي تحولت إلى سفينة نجاة لبني إسرائيل، ربانها موسى صلّى الله عليه وسلّم.

سار التابوت في اليم متجها إلى ساحل فرعون ضمن إرادة ربانية ليحدث اللقاء الموعود بين طرفيين متناقضين، واحد يمثل الإيمان كلّه والآخر يمثل الكفر كلّه، وصل التابوت إلى ساحل فرعون وفيه طفل لا يراه أحد إلا أحبه، لم يكن مرور هذا الطفل مرور الكرام بل كان مرور المجاهد الذي يدافع عن قضية لا ينفك عنها إلا أن يحقّقها، فأمره يحتاج إلى صبر ومطاولة ودحض لكلّ الحجج وإبطال لكلّ المزاعم والترهات التي تمجد فرعون وتنصبه إلها.

إنّ عملية الإصلاح لم تكن سهلة لانّ رأس الهرم هو الذي يمثل الكفر والشرك إن لم يكن هو الكفر والإشراك بعينه، فالوصول إليه يتطلب مراحل شاقة ووقت طويل يتناسب مع الحواجز والعوائق المختلفة، إلا أن وصول موسى صلّى الله عليه وسلّم إلى فرعون كان بصورة غير متوقّعة، إذ انقلب الهرم وصار رأسه هو المواجهة المرتقبة، سبحان الله الذي جمع موسى صلّى الله عليه وسلّم بفرعون بصورة الأب والابن ضمن اختيار لأرقى العلاقات الإنسانية، وهذا جانب من جوانب عظمة الله تعالى التي يبينها للناس جميعا.

التقط آل فرعون موسى صلّى الله عليه وسلّم، إذ يقول تعالى: {فَالْتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ}145 والالتقاط هنا اسند "إلى آل فرعون لأن

144 - صحيح مسلم، ج 8، ص 227.

145 - القصص 8.

استخراج تابوت موسى من النهر كان من إحدى النساء الحافات بابنة فرعون حين كانت مع أترابها وداياتها على ساحل النيل كما جاء في الإصحاح الثاني من سفر الخروج"146.

حُمِلَ موسى صلّى الله عليه وسلّم بين أكف تتساءل عن هذا الطفل الذي ظهر فجأة، وصلت به إلى مجلّس فرعون وزوجته، هذا اللقاء رسم الملامح الأوّلى لبداية النهاية لفرعون، إذ كان استقبال فرعون لهذا الطفل استقبالا غير عادي، لم يرق له قلبه، ولم ترف له عينه، أمّا زوجته فقد كانت تمثل نقطة الارتكاز التي اتكأ عليها موسى صلّى الله عليه وسلّم في الوصول إلى هدفه المنشود، لم يكن لزوجة فرعون أوّلاد، ولهذا اقترحت على فرعون أن يكون موسى صلّى الله عليه وسلّم ابننا لهما، يقول تعالى: {وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}147 إن كلّام زوجة فرعون يدلل على أن الذين حملوا موسى صلّى الله عليه وسلّم قد هموا بقتله ذلك أن كلّ الروايات التي سلكت هذا المسلك أحالت إلى القول أن وجود موسى صلّى الله عليه وسلّم في التابوت كان يحمل كثيرا من التساؤلات التي تدلّل على أن هذا الطفل ليس بعادي وأنّه جاء من مكان قريب وأن ملامحه تقترب كثيرا من ملامح بني إسرائيل148.

إنّ رفض فرعون لموسى صلّى الله عليه وسلّم من النظرة الأوّلى له يعبر عن التأصيل الفكري المترسب في ذهنه لكلّ ذكر، فجنس الذكر مثل له كابوسا مرعبا لا ينساه أبدا لا في منامه، ولا في يقظته، وها هو الآن يمثل أمامه لكنه لا يعرف ماذا يصنفه هل هو عدو أم لا؟ فالذي

146 - تفسير التحرير والتنوير، ج 10، ص 355.

147 - القصص 9.

148 - ينظر تفسير الزمخشري ج 5، ص 123.

يدعي بالإله لم يستطع أن يقطع الشك باليقين، إلا أنّه اختصر الأمر ضمن فكره المتقوقع على فكرة العدو المنتظر الذي سوف يظهر في يوم من الأيام.

تلقفت زوج فرعون موسى صلّى الله عليه وسلّم تلقف الأم رغما أنّها لم تكن في يوم من الأيام أمّا، إلا أنّ موسى دخل شغاف قلبها وألهب فيها مشاعر الأمومة المكتنزة في داخلها، هذا الشعور لم يفضي إلى التحام أو تبادل بين الطرفين، إنما أفضى إلى نفور من جانب موسى صلّى الله عليه وسلّم، فهو يبحث عن غذائه الذي يشد صلبه لكنه لا يجده عند زوج فرعون، ففسيولوجيا لم يتحقّق لها أن تدر الحليب لموسى صلّى الله عليه وسلّم، والله تعالى قادر على تحقّق ذلك إلا أنّ وعده تعالى نافذ برده إلى أمّه، وهنا تكتمل الدائرة التي بدأت بأم موسى، وتنتهي بها، دائرة أريد لها تتحقّق كي تبقى ناطقة بحكمة الله تعالى في خلقه وفي تدبيره وعظمته فبدايتها ونهايتها واحدة. وفي هذا الموقف يذّكر الله تعالى موسى بقوله: {إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}149 فهذه الجزئية توضح لنا أن موسى صنع صنعا خاصا ليقوم بمهمة خاصة كبطل منقذ لا ينبت من الأرض نباتا عاديا. لذا رباه آل فرعون ليكون المنتصف لقومه منهم، والمدهش أن أمه وهي تلقيه في الماء للضياع أحست بأنه راجع إليها قريبا، وبأنه سيكون رسولا حقّا، هنا تظهر آمال المستيئس كيف تزهر من قعر اليأس، ولتتمدد في المستقبل لتكون بلسما لجراح الحاضر المريرة.

---

[149] - طه 38، 39.

يبدأ البحث عن مرضعة تكون هي المنقذ لموسى صلّى الله عليه وسلّم، لكن أين هي؟ ينتشر الخبر في البحث عن هذه المرضعة، ويرد على مسامع أخته هذا الخبر، إذ يقول تعالى: {وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ}150 إنّ التحريم المتحقّق لموسى صلّى الله عليه وسلّم هو تحريم تكويني قبل خلقه، فهو لا يتقبل أيّ امرأة، ليضطر آل فرعون إلى البحث عن مرضعة يتقبّل ثديها؛ لأنّ فرعون وامرأته حريصان على حياة الطفل، فهو ينفر من كلّ النساء فلا يتقبل أيا منهن وهذه صورة تدلّل بعمق سر العودة المرتقبة إلى أمه، إلا أنّ من الطبيعي أن يتقبل الأطفال غير أمهاتهم حتى يدخل هذا الأمر ضمن نطاق الأحكام الشريعة. وهنا عاد موسى صلّى الله عليه وسلّم إلى أمه وتلقف صدرها تلقف التائه العطشان في صحراء قاحلة وبذلك اكتملت الدائرة التي رسمت إلى أم موسى، إذ يقول تعالى: {فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حقّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}151.

لم يكن موسى طفلا عاديا كباقي الأطفال، إنّما كان طفلا تتناغم فيه خصال الذكاء المفرط والتصرف الذي يدخله في دائرة التساؤلات الكثيرة، وهذا ممّا دعا فرعون إلى أن يختبره بطريقة يعتقد أنها سوف توصله إلى مبتغاه، والعقدة التي أصابت لسانه رافقته مع الكبر، فكانت حائلا بينه وبين السامع في الإفهام ولهذا دعا الله تعالى، إذ يقول تعالى: {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا

150 - القصص 12.
151 - القصص 13.

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى}152 هذا الطلب يحيل إلى أنّ الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم يحتاجون إلى فصاحة اللسان وان اختلفت معجزاتهم، ذلك أنّ التبليغ للناس كافة يتطلب الفصاحة والبيان في عرض دعوة الله تعالى، وفي دعاء موسى صلّى الله عليه وسلّم تتبين الحاجة الملحة إلى اللسان الفصيح.

عاش موسى صلّى الله عليه وسلّم في كنف فرعون في صورة تدعو إلى الاتعاظ والحذر من الله تعالى، فالجمع بين الأضداد غير ممكن في الحياة الدنيا، فشتان ما بين موسى صلّى الله عليه وسلّم وفرعون، لكن قدرة الله تعالى وحكمته أوجبت هذا الجمع الذي يحيل إلى تساؤلات عدة أهمها:

هل الجمع هنا ضروري؟

هل هناك مغزى من هذا الجمع؟

هل يستمر هذا الجمع؟

هل هناك تبعات على موسى من هذا الجمع؟

إنّ حياة موسى صلّى الله عليه وسلّم فيها محطات مهمة وأهم محطة فيها هو العيش في قصر فرعون، وهذه المحطة استخدمها فرعون في محاولة منه أن يغير موسى صلّى الله عليه وسلّم ممّا هو عليه من دعوة الله تعالى، إذ يقول تعالى: {قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ}153. إنّ قصد فرعون من هذا الخطاب إفحام موسى كي يتلعثم من خشيةِ

152 - طه 25 – 36.

153 - الشعراء 18 – 19.

فرعون حيث أوجد له سببا يتذرع به إلى قتله ويكون معذورا فيه حيث كفر نعمة الولاية بالتربية، واقترف جرم الجناية على الأنفس، فضلا عن ذلك أن جرأة موسى صلّى الله عليه وسلّم عليه لا تناسب حال مَن هو ممنون لأُسرته بالتربية لأنها تقتضي المحبة والبر، فكأنّه يرخي له العنان بتلقين أن يجحد أنّه مربًّى فيهم حتى إذا أقر ولم ينكر كان الإقرار سالما من التعلل بخوف أو ضغط154.

إنّ موسى صلّى الله عليه وسلّم لم يتنكر للفترة التي قضاها في كنف فرعون، فقد كان ردحا من عمره في رعاية آل فرعون، كان موسى صلّى الله عليه وسلّم داعيا لفرعون ومرشدا ومبينا وموضحا، أراد أن ينتشله من مستنقع الكفر والجبروت بكلّ الطرق التي سلكها، فجاءه بكلّ الوسائل التي من شأنها أن تغير فكره وتوقظه من سبات الأفكار المتقوقعة في عقله، لكنه لم يستجب ولم يفكر مليا بما قاله له موسى صلّى الله عليه وسلّم، أما تذكيره لموسى بالتربية والعناية التي تلقاها في قصره فلم يعيد إنتاجها بما يتفق مع دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم، بل أعاد إنتاجها بما يتفق مع جبروته وكفره، فلم يتحقّق التراضي بين الطرفين، وبقى كلّا منهما يدعو إلى عقيدته التي استمرت معهما إلى نهاية حياتهما.

موسى في شبابه:

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان ضمن أطوار عدة، إذ يقول تعالى: {وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا}155 تتسم هذه الأطوار بسمات يؤسس على أساسها تبعات معرفية، يكون على أساسها القول الفصل في إصدار الأحكام، والتي تقتضي بطبيعة الحال ظهور الجوانب الإيجابية والسلبية،

[154] - التحرير والتنوير، ج 10، ص 146.
[155] - نوح 14.

كما أن طبيعة الخلق البشرية تخللت وجود متناقضين تتمحور حولها الشخصية الإنسانية، وهما الشهوة والعقل، وقد تتعدد الشهوة إذ يمكن أن تكون إيجابية وسلبية، والعقل هو المنظم لهذه الشهوة، فهما متأصلان في الإنسان يتحركان حركة الأرجوحة مرة إلى الأمام وأخرى إلى الخلف، كأن قلما ثبت بطرف، وممحاة ثبتت بطرف أخر، فالقلم يكتب الذنوب وهي تنبع من الشهوات، والممحاة تمحي الذنوب وهي سمة العقل، واختلاف الحركة تابع من المعيارية التي تمسك بهما وتحدد حركتهما كيفما تريد، فالمعيارية الأوّلى هي معيارية العقيدة، فهي التي يكون على أساسها التصرف مع هذه الثنائية، ممّا يدخل مبدأ الثواب والعقاب، إذ يقول تعالى: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ ربّه وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}156، أما المعيارية الثانية فهي تابعة إلى طبيعة خلق الإنسان، فالإنسان كلّما تقدم به العمر يعمد إلى إعمال العقل، فيتقدم العقل ثم تتبعه الشهوة، وهذه المعيارية ليست مطردة دائما فقد يتحقّق العكس.

إنّ هذه المرحلة اتسمت بأبعاد مختلفة قوامها الخوف والترقب، فهي رحلة تبحث عن نهاية لها، فموسى صلّى الله عليه وسلّم لم يدور في حلقة مفرغة رغم التعثر الذي تعرض له، ونقصد بالتعثر أن الأحداث التي واجهها لم تخطر بباله، وبمعنى أخر لم تتناسب مع مهمته التي وكلّ بها، فالقتل مثلا لا يتناسب مع نبي لكنه تحقّق بطريقة أو أخرى، وهنا يبدأ النص بتتبع حياة هذا النبي ضمن أحداث تترا.

دخل النبي موسى صلّى الله عليه وسلّم مرحلة جديدة، بيّنها القرآن الكريم من خلال مفردتين اتسمتا بالبناء الأوّلي لشخصية النبي موسى

---

[156] - النازعات 37 – 41.

صلّى الله عليه وسلّم ،إذ يقول تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}157 تحدد التقديم والتأخير في هذين المفردتين (الحكم والعلم) وذلك أن النبوّة بدأت خيوطها بالظهور والتبلور في شخصية موسى صلّى الله عليه وسلّم، فهنا تتضح الصورة التي يؤسس على أساسها التكلّيف المراد منه، وبما أن الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم بشر، فالتكلّيف يأتي عليهم وفق القاعدة البشرية ولا يتجاوزها إلا ضمن استثناءات أريد لها أن تتحقّق حتى تتفق مع المعجزة المصاحبة لهم، وذلك كحال آدم وعيسى ويحي صلّى الله عليهم وسلّم.

إنّ المرحلة التي ذكرها القرآن الكريم بقوله: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى) أُختلف فيها فلم يتحدد عمر بعينه "اختلف في زمان بلوغ الأشد والاستواء فأخرج ابن أبي الدنيا من طريق الكلّبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال الأشد ما بين الثماني عشرة إلى الثلاثين والاستواء ما بين الثلاثين إلى الأربعين فإذا زاد على الأربعين أخذ في النقصان، وأخرج عبد بن حميد. وابن المنذر. وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال الأشد ثلاث وثلاثون سنة والاستواء أربعون سنة وهي رواية عن ابن عباس أيضا وروي نحوه عن قتادة وقال الزجاج مرة بلوغ الأشد من نحو سبع عشرة سنة إلى الأربعين وأخرى هو ما بين الثلاثين إلى الأربعين واختاره بعضهم هنا وعلل بأنّ ذلك لموافقته لقوله تعالى: {حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً}158 لأنّه يشعر بأنّه منته إلى الأربعين وهي سن الوقوف فينبغي أن يكون مبدؤه مبدأه ولا يخلو عن شيء والحقّ أن بلوغ الأشد في الأصل هو الانتهاء إلى حد القوّة، وذلك وقت انتهاء النمو وغايته، وهذا ممّا يختلف باختلاف الأقاليم

157 - القصص 14.

158 - الأحقّاف 15

والأمصار والأحوال، ولذا وقع له تفاسير في كتب اللغة والتفسير، ولعل الأوّلى على ما قيل: أن يقال إنّ بلوغ الأشد عبارة عن بلوغ القدر الذي يتقوى فيه بدنه وقواه الجسمانية وينتهي فيه نموه المعتد به والاستواء اعتدال عقله وكماله ولا ينبغي تعيين وقت لذلك في حقّ موسى صلّى الله عليه وسلّم إلا بخبر يعول عليه لما سمعت من أنّ ذاك ممّا يختلف باختلاف الأقاليم والأمصار والأحوال نعم اشتهر أن ذلك في الأغلب يكون في سن أربعين"159. إنّ هذه الآراء المختلفة تمثل لنا تداعيات حاضنة لقوالب جاهزة تملأ حين تكسب الدرجة القطعية فيما يوافق التنظير الذي تنتمي إليه، فالثلاثون والأربعون وغيرها تتحقّق فيها النبوّة ضمن إرادة الله تعالى المطلقة فيما يريد ويختار.

ابتدأت حياة موسى الجديدة بواقعة أشبه بالحلم الذي يتبدد عند ساعات النهار الأوّلى، إذ يقول تعالى: {وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجلّيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ}160. دخل موسى صلّى الله عليه وسلّم المدينة حين خف وجود النّاس، فوجد رجلّان يقتتلان واحد من بني إسرائيل والأخر من القبط، وموسى صلّى الله عليه وسلّم يشاهد هذا الموقف، فلا يقف موقف المتفرج؛ إنما يتصرف وفق الاستصراخ الذي يحمل دلالات طلب المعونة العاجلّة، والاستغاثة المتحقّقة هنا جاءت وفق استدعاء للصورة التي كان عليها بنو إسرائيل بعد إرضاعهم لموسى صلّى الله عليه وسلّم "وذلك أنّ موسى صلّى الله عليه وسلّم كانت له بديار مصر صولة بسبب نسبته

---

159 – تفسير الألوسي، ج 15، ص 89.

160 – القصص 15.

إلى تبني فرعون له وتربيته في بيته وكانت بنو إسرائيل قد عزوا وصارت لهم وجاهة وارتفعت رءوسهم بسبب أنهم أرضعوه وهم أخواله – أي من الرضاعة – فلما استغاث ذلك الإسرائيلي موسى صلّى الله عليه وسلّم على ذلك القبطي أقبل إليه موسى (فوكزه) قال مجاهد: أي طعنه بجمع كفه وقال قتادة: بعصا كانت معه (فقضى عليه) أي فمات منها، وقد كان ذلك القبطي كافرا مشركا بالله العظيم ولم يرد موسى قتله بالكلّية وإنما أراد زجره وردعه"[161]، هذا الموقف وان حمل دلالات النصرة، إلا أنّ موسى صلّى الله عليه وسلّم قال {قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ}. فهنا تتكشف شخصية موسى صلّى الله عليه وسلّم التواقة نحو السلم، فالقتل ليس من سمات الأنبياء، وحتى ليس من سمات عباد الله الصّالحين إلا بالحقّ، لذلك لجأ موسى صلّى الله عليه وسلّم إلى طلب المغفرة رغم انه لم يقصد قتله، إذ يقول تعالى: {قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحيم قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ}[162].

إنّ حادثة مقتل العدو ألقت بظلالها على نفسية موسى صلّى الله عليه وسلّم، فالسمة البشرية ظهرت عليه، يقول تعالى: {فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ}[163] ظهرت حالته السيكولوجية ضمن حالة الترقب التي أمسكت به، ذلك أن البحث عن مخرج يتطلب قرارا فوريا، إلا أنّ هذا القرار لم يتحقّق فقد اصطدم بدهشة، فالحلم الذي تبدد

[161] – القصص الأنبياء، ج 2، ص 13.

[162] – القصص 17،16.

[163] – القصص 18.

عاد من جديد ليعيد الفزع والهلع والاضطراب إلى نفسيته {فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ}164.

هذه الحادثة أُختلف فيها، إذ حمل الاختلاف فيه وجهان "إنّما قال هذا الكلّام الإسرائيلي الذي اطلع على ما صنع موسى بالأمس وكأنه لما رأى موسى مقبلا إلى القبطي اعتقد أنه جاء إليه لما عنفه قبل ذلك بقوله: (إنّك لغوي مبين) فقال ما قال لموسى وأظهر الأمر الذي كان وقع بالأمس فذهب القبطي فاستعدي فرعون على موسى وهذا الذي لم يذكر كثير من النّاس سواه ويحتمل أن قائل هذه هو القبطي وأنّه لما رآه مقبلا إليه خافه ورأى من سجيته انتصارا جديدا للإسرائيلي فقال ما قال من باب الظن والفراسة: إنّ هذا لعله قاتل ذاك القتيل بالأمس أو لعله فهم من كلّام الإسرائيلي حين استصرخه عليه ما دله على هذا والله أعلم"165 والخلاف المتحقّق في هذا النص لا يفضي إلى خلاف جذري في وصول موسى إلى درجة الخوف والحذر الشديدين، فلأمور ازدادت سوء، وأصبحت صورة موسى تبتعد عما كانت عليه في حضرة فرعون، فلابدّ من الفرار والخروج من أرض مصر.

إنّ سمة الإطلاق لم تتحقّق من آدم صلّى الله عليه وسلّم إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، فالخير والشر متحقّقان في الأرض، ويتواجدان بأشكال وصور مختلفة، فالصورة الضبابية التي غطى بها اسم فرعون عهده حملت على القول أنّ الخير لم يظهر على السطح إنما هو قابع في ردهات مظلمة يأبى أن يظهر، أو قد لا يجد له شكلّ يظهر به؛ لانّ كلّ الأشكال لا تستوعبه، ولا يدخل تحت أي من مسمياتها، هذه الصورة خرج منها ما هو منقذ بالدلالة الإنسانية، أراد أن ينقذ

---

[164] القصص 18.

[165] – قصص القرآن، ج 2، ص 15.

المنقذ المنتظر الذي طال انتظاره، إذ يقول تعالى: {وَجَاءَ رَجلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}166 إنّ الخطر الذي ينتظر موسى صلّى الله عليه وسلّم يوشك أن يتداعى عليه، ذلك أنّ المكان الذي فيه موسى ليس بمنأى عن فرعون وجنوده ولهذا اضطر إلى البحث عن مكان جديد يجد فيه ضالته التي ينشدها، وفي هذا الموقف يعاد التاريخ مرة أخرى مع سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم حين خرج من مكة إلى المدينة مهاجرا بدينه وليؤسس دولة الإسلام فيها، هذا الأمر غير مقتصر على الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم فقط، بل هو دعوة من الله تعالى لكلّ المسلمين، إذ يقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}167.

ألهم الله موسى عليه الصّلاة والسّلام أن يقصد بلاد مدين إذ يجد فيها من يبصره بآداب النبوّة ولم يكن موسى يعلم إلى أين يتوجه ولا من سيجد في وجهته، يقول تعالى: {وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ}168.

وصل موسى صلّى الله عليه وسلّم أرض مدين وفي جعبته أفكار متلاطمة يحاول نسيانها أو تجاوزها، فإذا به أمام أمة من النّاس يسقون، يقول تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النّاس يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى

---

166 – القصص 20، 21.

167 – النساء 97.

168 – القصص 22.

يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}169 إن سؤال موسى لهاتين المرأتين ليس سؤلا عاديا، إنما هو سؤال المصلح الذي لا يتوانى عن تغيير أي شيء أمامه مهما كان حجمه أو تأثيره، والعمد إلى الحديث مع هاتين المرأتين يبرر أنّ الإصلاح لا يتقيد ولا يتحدد بأي شيء، فنوع الجنس ليس عائقا.

أتم موسى صلّى الله عليه وسلّم السقاية لهما، ثم تولى إلى الظل وهنا بدأ بالدعاء {فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} بعد هذا الدعاء انفتح له طوق النجاة الذي سيهيأ له الأرض الخصبة للانطلاق نحو مهمته الأساسية، فقد جاءت له إحدى الفتاتين لتقديم الأجر على ما قدمه لهما، لكن هذا التقديم لم يكن بالطريقة المباشرة، إنما كان بطريقة الإحالة إلى طرف ثاني يكمن عنده الأجر، إذ يقول تعالى: {فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}170 لم يذكر في النص القرآني اسم الأبّ، إلا أنّ جمهور المفسرين يذهبون إلى القول أنه شعيب صلّى الله عليه وسلّم، فحين استقبله سأله عن أحواله وهذه من عادة الكرماء، فطمأنه شعيب بأن يزيل عن نفسه الخوف لأنه أصبح في مأمن من أن يناله حكم فرعون لأن بلاد مدْين تابعة لملك الكنعانيين وهم أهل بأس ونجدة كما يقال. ومعنى نهيه عن الخوف نهيه عن ظن أن تناله يد فرعون، ووصفه لقوم فرعون بالظالمين تصديقا لما أخبره به موسى من رومهم قتله

---

169 - القصص 23 – 24.

170 - القصص 25.

قصاصا عن قتل خطأ. وما سبق ذلك من خبر عداوتهم على بني إسرائيل171.

لم ينته اللقاء إنما فتح باب يكون بعده موسى صلّى الله عليه وسلّم جزء لا يتجزأ من أهل هذا البيت، يقول تعالى: {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصّالحينَ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجلّيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}172.

إنّ قول المرأة: (يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) وإنْ التصق بموسى صلّى الله عليه وسلّم، إلا أنه يتمحور حوله كثير من الاختيارات الإنسانية ضمن المراكز التي يكون بيديها قيادة الأمة نحو ما يريده الله تعالى ورسوله، فالاستئجار هنا أوّلى به أن يدخل باب التقعيد حتى ينساق مع النصوص التي تدخل في هذا الأمر، وهنا تتبلور ملامح جديدة ضمن صورة اختيارية، أرادت أن تمنح الحياة تركيبا صعب التحقّق إلا أنّه قد يتحقّق ضمن فترات متباعدة، قد تطول وقد تقصر.

إنّ طرح المرأة كان بين يدي الشيخ إلا انّه يمتد على مدار الزمن، ذو رؤية تتمحور حول تثبيت الفكر المعرفي الإنساني وبخاصة الإسلامي، ذلك أن التوافقات المتعددة تتحقّق وفق معطيات راسخة، تعكس الأصول التي تنتمي إليها، ممّا يدعو هذا الأمر إلى تقابل مقترن بحيثيات واعية مستدركة لكلّ ما يحيط بها. وهنا اكتملت أسرة موسى

171 – التحرير والتنوير، ج 10، ص 377.

172 – القصص 26- 28.

صلّى الله عليه وسلّم ضمن مواصفات أُريد لها أن تتحقّق، فالأصول والفروع واحدة تشق طريقها في الدعوة إلى الله تعالى.

إنّ العرض الذي عرضه الشيخ على موسى صلّى الله عليه وسلّم، فتح له مقام الاستقرار والتأمل والتهيؤ النفسي الذي يشد عضده، فحياته كانت في قصر فرعون تسير وفق برنامج موضوع محدد، وطلباته كلّها مجابة، وحالته النفسية مستقرة، أما حالته الجديدة بعد الفرار فقد وسمت بالترقب والخوف والتفكير المستمر، هذه المرحلة انقضت بعد زواجه واستقراره مع الشيخ، فقد كانت له فترة نقاهة ليستعد بعدها للمرحلة الجديدة التي يعود فيها إلى فرعون، لكن هذه المرة ليس ابننا إنما داعيا إلى الله تعالى.

إن مجمل هذه المرحلة يمكن القول عنها أنها ابتدأت بحادثة قتل وشروع بحادثة بطش، وأنها انتهت بما يشبه علاقة الحب مع بنت مضيفه أدت إلى زواجه منها!

التحولات في حياة موسى:

انشطرت حياة موسى صلّى الله عليه وسلّم إلى شطرين، كان الشطر الأوّل منها ينتهي بخروجه مع أهله من مدين بعد أن أتم أجلّه مع والد زوجه، وما بعد هذا يعد الشطر الثاني، والنظرة في هذا الانشطار يتوسده أنّ ما سيتحقّق يمثل الجانب المهم في حياته التي قوامها الدعوة إلى الله تعالى، فالإرهاصات المتعاقبة التي حلت بموسى صلّى الله عليه وسلّم هي مواقف أفضت أن تصل به إلى نقطة البداية لتلقي الرسالة وفق صيغة لم تتحقّق لنبي غيره إلا لنبينا محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

إنّ إشكالية البحث عن ترسبات الماضي وإعادة إنتاجها بما يتحقّق مع ما بعد الخروج لا يتحقّق، ذلك أنّ كلّ نتاج هو يمثل مرحلة من المراحل، والتي تتمحور حولها جملة من المواقف أو الأفكار التي تضمحل حال تجاوزها وعدم الالتفات إليها، ولهذا أن حياة موسى بهذا التقسيم الذي أشرنا لم يعد إنتاجها إلا فرعون، واختياره للمراحل كان بانتقاء ما يتناسب ما يريد أن يحقّقه وفق معيارية البحث عن الخلاص أو الانتصار المنشود.

وهكذا، خرج موسى صلّى الله عليه وسلّم مع أهله في ليلة ظلماء باردة، يقول تعالى: {فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النّار لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ}173 رأى نارا تضيء له على بعد، فهم إلى الذهاب إليها لعله يأتي بقبس منها لكي يتدفؤوا بها من البرد، وفي قمة بحثه وتفكيره المنصب على الوصول إلى النّار نودي موسى صلّى الله عليه وسلّم في موقف بدأت معه حياته الدعوية، إذ يقول تعالى: {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}174 والنداء كان من الشاطئ الأيمن "ووصف الشاطئ بالأيمن إن حمل الأيمن على أنه ضد الأيسر فهو أيمن باعتبار أنه واقع على يمين المستقبل القبلة على طريقة العرب من جعل القبلة هي الجهة الأصلية لضبط الواقع وهم ينعتون الجهات باليمين واليسار يريدون هذا المعنى قال امر والقيس:

على قطن بالشيم أيمن صوبه... وأيسره على الستار فيذبل

173 - القصص 29.

174 - القصص 30.

وعلى ذلك جرى اصطلاح المسلمين في تحديد المواقع الجغرافية ومواقع الأرضيين، فيكون الأيمن يعني الغربي للجبل، أي جهة مغرب الشمس من الطور. ألا ترى أنهم سموا اليمن يمنا لأنه على يمين المستقبل باب الكعبة وسموا الشام شاما لأنه على شآم المستقبل لبابها، أي على شماله، فاعتبروا استقبال الكعبة"[175] وهذا يحيل إلى قوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ}[176].

فلما أتاها نودي {يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} فأخبره الله تعالى بالألوهية وربوبيته، ويلزم من ذلك، أن يأمره بعبادته، وتألهه، وهنا تحقّق الإبلاغ ضمن شكلّ مباشر، فقد كلّم الله تعالى في هذا الموقف وبين له أصول دعوته ومن هم المقصودين بالتبليغ، وفي هذا الموقف كلّم الله تعالى موسى صلّى الله عليه وسلّم مباشرة دون واسطة، إذ يقول تعالى: {وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}[177] لو جاء السياق مجردا، أي مذكورا فيه (كلّمَ) لحتمل أكثر من معنى كما ذهب البعض، فلما جاء تكلّيما خرج الشك الذي كان يدخل في الكلّام وخرج الاحتمال للشَّيْئين والعرب تقول: إذا وُكِّد الكلّامُ لم يجز أن يكون التوكيد لغوا والتوكيدُ بالمصدر دخل لإخراج الشك[178]. كما أنّ هذه المسألة مر عليها العلماء مرورا يفضي إلى بيان حقّيقتها، وسلب ما يتعلق بها من شكوك أو تأويلات "قال الفراء: العرب تسمى ما وصل إلى الإنسان كلّاما بأيّ طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر؛ فإذا أكد به لم يكن إلا حقّيقة

[175] – التحرير والتنوير، ج 10، ص 383.

[176] – القصص 44.

[177] – النساء 164.

[178] – لسان العرب، ج 12، ص 522.

الكلّام والمعنى: أنّ التكلّيم بغير واسطة منتهى مراتب الوحي خص به موسى من بينهم؛ فلم يكن ذلك قادحا في نبوة سائر الأنبياء؛ فكيف يتوهم كون نزول التوراة عليه جملة قادحا في صحة من انزل عليه الكتاب مفصلا مع ظهور أنّ نزولها كذلك لحكم مقتضية لذلك من جملتها أنّ بني إسرائيل كانوا في العناد وشدة الشكيمة بحيث لو لم يكن نزولها كذلك لما آمنوا بها"179.

إنّ وصول موسى صلّى الله عليه وسلّم إلى البقعة المباركة جاء وفق خطاب منحه التصرف بما يتناسب والتقديس لهذا المكان، إذ يقول تعالى: {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}180؛ فالنعلان "جلّدان غليظان يجعلان تحت الرّجلّ ويشدّان برباط من جلّد لوقاية الرّجلّ ألم المشي على التّراب والحصى، وكانت النعل تجعل على مثال الرّجلّ. وإنما أمره الله بخلع نعليه تعظيما منه لذلك المكان الذي سيسمع فيه الكلّام الإلهي"181.

هذا الخطاب تبعه تفصيلات تكمن فيها ما سيتحقّق لموسى صلّى الله عليه وسلّم، يقول تعالى: {وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}182 إنّ سمة الخطاب هنا أنّه تمحور حول عنصر جديد في

---

179 – تفسير حقّي، ج 3، ص 154.

180 – طه 11 – 13.

181 – التحرير والتنوير، ج 9، ص 31.

182 – القصص 31 – 32.

حياة موسى صلّى الله عليه وسلّم، وهذا العنصر هو العصا، فقد تمركزت فيه المعجزة التي سترافقه طيلة حياته.

عصا موسى:

إنّ العصا لم تكن مع موسى صلّى الله عليه وسلّم حين عاش في قصر فرعون ولا في فراره، إنما وجدت في حياته مع الشيخ، فالعصا ظهرت وكأنّها المحور الذي ترتكز عليه دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم، فالذهن ينصرف تماما إلى العصا حين الحديث عن حياة موسى، وهنا تطرح جملة من التساؤلات عن:

. ماهية العصا؟

. وجود العصا؟

. دلالة العصا؟

. تبعات العصا؟

. مهام العصا؟

. سمات العصا؟

. عقدت العصا؟

. تجلّيات العصا؟

. إفرازات العصا؟

. فاعلية العصا؟

. إرهاصات العصا؟

. إظهار قوّة موسى صلّى الله عليه وسلّم؟

إنّ دلالة العصا على مستوى الأحداث التي تحقّقت تمثلت في كونها المفتاح لكلّ الأبواب المغلقة التي واجهت موسى صلّى الله عليه وسلّم، فهي سرٌّ من أسرار الله تعالى أودعها عند موسى ليعالج بها قضية اكتسبت التحقّق وفق عصور طويلة، فالعمود الفقري لقضية فرعون يتمثل في السحر، ذلك أن قضية السحر كانت الشغل الشاغل في ذلك الزمان، فهو خروج عن العادة أو حتى الخروج عن إدراكات البشر عامة، فهو كينونة صورية يتمثل فيها خروجا عن المألوف ضمن سياقات أعدت كي تتحقّق مشاهدة ضمن رؤى متفرقة ومجتمعة، فالسحر كان رأس الحربة التي قاتل بها فرعون موسى صلّى الله عليه وسلّم، فقد توخى منه أن يدحض ما جاء به موسى، فهو يستبطن ألوهيته ويظهر السحر وكأنه القضية الأوّلى التي يصطدم بها مع موسى صلّى الله عليه وسلّم.

سأل الله تعالى موسى صلّى الله عليه وسلّم عن العصا بقوله تعالى: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى}183.

إن جواب موسى عن العصا فيه مركزية الحاجة المفتوحة، فقد أصبحت محور حياته الجديدة ذي الأنساق المتعددة التي أفرزت سمات جديدة لم ترد بخلده في يوم من الأيام.

إنّ الفكر الإنساني يتجذر إلى جذور مختلفة تابعة إلى مرجعيات مختلفة تحدده وترسم ملاحه في التعامل مع كلّ القضايا التي تنثر أمامه، فيعالج قضية قضية بما يراه الأصلح له، وبما يتفق مع جذوره، والصورة المثلى لعصر فرعون هي في جزأين، الجزء الأوّل فرعون وصورته كإله أمام

---

183 - طه 17 – 18.

النّاس، أما الجزء الثاني فهو السحر. وهنا تنحدر جملة من التساؤلات عن هذين الجزأين:

. لم هذا الوجود الثنائي؟

. هل هناك ارتباط؟

. هل هناك إحالة؟

. هل هناك توقع بسقوط أحدهما وبقاء الأخر؟

. هل هناك مبررات حقّيقية؟

إنّ تمزيق هذا التقابل وتهشيمه لم يبدأ بفرعون وهو مركز الثقل، إنّما بدأ بالسّحرة فهم البنية السفلى التي يتسور منها للوصول إلى البنية العليا، هذا التمزيق بدأ تدريجيا ليتحقّق فيه العظمة والتفكر والتبصر.

إنّ شخصية موسى صلّى الله عليه وسلّم تتسم بالحيوية والصبغة البشرية، يقول تعالى: {يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ}184 في هذا الموقف يعلم موسى صلّى الله عليه وسلّم أنّه بين يدي الله، إلا انه خاف عندما رأى عصاه تهتز كأنها جان، ولم يخف فقط بل ولى مدبرا زيادة في الخوف، فطبيعة الموقف أظهرت سلوكه البشري وهذا هو رد فعل الشخصية السريعة الانفعال، وهذا ما تحقّق في مواقف أخرى.

إنّ بيان السمة البشرية لموسى صلّى الله عليه وسلّم جاءت وفق التعرف على العصا، وماذا يمكن أن تتحول حين تقتضي المشيئة الإلهية

[184] - النمل 9 – 10.

ذلك؟ ذلك أنّ التحول الأوّل لها يعد إعدادا لموسى صلّى الله عليه وسلّم في مواجهة ما ينتظره في المستقبل، أما التحول الثاني فلم يكن مثل الأوّل، إذ يقول تعالى: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}[185]؛ فالتحول الأوّل كان ضمن دائرة غير المتوقّع، أما التحول الثاني فكان ضمن دائرة المتوقّع، ولهذا أن الموقف الثاني اتسم بالخيفة فقط، فلم يهرب أو يعقب ذلك أنه متوقّع ما سيحدث كما حدث في المرة الأوّلى.

إنّ تتمة الخطاب فيه إيحاء بالإعداد النفسي لموسى صلّى الله عليه وسلّم، يقول تعالى: {اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}[186] فالخوف دبّ في أوصال موسى وظنّ أنّ سوء قد وقع به، وفي هذا الأمر ورد معنيان "أحدهما: أنّ موسى صلّى الله عليه وسلّم لما قلب الله العصا حية: فزع واضطرب، فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء، فقيل له: إنّ اتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الأعداء. فإذا ألقيتها فكما تنقلب حية، فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها، ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران: اجتناب ما هو غضاضة عليك، وإظهار معجزة أخرى. والمراد بالجناح: اليد؛ لأنّ يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر. وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضد يده اليسرى، فقد ضمّ جناحه إليه. والثاني: أنّ يراد بضم جناحه إليه: تجلّده وضبطه نفسه. وتشدّده عند انقلاب العصا حية

---

[185] - طه 67 – 69.

[186] - القصص 32.

حتى لا يضطرب ولا يرهب، استعارة من فعل الطائر؛ لأنّه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما. وإلا فجناحاه مضمومتان إليه مشمران"187.

إنّ خطاب الله تعالى لموسى صلّى الله عليه وسلّم لم يأتي بنص واحد، إنما جاء بنصوص متعددة وان حملت نفس الأفكار إلا أنّها رسمت الواقعة بكلّ أبعادها القريبة والبعيدة، فضلا عن الحالة النفسية التي اتسم بها موسى صلّى الله عليه وسلّم.

أبلغ موسى صلّى الله عليه وسلّم الدعوة وشرع بتنفيذها بعد أن حُددت الوجهة له ومن هو المطلوب، يقول تعالى: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}188، هنا تمركز الخطاب وحدد الشخصية المطلوبة، وتم تحديد السبب، ففرعون اجتمع فيه الكفر والجبروت والطغيان، وكأن فرعون هو متحقّق في كلّ العصور التي أعقبت موسى صلّى الله عليه وسلّم، فقد أصبح رمزا للتجبر والطغيان ضمن دلالة حتمية الوقوع بالإحالة إلى المرجع الأوّل فرعون، وفي هذا التبليغ يتحتم على موسى قرع باب فرعون لينظر من أين يبدأ؟ وكيف يبدأ؟

إنّ ديمومة البحث عن مرتكزات جديدة تنبئ أنّ الدّعوة ليست بالأمر الهين، فهي مدعاة للبحث عن أسس صحيحة ترتكز عليها لتنطلق منها، فموسى صلّى الله عليه وسلّم عرف أعباء رسالته وما تتطلبه ولذلك بادر إلى البحث عن معين يتكأ عليه في دعوته، لا سيما أن نطقه لم يتحقّق فيه الإفصاح كلّيا، يقول تعالى: {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ

187 - الكشاف، ج 5، ص 136.

188 - طه 24.

يَا مُوسَى}189 ابتدأ وصف فرعون بالطاغية بصيغة التعليل "فجملة (إنه طَغَى) تعليل للأمر بالذهاب إليه، وإنما صلحت للتعليل لأن المراد ذهاب خاص، وهو إبلاغ ما أمر الله بإبلاغه إليه من تغييره عما هو عليه من عبادة غير الله. ولما علم موسى ذلك لم يبادر بالمراجعة في الخوف من ظلم فرعون، بل تلقى الأمر وسأل الله الإعانة عليه، بما يؤول إلى رباطة جأشه وخلق الأسباب التي تعينه على تبليغه، وإعطائه فصاحة القول للإسراع بالإقناع بالحجّة"190.

إنّ طلب موسى صلّى الله عليه وسلّم يتمركز حول بناء قاعدة رصينة تعينه في الاتكاء عليها من أجلّ مواجهة شخصية وفكر وعدو لم يطرح التاريخ الإنساني هذا الطرح من قبل، فضلا عن ذلك أن موسى قد عرف فرعون جيدا، لذلك أفضى به البحث عن حلول ما سيتوقع من ذلك اختياره لهارون، فهو يترقب ويرصد ويخمن ما يترتب على دعوته فهو يهيأ الأمور المختلفة ويجندها لخدمة قضيته المركزية، فالعصا مثلت الجانب المادي في دعوته، وهارون مثل الجانب الإفصاحي المعنوي، وهنا اكتملت الدائرة الدعوية التي تفكك كلّ الأباطيل وتعيد طرحها بأنساق واضحة تتفق مع توحيد الله تعالى وعبادته.

جاءهم موسى صلّى الله عليه وسلّم بالبينات، يقول تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآَيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آَبَائِنَا الْأَوَّلِينَ}191 بدأ الخطاب المنتظر الذي يفتح بوابة الالتقاء مع فرعون وأتباعه، هذا الالتقاء فتح باب الحوار ضمن أسلوب استدعائي مقترن بفكرة تمثل الصدى الذي يعود دائما لرد دعوة موسى

189 - طه 25 – 36.

190 - التحرير والتنوير، ج 9، ص 39.

191 - القصص 36.

صلّى الله عليه وسلّم بقولهم: {وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آَبَائِنَا الْأَوّلِينَ} إن التجرد الفكري واقع بين طرفين لا يتحقّق فيهما الاستدراك المراد، فالطرف الأوّل هو السحر، وهو أمر واقع بينهم ضمن حالة الخروج عن المألوف وضمن تصورات متحقّقة واضحة للعيان، فلم يقتصر على النّاس بل حتى تجاوزهم إلى موسى صلّى الله عليه وسلّم في (يوم الزينة)، أما الطرف الثاني فهو الإحالة إلى الآباء الأوّلين وهذه هي القاعدة التي تحقّقت عند كلّ المشركين والجاحدين، ضمن تسليم الأمور بما هي متحقّقة، والوقوف أمامها موقف التابع الذي لا يحرك ساكنا ويكتفي بالتقليد الكلّي.

إنّ آلية البحث في هذين الطرفين، يتطلب عزل كلّ طرف عن الأخر من أجلّ المعالجة المرادة، ولأن الرسالة سماوية جاءت للبشر فلابدّ أن تكون المعالجة ضمن سياقات البشر حتى يتأتى لها التحقّق، ذلك أن معطيات الفكر عامة تبحث عن المشاهدة، بمعنى أنّ رسوخ الفكر وتغيره يتمحور نحو آليات واعية مدركة تغربل وتعرض وتستنطق وتبصر، فالتلوين الفكري يقبع ضمن أطروحات مختلفة منها ما يتحقّق، ومنها ما يبقى ضمن صورة الافتراض الذي يبحث له عن خيط من خيوط التحقّيق، ولهذا، كانت مهمة موسى صلّى الله عليه وسلّم مهمة ليست معتادة، أرادت أن تغير الفكر الإنساني المتحقّق الشاخص بعينيه دائما إلى فرعون لا يميل عنه لا يمينا ولا يسارا بوصفه الوجهة التي لا يحيدون عنها، والتي لا تدخل ضمن نطاق التساؤلات الإنسانية المتكررة، ولهذا كان فرعون لا يخرج بخطابه لقومه من دائرة الأمور المسلم بها وفق ما يعتقدون به وما يحيلون به على أسلافهم، وهذا هو ما يريده وما يؤصله فيهم حتى لا يسلكوا مسلكا يكون من ورائه الخروج عن الطاعة والتسليم لأي فكر جديد يُقبل عليهم.

إنّ دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم حملت استنطاقات عدة في الفكر المعرفي الإنساني، فضلا عن الشخصية المحورية التي تمثل نقطة التقابل والجدال والرفض ألا وهي شخصية فرعون، فلم يتحقّق فيها السفسطة التي ينبغي أن يتحلى بها حتى ولو بجزء يسير، وهذا تابع إلى المستوى الفكري الهزيل الذي يملكه، فلم نلاحظ أي سمة فكرية تتماشى مع شخصه والفكرة المطبوعة عنه ضمن استحقّاقات مكانته وعلو منزلته بين النّاس، ولهذا أن محاورته مع موسى صلّى الله عليه وسلّم استندت في بدايتها إلى أمر في غاية الطرافة، إذ يقول تعالى: {قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ}192. التفت فرعون إلى مخاطبة موسى صلّى الله عليه وسلّم فقد "أعرض فرعون عن الاعتناء بإبطال دعوة موسى فعدل إلى تذكيره بنعمة الفراعنة أسلافه على موسى وتخويفه من جنايته حسبانا بأنّ ذلك يقتلع الدعوة من جذورها ويكف موسى عنها، وقصدُه من هذا الخطاب إفحام موسى كي يتلعثم من خشيةِ فرعون حيث أوجد له سببا يتذرع به إلى قتله ويكون معذورا فيه حيث كفر نعمة الولاية بالتربية، واقترف جرم الجناية على الأنفس"193.

إنّ فرعون أمام موسى لم يستطع أن يفتح أي باب أو حتى أن يطرق أي باب، فكلّامه يتمحور حول فكر خال من أي تنظيرات حتى ولو كانت خاطئة تعكس جانبا من جوانب فكره، فكلّ ما فعله أنّه نظر إلى المرآة وقرأ ما كان خلفه، ثم اتكأ عليه وصار مستندا يريد توظيفه لرد موسى صلّى الله عليه وسلّم عن دعوته.

---

192 – الشعراء 18 – 19.

193 – التحرير والتنوير، ج 10، ص 146.

المواجهة مع فرعون:

إنّ التحول في شخصية موسى صلّى الله عليه وسلّم انبثق في حواره مع فرعون، ضمن تغيير متحقّق أفضى إلى شكلّين مختلفين، شكلّ قبل اللقاء وشكلّ بعد اللقاء، فالشّكل الذي قبل اللقاء شكلّ المتخوف المترقب فقد اتضحت فيه الخصال البشرية إلى أوضح صورة وهي أيضا ما تحقّق مع تغير العصا وحركتها، هذه السمات لا تتناسب مع مواجهة فرعون ضمن الصورة المرسومة والمتحقّقة في الذهن، فلابدّ من تغيير الداخل والخارج ضمن حركة محورية تمر على كلّ الدائرة من بدايتها إلى نهايتها، وهنا تطرح بعض التساؤلات:

لماذا كانت شخصية موسى صلّى الله عليه وسلّم بشرية إلى هذه الدرجة؟

لماذا استمرت فترة ليست بالقصيرة على هذا المنوال؟

ألم يكن لها أن تتغير بعد الخروج الأوّل؟

ألم تكتسب من حياة الرعي أمور جديدة؟

ألم يكن للتكوين الأسري تأثير عليه؟

ألم تكتسبه السنون الطوال معارف وشخصية جديدة؟

إنّ هذه التساؤلات وغيرها تقود إلى فتح باب التغيير الذي مثلته دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم ضمن سياق البدء بالدعوة، فبداية الدعوة تعد الحد الفاصل في شخصية موسى الخائفة، فلم يعد للخوف مكان في شخصيته، فقد ارتسمت أمامه كلّ الخطوط التي أرادها الله تعالى منه، فالمعيارية البشرية بدأت تتلاشى إن صح القول، فالتمركز الذهني أصبح منقادا لآليات الدعوة التي بلّغه الله تعالى بها، فالخوف

ليس له مكان وخاصة من فرعون، إنما الخوف الذي يجب أن يتحقّق هو من الله تعالى، فلابدّ من المضي قدما في رسالته التي ستغير كثير من الثوابت، والتي تعد ركائز مهمة في حياة فرعون، ودعائم لا تقبل التحول ضمن زمن ليس بالقليل.

إنّ إرهاصات الماضي لم تعد تنال من شخصية موسى صلّى الله عليه وسلّم، إذ يقول تعالى: {قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ}194 فقد "أعرض فرعون عن الاعتناء بإبطال دعوة موسى فعدل إلى تذكيره بنعمة الفراعنة أسلافه على موسى وتخويفه من جنايته حسبانا بأن ذلك يقتلع الدعوة من جذمها ويكف موسى عنها، وقصدُه من هذا الخطاب إفحام موسى كي يتلعثم من خشيةِ فرعون حيث أوجد له سببا يتذرع به إلى قتله ويكون معذورا فيه حيث كفر نعمة الولاية بالتربية، واقترف جرم الجناية على الأنفس"195.

فقد اعترف بها موسى صلّى الله عليه وسلّم أمام فرعون بصيغة عدم التعمد، فهذا الإقرار جاء وفق معطيات تتحقّق ضمن استدراكات لاحت لموسى طوال حياته، وهنا يكون موسى صلّى الله عليه وسلّم قد فتح باب الماضي ليغلقه أبدا، وليغلق معه كلّ المنغصات التي تتراءى له عند قدومه إلى مصر، ذلك أن تكون عودته عودة ميمونة يتأبط ذراع الحياة والخلاص وليكون مصلحا لقومه والتي قدر الله تعالى أن تكون على يديه.

إنّ حياة موسى اتسمت بالتنقل المستمر يرافقه تدوير مكاني وزماني ضمن صيغة البحث عن النهاية من خلال البداية، هذا الأمر الترابطي

---

194 - الشعراء 18 -19.

195 - التحرير والتنوير، ج 10، ص 164.

المتسلسل فيه أطروحات كثيرة تدور في فلك الحياة التي تنظر بعين الحيرة والتأمل والاستبطان:

لماذا كلّ هذا التنقل؟

لماذا العودة إلى البداية؟

لماذا السير ضمن دائرة واحدة ولا خروج منها؟

لماذا الخوف والترقب؟

لماذا الابتعاد عن الوطن؟

لماذا القبول بالشروط الملزمة؟

لماذا العودة؟

لماذا البحث عن تغيير الذات؟

لماذا الاتكاء على الأخ؟

لماذا الاعتراف؟

لماذا زال الخوف؟

لماذا تغير إيقاع الحياة فجأة؟

لماذا أصبح للعصا شأن كبير؟

لماذا تغييب ماضيه الأسري فجأة؟

لماذا لم يفكر بأمه بعد هذا الانقطاع؟

لماذا لم تفكر به أمه وتبحث عنه؟

لماذا لم تفكر به أخته وتبحث عنه وقد تبعته وهو صغير؟

لماذا لم يفكر بالرجوع إلى مدين؟

هذه التساؤلات صارت خلف باب مؤصد يبحث عن شفرات خاصة تفتحه وتستنطقه ضمن أصول معرفية لا يعرف كنهها إلا الله تعالى.

إنّ المواجهة قادمة بكلّ دلالاتها وتحقّيقها آت، فهل تكن لها عدّة؟

فما هي العدة؟

وما هو المتوقّع؟

وما هو غير المتوقّع؟

وما هو الثابت؟

وما هو المتغير؟

إنّ إدراكات العقل تشير وفق استبطان مملكات واعية بفحوى الصور المتداعية في زمن موسى صلّى الله عليه وسلّم، ذلك أنّ الحياة في ذلك الوقت تسير وفق نسق إرادة الفراعنة، لا يحيل عنها النّاس، فالقوّة والغطرسة والسيطرة كبلت الوعي الفردي حتى تجاوز الأمر إلى الوعي الجمعي، هذه النظرة هي نظرة فوقية تتبع فرعون وحاشيته، إلا أنّ الواقع يشير إلى أنّ الوعي الفردي وحتى الوعي الجمعي يعيش في حالة سبات يترنم فيه الرفض ضمن صوت مهموس يحاول الارتقاء بالسلم الموسيقي كي يصل إلى حالة الرفض الكلّي المدوي في أرض مصر. ولكي يتم البيان الحقّيقي لا بد من إصلاح الرأس أو بتره، فلا مجال لحل ثالث، فالوضع لا يحتمل على كلّ الأصعدة فلابدّ أن يكون التغيير:

كيف يكون؟

متى يكون؟

إنّ دائرة الكفر لم يكن لها الاستقرار إلا ضمن انحدارات عقلية توسمت فيها القبول والإتباع، ولهذا أن شخص تحقّق فيه التأليه ضمن آلية القبول والإتباع له دون الرفض أو المماطلة أو التفكير الواعي المنسجم مع ما سبق من الدعوات الإلهية المتحقّقة على يد الرّسُل السابقين.

جمع فرعون قومه ضمن حركة استباقية أراد منها الاطمئنان والبيان والحشر، إذ يقول تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ}[196] فالاطمئنان حالة سيكولوجية لا بُد أن تلازمه حتى يبقى قابعا ضمن كلّ الإشارات والدلالات التي تشير إلى أنّه الإله الأوحد الذي يختفي خلفه كلّ ما يناقضه ويخالفه ويغيره ويسقطه، أما البيان حتى يتأكد من حقّيقته عند النّاس وبقاء صورته كما هي أو كما هو يريدها، أما الحشر فلابدّ من خلق حالة إعلامية تتهيأ للموقف الذي يتوقّع حدوثه. هذه الإجراءات التي تبعها فرعون رسم من خلالها ألوهيته الخادعة، فالإشكالية في عهد فرعون إشكالية إتباع أعمى، وهذه تحتاج إلى تمحور معرفي يغير ويؤصل، وهنا لابدّ من طرح بعض المفردات التي تتناسب مع طبيعة الوعي المتحقّق منها:

التغيير

[196] - الشعراء 38 – 39.

التأصيل

الرفض

الإدراك

التمهل

التحقّق

البحث

الإقناع

الالتماس

الإيمان

الإعلان

الفرز

الاسترجاع

الاستجلّاب

النفي

إنّ الأهرامات في مصر يمكن القول عنها أنها تمثل شكلّ استقرار الفراعنة ضمن أساليب معينة مدركة لحيثيات الشّكل الهرمي المختار، فالشّكل الهرمي يمثل الاستقرار الفرعوني، فرأس الهرم يتمثل فيه فرعون أما منتصفه فهم وزرائه، أما قاعدته فيتمثل فيها السّحرة.

إنّ هذا التدرج المتشكلّ من شكلّ هرمي يفضي إلى استقرار مستند على طبقتين يلجا إليهما فرعون في الأمور العظام ضمن آلية الاتكاء التي يريدها، ولذلك نجده في أمر موسى صلّى الله عليه وسلّم يخاطب هامان والسّحرة، فهامان هو الأداة التنفيذية لفرعون، أما السّحرة فهم القاعدة التي سيتحقّق من خلالها الفصل في أهم قضية جعلت من فرعون يبهت من موقفهم المتحول نحو دائرة موسى صلّى الله عليه وسلّم. إذ يقول تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ}197.

هنا، ينادي فرعون هامان بطلب يفيض تساؤلا ووعيا في قضية كتب لها إن تدخل مجال النقاش والبحث ضمن آلية جيدة مرتبطة بفكر يبحث تطابق مع إحالات سابقة تتمحور حول دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم، فكان طلب فرعون فيه تساؤلات جمة منها:

لماذا المكان العالي؟

لماذا السماوات؟

لماذا النظر إلى السماوات؟

لماذا يظن أن إله موسى في السماوات؟

وهل هناك طرق موصلة إلى السماء؟

لماذا يظنه كاذبا من البداية؟

[197] - غافر 36، 37.

لماذا يريد أن يصل إلى إله موسى؟

هل الوصول إلى إله موسى فيه تغيير لفرعون؟

هل أراد أن يفند دعوة موسى ضمن إجراء إنساني؟

إنّ هذه التساؤلات تحيل إلى أن فرعون بدأ يعد العدة لمواجهة موسى صلّى الله عليه وسلّم ضمن البحث عن آليات تمسح دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم بوعي إدراكي قائم على تهشيم الدعوة بمحي أثرها السماوية بأسلبة مقابلة لها بآلية سماوية في الظاهر إنسانية بالداخل، فلماذا البحث في السماء؟ ألا يعني ذلك من علم فرعون أنّه لا أقوى من فرعون في الأرض؟ ولابدّ أن يبحث عن الأقوى في السّماء، وهذا ما دفع فرعون ليشكك في نبوة موسى صلّى الله عليه وسلّم.

وللإجابة على تساؤل (هل هناك طرق موصلة للسماء) نقول: إنّ علم الفراعنة لا يجهل انه لا يصل أي بناء إلى السماء:

. فلماذا طلب فرعون إن يبني له صرحا؟

. هل يرتقي إلى حد السماء؟

. أم يرتقي إلى خالق السماء؟ معرفة وتجلّيا من هذا الخالق العظيم.

لقد علم الفراعين علما جما من علوم الفلك الذي أوصلهم إلى معرفة أسرار من الشمس والقمر والمواقيت وشروق الشمس وغروبها من فتحات صغيرة على وجوه الملوك في المعابد بمقادير لا تخطى نهائيا، فكانت رغبة فرعون في أن يصل بهذا العلم إلى الحاكم المطلق الذي يتحكم في مخلوقات السماء، ومن جانب أخر مهم أنّ الفراعنة لهم علم

بوجود اله واحد من دعوة أخناتون الذي أوّل من دعا للتوحيد، والذي تقول عنه بعض المصادر أنّه نبي الله إدريس صلّى الله عليه وسلّم.

إنّ مشهد طلب بناء الصرح يشبه المسرحية التي تعرض أمام حشود من النّاس يتقبلون ما يتحقّق أمامهم وفق الإتباع الأعمى الذي لا يحيل لا يمينا ولا يسارا، إنما يبقى مشدودا إلى ما تربى عليه، فالممثلون يسلبون عقول المتفرجين ويعيدونها إليهم كما كانت وهذا حال فرعون في بحثه عن اله موسى صلّى الله عليه وسلّم.

وهنا، تكمن مشكلّة الدعوة فلابدّ لها من البحث عن طرق تتناسب مع العقول المترقبة لما سيحدث، فما هو قادم سوف يترتب عليه تغيير كبير يشمل الرأس والأطراف والقاعدة.

مواجهة السّحر:

إنّ السّحر هو الأرضية التي استند عليها فرعون، أمّا موسى صلّى الله عليه وسلّم فقد أراد أن يزلزلها من تحت قدمه، فالتقابل حاصل بين طرفين يريد كلّا منهما إثبات ما يريده ضمن إجراءات خاصة متحقّقة على مستوى التحقّق العيني لهما دون إرهاصات أو احتمالات عدم التحقّق ، فالسحر كانت سمة العصر وهو محور الثبات العيني الدنيوي، فهو أمر خارج عن المألوف متحقّق على المستوى البشري ضمن آليات خاصة تمرّس عليها السّحرة، فيكون بهذا صورة من صور الانزياح عن الثوابت الإنسانية فيما ترى وتعتقد، فتفكيكه وتهشيمه ونسفه يدخل ضمن دائرة الإزاحة العليا التي ترنو إلى السحر بوصفه قاعدة لها لا ينفك عنها، فهو أداتها الأوّلى لترسيخ ديمومتها وعنوان دائم للسلاح الذي تدافع بها عن نفسها.

إن النص المغلق والنص المفتوح تحقّق عند فرعون ضمن إرهاصاته الأوّلى ذلك أن فرعون قد حظي بمنولوج لم يتحقّق له في حياته كلّها، فصدمته مع موسى خرقت كلّ التوقعات وألبسته لباس الذل والتحقير، فالتقابل مع موسى صلّى الله عليه وسلّم أمر حتمي لا بد منه حتى يثبت فيما يريد أن يحقّقه.

والتساؤل الذي يطرح هنا:

أين يكمن النص المغلق؟

أين يكمن النص المفتوح؟

أين كانت الإرهاصات الأوّلى؟

أين كان المنولوج الأوّل؟

إنّ البحث عن المغلق والمفتوح يؤصل فكرة البحث عن الخلاص، فالخلاص هو مطلب مشترك لكلّ الخلائق، لكن عند فرعون هو مطلب الحياة الأوّلى في كلّ تجلّياتها، ذلك أنه لم يستوعب دعوة موسى ضمن إجراءات العقل المتاحة دون الركون إلى الفوقية والتعالي غير المبررين، فكرسيه لن يتغير في حالة قبول دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم، فدعوة موسى أرادة منحه صفة الديمومة ضمن تغيير ما جثم عليه من التكبر والتجبر والطغيان.

إنّ ملامح هذه الفترة تنصب على أنّها:

دعوة

محاجّة

توجيه

إفهام

تعميق

مجابهة

دحض

إظهار

اقتفاء

إيمان

وهنا، يتوجب على موسى السير وفق إدراك واع ليتخطى كلّ المعوقات التي تنتظره ضمن رؤية ثاقبة تستبطن مكنونات الأشكال التي ستمر من أمامه.

إنّ دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم دعوة تغيير وإصلاح أرادة أن تنقل أناس القاع من الهوة التي يعيشون فيها، وهذا ليس حال فرعون فقط، بل إنما هو حال كلّ الجبابرة والمتغطرسين الذين منحوا أنفسهم سمة الألوهية ضمن تجلّيات إنسانية، فقد أراد فرعون فتح طرق الدنيا له في أوسع أبوابها بصفة الديمومة من خلال البحث العقيم الواهي عن أسباب السماوات ليقنع نفسه ويقنع أتباعه بثبات ملكه وألوهيته، هذا التصرف القائم على الأعلى والأدنى فيه زحام فكري يتشتت ويتجمع، يظهر ويغيب، فالمتوالية المتحقّقة هنا هي متوالية إرهاصات تسير وفق انحدار سريع ليجد نفسه في النهاية ضمن نهاية لم يفكر أو لم يحلم بها في حياته كلّها.

شخصيات في حياة موسى:

بعد عودة موسى صلّى الله عليه وسلّم إلى مصر عاد النسق الأسري مرة أخرى ضمن ثنائية وليس رباعيا كما كان أوّلا عند طفولة موسى صلّى الله عليه وسلّم، والغريب في حياة موسى صلّى الله عليه وسلّم أن أمه وأخته قد اختفتا من حياته بعد خروجه من مصر، وكأنّ دورهما قد انتهى بعد تجاوز موسى صلّى الله عليه وسلّم الطفولة والترجلّ إلى مرحلة الشباب والنضج، وبهذا يمكن أن نقسم حياة موسى إلى قسمين من ناحية التواجد الأسري، وذلك ضمن دائرة المعرفة المتحقّقة لدينا، والمرجعيات المستعارة، فأمه الصديقة كانت المحور الذي دار حوله كثير من المواقف، فضلا عن ذلك أخته التي تتبعته في رحلته من أحضان أمه إلى أحضان زوج فرعون ثم عودته ثانية إلى أمه، إذ يقول تعالى: {إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى}198 نرى في هذه الفترة غياب هارون صلّى الله عليه وسلّم فلم يتحقّق وجوده في حياة موسى صلّى الله عليه وسلّم، ونحن نعتقد هنا أن تناوب وجود هذه الشخصيات في حياة موسى له دلالة معرفية قابعة بين صفحات حياة موسى صلّى الله عليه وسلّم، فنسق الحياة أفضى إلى وجود شخصيات أو شخصية بعينها في حياته، وهنا يتراءى لنا جملة من التساؤلات:

198 - طه 38 – 40.

لماذا الظهور؟

لماذا الاختفاء؟

لماذا التباين؟

لماذا التوقيت في الظهور والاختفاء؟

لماذا لم يذكر موسى أمّه؟

لماذا لم يذكر موسى أخته؟

هل أن مهمة أمّه قد انتهت؟

هل أن مهمة أخته قد انتهت؟

لماذا هذا الانقطاع المفاجئ؟

إنّ حياة موسى صلّى الله عليه وسلّم فيها تداعيات معرفية على مستوى الفكر البشري، ولها تداعيات على مستوى الغياب والحضور، ذلك أنّ وجود الأم والأخت تحقّق في وقت مقصود بذاته دون غيره، فالرعاية والتنشئة الصحيحة لا يمكن أن تخرج خارج نطاق الأم وان تحقّقت، فوجود الأم الحقّيقية في مرحلة طفولته فيه عبق الحنان والطمأنينة، والأخت كذلك تكون خير عون ورفيق للأخ في حياته، كلّ هذا تحقّق مع موسى صلّى الله عليه وسلّم ضمن مستوى الطفولة ولم يتجاوزه إلى ما بعد الخروج من مصر، كما أن هناك قضية مهمة في حياة موسى صلّى الله عليه وسلّم ألا وهي أين الأب:

لماذا لم يظهر في حياته؟

لماذا لم يذكر في حياته؟

لماذا كانت الأحداث كلّها تدور حول الأم؟

أين هو الأب؟

لماذا هذا الانقطاع المعرفي عنه؟

ألا يكون له دور في حياة موسى حتى ولو بالإشارة؟

إنّ هذه التساؤلات تقف على عتبة حياة موسى صلّى الله عليه وسلّم دون الوصول إلى أي ملمح أبوي يذكر سواء على المستوى النص القرآني أم على مستوى المرجعيات المختلفة، لذا يمكن لنا أن نقول: أنّ أبا موسى صلّى الله عليه وسلّم هو من الصّالحين، فلا يتحقّق لنبي من الأنبياء أن يكون من صلب مشرك أو كافر وهذا متحقّق على مستوى كلّ الأنبياء، فالاصطفاء والاختيار يخرج الأنبياء وآبائهم من دائرة الشرك والضلالة، إذ يقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}199؛ فالاصطفاء يدل على مزيد من الكرامة وعلو الدرجة، فالبيوت التي ذكرها الله تعالى هنا هي الأصول لنسق الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم، فيكون فيها وفي ذريتها الصلاح، فقد حصل التشابه بينهم في الصفات التي جعلتهم صفوة الله تعالى من العالمين، فقد ذكر الله تعالى جملة من الأنبياء الداخلين في هذه البيوت بقوله تعالى: {وَمِنْ آَبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أوّلئِكَ الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنبوّة فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ أوّلئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ

[199] - آل عمران 33 – 34.

فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ}200.

إنّ وجود هارون صلّى الله عليه وسلّم في حياة موسى مثل العتبة الثانية التي وقف عليها في حياته، فاللقاء بينهما ابتدأ مع رحلة موسى بالعودة إلى مصر، تلك العودة التي كتب لها أن تحصل ضمن بداية ثنائية ضمت موسى وهارون عليهما السلام، لمجابهة فرعون لتقوميه وتبصيره وتغييره إلى الوجهة التي يريدها الله تعالى.

تحاوره وأخيه هارون مع فرعون:

إنّ نقطة البداية كانت قائمة على ترابط فكري قائم على إرشاد من الله تعالى، إذ يقول تعالى: {اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}201 إن هذه البداية ليست لموسى وهارون عليهما السلام فقط؛ إنما هي صيغة معرفية ربانية لكلّ البشر حين يريدون الإصلاح والتغيير، فلا يكون هناك ضعف بل يجب أن تكون هناك قوّة العزيمة في تنفيذ أمر الله تعالى، وعند البدء بالدعوة تكون الخطوط العريضة أمام موسى في شق الطريق الموصل إلى فرعون، وهذه الخطوط أرساها الله تعالى له كما أرساها إلى نبيه الكريم محمّد صلّى الله عليه وسلّم، إذ يقول تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}202؛

[200] - الأنعام 87 – 90.

[201] - طه 42 – 46.

[202] - آل عمران 159.

فاللين يكون في بداية الدعوة، فهو المرآة العاكسة التي يُرى من خلالها صورة الداعي المقبل من الله تعالى، وليكون في الوقت نفسه حجّة على المشرك والكافر يوم القيامة، فالدعوة التي أقبلت على فرعون اتسمت باللين والرفق ضمن أسلوب الترغيب دون أسلوب التنفير.

إنّ القول اللين يعطي مساحة واسعة في الخطاب، فهو يعطي للمخاطَب ثلاثة خصال، وكلّها تصب في المصلحة وهي:

التوقف

الاستدعاء

النظر إلى أمام

فالتوقف هو حالة يكون فيها الذهن مرتكزا على نقطة واحدة تدور حولها كلّ الخطابات التي استقطبها من الآخر. وهذه الحالة هي يتوقف فيها الزمن فتنقطع الصلة بين الماضي والمستقبل، وهذا الانقطاع لا يكون تاما؛ إنما يكون وفق سقف زمني غير قابل للتمديد، فالإطالة غير متحقّقة فلابدّ أن يسير وفق اتجاهين يرتبطان بالفكر الإنساني في كلّ وقت وحين، وهما الماضي والمستقبل الذي يقابلهما – الاستدعاء – للماضي، و- النظر إلى الأمام – وهو المستقبل.

إنّ الاستدعاء هو نسيج معرفي للإنسان لا يغادره، فهو جزء منه ويتزامن معه في كلّ تصرفات حياته ضمن أساليب معينة لا تنفك عنه، فالاستدعاء كيان معرفي تتحرك حدوده نحو الأمام دائما، فهو يزداد يوما بعد يوم، وهذه الزيادة تثري الخزين المعرفي الإنساني في جميع اتجاهاته سواء أكانت الدينية أو الاجتماعية أو الاقتصادية. فالاستدعاء يعيد إنتاج ما يسمعه أو ما يشاهده أو ما يقرأه، وعلى أساس هذا الاستدعاء تطلق الأحكام وتصاغ ضمن اللحظة الراهنة التوقيفية مع

الاستدعاء القائم على الخزين المعرفي، وهذا الترابط الآني الماضوي إن صح تسميته لا يكون كافيا إذا لم يكن مرتبطا بنظرة إلى الأمام.

النظرة إلى الأمام: هي الجزء المكمل للثلاثة التي اقترحنا ها، فالأمام هو دائما الصورة المستقبلية التي يريدها الإنسان تحقّيقها، فهو يوظف الماضي والحاضر في رسم الأبعاد المختلفة التي تكون النسيج الأساس في نسج مستقبله الذي يحلم به أو يظنه يتحقّق. ولهذا جاء خطاب الله تعالى لموسى صلّى الله عليه وسلّم في كيفية معاملة فرعون بصيغة(اللين) والتي أفضى فيها الخطاب أنها تتمحور حول:

الذكرى

الخشية

فهما جنب إلى جنب معايير إنسانية قابلة للتحقّق، فهما فرصتان للنجاة، فالاتكاء عليهما يفتح أبواب التغيير نحو إدراك الحقّيقة التي لا يكتنفها الشك أبدا، فأسلوب التبليغ هنا فتح مجال التأمل ومجال البحث عن الله تعالى.

هذه الدعوة اللينة التي انطلق منها موسى وهارون عليهما السلام تزامنت معها الشخصية البشرية المرابطة لهما وذلك ضمن سياق القرآن الكريم بقوله تعالى: {قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}203؛ فهما يخافان من فرعون من أن يعجل عليهما العقوبة المتوقّعة، فهما يتوقعان أن يصدر منه مثل هذه الأفعال، وتعجيل العقوبة هو تصرف بشري مرتبط بالسيكولوجية الإنسانية في الدفاع عن نفسها عندما تحس أنها أمام خطر يهدد حياتها أو مكانتها أو مستقبلها.

---

[203] - طه 46،45.

إنّ إظهار الخوف من تعجيل العقوبة من قبل فرعون أعقبه سياق قرآني يفتح شفرات الخوف لدى موسى وهارون عليهما السلام ويعيد إغلاقها ضمن قدرة إلهية رسمت شكلّ العناية ضمن مفردات ثلاث ألا وهي:

معكما

أسمع

أرى

فالمعية هي معية حفظ تزامنية تفضي إلى المصاحبة الدائمة التي لا تنفك، ففيها اطمئنان للنفس وفيها الثبات والمضي نحو دعوة الله تعالى.

أمّا السّماع والرؤية فهما يحيلان إلى حفظ الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام في صورة تتجلّى فيها عظمة الله تعالى وقدرته. فالمفردات الثلاث كلّها تصب في معنى واحد ورد في قوله تعالى: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}204، وان جاء السياق هنا في التربية والرعاية إلا أن عناية الله تعالى قد حفت موسى صلّى الله عليه وسلّم في كلّ المواضع المهمة والخطرة التي واجهته في حياته.

إنّ بداية موسى وهارون عليهما السلام فيها استحضارات مختلفة تريد فتح بوابة فرعون التي آن لها أن تفتح بعد انتظار وترقب، فلابدّ من التغيير، ذلك أنّ الله تعالى يعطي الوقت الكافي للكافر والمشرك والطاغي والمتجبر كي يحدد نهايته التي يريدها، وهذه النهاية تكون وفق الرسالة التي يحملها له النبي المرسل، فعلى أساسها تكون نهايته، وعلى أساسها يحاسب.

[204] - طه 39.

إنّ حياة الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم هي ليست خاصة بهم، بل هي دروس وعبر جعلها الله تعالى في كلّ الأزمان، فقد يتكرر فرعون مرة أخرى ولكن بالطبع ليس باسمه، بل يتكرر بتجبره وطغيانه وتجاوزه، فضلا عن ذلك أن أسلوب الدعوة يتكرر مرة أخرى، فقد رسمه الله تعالى ليكون الطريق الأمثل لدعوة النّاس جميعا إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

إنّ موسى وهارون عليهما الصّلاة والسّلام يدركان جيدا بطش فرعون، ولهذا كان كلّامهما مرتبط بواقعية ما يحدث على أرض الواقع، فقد كانت احتمالاتهم منبثقة من وعي ترسخ في عقول كلّ الذين عاشوا حياتهم ضمن مملكة فرعون، فهذا الوعي يحتاج إلى تشتت وإعادة إنتاج كي يهشم صورة فرعون ويستبدلها أو يمحوها إلى الابدّ. ذلك أنّ فرعون استرهب أهل مصر، فالخوف دب فيهم فهو لا ينفك عنهم، فكان كالطعام والشراب لا يفارقهم أبدا.

إنّ حياة المصريين كانت قائمة على الوجلّ، ولهذا كانت فكرة تغييره أو محوه على المستوى البشري عقيمة، إلا أن التغيير قادم، فسوف يغير حياة المصريين فسيمحو ويؤصل، فتستجد حياتهم بيوم جديد لم يكن يدور في خلدهم أنّه سيتحقّق.

بدأت فاعلية الدعوة تدور رحاها ضمن الطريقة التي انتهجها الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام، إذ يقول تعالى: {فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كلّ شَيْءٍ

خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}205 إنّ سياق الآيات الكريمة أفرز أنّ فرعون أدرك أن موسى صلّى الله عليه وسلّم هو صاحب الرّسالة وليس هارون صلّى الله عليه وسلّم، والسؤال المطروح هنا على موسى صلّى الله عليه وسلّم من قبل فرعون يفتح تساؤلات عدة منها:

هل يعرف فرعون الله؟

هل يتغاضى عن معرفة الله؟

هل يريد أن يعرف الله حقّا؟

هل فيه استدراج كيدي لموسى وهارون؟

إنّ المحاورة مع فرعون كانت بداية المواجهة التي كتب لها أن تفتح الحوار على مصراعيه، وليجد كلّا منهما المدخل المناسب فيما يريد أن يثبته أو يزيله. فالبداية حملت جوانب مهمة ارتكز الخطاب فيها على التعريف الذي يفتح باب الحوار ن فكانت الرّبوبية هي المدخل، إذ يقول تعالى: {فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ} إن ذكر الرّبوبية مع إضافة الضمير هنا جاء ضمن صيغة الادعاء التي يرددها فرعون، يقول تعالى: {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}206.

وهنا، فتح الحوار ضمن نسق تراتبي منغلق على نفسه مفتوح على فرعون، ليشكلّ ملتقى قابل للمحاورة، يحيل وينتظر، يبعد ويقترب، تتسع فيه الهوة التي لا تريد أن تضيق، فكلّ طرف يختلف عن الآخر، ذلك أنّ الطروحات لا يمكن أن تلتقي أو تتعادل أو تقترب، فلابدّ من التسليم أو الانزواء المفضي إلى مهانة وهلاك.

205 - طه 47 – 50.

206 - النازعات 24.

إنّ دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم بدأت بالبحث عن خلاص بني إسرائيل فبقائهم يعني "إبقائهم على ما كانوا عليه من العذاب فإنهم كانوا تحت ملكة القبط يستخدمونهم في الأعمال الشاقة كالحفر والبناء ونقل الأحجار وكانوا يقتلون أبناءهم عاما دون عام ويستخدمون نساءهم ولعلهما إنّما بدأ بطلب إرسال بني إسرائيل دون دعوة الطاغية وقومه إلى الإيمان للتدريج في الدعوة"207.

ذبح البقرة:

مثلت حادثة البقرة إضافة جديدة في سلسلة الاختبارات المتلاحقّة التي أعطت الصورة الواضحة لبني إسرائيل ضمن إطار واضح الملامح والحدود، وهذا يفضي بنا إلى القول إلى أن بني إسرائيل مثّلوا شكلّا متكررا على مدى عقود من السنين بل على مدى كلّ تاريخهم، فالخطاب القرآني أوضح في أكثر من موضع جرائمهم المتكررة، إذ يقول تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الحقّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعجل مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ}208 فالخطاب القرآني استخدم معهم الفعل المضارع) تقتلون) الدال على الاستمرار في الفعل المنكر الذي لا يفارقهم أبدا، فضلا عن عبادة العجل الواردة في الآية الكريمة، وهذا لا يمثل إلا جانبا يسيرا من جوانب أفعالهم المشينة.

إنّ حادثة البقرة والقتل اكتسبت اجتهادات متنوعة أفضت في جانب إلى جعل قصة القتل والبقرة قصة واحدة ، فقصة البقرة تكون متممة لقصة القتل، وجانب يجتهد ويرى أنهما قصتان لا علاقة للثانية

---

207 - تفسير الألوسي، ج 12، ص 166.

208 - البقرة 91، 92.

بالأوّلى، فذبح البقرة حادثة منقطعة لا تمت بأي صلة إلى حكاية القتل، إذ يرى ابن عاشور ذلك بقوله: "فالذي يظهر لي أنهما قصتان أشارت الأوّلى وهي المحكية هنا إلى أمر موسى إياهم بذبح بقرة وهذه هي القصة التي أشارت إليها التوراة في السفر الرابع وهو سفر التشريع الثاني (تثنية) في الإصحاح 21 أنّه إذا وجد قتيل لا يعلم قاتله فإن أقرب القرى إلى موقع القتيل يخرج شيوخها ويخرجون عجلة من البقر لم يحرث عليها ولم تنجُر بالنير فيأتون بها إلى واد دائم السيلان لم يحرث ولم يزرع ويقطعون عنقها هنالك ويتقدم الكهنة من بني لاوي فيغسل شيوخ تلك القرية أيديهم على العجلة في الوادي ويقولون لم تسفك أيدينا هذا الدم ولم تبصر أعيننا سافكه فيغفر لهم الدم". هكذا ذكرت القصة بإجمال أضاع المقصود وأبهم الغرض من هذا الذبح أهو إضاعة ذلك الدّم باطلا أم هو عند تعذر معرفة المتهم بالقتل؟ وكيفما كان فهذه بقرة مشروعة عند كلّ قتل نفس جُهل قاتلها وهي المشار إليها هنا، ثم كان ما حدث من قتل القتيل الذي قتله أبناء عمه وجاءوا مظهرين المطالبة بدمه وكانت تلك النازلة نزلت في يوم ذبح البقرة فأمرهم الله بأن يضربوا القتيل ببعض تلك البقرة التي شأنها أن تذبح عند جهل قاتل نفس. وبذلك يظهر وجه ذكرهما قصتين وقد أجمل القرآن ذكر القصتين لأن موضع التذكير والعبرة منهما هو ما حدث في خلالهما لا تفصيل الوقائع فكانت القصة الأوّلى تشريعا سيق ذكره لما قارنه من تلقيهم الأمر بكثرة السؤال الدال على ضعف الفهم للشريعة وعلى تطلب أشياء لا ينبغي أن يظن اهتمام التشريع بها، وكانت القصة الثانية منة عليهم بآية من آيات الله ومعجزة من معجزات رسولهم بينها الله لهم ليزدادوا إيمانا"[209] هذا الرأي يمكن المضي معه ضمن زاوية الفهم العام

[209] - التحرير والتنوير، ج 1، ص 335.

للقصتين، فالبحث عن القاتل كما نعتقد لا علاقة له بذبح البقرة، فالترابط المنطقي بينهما غير متحقّق وفق الإدراك لحيثيات معرفة القاتل ومن ثم ذبح البقرة، إلا أن السياق القرآني جعل بينهما ارتباط متحقّق، إذ يقول تعالى: {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آَيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}210، فقوله تعالى: (اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا)، شكلّت نقطة الالتقاء بين القصتين فهل كان الذبح ساعة سؤالهم عن القاتل؟ فكان الجواب: (اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا) لو كان الأمر كان كذلك لانتفى أن تكون هناك قصتان ولكانت قصة واحدة، إلا أنّ ما نعتقده أنّهما قصتان اثنتان ونسير مع من سار على هذا المذهب. ولو كانت البقرة جزأ من الطقس الذي من خلاله يدعون معرفة القاتل كما ورد في التوراة فلماذا التساؤل المتكرر عن صفات البقرة وهي صفات معروفه كما وردت في التوراة، لو اعتمدنا أن حادثة البقرة بعد العجل يرجح أن يكون ذلك طقس من الطقوس.

فحادثة القتل وردت في قوله تعالى: {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آَيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}211. جاءت في مجملها في سياق واحد عند جمهور المفسرين وبالاستناد إلى ما رواه ابن عباس وغيره "قال ابن عباس وعبيدة السلماني وأبو العالية ومجاهد والسدي وغير واحد من السلف: كان رجلٌ في بني إسرائيل كثير المال وكان شيخا كبيرا وله بنو أخ وكانوا يتمنون موته ليرثوه فعمد أحدهم فقتله في الليل وطرحه في مجمع الطرق ويقال على باب رجلٌ منهم، فلما أصبح

[210] - البقرة 72، 72.

[211] - البقرة 72، 73.

النّاس اختصموا فيه وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم فقالوا: ما لكم تختصمون ولا تأتون نبي الله؟ فجاء ابن أخيه فشكا أمر عمه إلى رسول الله موسى صلّى الله عليه وسلم فقال موسى صلّى الله عليه وسلّم: أنشد الله رجلًا عنده علم من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به؛ فلم يكن عند أحد منهم علم منه وسألوه أن يسأل في هذه القضية ربّه عزّ وجلّ.

فسأل ربّه عزّ وجلّ في ذلك فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرة فقال: (إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا) يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتيل وأنت تقول لنا هذا؟ (قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) أي: أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحى إلى وهذا هو الذي أجابني حين سألته عمّا سألتموني أن أسأله فيه"212 هذه القصة نلتمس في تشكيلاتها أنّها سارت وفق اتجاه واحد هو صيرورة البحث عن القاتل، إلا أن التعرف على القاتل اتجه إلى موسى صلّى الله عليه وسلّم، وهنا تتبادر في ذهننا بعض التساؤلات منها:

هل هو اعتراف من بني إسرائيل بالنبي موسى صلّى الله عليه وسلّم نبيا؟

هل أنّ مثل هذه الأمور تدخل في نطاق الغيبيات التي لا يستطيع أحد الجزم بها في ذلك الوقت؟

هل هو من باب المكر والخديعة؟

لم ينفذ بنو إسرائيل أمر الذبح حال تبليغهم به، بل عمدوا إلى الاستفهام المتكرر المصور لما تكون عليه البقرة التي يُراد لها أن تذبح، إذ يقول تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ

---

212 - القصص الأنبياء، ج 1، ص 370.

يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالحقّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ}213. إنّ البداية كانت بلفظة (ادع لنا) إذ يحتمل أن يراد منها الدعاء الذي هو طلب بخضوع وحرص على إجابة المطلوب فيكون في الكلّام رغبتهم في حصول البيان لتحصيل المنفعة المرجوة من ذبح بقرة مستوفية للصفات المطلوبة في القرابين المختلفة المقاصد، بنوه على ما ألفوه من الأمم عبدت الأوثان من اشتراط صفات وشروط في القرابين المقربة تختلف باختلاف المقصود من الذبيحة، ويحتمل أنهم أرادوا مطلق السؤال فعبروا عنه بالدعاء لأنه طلب من الأدنى إلى الأعلى، ويحتمل أنهم أرادوا من الدعاء النداء الجهير بناء على وهمهم أن الله بعيد المكان، فسائله يجهر بصوته، وقد نهي المسلمون عن الجهر بالدعاء في صدر الإسلام214.

إنّ الأسئلة المتكررة فيها نبرة التمادي في المخاطبة، ذلك أنهم لم يقفوا على سؤال واحد ويكون هو النهاية؛ إنما تعددت الأسئلة وفق نبرة واحدة وكأن الأمر فيه إصرار على الاستمرار، إذ يقول تعالى: {قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ

---

145 - البقرة 67 - 71

[214] - التحرير والتنوير، ج 1، ص 337.

قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآَنَ جِئْتَ بِالحقّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾215، إنّ بني إسرائيل أهل لجج وخصومة فالسؤال عن البقرة المتكرر فيه سمت التضييق الذي يفضي إلى تضييق وتضليل لتنفيذ الأمر الصادر إليهم ، والمفارقة في هذا القصة أيضا هو عدم سؤالهم بماذا يضربون القاتل من أجزاء البقرة فلم يقولوا هل نضربّه بيديها أم برجلّها أم بفخذها أم برأسها، وهذه نقطة تحسب لهم فهي ليست من عادتهم.

ومن صفات البقرة التي ذكرت في النص القرآني أنّها:

- الفارض: المسنة، وقد فرضت فروضا؛ فهي فارض.

وكأنّها سميت فارضا لأنّها فرضت سنها، أي: قطعتها وبلغت آخرها. والبكر: الفتية. والعوان النصف.

- (فَاقِعٌ لَوْنُهَا) الفقوع: أشد ما يكون من الصفرة وأنصعه. يقال في التوكيد: أصفر فاقع ووارس216.

إنّ حادثة البقرة فيها أمران متقابلان لا يوجد رابط بينهما إلا على مستوى الحياة، فالأوّلى كان فيها القتل أما الأمر الثاني ففيه أمر الذبح، وهذان الأمران فيهما تساؤلات عدة منها:

لماذا هذا التقابل في الحدثين؟

ما علاقة ذبح البقرة بالبحث عن الجناة؟

لماذا ذبح البقرة دون غيرها من الحيوانات؟

---

[215] - البقرة 68 - 71

[216] - تفسير الزمخشري، ج 1، ص 99.

لماذا المفارقة في سلوكهم؟

لماذا هذا التداخل؟

هل هذا وقت اختبار لبني إسرائيل؟

لماذا هذا الاختيار دون غيره؟

إنّ العنصر البارز في هذه القصة الدائرية التي ابتدأت بالقتل وانتهت بالذبح هو البقرة. إذ وردت لفظة البقرة في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}217. بصيغة التنكير التي تحمل سمة الإطلاق دون تقييد أو التعيين لبقرة بعينها، وهنا يكمن أمرا مهما أن التنكير تمثل فيه رحمة الله تعالى، فالأمر هنا واضح غير مرتبط بشرط أو بقيد ممّا يجعل أمر تنفيذه في غاية البساطة، هذا الأمر يحمل تساؤلات عدة منها:

لماذا التنكير هنا؟

هل التنكير فرصة لهم ليثبتوا صلاحهم المنتظر؟

هل تمثل لهم البقرة شيئا ما؟

هل كانت لهم فرصة كي يعترفوا؟

إنّ فكر بني إسرائيل ارتكز على معطيات محددة تدور حول دائرة واحدة ألا وهي كما نعتقد دائرة البحث عن القشور والتمادي في الابتعاد عن طلب اللب الذي هو ظاهر أمامهم ويقودهم إلى الفلاح والنجاة ن فضلا عن المماطلة والتضليل وتمييع القضية، فتفكيرهم في

[217] - البقرة 67.

هذه الواقعة كشفهم وفضحهم أمام الله تعالى ونبيه موسى صلّى الله عليه وسلّم، فمنذ المواجهة مع فرعون لم نلحظ لهم أي موقف إيجابي واضح ومناصر للدعوة، بل وجدناهم في صورة المعجزة الواضحة والدلائل البينة يلتمسون كلّ ما هو بعيد عن دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم من ذلك قولهم كما ورد في قوله تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ}218، وهذا يفسر لنا صيغة التنكير التي وردت فيها لفظة) بقرة)، فالتنكير هو صيغة نحوية إلا أن هذه الصيغة انفتحت على دلالة أخرى وهي الدلالة العقلية والنفسية المحاذية لعقلية ونفسية بني إسرائيل.

عليه أن هذه الحادثة بينت طبيعة فكر بني إسرائيل المتمثل فيه:

التمادي.

الابتعاد.

الركون.

الغفلة.

التجاهل.

أمّا أسئلتهم المتكررة أو المستفهمة عن البقرة ففيها دلالات عدة، أهم هذه الدلالات هي دلالة الإلحاح في السؤال أو الاستفهام غير المبرر وعدم تنفيذ الأمر الذي صدر لهم، وهذا يفتح كما نعتقد الأصول الفكرية والمعرفية لبني إسرائيل، فهذه الأصول أصلت الفكر الباحث عنهم بأن يرتمي في أحضان قلقة وربما يمكن أن يطلق عليها بالمترهلة التي

---

[218] - الأعراف 138.

لا يستقر فيها كلّ ما هو موافق لدعوة نبي الله موسى صلّى الله عليه وسلّم، فهذه الجرأة تقطع شعرة الولوج في هذه الدّعوة التي فتحت أبوابها لتستقطبهم وتكف عنهم كلّ السمات التي رافقتهم طيلة سنوات الدعوة.

إنّ البحث عن القتلة والسؤال عنه تلاشى أمام أمر ذبح البقرة، فأصول الواقعة نُسيت تماما ودخلت طي النسيان رغم شناعتها وأهميتها، فأصبح تركيزهم العقلي والذهني منصبا على أسئلة لا جدوى منها سوى جعل الفكرة الواضحة الميسرة فكرة تغطيها هالة من الضباب يلتف حولها كي يعطيها سمة التعجيز المنفر الذي لا يمكن تحقّيقه، لكنّهم لم يسألوا سؤالا مهما كما نعتقد:

ما علاقة ذبح البقرة بسؤالهم عن القاتل؟

وما هو الرابط بين أمر الذبح والجثة الملقية التي تبحث عن قاتلها؟

إنّ هذا السؤال المهم لم يطرح، لماذا لم يطرح؟

هل أنّ عبثيتهم أوصلتهم إلى هذه الدرجة؟

هل استنتاجاتهم لم توصلهم إلى أي رابط؟

هل أمر البقرة أنساهم سؤالهم الأوّل؟

هل أنّ دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم كانت هاجسهم الوحيد؟

هل أنّ إيمانهم كان إيمانا يتقاطر منه الشك دائما؟

مقدّمات يوم الزينة:

إنّ بداية المواجهة لم تتضمن أية مقدمات أو تمهيدات بل كانت حاسمة أعطت الصورة المطلوبة التي يجب أن يكون عيها الرّسول المرسل،

فالدعوة بدأت تفتح ذراعها لتملئ الأفق وتغير كلّ النواميس التي اكتسبت الثبات على مدار زمن طويل، فالبحث عن الرأس وما يكتنفه من تداعيات لم يتحقّق على مستوى موسى وهارون عليهما الصّلاة والسّلام ذلك أن الدعوة بدأت، فلابدّ من التنفيذ فهو ملزم، ذلك أن أمر الله تعالى نفذ.

إنّ طريق الدعوة مع فرعون بدأ بخرق ألوهية فرعون، تلك الهيكلّية التي لا يسمح فرعون بتهديمها أو تغييرها أو حتى خدشها على مستوى القدرة البشرية، فقد كانت مستندة على:

السلطان.

المنعة.

البطش.

القهر.

الاستحياء.

القتل.

كلّ ذلك أكسب فرعون حصنا مؤقتا ارتمى بين جنباته يفعل ما يريد دون أيّ قيد أو منعة من أحد. وهنا تتبادر لنا عدة تساؤلات:

لماذا هذا السلطان؟

لماذا هذه المنعة؟

لماذا هذا الحصن؟

لماذا هذه الفسحة من التصرف؟

هل هذا هو الاختبار؟

إنّ إشكالية الذات والآخر متأصلة في كلّ الخطابات التي تكتسب درجة التحدي أو التمايز أو حتى المجابهة، ففرعون طيلة هذه المدة لم يتحقّق له أن تكون له إشكالية مع الآخر، ذلك أن أي آخر لا يستطيع أن يقف أمامه أو أن يفكر في الوقوف أمامه، وهذا متحقّق قبل المواجهة مع موسى صلّى الله عليه وسلّم، أما بعد المواجهة فان الأمور تغيرت، فقد اكتسبت شكلّا جديدا يتناسب مع طبيعة الطرف المقابل لفرعون الذي بدأ يفتح صفحات دعوته ليباشر طي صفحة الكفر والجبروت والطغيان، هذا الطي بدا بفتح صفحة الرّبوبية التي آن لها أن تفتح والتساؤل الذي يطرح هنا:

لماذا صفحة الرّبوبية؟

أين كان التذكير بالقتل؟

أين كان التذكير بالاستحياء؟

ألم يكن التذكير بجرائمه أوّلى؟

هل أراد موسى صلّى الله عليه وسلّم جرَّ فرعون إلى نقطة الهلاك الرئيسية؟

ادخل موسى صلّى الله عليه وسلّم فرعون ضمن الحقّول المعرفية التي يقترب منها الفكر الأصولي ذو الطابع الحاضن لكلّ ما يحقّق بقاءه وديمومته. وابتدأ بعرض دعوته ضمن قضية تتمحور حولها كلّ الدعوات التي سبقته ألا وهي قضية الرّبوبية، فقد كانت منطلقة في المواجهة التي رسمت بداية التنافر والتباعد الذي يكسب الدعوة الشمولية على مستوى مصر كلّها دون البقاء على المستوى الفردي.

إنّ دعوة الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم ترتبط بنقطة واحدة ينطلقون منها، وهي الإتيان بآية تكون دليلا على نبوتهم، ذلك أنّ الدعوة لا بد لها من أمر خارق للعادة وخارج عن المألوف حتى يتبين من خلاله صدق دعوة الرّسُل، وهنا كانت معجزة موسى صلّى الله عليه وسلّم من جنس ما هو متحقّق في عصر فرعون ألا وهو السحر، فلابدّ أن يكون الانزياح لكلّ ما هو خارق للعادة في هذا الزمن وذلك بطبيعة الحال خارق لفكر النّاس البسطاء الذي يرتمون في أحضان الحياة البسيطة ويجدون كلّ ما هو أمامهم خارق للعادة ممّا يجعل وعيهم لا يخرج عن هذه المدركات التي يظنون أنها خارقة، وهؤلاء هم الذين يريد فعون بسط ربوبيته عليهم.

لم يكن خطاب موسى صلّى الله عليه وسلّم منغلقا على ذاته بل اكتسب درجة الانفتاح ضمن آليات واضحة تبين ما يتحقّق من رفض الدعوة، إذ يقول تعالى: {فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كلّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}219 فالسلام هنا هو السلامة ممّا ينتظر الرافض والمتحدي للدعوة، فالدعوة هنا تم تبليغها لكن هذا التبليغ يعقبه:

سؤال.

تصور.

تبيان.

[219] - طه 47 – 50.

السؤال يدور حول الرسالة ومن أين هي؟ وماذا تدعوا؟ هذا السؤال تحقّق من فرعون فقد بدأ يسأل عن الله تعالى، يقول تعالى: (قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى).

هذا السؤال كان بداية الدخول في حوار بين طرفين لم يرد في خلدهما أن يقفا هذا الموقف، هذا الموقف يتحدد فيه أمور عدة منها:

وضع نهاية لأحد الطرفين.

الكشف عن مكنونات الطرفين.

تهشيم الوهم الذي آن له أن يزول.

نعود إلى التصور الذي فيه بيان الدعوة وحقّيقتها وإشعال فتيل سراجها كي تتضح الرؤية التي يراد لها أن تظهر، فالعمدة في هذا اللقاء إعلان الدعوة وتبليغها لفرعون دون غيره من النّاس، وان كانت هي لكلّ النّاس في عهد فرعون، إلا أن التوجه إلى فرعون له مبرراته الواضحة، فمركزه وسلطانه يشبه القلب في جسم الإنسان، فانّ صلح صلح الجسد كلّه، وإن فسد فسد الجسد كلّه، فكان بيده أن يرشد النّاس نحو دعوة موسى ويقبلها قبولا حسنا، لكنه تمادى في غيه والبس نفسه وأتباعه لباس الذل والامتهان.

أمّا التبيان فهو جعل الأمور ضمن اختيار واحد يكون على أساسه:

النقاش.

المكاشفة.

الاستظهار.

يرد فرعون بصيغة المستفهم الباحث عن الحقّيقة أو التي يريد أن يعرفها ضمن منطوق الجبابرة والمستكبرين أو كأنه أقرب ما يكون إلى المفارقة السقراطية حيث كان سقراط يتبنى في محاوراته صورة الرّجلّ الذي يدعي الجهل بأشياء لا يفتأ يسأل الآخرين عنها بهدف إثارة الشكوك لديهم فيما ظلوا يعتقدون به.

إنّ قوله تعالى: (قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى)، وان وردد على لسان فرعون إلا أنّه سؤال يتكرر على لسان كلّ الملحدين والمتجبرين، فلابدّ أن يؤخذ هذا السؤال كقاعدة ينطلق من خلالها الإجابة التي ينطلق من خلالها الرد والدعوة إلى الله تعالى. وهذا ما تحقّق على مستوى النص القرآني، فالرد لم يكن متوجها إلى فرعون فقط بل كان متوجها لكلّ من يماثل فرعون، فالإجابة لا تتكرر؛ إنما السؤال هو الذي يتكرر.

استمرت أسئلة فرعون ضمن نظرة قائمة في بعض الأحيان على استدعاء الماضي في بعض تشكيلاته، إذ يقول تعالى على لسان فرعون: {قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُوّلى}220 ففي سؤاله هذا تُطرح تساؤلات عدة منها:

هل أراد أن يعرف حقّا أخبار الماضيين؟

هل هناك أي ترابط بينه وبين القرون الأوّلى؟

هل هو يعرف شيئا عن القرون الماضية؟

هل أراد أن يختبر موسى صلّى الله عليه وسلّم؟

إنّ جواب موسى صلّى الله عليه وسلّم فيه اكتمال للدائرة التي بدأها في قوله تعالى: {فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي

[220] – طه 51.

إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى}221 ومن ثم الاكتمال كان بقوله تعالى: {قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى}222 أراد موسى صلّى الله عليه وسلّم أن يحرك فكر فرعون ضمن اتجاهات عدة تتمحور حول قضايا مهمة مرتبطة ارتباطا كبيرا بالدعوة التي يريدها.

انتقلت المحاورة بين موسى صلّى الله عليه وسلّم وفرعون من دائرة النص الشفاهي القائم على سؤال وجواب إلى دائرة الرؤية العينية التي يريدها فرعون والتي تتمركز حولها كلّ استبطانات فرعون القائم على الترهيب والتعسف والظلم، هذه الدائرة هي تشكلّ صورة فرعون الحقّيقية إن صح لنا القول بذلك، فالذي نعتقده أن فرعون كان قابعا خلف عباءات السّحرة ومستظل بظلها تحميه وتنصره وتدافع عنه، وتكتب له الخلود ضمن معيارية الرهبة التي كانت تحقّقها على مستوى الرؤية البصرية الوهمية، هذا الأمر رسم فرعون به صورة ملكه التي ستمحوها أمطار ربّ العزّة وتجعلها تلون مياه السواقي والوديان.

إنّ إشهار الدّعوة كان وفق اختطاط خطه فرعون ضمن إدراج معرفي منفتح على فكر متردد يريد تهشيم الدعوة التي جاء بها موسى صلّى الله عليه وسلّم. هذا الإشهار جاء موافقا لفكر الدعوة التي تنفتح دائما على فضاءات يكون من خلال ذلك:

عرض الدعوة.

بيان اضمحلال الآخر.

تهشيم صورة الآخر.

221 - طه 47.

222 - طه 52.

استدراج الآخر إلى الافتضاح العلني.

بيان عظمة وقدرة ومعجزة المولى تبارك وتعالى.

تحقّيق الآية الدالة على نبوة النبي.

وفي هذا التقابل ابتدأ الحوار في أهم قضية شكلّت العمود الفقري لدعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم، ألا وهي قضية السحر، هذه القضية هي المركز في دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم، وبمعنى آخر يمكن القول أن هذه القضية لأهميتها وغرابتها أعد الله تعالى موسى صلّى الله عليه وسلّم إعدادا خاصا فقد دخل موسى دائرة المتوقّع المستقبلي في الموقف الذي كلّم به الله تعالى، وذلك بتحول عصاه إلى أفعى، إذ يقول تعالى: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأوّلى}223.

لم تكن قضية السحر بمنأى عن السياق الإنساني التراتبي ذو الفكر الوضعي أو الارهاصي المتطلع إلى تفسير أو تقطيع الصور المصاحبة لما هو حاصل أمامه، ولهذا كان السحر ملازما لتاريخ البشرية ومرافقا لها لدرجة الوقوف في بعض الأحيان في محطات يكون السحر جزءا من التاريخ الإنساني، ففي السياق اللغوي السحر عبارة عما دق وخفي ولطف سببه، الشيء الخفي، ومنه سمي السحر سحرا؛ لأنه يقع خفيا آخر الليل، ومنه قوله صلّى الله عليه وسلّم "إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا"224 يسمى الكلّام الفصيح سحرا، كأَنَّ المعنى والله أَعلم أنه يَبْلُغُ من ثنائه

[223] - طه 17 – 21.

[224] - صحيح البخاري، ج 17، ص 215.

أَنه يَمْدَحُ الإنسانَ فَيَصْدُقُ فيه حتى يَصْرِفَ القلوبَ إِلى قوله ثم يَذُمُّهُ فَيَصْدُق فيه حتى يَصْرِفَ القلوبَ إلى قوله الآخر فكأَنه قد سَحَرَ السامعين ومن ذلك النمام الذي يظهر النصح، ويبطن الشر والفساد، ويوقع بين النّاس العداوة، يسمى سمي في الحديث من السحر نوع من السحر، والسِّحْرُ عَمَلٌ تُقُرِّبَ فيه إِلى الشيطان وبمعونة منه كلّ ذلك الأَمر كينونة للسحر ومن السحر الأُخْذَةُ التي تأْخُذُ العينَ حتى يُظَنَّ أَن الأَمْرَ كما يُرَى وليس الأَصل على ما يُرى والسِّحْرُ الأُخْذَةُ وكلّ ما لَطُفَ مَأْخَذُه ودَقَّ فهو سِحْرٌ والجمع أَسحارٌ 225.

وأمّا السحر في الشعر واصطلاحا، "فهو عزائم ورقى وعقد، تؤثر في القلوب والابدّان، فتمرض وتقتل وتفرق بين المرء وزوجه، فإذا الساحر هو الذي يعقد عقدا أو ينفخ فيها مستعينا على الوصول إلى ما يريد بالشياطين"226، فضلا عن ذلك هي أمور تخيلية لا حقّيقة لها بل هي حيل خفيفة يتعاطونها أمام الأنظار كعمل سحرة فرعون بالحبال والعصي، الذين قال لهم موسى صلّى الله عليه وسلّم- كما أخبر الله عن ذلك في محكم تنزيله: {فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقّ اللَّهُ الحقّ بِكلّمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}227.

إنّ بعض المعجزات تظهر في كلّ زمان من جنس ما يغلب على أهل ذلك الزمان؛ لأنّهم يكونون قد بلغوا فيه الدرجة العليا، ويقفون على الحد الذي يمكن للبشر الوصول إليه، فإذا شاهدوا ما هو خارج عن الحد المذكور علموا أنه من عند الله، فمثلا عندما رأى سحرة فرعون

[225] - ينظر لسان العرب، ج 4، ص 348.

[226] - شرح العقيدة الطحاوية، ج 1، ص 391.

[227] - يونس 81، 82.

في زمان موسى صلّى الله عليه وسلّم أن عصاه انقلبت ثعبانا يتلقف سحرهم، علموا أن هذا الأمر خارج عن حد صناعة السحر، وأنه معجزة لموسى من عند الله، فأمنوا به وبمن أرسله.

إنّ تأثير السحر في التفريق بين المتحابين، أو في جمع المتفرقين، تأثيره على القلوب خفي، وهكذا عمل النمام، فإنّه يفرق بين الأحباب لأجلّ كلّام يسوقه لهذا وكلّام يسوقه لذاك، فيفرق بين القلوب ويجعل العداوة والبغضاء بين قلب هذا وهذا، كما قال - جلّ وعلا- عن السحر: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النّاس السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} 228، والنميمة هي القالة بين النّاس، وهي من أنواع السحر، وكبيرة من الكبائر، والكبائر من أعظم الذنوب العملية.

وأكثر السّحرة يستعينون بالجن في إنفاذ سحرهم ويستعملون الطلاسم التي تؤدّي بفعلها إلى الشرك بالله

ومن أنواعه:

- سحر الصرف: وهو التفريق بين اثنين فأكثر.
- سحر العطف: وهو الجمع بين اثنين فأكثر.

---

228 - البقرة 102.

وسحر التخييل كم فعل سحرة فرعون قال تعالى: {قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}229.

والسحر: عقد ورقي وكلّام يتكلّم به، أو يعمل شيئا، يؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله من غير مباشرة له.

وله حقّيقة في قول الأكثر، فمنه ما يقتل، ومنه ما يمرض، ومنه ما يمنع الرّجلّ من وطء امرأته، ومنه ما يفرق بينهما 230.

يوم الزّينة:

استأثر فرعون بالمنازلة فقد عرض على موسى صلّى الله عليه وسلّم، إذ يقول تعالى: {قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى}231. هنا، ترك فرعون الباب مفتوحا على مصراعيه لموسى صلّى الله عليه وسلّم وكأنه يقول له اختر نهايتي التي أنت تريدها، لو كان فرعون واعيا ومدركا لحرية الاختيار التي منحها لموسى صلّى الله عليه وسلّم لتراجع عنها ولعنف نفسه عليها، لكن إرادة الله تعالى اقتضت أن يحفر فرعون قبره بيده وينادي موسى صلّى الله عليه وسلّم ليهيل التراب عليه. وهذا ما تحقّق فعلا فقد اختار موسى صلّى الله عليه وسلّم (يوم الزينة)، يقول تعالى: {قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النّاس ضُحًى}232، إنّ موسى صلّى الله عليه وسلّم حدد (يوم الزينة) فقد جاء وفق أسلوب الدّعوة التي أريد لها أن تتحقّق وفق هذا الشّكل الاختياري المرتبط بعلم علّمه العزيز الجبار لموسى صلّى الله عليه

229 - طه 66.

230 - نواقض الإيمان، ج 1، ص 10.

231 - طه 57، 58.

232 - طه 59.

وسلّم. فاختيار جمع النّاس على صعيد واحد تكرر ثلاث مرات ضمن دعوات أصبحت مضرب مثل ومساق كلّ خبر، فوضع إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم في النّار من أجلّ إحراقه كان أمام أنظار النّاس، إذ يقول تعالى: {قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النّاس لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآَلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آَلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ}233 وقصّة أصحاب الأخدود وما فيها من دروس وعبر، يقول تعالى: {قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النّار ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}234؛ فهذه الأحداث العظام الجسام تحقّق فيها عرض دعوة الله تعالى أمام أعين النّاس على صعيد واحد، وتحقّق فيها ما لم يخطر على البال .

إنّ اختيار (يوم الزينة) فيه دلالة البحث عن فسحة واسعة لبيان الدعوة وإنضاجها ضمن تشكيل مصور يفتح آفاق البحث والإيمان في الوقت نفسه، وهذا ما تحقّق على يد موسى صلّى الله عليه وسلّم.

إنّ (يوم الزينة) فيه:

مسخ.

233 - الأنبياء 61 – 70.

234 - البروج 4 – 9.

تهشيم.

إسقاط.

إعادة.

عرض.

إحالة.

كان السحر ملازم لشخص فرعون وقوته وجبروته فهو أداة الترهيب والسيف المسلط على رقاب المصريين، فضلا عن كون فرعون أفّاقا في تعامله مع النّاس.

يجتمع النّاس في (يوم الزينة)؛ فهذا اليوم يحتفلون فيه فتظهر مباهج الاحتفال في ساحاتهم وشوارعهم معلنة ومصرحة وناطقة بهذا اليوم الذي ينتظرونه، هذا اليوم بطوله اختار منه موسى صلّى الله عليه وسلّم وقت الضحى الذي تكون فيه الشمس تتلألأ على شرفات المنازل وعلى الساحات والشوارع، فالصورة المرئية تكون واضحة تماما، فضلا عن ذلك أن قوى الإنسان تكون قوية وهذا سبب الاختيار دون وقت الظلام الذي لا تفصح فيه الحقّيقة عن مكنوناتها.

هذه الصورة المتداعية للقاء المرتقب تفتح باب التساؤلات عن عدة قضايا مهمة لا بد من إدراكها أو لا بد من التساؤل بشأنها:

ألم يساور فرعون القلق لو بنسبة معينة في هذا اللقاء؟

لماذا لم يتردد؟

لماذا لم يجعل اللقاء منزويا دون الإشهار أمام النّاس؟

ألم يكن الأجدر به أن يفكر في دائرة الممكن المتوقّع وفي دائرة الممكن المتوقّع؟

إنّ طرح مثل هذه التساؤلات هو من باب الصورة الذهنية المتحقّقة لفرعون لدى النّاس جميعا، وهذا يفيض بنا القول للبحث عن مكنونات هذه الشخصية التي انقادت إلى نهايتها ضمن إدراك واع تتبعته وانتهجته فكان لها أن تصعد إلى الهاوية خلاف كلّ الإشارات والبيانات والإيضاحات والدعوات التي أطلقها موسى صلّى الله عليه وسلّم، فقد ظن فرعون أنّه سينتصر.

عَلى الضجيج بين النّاس وتزاحمت الأكتاف يريدون أن يروا المنظر المرتقب الذي فيه الفيصل لكلّ ما قيل ولكلّ ما سُمع، فطبيعة النّاس عامة في ذلك الوقت طبيعة مزدوجة تريد البحث لها عن انفكاك يفتح هذا الازدواج القهري ألقسري المنبعث من إرهاصات حكم فرعون الذي ركّب شخصياتهم وفق ما يريده، وهذا بطبيعة الحال ينطوي على كينونة مُسَلَّمة متزامنة مع أحداث متتابعة أدخلها فرعون وجعلها تجري مجرى الدم في العروق.

بعث فرعون للسحرة، واختلفت الروايات في عددهم، فكان اتساع العدد ما بين بضعة الآلاف إلى سبعين ساحرا، والذي يهمنا هو أن هؤلاء السّحرة هم من خاصة فرعون وذراعه الأيمن، وهم من المتقنين لعملهم السحري الذي يراد منه تفنيد دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم، إذ يقول تعالى: {قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي

الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكلّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ فَجُمِعَ السّحرة لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ}235.

اصطفّ السّحرة وكأنهم في حرب ضروس وأمام عدو لدود يريد النيل منهم، والاصطفاف فيه دلالات عدة منها:

القوّة.

العزيمة.

الثبات.

الانتظار.

التحسب.

التوقع.

اعتقد فرعون بوعيه أن موسى صلّى الله عليه وسلّم هذا المهين الذي لا يكاد يبين سيكون خاسرا في النهاية، وموسى صلّى الله عليه وسلّم متيقن أنه سينتصر على فرعون العالي في الأرض، ففرعون أسس المواجهة على أساس القوى المادية بينما استمد موسى صلّى الله عليه وسلّم قوته من القوي المطلق.

حان وقت الضحى وساد الصمت الرهيب الذي يكتنف الحاضرين، والطرفان متقابلان وجها لوجه كلّا منهم يبحث في عين الآخر تداعيات هذه المقابلة، فالسّحرة ارتضوا الدنيا وأرادوها، فهي مرادهم ومطلبهم الحثيث الذي لا بديل له، وهذا المطلب مقرون بوعد فرعون لهم، يقول تعالى: {فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ

---

[235] - الشعراء 34 – 38.

مَنِ اسْتَعْلَى}236، ويتلقى السّحرة من فرعون الوعد بالأجر الجزيل والقربى من عرشه فلما جاء السّحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم لمن المقربين وهكذا ينكشف الموقف عن جماعة مأجورة يستعين بها فرعون الطاغية ; تبذل مهارتها في مقابل الأجر الذي تنتظره; ولا علاقة لها بعقيدة ولا صلة لها بقضية ولا شيء سوى الأجر والمصلحة وهؤلاء هم الذين يستخدمهم الطغاة دائما في كلّ مكان وفي كلّ زمان وها هم أوّلاء يستوثقون من الجزاء على تعبهم ولعبهم وبراعتهم في الخداع وها هو ذا فرعون يعدهم بما هو أكثر من الأجر يعدهم أن يكونوا من المقربين إليه وهو بزعمه الملك والإله 237.

أمّا الطرف الأخر فهو موسى صلّى الله عليه وسلّم رسول الله الذي جاء ليحقّ الحقّ ويقطع دابر الكافرين، ويبلغ دعوة ربّه المتضمنة لكثير من المعطيات التي تفتح ثغرات الباطل وتلملم الشتات، وتعيد بناء الإنسان وفق قواعد تضمن له الحياة الحرة الكريمة والعيش الآمن.

إنّ هذا اللقاء لم يكن لقاءا عاديا أو عابرا بل كان لقاءا فيه يحدد النقطة الفاصلة بين الحقّ والباطل، ولذلك أن إزالة فرعون كان ضمن نسق ترابطي أفضى إلى أن تكون النهاية تحمل خصوصية خاصة تتناسب مع الفكر المحيط لذلك العهد الذي اكتسب مساحة سيكولوجية أكبر من المساحة الديموغرافية، ممّا يحتم أن تكون الإدراكات الواعية منفتحة على نهاية تؤصل الجديد، وتمحو القديم ضمن دلالات قطعية قائمة على التبصر بالداعي المغِيِّر وتغييب المزاح المتهاوي.

---

236 - طه 64.

237 - في ظلال القرآن، ج 5، ص 345.

ابتدأت المنازلة بين الطرفين، إذ يقول تعالى: {قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى}[238] ألقى السّحرة حبالهم، وهم أهل صنعة ومهارة، هذه الحبال تراءت للناس أنها أفاعي وهذا مظهر تعود عليه النّاس، فلم يحرك شعرة من رؤوسهم، يقول تعالى: {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أوّل مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}[239] هذه الصورة بقية شاخصة في هذا النزال لفترة ليست بالطويلة فمحوها أو إزالتها بالكلّية تحقّق بعد أن ابتدأ موسى صلّى الله عليه وسلّم المنازلة، وفي هذا الموقف تنفتح شخصية موسى صلّى الله عليه وسلّم مرة أخرى على الخوف رغما أنها خرجت من دائرة غير المتوقّع ودخلت في دائرة المتوقّع، وهنا تتدخل العناية الإلهية لتطمئن موسى صلّى الله عليه وسلّم، وتعطيه النتيجة قبل حصولها، إذ يقول تعالى: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}[240]. تفرّق النّاس يمينا وشمالا وحصل لهم ما حصل:

ارتعدوا.

اضطربوا.

صعقوا.

---

[238] - طه 61 – 64.

[239] - طه 65، 66.

[240] - طه 67 – 69.

ذهلوا.

ما هذا الثعبان العظيم التي يتلقف كلّ ما يخيل إليهم أنها حيات؟

إنّ موسى صلّى الله عليه وسلّم لما ألقاها صارت حية عظيمة ذات قوائم فيما ذكره غير واحد من علماء السلف وعنق عظيم وشكلّ هائل مزعج بحيث إن النّاس انحازوا منها وهربوا سراعا وتأخروا عن مكانها وأقبلت هي على ما ألقوه من الحبال والعصي فجعلت تلقفه واحدا واحدا أسرع ما يكون من الحركة والنّاس ينظرون إليها ويتعجبون منها وأما السّحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم في أمرهم واطلعوا على أمر لم يكن في خلدهم ولا بالهم ولا يدخل تحت صناعتهم وأشغالهم فعند ذلك وهنالك تحقّقوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعوذة ولا محال ولا خيال ولا زور ولا بهتان ولا ضلال بل حقّ لا يقدر عليه إلا الحقّ الذي ابتعث هذا المؤيد به الحقّ وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة وأنارها بما خلق فيها من الهدى وأزاح عنها القسوة وأنابوا إلى ربّهم 241.

إنّ الموقف هنا يترنح لفترة يسيرة ثم يفرز صورة مأساوية وعظيمة في الوقت نفسه، فالمأساوية غطت وجه فرعون المذهول من هول ما رآه، والعظيمة كانت للسحرة، إذ يقول تعالى: {وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى فَأُلْقِيَ السّحرة سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ

[241] – القصص الأنبياء، ج 1، ص 308.

قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آَمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ ربّه مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصّالحاتِ فَأوّلئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى}[242]:

ما هذه التفصيلات المثيرة في كلّامهم؟

ما هذا الإصرار على الإيمان؟

لماذا هذا التسليم؟

لماذا هذا الثبات؟

لماذا المواجهة مع فرعون كانت بهذه الصيغة؟

بعد أن تبين للسحرة الحقّ لم يبالوا بما هددهم به فرعون من العذاب والتنكيل فدعوا الله أن يغفر لهم ذنوبهم وأن يعمهم بالصبر والثبات وأن يتوفهم مسلمين فكانوا في أوّل النهار سحرة كفار بالله يعبدون فرعون من دون الله ثم صاروا في آخر النهار شهداء عند الله يرزقون فجمعوا بدعائهم هذا بين كمال الإيمان والإسلام. بعد تغير الموقف نرى خطاب فرعون بدا يبحث عن عتبة يقف عليها ويدخل من خلالها إلى تأويلات يضع من خلالها أسباب:

الإخفاق.

التراجع.

العصيان.

[242] - طه 69 -76.

الخيانة.

فالسّحرة أداروا دفة الموقف بصيغة جعلت فرعون يبهت ويحول الأمر إلى مؤامرة وأمر دبر بليل، فجعل من موسى صلّى الله عليه وسلّم كبير السّحرة وأنّ هناك اتفاقا حصل بينه وبين السّحرة عليه، أي أنتم إنّما أخذتم السّحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه عليّ وعلى رعيتي، لتظهروه، كما قال في الآية الأخرى: {إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}243.

أمّا تقديم هارون على موسى هنا في قوله تعالى: {فَأُلْقِيَ السّحرة سُجَّدًا قَالُوا آَمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى}244 وتقديم موسى على هارون في قوله تعالى: {قَالُوا آَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ}245"لا دلالة فيه على تفضيل ولا غيره، لأنّ الواو العاطفة لا تفيد أكثر من مطلق الجمع في الحكم المعطوف فيه، وهي تدلّ على مطلق الإيمان، فهم عرفوا الله بأنه ربّ هذين الرّجلّين؛ فحكي كلاّمهم بما يدلّ على ذلك؛ ألا ترى أنه حكي في سورة الأعراف قول السّحرة (قالوا آمنا بربّ العالمين)، ولم يحك ذلك هنا، لأنّ حكاية الأخبار لا تقتضي الإحاطة بجميع المحكي وإنما المقصود موضع العبرة في ذلك المقام بحسب الحاجة.

ووجه تقديم هارون هنا الرعاية على الفاصلة، فالتقديم وقع في الحكاية لا في المحكي، إذ وقع في الآية الأخرى {قَالُوا آَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ}246. ويجوز أن يكون تقديم هارون في

243 – الأعراف 123.

244 – طه 70.

245 – الأعراف 121، 122.

246 – الشعراء 47، 48.

هذه الآية من حكاية قول السّحرة، فيكون صدر منهم قولان، قدموا في أحدهما اسم هارون اعتبارا بكبر سنّه، وقدموا اسم موسى في القول الآخر اعتبارا بفضله على هارون بالرسالة وكلّام الله تعالى، فاختلاف العبارتين باختلاف الاعتبارين"[247].

إنّ (يوم الزّينة) كان فعلا لموسى صلّى الله عليه وسلّم يوم زينة، فقد تزينت مصر بدعوة الله تعالى، وهذا الموقف المتكرر كما ذهبنا في دعوة إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم وقصة أصحاب الأخدود، هو عملية حشر للناس ونشر لدعوة الله تعالى، هذه المواقف الثلاث تشكلّت فيها المعجزة تشكلّا عينيا، فهو أمر خارق للعادة يعيد بناء الفكر المعرفي الإنساني بناءا جديدا، ذلك أنّ الطبيعة الإنسانية يتمحور القبول فيها والرفض في كثير من الأحيان للصورة العينية المتحقّقة أمامها.

هذه القصّة فيها تنبيهات عدة فهي "تنبه على أسرار عجيبة من أمور الرّبوبية ونفاذ القضاء الإلهي وقدره في جملة المحدثات، وذلك لأن ظهور تلك الأدلة كانت بمرأى من الكلّ ومسمع فكان وجه الاستدلّال فيها جلّيا ظاهرا وهو أنّه حدثت أمور فلابدّ لها من مؤثر والعلم بذلك ضروري، وذلك المؤثر إمّا الخلق، وإما غيرهم. والأوّل بديهي البطلان لأنّ كلّ عاقل يعلم بالضرورة من نفسه أنه لا يقدر على إيجاد الحيوانات وتعظيم جثتها دفعة واحدة ثم يصغرها مرة أخرى كما كانت وهذه العلوم الجلّية متى حصلت في العقل أفادت القطع بأنه لا بد من مدبر لهذا العالم، فماذا يقول؟ ألا ترى أنّ أوّلئك المنكرين جهلوا صحة هذه المقدمات وهذا في نهاية البعد؟ لأنّا بينّا أنّ كلّ واحد منها بحيث لا يمكن ارتياب العاقل فيه وإذا فقد عرفوا صحتها لكنهم أصروا على الجهل وكرهوا تحصيل العلم والسعادة لأنفسهم وأحبوا تحصيل الجهل

[247] – تفسير التحرير والتنوير، ج 9، ص 69.

والشقاوة لأنفسهم ما أرى أنّ عاقلا يرضى بذلك لنفسه قط، فلم يبق إلا أن يقال: العقل والدليل لا يكفي بل لا بد من مدبر يخلق هذه المقدمات في القلوب، ويخلق الشعور بكيفية ترتيبها وبكيفية استنتاجها للنتيجة حتى أنه متى فعل ذلك حصلت النتائج في القلوب وذلك يدل على أن الكلّ بقضائه وقدره فإنه لا اعتماد على العقول والقلوب في مجاريها وتصرفاتها ومن طرح التعصب عن قلبه ونظر إلى أحوال نفسه في مجاري أفكاره وأنظاره ازداد وثوقا بما ذكرناه"248.

إنّ إشكالية الإتباع كانت مصاحبة لكلّ دعوات الرّسُل صلّى الله عليهم وسلّم، ذلك أن الإتباع يقبع في قوالب يعدّها المتَبع ليضع أتباعه ضمن نسق واحد لا يحيدون عنه، فإذا انحرفوا عن هذا النسق اتضحت صورتهم الجديدة التي تخرج عن القالب الموضوع لهم.

في قضية السحر قد ترد بعض الأسئلة المهمة التي تتعلق بها، ومن هذه الأسئلة:

هل علّم الله تعالى موسى صلّى الله عليه وسلّم السحر؟

إنّ الجواب عن هذا السؤال هو: كلّا لم يعلمه سحرا.

وهذه هي القضية المركزية التي جعلت السّحرة يسجدون لله رب العالمين، ذلك أنّ أهل الاختصاص هم أدرى بمهنتهم، والساحر لا ينطلي عليه سحر الساحر. فلو كان الثعبان الذي رأوه سحر ساحر، لأعلنوا ذلك للملأ، ولكانوا هم المنتصرين. ولو كان عمل موسى سحرا علّمه إياه الله سبحانه، لما كان أفلح، لأن الله تعالى يقول: {وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ

248 – تفسير الرازي، ج 10، ص 438.

أَتَى}249، كما أن العصا والحبال والأدوات التي يستعملها السّحرة، تبقى بعد استعمالها لا تختفي ولا تتغير ولا تتبدل، فكان ينبغي أن تبقى عصي السّحرة وحبالهم في الساحة بعد أن أمسك عصاه موسى، إذا كان عمله سحر ساحر، إلاَّ أن الحبال والعصي لم يظهر لها أثر، ولا يمكن أن يقال إنها في بطن العصا.

ما بعد يوم الزّينة:

فتح يوم الزينة باب الدّعوة على مصراعيه وافرد تبعات مختلفة تنساق حسب ما تؤمن أو حسب ما تتبع، فالإيمان تمثل في السّحرة فكانوا السمة البارزة في دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم، هذا التحول خلق حالة الانقسام والارتباك في صفوف أتباع فرعون، ولهذا بدءوا يبحثون عن متكأ يكون لهم عونا في الخلاص من الموقف الذي جعلهم في عزلة عن ما كانوا عليه ، فيوم الزينة لم يحقّق دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم على مستوى الحضور والعموم، بل حقّق واقعا متداعي الأطراف يبلور وجهة النظر التي لم يكن لها صوت قبل يوم الزينة، فقد انفتح خطاب الأتباع (أتباع فرعون) ضمن حركة استباقية أرادوا منها الحفاظ على مكانتهم، وفي الوقت نفسه حرث ارض جديدة ينبت فيها محاربة موسى صلّى الله عليه وسلّم من خلال مخاطبة فرعون، يقول تعالى: {وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآَلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ}250 هذا الخطاب أرادوا منه تحريك الساكن المبهوت الذي يريد أن يفعل و لا يدري ماذا يفعل على مستوى اللحظة الآنية، فالتوجيه هنا هو إعادة لفعل ماضي متحقّق على مستوى

249 – طه 69.

250 – الأعراف 127.

الواقع، فالاستحياء والقتل مفردات رافقت بنو إسرائيل قبل موسى صلّى الله عليه وسلّم، وتكررت مرة ثانية بعد يوم الزينة، وغاية الفعل في كلّا الحالتين هو الإبقاء على سيطرة من نوع خاص على بني إسرائيل، هذه السيطرة حجمت بني إسرائيل وجعلتهم بمتناول اليد في كلّ وقت.

انفتح موسى صلّى الله عليه وسلّم على قومه بأسلوب دعوي يفتح الحاضر على المستقبل، يقول تعالى: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ}251 هنا نلاحظ أنّ موسى صلّى الله عليه وسلّم يهيأ قومه لأمرٍ يتوقّعه ضمن إرهاصات فاعلة في كينونة ترابطية تخفي ولا تكشف، تومئ ولا تصرح، إذ نستبطن في خطابه بداية الاختبار لقومه {فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} السياق هنا يفتح عدة تساؤلات منها:

هل يتوقع من قومه أمرا ما؟

هل يشك في قومه؟

هل يحذرهم من عاقبة فعلهم إن انحرفوا عن الطريق الصحيح؟

هل يريد بناء قومه بناءا يتلاءم مع طبيعة المرحلة المستقبلية؟

بعد يوم الزينة نزل عذاب على آل فرعون، عذاب لم يرد في خلدهم ولم يكون ضمن أي احتمالات قائمة لا على مستوى الفكر ولا مستوى التوقعات، إذ يقول تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ

---

[251] - الأعراف 128، 129.

وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ}252 إن العذاب هنا يدور في فلك واحد لا يخرج عنه، فوقوع العذاب على آل فرعون يوجه أنظارهم إلى موسى صلّى الله عليه وسلّم يطلبون منه كشف ما بهم من ضر، وهذا الأمر يحير العقول ذلك إن كلّ الإشكالات والإرهاصات القابعة في التنافر الحاصل بين موسى صلّى الله عليه وسلّم وفرعون انتهت بعد يوم الزينة، وفي هذا الموقف تكون لدينا بعض التساؤلات منها:

. لماذا هذا الإصرار على المعصية؟

. لماذا الإصرار على الكفر بما جاء به موسى صلّى الله عليه وسلّم؟

. لماذا الطلب من موسى صلّى الله عليه وسلّم كشف الضر؟

. الم يكن الأوّلى بهم الإيمان بعد ما شاهدوه كما فعل السّحرة؟

. لماذا العودة إلى المعصية ورفض دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم؟

---

[252] - الأعراف 130 – 137.

. الم يكن التغيير الحاصل أمامهم كفيلا بإتباع موسى صلّى الله عليه وسلّم؟

إنّ هذا التتابع في الوقائع ومن ثم إعادتها مرة ثانية يدل على انفتاح الدعوة انفتاحا يتناسب مع رحمة الله تعالى، فهذا الانفتاح هو دعوة لعقولهم من أجلّ:

الاستبصار.

الإدراك.

مراجعة النفس.

التدبر.

الاتعاظ.

الاستذكار.

التفكر.

إعادة إنتاج لكلّ ما حصل أمامهم.

الخروج بنتيجة تتطابق مع دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم.

كلّ ما تقدم لم يتحقّق لا على مستوى العقل الظاهر، أو حتى على مستوى العقل الباطن، وهذا يدل دلالة قطعية على انقطاع التفكير ولو لبرهة من الزمن، فالهوة اتسعت بين دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم وفرعون وآله. لكن هذا الاتساع كان من طرف فرعون وآله، ذلك أن الإشكالية هنا أن فرعون لا يريد أن يغير فكره أو حتى استدراك الأمور في أوّلها، فالطوفان والضفادع والقمل، كانت عبارة عن بوابات فتحت

وبالا على فرعون وآله فكان الأوّلى به أن يغلقها بإرادته ويستبدلها بالرضوان الذي يريده الله تعالى ورسوله.

هذه المرحلة اتسمت بإلغاء وقائع متحقّقة ومكررة وهي وقائع السحر، فبزوالها بدأ يتهاوى البناء السلطوي لفرعون وأخذ يتزحزح على كافة المستويات.

إنّ نهاية المطاف في هذه الدعوة اقتضى أن يكون هناك حدا فاصلا ينهي كلّ شيء بعد:

الإبلاغ.

الإيضاح.

بيان الحجّة.

إظهار المعجزة الخارقة للعادة.

إظهار العقوبة أمامهم بأنواعها المختلفة.

مؤمن آل فرعون:

ترتّب شكلّ الدّعوة ترتيبا جديدا، إذ دخل طرف ثالث يحاول أن يغيّر أو أن يفتح خطابا جديدا فيه نسق دعوي يتقابل مع دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم، يقول الله تعالى: {وَقَالَ رَجلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ}253، هنا بزغ فجر جديد في دعوة موسى إذ لم يكن يرتبط بأيّ رابط مع موسى

---

[253] - غافر 28.

صلّى الله عليه وسلّم وهذا يؤصل لفكرة تستشري في تاريخ الإنسانية أن دعوة الله تعالى غير مرتبطة بنبي من الأنبياء، فهي مستمرة تلقي ظلالها على كثير من المواقف ومن بين هذه المواقف كان هذا الموقف، فالرّجلّ المؤمن اختلفت الروايات في تحديد شخصية هذا الرّجلّ لكن القول بأنّه ابن عم فرعون أو من أقربائه كما نعتقد هو الأرجح ، ذلك أن سمة خطابه توحي بالثقة الكاملة في طرح ما يريده، وان كان مؤمنا بما يقول إلا أنّنا نجد أنّ سياق كلّامه فيه تفصيلات كثيرة ممّا يفضي إلى القول أن هذا الكلّام يتطلب وقتا طويلا وإصغاء دون مقاطعة وهذا الفعل لا يقبله لا فرعون و لا غيره من الجبابرة، فسمة التكبر والغطرسة لا تكون فيها النفس قابلة لان تستقطب مثل هذا الكلّام وبهذه التفصيلات.

إنّ خطاب الرّجلّ المؤمن فيه دقة في التعبير، فقد بدأ يتصفح لقومه دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم بحذر بالغ، هذا الحذر جعله يستطرد في الكلّام ويعرض قضايا مهمة جدا تلامس شغاف دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم، فكانت البداية بقضية مهمة جدا أراد منها أن يلفت نظر فرعون وأتباعه وان يمسك العصا من المنتصف، يقول تعالى: {أَتَقْتُلُونَ رَجلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ} هنا اعتراف واضح من قبل هذا الرّجلّ بأنّ الله تعالى هو الرّب، فضلا عن البينات التي فيها الكلّام الفصل، هنا الكلّام اكتنز بقضية محورية جدا تكون هي المدخل لدعوة تراتبية منفتحة على فكر حاضن متأصل فيه رفض كامل لم يترك أيّ باب مفتوح بعده، وهذا ممّا دعاه أن يفتح خطابه باتجاهات واسعة يحاول من خلالها لملمت الفكر المتشظي من الداخل، المتظاهر بالثابت، كانت العتبة في كلّامه قضية مهمة جدا ألا وهي قضية الصدق

والكذب، فقد ابتدأ بهذه الثنائية التي جعلها منطلقا له لمعالجة الموقف المضطرب الذي لا يجد له مرسى يقف عنده، ابتدأ بالكذب فبتحقّقه لا يكون له تأثير على أحد بل على صاحبه وبهذا يجعلهم جانبا دون ضرر، فقد أحال نتيجة الكذب على صاحب الكذب وبهذا يخرجون هم من دائرة المسؤولية والإثم إن تحقّق ذلك، ثم يلتفت بعد ذلك إلى قضية الصدق فيعرضها بطريقة مغايرة يلتمس من خلالها الإتباع ولو بشكلّ يسير يضمن لهم السلامة والنجاة، {وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ}، هذا الرّجلّ كما نعتقد لا يتصف بالإيمان فقط بل نجد للحكمة مكانا واسعا في عرض دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم، فقد عمد إلى تثبيت قاعدة ملك فرعون بطريقة يلتمس فيها التغيير المترتب على رد الدعوة، فجعل ملك فرعون مثل الأرجوحة التي سلب منها الثبات الدائم فأخذت تبحث عن من يكون على يديه الثبات الدائم، وهذا ما كان يرنوا إليه هذا الرّجلّ المؤمن، إذ يقول تعالى: {ا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ}254؛ فهذا الرّجلّ المؤمن "لما توسم نهوضَ حجتِه بينهم وأنها داخلت نفوسهم، أَمِن بأسهم، وانتهز فرصة انكسار قلوبهم، فصارحهم بمقصوده من الإيمان بموسى على سَنَن الخطباء وأهل الجدل بعد تقرير المقدّمات والحجج أن يهجموا على الغرض المقصود، فوعظهم بهذه الموعظة. وأدخل قومه في الخطاب فناداهم ليستهويهم إلى تعضيده أمام فرعون فلا يجدَ فرعون بُدّا من الانصياع إلى اتفاقهم وتظاهرهم، وأيضا فإن تشريك قومه في الموعظة أدخل في باب النصيحة فابتدأ بنصح فرعون لأنّه الذي بيده

---

[254] - غافر 29.

الأمر والنهي، وثنّى بنصيحة الحاضرين من قومه تحذيرا لهم من مصائبَ تصيبهم من جراء امتثالهم أمر فرعون بقتل موسى فإن ذلك يهممهم كما يهمّ فرعون"255.

شرع الرّجلّ المؤمن بأسلوب الترهيب وذلك ضمن استدعاء الماضي الذي فيه صورة تتطابق في حالة مضي فرعون وأتباعه بما يردون فعله بموسى صلّى الله عليه وسلّم وأتباعه، يقول تعالى: {وَقَالَ الَّذِي آَمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَاب مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ}256، هؤلاء تحقّق عليهم العذاب الدنيوي نتيجة ما اقترفوه تجاه أنفسهم وتجاه دعوة الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم، لم يكتف الرّجلّ المؤمن بالصورة الدنيوية، إنما استرسل في كلّامه موسعا ترهيبه بالصورة الأخروية التي هي المآل الأخير للبشرية جمعاء، يقول تعالى: {وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}257

خوفهم بالعذاب الأخروي بعد تخويفهم بالعذاب الدنيوي، ثم عمد إلى سمة من سمات يوم الحشر وهو التناد، والتناد مصدر تنادي القوم أي نادي بعضهم بعضا، ويوم التناد يوم القيامة سمي بذلك لأنه ينادي فيه بعضهم بعضا للاستغاثة أو يتصايحون فيه بالويل والثبور أو لتنادي أهل الجنة وأهل النّار كما حكي في سورة الأعراف أو لأن الخلق ينادون إلى المحشر أو لنداء المؤمن: {هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ}258 والكافر: {يَا

255 -تفسير التحرير والتنوير، ج 12، ص 431.

256 - غافر 30، 31.

257 - غافر 32، 33.

258 -الحاقة 19.

لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ}259. ويوم تولّون عن الموقف منصرفين عنه إلى النّار، وقيل: فارّين من النّار، فقد روي أنهم إذا سمعوا زفير النّار هربوا فلا يأتون قطرا من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفا فلا ينفعهم الهرب، ورجح هذا القول بأنّه أتم فائدة وأظهر ارتباطا بقوله تعالى: {مَا لَكُمْ مّنَ الله مِنْ عَاصِمٍ} أي يعصمكم في فراركم حتى لا تعذبوا في النّار260.

بعد ذلك ينتقل الرّجلّ المؤمن انتقالة تصريحيه تحمل اسما من أسماء الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم وهو يوسف صلّى الله عليه وسلّم، يقول تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كلّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ}261 لم يكن الاستدعاء هنا اعتباطيا بل كان مقصودا ويحتمل جملة من التساؤلات منها:

لماذا ذكر يوسف بالخصوص؟

ما الدلالة التي تحملها البينات التي جاء بها يوسف صلّى الله عليه وسلّم؟

هل هذه البينات تنفع في هذا الموقف؟

هل أراد أن يفتح قبول النّاس بيوسف عيه الصّلاة والسّلام في الماضي ليقبلوا بموسى صلّى الله عليه وسلّم بالحاضر؟

---

259 - الحاقة 25.

260 - تفسير الألوسي، ج 18، ص 87.

261 - غافر 34، 35.

وهل هناك ارتباط بين يوسف صلّى الله عليه وسلّم وموسى صلّى الله عليه وسلّم؟

إنّ هذا الرّجلّ المؤمن حمل الدعوة إلى شاطئ جديد، إذ جعلها تدور في فلك فرعون فزاد فرعون وأتباعه تذكيرا ويكون حجّة عليهم يوم التناد الذي ذكره في خطابه.

لقد تحرك الرّجلّ المؤمن بذاتية فريدة، وحضر بنفسه ومن خلال استشعار ذاتي بخطورة الموقف، ولم تذكر القصة أن أحدا قد استدعاه ليعرض رأيه، ولم يستنصره أحد ليقدم شهادته، وهذه اللمحة نستشعرها من تدبّرنا لكلّمة: {وَجَاءَ}. وهذا ما يدل على مدى إيجابيته وتفاعله مع القضية، قضية التكذيب، تكذيب الفكرة والدعوة من خلال محاولات التحجيم والتعتيم والتجهيل، وتكذيب الدعاة من خلال وصول المواجهة بينهم وبين قومهم إلى طريق مسدود، ثم تعرضهم للتهميش والإقصاء.

إن خطاب الرّجلّ المؤمن فيه مناشدة لقومه: {قَالَ يَا قَوْمِ}. ناداهم بخطاب فيه حكمة وشفقة وعاطفة؛ لأنه منهم ويعرف طبيعتهم، ويعرفونه.

ونستشعر من مغزى كلّمة {يَا قَوْمِ} أنّه . وإن ذكرت الآيات أنّه كان رجلّا . ليس في عزوة أو منعة من قومه، فان صح ذلك ضمن احتمال من إحدى الاحتمالات

وذلك أدعى ألا يشكك أحد في سابق معرفته بموسى صلّى الله عليه وسلّم، أي ليست هنالك شبهة للتواطؤ. وكذلك فليس هنالك مجال للشك في أصله، فهو من هؤلاء القوم، ومن البيئة نفسها.

وما دام من البيئة نفسها فهو الأعرف بطبيعة قومه وبمداخل إقناعهم، وأعلم بنفوسهم وبتفكيرهم وحتى بأمراضهم الاجتماعية، وأدرى بمشكلات حياتهم.

فرْق البحر:

تبع فرعون وجنوده بنو إسرائيل، إذ يقول تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ}[262] هذه هي بداية المواجهة المنتظرة، فقد تضمنت شكلّ الإتباع المفضي إلى البحث عن بني إسرائيل ذلك "أن فرعون دخل البحر يتقصّى آثارهم فسار في تلك الطرائق يريد الإحاطة بهم ومنْعَهم من السفر، وإنّما كان إتباعه إياهم ظلما وعُدوانا إذ ليس له فيه شائبة حقّ، لأن بني إسرائيل أرادوا مفارقة بلاد فرعون وليست مفارقة أحد بلده محظورة إن لم يكن لأحد عليه حقّ في البقاء، فإن لذي الوطن حقّا في الإقامة في وطنه فإذا رام مغادرة وطنه فقد تخلى عن حقّ له، وللإنسان أن يتخلى عن حقّه، فلذلك كان الخَلع في الجاهلية عقابا، وكان النفي والتغريب في الإسلام عقوبة لا تقع إلا بموجب شرعي، وكان الإمساك بالمكان عقابا، ومنه السجن، فليس الخروج من الوطن طوعا بعُدوان. فلما رام فرعون منع بني إسرائيل من الخروج وشدّ للحاق بهم لردهم كرها كان في ذلك ظالما معتديا، لأنّه يبتغي بذلك إكراههم على البقاء ولأن غرضه من ذلك تسخيرهم"[263].

وقف موسى صلّى الله عليه وسلّم أمام البحر في صورة رهيبة تصل القلوب إلى الحناجر، فكان موسى صلّى الله عليه وسلّم وأتباعه بين

---

[262] - يونس 90.

[263] - تفسير التحرير والتنوير، ج 7، ص 60.

صورتين من صور الموت، فرعون وجنوده والبحر الذي أمامهم، وفي هذا الموقف يأتي الأمر الإلهي المنقذ والمحقّ للحقّ، إذ يقول تعالى: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كلّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآَخَرِينَ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآَخَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرّحيم}264 يقول قوم موسى صلّى الله عليه وسلّم: (إِنَّا لَمُدْرَكُونَ) سوف يحيط بنا فرعون ماذا نفعل؟ البحر أمامنا، فإن خضناه غرقنا، وفرعون وجيشه خلفنا، فإن وقفنا أدركنا، ماذا نفعل؟ (إِنَّا لَمُدْرَكُونَ) فقال موسى: "كلّ" لستم بمدركين (إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) فأمر الله موسى فضرب البحر بعصاه فصار يبسا في الحال، اثني عشر طريقًا فسلكه موسى وقومه، وتبعه فرعون وقومه، فلما خرج موسى من الجهة الثانية وتكامل جيش فرعون أمر الله البحر ينطبق عليهم، وأن يعود إلى حالته، فإذًا الرؤية ثابتة، تراءى الجمعان فموسى نفى الإدراك، ولستم بمدركين فدل على أن الإدراك قدر زائد على الرؤية وهو الإحاطة، فالله -تعالى- يُرى ولكن لا يحاط به رؤية، لكمال عظمته، وكونه أكبر من كلّ شيء. في هذه تحقّق تفاعل نفسي بين موسى صلّى الله عليه وسلّم وبين قومه، وهذا التفاعل مسك قبضته موسى صلّى الله عليه وسلّم وأداره وفق إيضاحات تستنطق الوضع القائم وتحيله إلى سمة إدراكية تعود بالتالي لصالح دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم، فضلا عن الإيمان الذي يثبت الأقدام ويجعلها تسير بخطوات واثقة لتعبر إلى الضفة الثانية والتي يتمثل فيها المكان الذي تكون النظرة فيه إلى الخلف ليرى ما سيحصل لفرعون وجنوده.

---

[264] - الشعراء 61 – 68.

نعود إلى العصا فقد عادت العصا مرة ثانية إلى واجهت الأحداث وكأنها المركز الذي تدور حوله المعجزات التي جاء بها موسى صلّى الله عليه وسلّم. انفلق البحر طرقا عدة مر منها أسباط بنو إسرائيل فكانت لهم طرق الرحمة والخروج من قبضة فرعون وجنوده، وفي الوقت نفسه دخل فرعون وجنوده داخل هذا البحر وهنا تستوقفنا عدة تساؤلات منها:

ألم يرى فرعون البحر أمامه ينشق؟

لماذا لم يستدرك نفسه؟

ألم يكن لهذا المنظر وقعا في نفسه؟

لماذا لم يتردد في الدخول في البحر؟

هل كلّ ما رآه قبل هذا الموقف كان وهما من أوهامه؟

كانت نهاية فرعون مرتسمة بدعاء موسى صلّى الله عليه وسلّم، إذ يقول تعالى: {وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}265 هذا الدعاء سبق حصول الغرق فقد مهّد موسى لدعائه تمهيدا يدل على أن ما سأله من الله لزجر فرعون وملئه إنما هو لمصلحة الدين لا للانتقام منه لقومه ولنفسه، فسأل الله سلب النعمة عن فرعون وملئه وحلولَ العذاب بهم لخضد شوكتهم وتذليل تجبرهم ليرجعوا عن ضلالهم ويسهل قبولهم الإيمان.

[265] - يونس 88 – 89.

ولما كانت النعمة مغرية بالطغيان لأهل الجهالة والخباثة جعل موسى إمداد فرعون بالنعمة مغريا لفرعون بالاسترسال على الإعراض عن الدين فكان دعاء موسى عليهم استصلاحا لهم وتطلبا لإيمانهم بوسائل التشديد عليهم، ولكن الله علم من قلوبهم ما لم يعلمه موسى وقضى عليهم بالاستئصال.

وافتتح الدّعاءُ بالنداء لمناسبته لمقام الدعاء. ونودي الله بوصف الرّبوبية تذللا لإظهار العبودية"266 .

استجاب الله تعالى دعاء موسى صلّى الله عليه وسلّم كما استجاب من قبل دعاء نوح صلّى الله عليه وسلّم، إذ يقول تعالى: {وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا}267.

خرج موسى وأتباعه من بني إسرائيل ودخل فرعون وجنوده البحر في لحظة اكتنفها الخوف وحتى الاسترجاع المفاجئ الذي لم يعد ينفع فكان هذا على مستوى فرعون، إذ يقول تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النّاس عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ}268، أما على مستوى موسى صلّى الله عليه وسلّم، فقد أراد أن يضرب البحر بعصاه مرة ثانية كي يغرق فرعون وجنوده وفي هذا المقام يقول

---

266 - التحرير والتنوير، ج 7، ص 56.

267 - نوح 26 - 28.

268 - يونس 90 – 92.

الله تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ فَدَعَا ربّه أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ}[269].

إنّ غرق فرعون كان نهاية لطاغوت فقد تمثلت فيه كلّ الصفات التي أهلته أن يكون مضربا لكلّ مثل، فقد كانت بداية النهاية مع خروج موسى صلّى الله عليه وسلّم مع قومه "روي أن موسى صلّى الله عليه وسلّم لما خرج مع قومه وصلوا إلى طرف البحر وقرب فرعون مع عسكره منهم، فوقعوا في خوف شديد، لأنهم صاروا بين بحر مغرق وجند مهلك، فأنعم الله عليهم بأن أظهر لهم طريقا في البحر على ما ذكر الله تعالى هذه القصة بتمامها في سائر السور، ثم إن موسى صلّى الله عليه وسلّم مع أصحابه دخلوا وخرجوا وأبقى الله تعالى ذلك الطريق يبسا، ليطمع فرعون وجوده في التمكن من العبور، فلما دخل مع جمعه أغرقه الله تعالى بأن أوصل أجزاء الماء ببعضها وأزال الفلق، فهو معنى قوله: {فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ} وبين ما كان في قلوبهم من البغي وهي محبة الإفراط في قتلهم وظلمهم، والعدو وهو تجاوز الحد، ثم ذكر تعالى أنه لما أدركه الغرق أظهر كلّمة الإخلاص ظنا منه أنه ينجيه من تلك الآفة، فقد وقع في أمنيته ولم يكن من عقيدته حاله حال بقية الكافرين، وههنا سؤالان:

[269] – الدخان 17 – 29.

السؤال الأوّل: أن الإنسان إذا وقع في الغرق لا يمكنه أن يتلفظ بهذا اللفظ فكيف حكى الله تعالى عنه أنه ذكر ذلك؟

والجواب: من وجهين: الأوّل: أنّ الكلّام الحقّيقي هو كلّام النفس لا كلّام اللسان، فهو إنما ذكر هذا الكلّام بالنفس، لا بكلّام اللسان، ويمكن أن يستدلّ بهذه الآية على إثبات كلّام النفس لأنه تعالى حكى عنه أنه قال هذا الكلّام، وثبت بالدليل أنه ما قاله باللسان، فوجب الاعتراف بثبوت كلّام غير كلّام اللسان وهو المطلوب. الثاني: أن يكون المراد من الغرق مقدماته.

السؤال الثاني: أنه آمن ثلاث مرات أوّلها قوله: (ءامَنتُ) وثانيها قوله: (لا إله إلاَّ الذي ءامَنَتْ بِهِ بَنواْ إسرائيل) وثالثها قوله: (وَأَنَاْ مِنَ المسلمين) فما السبب في عدم القبول والله تعالى متعال عن أن يلحقّه غيظ وحقّد حتى يقال: إنّه لأجلّ ذلك الحقّد لم يقبل منه هذا الإقرار؟

والجواب: العلماء ذكروا فيه وجوها:

الوجه الأوّل: أنّه إنّما آمن عند نزول العذاب، والإيمان في هذا الوقت غير مقبول، لأنّ عند نزول العذاب يصير الحال وقت الإلجاء، وفي هذا الحال لا تكون التوبة مقبولة، ولهذا السبب قال تعالى: {فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إيمانهم لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا}270.

الوجه الثاني: هو أنه إنما ذكر هذه الكلّمة ليتوسل بها إلى دفع تلك البلية الحاضرة والمحنة الناجزة، فما كان مقصوده من هذه الكلّمة الإقرار بوحدانية الله تعالى، والاعتراف بعزة الرّبوبية وذلة العبودية، وعلى هذا

---

[270] - غافر 85.

التقدير فما كان ذكر هذه الكلّمة مقرونا بالإخلاص، فلهذا السبب ما كان مقبولا"271.

أمّا قوله تعالى: (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)؛ فكانت محورا مهما وخاتمة لفرعون على مستوى الموت وعلى مستوى البقاء بعد الموت، ولهذا انفتح الكلّام كثيرا في هذا الموضع "قال ابن عباس وغير واحد: شك بعض بني إسرائيل في موت فرعون حتى قال بعضهم إنه لا يموت فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع قيل على وجه الماء وقيل على نجوة من الأرض وعليه درعه التي يعرفونها من ملابسه ليتحقّقوا بذلك هلاكه ويعلموا قدرة الله عليه ولهذا قال: (فاليوم ننجيك ببدنك)، أي: مصاحبا درعك كالمعروفة بك: (لتكون) أي أنت آية (لمن خلفك) أي من بني إسرائيل ودليلا على قدرة الله الذي أهلكك ولهذا قرأ بعض السلف: "لتكون من خلفك آية" ويحتمل أن يكون المراد: ننجيك بجسدك مصاحبا درعك لتكون علامة لمن وراءك من بني إسرائيل على معرفتك وأنك هلكت والله أعلم وقد كان هلاكه وجنوده في يوم عاشوراء كما قال الإمام البخاري في صحيحه: حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قدم النبي صلّى الله عليه و سلم المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: "ما هذا اليوم الذي تصومونه"؟ فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون قال النبي صلّى الله عليه وسلم لأصحابه: (أنتم أحقّ بموسى منهم فصوموا) وأصل هذا الحديث في الصحيحين وغيرهما والله أعلم"272.

271 – تفسير الرازي، ج 8، ص 340.

272 – القصص الأنبياء، ج 1، ص 331.

ميعاد التكلّيم:

يرتبط بناء الكلّمة في عدد حروفها بالمعنى الذي ترمي إليه، فالزيادة والقلة تفضي إلى زيادة أو قلة أيضا في المعنى، ففي قوله تعالى: {وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعجل مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ}273 نجد أن لفظة (واعدنا) بعد تجريدها من (نا) تبقى (واعد) ، وفي اللغة يوجد أيضا لفظة (وعد) ، فالتقابل الحاصل بين الكلّمتين لا يتحقّق على مستوى المعنى الواحد، فلفظة (واعد) ليست مثل لفظة (وعد) فالزيادة في المبنى يرتبط فيها زيادة في المعنى، ونحن إذ نستعرض الآية القرآنية التي وردت فيها لفظة (واعدنا) والنصوص السابقة التي تضمنت معنى من معانيها نجد أن لفظة (واعدنا) لم ترد إلا في حقّ موسى صلّى الله عليه وسلّم دون غيره من الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم، فضلا عن أن هذه المواعدة فيها إيحاءات كثيرة تفتح لنا عدة تساؤلات منها:

لماذا هذه المواعدة؟

لماذا لم يكن وعدا؟

هل هناك أمر سابق على المواعدة؟

هل هناك أمر لاحقّ على المواعدة؟

هل المواعدة حد فاصل لأمر سابق ولأمر لاحقّ؟

هل في المواعدة استحقّاقات معينة؟

هل في المواعدة توجه جديد للدعوة؟

---

[273] البقرة 51.

هل في المواعدة مشاركة لموسى صلّى الله عليه وسلّم في أمر من الأمور؟

إنّ غياهب الفكر تستجلّي استحقّاقات متراكمة تبحث لها عن بوابات واسعة تنفذ من خلالها لتربط صيرورة الدعوة بطريقة تعشيقية في سبيل أن تغلق كلّ المنافذ التي يمكن أن يخرج منها أي شيء حتى ولو على سبيل الاتعاظ أو الإدراك، ولهذا كانت (المواعدة) بوابة جديدة من بوابات الدعوة، ذلك أنّها تضمنت شيء جديدا يخرج عن النص ألشفاهي الذي شغل الدعوة من بدايتها ثم أردف بصورة عينية تحقّقت في (يوم الزينة)، وهذا الأمر الجديد هو الألواح، وهنا تكمن أصول الدعوة، ذلك أن هذه الألواح كانت هبة من الله تعالى لموسى صلّى الله عليه وسلّم ، ممّا يفسر لنا جزءا يسيرا من هذه المواعدة التي يكتنفها أسلوب خاص وقع قبل حصولها ضمن شكلّ من أشكال التبليغ التي يريدها الله تبارك وتعالى، فبعد (المواعدة) اتسمت دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم بوجود طرفين جعلا من موسى صلّى الله عليه وسلّم شديد الغضب ذي حالة نفسية فقد اشتط غضبا، فالطرف الأوّل سلّم من البداية عدم إيمانه بموسى صلّى الله عليه وسلّم ودعوته وهو (السامري)، أما الطرف الثاني ففيه تقبع كلّ التناقضات التي لم يكن لها أن تتحقّق وفق التصور المنطقي وحتى غير المنطقي، وبطبيعة الحال مثّل هذا الطرف (بنو إسرائيل)، فبعد العودة من (المواعدة) اقبل موسى صلّى الله عليه وسلّم على قومه يحمل لهم الألواح وبلقائه لهم وجدهم كما أخبره الله تبارك وتعالى، إذ يقول تعالى: {وَمَا أَعجلكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى قَالَ هُمْ أوّلاءِ عَلَى أَثَرِي وَعجلتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السامري}274 وفي هذا الموقف يغضب موسى

[274] طه 83 – 85.

صلّى الله عليه وسلّم ليكتحل المشهد بصورة النبي المدافع عن دعوته فيمسك بلحية أخيه ويلقي الألواح ويعنف الأخ الرّسول، إذ يقول تعالى: {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعجلتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}[275]. ولنا وقفة هنا مع الألواح، إذ تتبادر لنا بعض التساؤلات منها:

لماذا ألقى الألواح؟

هل ما رآه أنساه الألواح؟

هل ما رآه أكبر من أمر الألواح؟

هل أن الموقف هاله فنسي ما يحمل في يده؟

إنّ الموقف الذي شاهده موسى صلّى الله عليه وسلّم كما نعتقد لا يتقابل مع الألواح، فما قيمة الألواح أمام قوم مضطربون فكريا وعقائديا يتمادون على دعوة النبي وقد أنقذهم ممّا كانوا عليه من قتل واستحياء، إذ يقول تعالى: {وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ}[276].

واعد الله سبحانه وتعالى موسى أربعين ليلة، إذ يقول تعالى: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ ربّه أَرْبَعِينَ لَيْلَةً

[275] الأعراف 150 – 151.

[276] الأعراف 141.

وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}277، جعل الله سبحانه وتعالى مدة المناجاة ثلاثين ليلة تيسيرا عليه، فلما قضاها وزادت نفسه الزكية تعلقا ورغبة في مناجاة الله وعبادته، زاده الله من هذا الفضل عشر ليال، فصارت مدة المناجاة أربعين ليلة، ولكنه لما أمره بها أمره بها مفرقة، إما لحكمة الاستئناس، وإما لتكون تلك العشر عبادة أخرى فيتكرر الثواب، والمراد الليالي بأيامها فاقتصر على الليالي؛ لأنّ المواعدة كانت لأجلّ الانقطاع للعبادة وتلقي المناجاة.

والنفس في الليل أكثر تجردا للكمالات النفسانية، والأحوال الملَكية، منها في النهار، إذ قد اعتادت النفوس بحسب أصل التكوين الاستئناس بنور الشمس والنشاط به للشغل، فلا يفارقها في النهار الاشتغال بالدنيا ولو بالتفكر وبمشاهدة الموجودات، وذلك ينحّط في الليل والظلمة، وتنعكس تفكّرات النفس إلى دَاخلها، ولذلك لم تزل الشريعة تحرض على قيام الليل وعلى الابتهال فيه إلى الله تعالى278.

كلّم الله تعالى موسى بعد أن انتهت المواعدة وحصل الميقات، إذ يقول تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ ربّه قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجلّى ربّه لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أوّل الْمُؤْمِنِينَ}279، هذه الآية الكريمة قيل فيها تفسيرات كثيرة، ذلك أن أهميتها تكمن في أن الله تعالى كلّم موسى صلّى الله عليه وسلّم، والكلاّم في التكلّيم فيه استطرادات كثيرة

277 الأعراف 142.

278 التحرير والتنوير، ج 5، ص 443.

279 الأعراف 143.

وتأويلات قد تقترب وتبتعد عن المعنى المقصود في الآية الكريمة من ذلك مثلا ما ذهب إليه الرازي بقوله: "اعلم أنّه تعالى بين الفائدة التي لأجلّها حضر موسى صلّى الله عليه وسلّم الميقات وهي أن كلّمه ربّه، وفي الآية مسائل شريفة عالية من العلوم الإلهية.

المسألة الأوّلى: دلت الآية على أنه تعالى كلّم موسى صلّى الله عليه وسلّم والنّاس مختلفون في كلّام الله تعالى فمنهم من قال: كلّامه عبارة عن الحروف المؤلفة المنتظمة، ومنهم من قال: كلّامه صفة حقّيقة مغايرة للحروف والأصوات. أما القائلون بالقول الأوّل فالعقلاء المحصلون، أنفقوا على أنه يجب كونه حادثا كائنا بعد أن لم يكن. وزعمت الحنابلة أنّ الكلّام المركب من الحروف والأصوات قديم، وهذا القول أخس من أن يلتفت العاقل إليه، وذلك أني قلت يوما إنّه تعالى إمّا أن يتكلّم بهذه الحروف على الجمع أو على التعاقب والتوالي، والأوّل: باطل لأن هذه الكلّمات المسموعة المفهومة إنما تكون مفهومة إذا كانت حروفها متوالية فأما إذا كانت حروفها توجد دفعة واحدة فذاك لا يكون مفيدا ألبتة، والثاني: يوجب كونها حادثة، لأنّ الحروف إذا كانت متوالية فعند مجيء الثاني ينقضي الأوّل، فالأوّل حادث لأنّ كلّ ما ثبت عدمه امتنع قدمه، والثاني حادث، لأنّ كلّ ما كان وجود متأخرا عن وجوده غيره فهو حادث، فثبت أنه بتقدير أن يكون كلّام الله تعالى عبارة عن مجرد الحروف والأصوات محدث.

إذا ثبت هذا فنقول للناس ههنا مذهبان: الأوّل: أنّ محل تلك الحروف والأصوات الحادثة هو ذات الله تعالى، وهو قول الكرامية. الثاني: أنّ محلها جسم مباين لذات الله تعالى كالشجرة وغير، وهو قول المعتزلة.

أما القول الثاني: وهو أنّ كلّام الله تعالى صفة مغايرة لهذه، الحروف والأصوات، فهذا قول أكثر أهل السنة والجماعة. وتلك الصفة قديمة أزلية. والقائلون بهذا القول اختلفوا في الشيء الذي سمعه موسى صلّى الله عليه وسلّم. فقالت الأشعرية: إنّ موسى صلّى الله عليه وسلّم سمع تلك الصفة الحقّيقية الأزلية قالوا: وكما لا يتعذر رؤية ذاته، مع أنّ ذاته ليست جسما ولا عرضا، فكذلك لا يبعد سماع كلّامه مع أنّ كلّامه لا يكون حرفا ولا صوتا. وقال أبو منصور المتردي: الذي سمعه موسى صلّى الله عليه وسلّم أصوات مقطعة وحروف مؤلفة قائمة بالشجرة، فأما الصفة الأزلية التي ليست بحرف ولا صوت فداك ما سمعه موسى صلّى الله عليه وسلّم ألبتة، فهذا تفصيل مذاهب النّاس في سماع كلّام الله تعالى.

المسألة الثانية: اختلفوا في أنه تعالى كلّم موسى وحده أو كلّمه مع أقوام آخرين وظاهر الآية يدل على الأوّل. لأن قوله تعالى: (وَكلّمَهُ ربّه) يدل على تخصيص موسى صلّى الله عليه وسلّم بهذا التشريف والتخصيص بالذكر يدا على نفي الحكم عما عداه، وقال القاضي: بل السبعون المختارون للميقات سمعوا أيضا كلّام الله تعالى. قال: لأن الغرض بإحضارهم أن يخبروا قوم موسى صلّى الله عليه وسلّم عما يجري هناك، وهذا المقصود لا يتم إلا عند سماع الكلّام وأيضا فإن تكلّيم الله تعالى موسى صلّى الله عليه وسلّم على هذا الوجه معجز، وقد تقدمت نبوة موسى صلّى الله عليه وسلّم لا بد من ظهور هذا المعنى لغيره"[280].

إن تكلّيم الله عزّ وجلّ لعبده بلا واسطة، وهذه أعلى المراتب فقد كلّم موسى بن عمران، صلّى الله عليه وسلّم، قال الله تعالى: {وَرُسُلًا

[280] تفسير الرازي، ج 7، ص 236.

قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكلّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكلِّيمًا}281؛ فذكر في أوّل الآية وحيه إلى نوح والنبيين من بعده، ثم خص موسى من بينهم بالإخبار بأنه كلّمه، وهذا يدل على أن التكلّيم الذي حصل له أخص من مطلق الوحي الذي ذكر في أوّل الآية، ثم أكده بالمصدر الحقّيقي الذي هو مصدر كلّم وهو التكلّيم رفعا لما يتوهم من أنه إلهام، أو إشارة، أو تعريف للمعنى النفسي بشيء غير التكلّيم، فأكده بالمصدر المفيد تحقّيق النسبة ورفع توهم المجاز، ذلك "أنّ تقوية الكلاّم بالتأكيد من علامات الحقّيقة دون المجاز؛ لأن أهل اللغة لا يقوّون المجاز بالتأكيد؛ فلا يقولون أراد الجدارُ إرادة، ولا قالت الشمس قولا، كطلعت طلوعا؛ وكذلك ورد الكلاّم في الشّرع لأنّه على طريق اللغة، قال تعالى: "وكلّمَ اللّه مُوسَى تكلّيما"؛ فتأكيدُه بالمصدر يفيد الحقّيقةَ، وأنّه أسمعه كلاّمه، وكلّمه بنفسه، لا كلاّما قام بغيره"282، ونحن نأخذ بهذا الرأي، وفي قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكلّمَهُ ربّه قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجلّى ربّه لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أوّل الْمُؤْمِنِينَ}283 هذا التكلّيم غير التكلّيم الأوّل الذي أرسله به إلى فرعون، وفي هذا التكلّيم الثاني سأل النظر لا في الأوّل، وفيه أعطي الألواح، وكان عن مواعدة من الله له، والتكلّيم الأوّل لم يكن عن مواعدة، وفيه قال الله له: {قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النّاس

[281] – النساء 164.

[282] المزهر، للسيوطي، ج 1، ص 112.

[283] الأعراف 143.

بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آَتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِين}284، أي بتكلّيمي لك.

أخبر سبحانه في كتابه أنه ناداه وناجاه، فالنداء من بعد، والمناجاة من قرب، ولو كان التكلّيم الذي حصل له من جنس ما حصل لغيره من الأنبياء لم يكن لهذا التخصيص معنى في كلّ الخلافات التي تناولت هذا الموضوع ، ولا كان يسمى كلّيم الرّحمن، وفي قوله تعالى: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}285، وردت هذه الآية في سورة الغرض منها إثبات كون القرآن وحيا من الله إلى محمّد صلّى الله عليه وسلّم كما أوحي من قبله للرسل بيّن الله للمكذبين أن سنة الله في خطاب رسله لا تعدو ثلاثة أنحاء من الخطاب، منها ما جاء به القرآن فلم يكن ذلك بدعا ممّا جاءت به الرّسُل الأوّلون وما كان الله ليخاطب رسله على الأنحاء التي اقترحها المشركون على النبي صلّى الله عليه وسلّم فجيء بصيغة حصر مفتتحة بصيغة الجحود المفيدة مبالغة النفي وهي {وما كان لبشر أن يكلّمه الله} أي لم يتهيّأ لأحد من الرّسُل أن يأتيه خطاب من الله بنوع من هذه الثلاثة.

ودل ذلك على انتفاء أن يكون إبلاغ مراد الله تعالى لأمم الرّسُل بغير أحد هذه الأنواع الثلاثة أعني خصوص نوع إرسال رسول، بدلالة فحوى الخطاب فإنه إذا كان الرّسُل لا يخاطبهم الله إلاّ بأحد هذه الأنحاء الثلاثة فالأمم أوّلى بأن لا يخاطبوا بغير ذلك من نحو ما سأله المشركون من رؤية الله يخاطبهم، أو مجيء الملائكة إليهم بل لا يتوجه إليهم خطاب الله إلاّ بواسطة رسول منهم يتلقى كلّام الله بنحو من

---

284 الأعراف 144.

285 - الشورى 51.

الأنحاء الثلاثة وهو ممّا يدخل في قوله: (أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء) فإن الرّسول يكون مَلَكا وهو الذي يبلّغ الوحي إلى الرّسُل والأنبياء 286. كما أن هذه الآية فرقت بين ثلاثة أنواع من التكلّيم فتكلّيم بالوحي، وتكلّيم بإرسال الرّسول، وتكلّيم من وراء حجاب. كما أن الله تعالى لم يذكر موسى صلّى الله عليه وسلّم في قوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}287.

المواعدة والرؤية والنظر:

طلب الرؤية وطلب النظر لله بين موسى وقومه أمر جد مهم يبعث على البحث المستقصي للتحقّق أيّهما كان أحقّ في طلبه.

مع التأكيد على أنّ نبي الله موسى كان يسأل من جانب إيماني

وبنو إسرائيل يسألون في جانب إيذائي لنبيهم ولأنفسهم

وهنا تبدو تساؤلات:

هل من الممكن النظر لله في الدنيا؟

وهذا اعتماد على طلب سيدنا موسى لله؟

هل رؤية الله متحقّقة في الدنيا؟

هل مشاهدة آيات الله ومعجزاته يتيح سؤال ما لا يسأل؟

---

286 - التحرير والتنوير، ج 13، ص 160.

287 - النساء 163 – 164.

هل رحمة الله تبيح التمادي في المعصية كما حدث الحال مع بني إسرائيل؟

هل يمكن أن يكون طلب النظر والرؤية نفسه معصية وغير معصية في ذات الوقت؟

هل من المباح لموسى أن يسأل الله النظر؟

ومن غير المباح أن يسأل بنو إسرائيل موسى أن يريهم الله جهرة؟

هذا وغيره يمكن التحقّق منه في قول الله تعالى:

1. {وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعجل مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَإِذْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعجل فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرّحيم وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كلّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[288]

2- {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ

[288]- البقرة 50-57.

يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ ربّه أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ ربّه قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى ربّه لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوّل الْمُؤْمِنِينَ}289

أ- ونلاحظ أنّ ترتيب أحداث آيات البقرة من المعجزات والمعاصي والتوبة فيه الآتي:

- معجزة عينية فرق البحر والمرور بسلام (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ).

- نجاة بني إسرائيل من فرعون ومن خطر الغرق (فَأَنْجَيْنَاكُمْ).

- غرق فرعون وآله من الذين اتبعوه (وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ).

- مشاهدة عينية لهلاك العدو تبعث للطمأنينة والتمسك بالله (وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ).

- المواعدة الأربعينية تلت مباشرة هلاك فرعون وآله بنص الآيات (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) وعلى هذا الند القرآني يحتمل أنّ الكلّام والكتاب وطلب النظر إن حدث قد حدث في هذه المواعدة.

- معصية بني إسرائيل بعد ما حدث من آيات ونعم أمامهم ولكنهم عصوا الله وكفروا به (ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجل مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ).

---

289 -الأعراف 138-143.

- سعة رحمة الله بهم وعفوه عنهم وتوبته عليهم (ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).

- كتاب موسى والفرقان الذي انزل عليه بعد عبادة العجل وعليه ينتفي الاحتمال بأن الكتاب (التوراة) أنزلت في المواعدة الأربعينية (وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ).

- فصل موسى في معصية قومه بإخبارهم أن ذلك معصية لا ينجي منها سوى التوبة إلى الله وقتل النفس إمّا بالحقّيقة أو المجاز (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعجل فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرّحيم) ونحن نرى أن جانب المجاز أقوى من جانب الحقّيقة في قتل النفس لقوله تعالى: (فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرّحيم).

- معصية أخرى تناولت ذات الله تعالى باعتقادهم في التشبيه والتجسيد ومساومة نبيهم فيمالا يستطيع فعله (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً).

- عقاب فوري سريع بمشاهدة عينية حسية تمثلت في موتهم وبعثهم (فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).

ولعل موتهم وبعثهم يفيد أنّهم لن يروا الله في الدنيا ولا في الآخرة بالصورة التي توهموها تمثيلا وتجسيدا (حتى نرى الله جهرة) فلن تروه جهرة حال حياتكم وحال موتكم وبعد بعثكم؛ فكان موتهم عقابا لهم على تجرئهم لهذا الشرط والمساومة.

ب- آيات الأعراف:

في آيات الأعراف يبدو في المشهد العصياني لبني إسرائيل تفاصيل أخرى تضيف إلى معاصيهم معاص، كما تفصل الأعراف ما أجمل بعض الشيء في البقرة وبتحليل الآيات يتبين الآتي:

– مجاوزة البحر نعمة من الله (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ)

– تأثر بنو إسرائيل بقوم من عبدة الأصنام وهذا ينبي عن جهلهم (فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)

– توبيخ سيدنا موسى لقومه الذين يطلبون إلها غير الله (إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

– من المحتمل أن النجاة لم تكن بعد مجاوزة البحر لأنه من خلال سياق الآيات يتبين أن مجاوزة البحر تبعه مرورهم على قوم يعكفون على أصنام لهم.

– ويحتمل أن هؤلاء القوم العاكفون في أرض مصر.

– كما يحتمل أن يكون البحر المجاز غير البحر المفلوق كالطود العظيم الذي غرق فيه فرعون مصداقا لقوله تعالى حكاية عن فرعون {وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ}290

– وقد يكون الاجتياز لأكثر من بحر أو نهر

[290]– الزخرف 51.

ـ والفرق كالطود العظيم والغرق في بحر بعينه لما أصر فرعون وجنوده على تتبع موسى وبني إسرائيل الذين آمنوا معه {فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كلّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ}[291]

في آيات الشعراء يوجد:

- إزلاف، بمعنى: الانزلاق الشديد الذي لا يستطيع جنود فرعون معه الخروج مرة أخرى إلى خارج البحر.

- نجاة موسى ومن معه.

- إغراق بعد الإزلاف.

- لم يكن كلّ الناجين من بني إسرائيل مؤمنين.

- كانت النجاة جماعية من أمرين:

الأوّل: نجاة من عذاب آل فرعون مصداقا لقوله تعالى: (وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

الثاني: نجاة من البحر.

- المواعدة الثلاثينية المتمّمة بعشر.

(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ ربّه أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ)

---

[291] -الشعراء 64-67.

-الكلّام الذي نعتقد أنه لم يكن هو الكلّام الأوّل في حياة موسى النبي بينه وبين الله تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلّمَهُ ربّه)

- طلب النظر من الله بعد كلّام الله مباشرة في هذه المواعدة: (قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجلّى ربّه لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أوّل الْمُؤْمِنِينَ)

وبعد عرض عناصر الآيات في سورتي البقرة والأعراف سنبحث في المواعدة والرؤية ومترتباتها:

المواعدة بين الأربعين المتصلة والثلاثين المتممة بعشر:

وعد الله موسى أربعين ليلة!

وعد الله لموسى ثلاثين ليلة!!!

لماذا ثلاثون ليلة؟

ولماذا تممت بعشر؟

والتمام ممن؟

من الله؟ أم من موسى؟

وما مترتبات التمام؟

وهل هذا الإتمام له علاقة بإتمام سابق عند سيدنا موسى صلّى الله عليه وسلّم؟

تمام استئجار المديني له؟

من الآيات يتبين الآتي:

- نجاة من عدو بمعجزة كبيرة (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ) الأعراف

- معصيتان من بني إسرائيل (فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) الأعراف

- معصية العجل (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجل مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ) البقرة

يبدو احتمالا أن المواعدة كانت مرتان بعد النجاة وقد صاحب كلّ مواعدة معصية من بني إسرائيل وذلك للآتي:

- بعد النجاة طلب بنو إسرائيل أن يكون لهم إلها كما لهم إلهة.

- في مواعدة أخرى اتخذوا العجل.

ولكن اتخاذ العجل كان بعد معصية أدت إلى موت بني إسرائيل عقابا لهم والمعصية التي أدت إلى موتهم تمثلت في طلبهم أن يروا الله جهرة، مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}292

وهنا تحقّقت آية كبرى لبني إسرائيل فقد صعقوا وماتوا ثم أحياهم الله.

وهنا ثبت أن الله لا يرى في الدنيا.

---

[292] -البقرة 55، 56.

وثبت أنه يمكن أن يموت الإنسان ويحيى مرة أخرى ولن تتحقّق له الرؤية

وشرط الإيمان بالرؤية يدعونا لنتساءل:

هل كان بنو إسرائيل مؤمنين حقّا؟

هل عدم إيمانهم دفعهم لطلب رؤية المعبود؟

أم إنّهم مؤمنون ومن فرط إيمانهم أرادوا التحقّق بالرؤية الثبوتية من المعبود؟

هل هو تأثر بأقوام عاشوا معهم أو مروا بهم؟

وإن كان ذلك يجوز في حقّ بني إسرائيل فهل يجوز في حقّ موسى صلّى الله عليه وسلّم؟ ونحن نرى إنّهم لم يكونوا مؤمنين لقوله تعالى (لن نؤمن لك)

ولاستكشاف الأمر علينا أن نحلل الآيات المتعلقة بالقضية لنستبين سبلها المؤدية إلى الحقّيقة

وهنا نقف عند كلّمة (واعدنا)

من المعلوم إنّ المواعدة بين اثنين، والمواعدة مشاركة ولابدّ من اثنين مشاركين في المواعدة، ويترتب على ذلك:

- أنّ الوعد وإن كان من الله تعالى فقبوله كان من موسى صلّى الله عليه وسلّم وقبول الوعد يشبه الوعد، ويجعل المتلقي مشارك فيه بقبوله أو رفضه.

- وعد الإنسان لله لا بندية ولكن على معنى (يعاهد الله)

- أنّ الوعد جرى بين الله وموسى بأمر الله فيأتي الوعد من الله والقبول من موسى طاعة لله.

- الوعد بشيء يتممه الله لموسى وهو الوحي في الميقات، فيكون الفاعل هو الله والمتلقي هو موسى الذي لا يملك غير الطاعة.

. بين الأربعين والثلاثين:

في الآيتين وجدنا:

المواعدة أربعين ليلة

ثلاثين ليلة أتممناها بعشر

أمّا قوله تعالى: (أَرْبَعِينَ لَيْلَةً):

نقول على الاحتمال:

- إنّ الوعد أربعين ليلة هو نفسه الوعد على مرحلتين أربعين ليلة مكونة من ثلاثين ليلة متممة بعشر ليال.

وتفصيل ذلك:

إنّ الأربعين لم تكن في شهر واحد

إنّها كانت في شهرين

شهر كامل متصل

وعشرة ليال من شهر متصل به

أو يجوز:

أنّ العشرة في شهر غير متصل بالسابق

أو عشر مفرقات

أو عشر متصلات

أو يمكن احتمالا أن تكون هناك مواعدتان:

- أربعين ليلة متصلة

- ثلاثين ليلة متممة بعشرة

- وقد رافقت كلّ مواعدة معصية من بني إسرائيل

- مواعدة طلبوا فيها رؤية الله جهرة

-ومواعدة أرادوا رؤية إله لهم متوهم من خيالهم صوروه في عبادة العجل اعتقادا منهم أن ذلك العجل يلبي الرؤية الجهرية، ويلبي حاجتهم بأن يعكفوا على إله كما عند الأقوام الذين عاشوا معهم أو مرّروا بهم.

- ومن الاحتمالات:

-أن معصية بني إسرائيل متأصلة فيهم.

- بنو إسرائيل في عهد سيدنا موسى ألفوا التقلب في المعصية.

- اعتادوا أذى موسى في نفسه في عقيدته وهذا الأذى من أشد الأذى الذي يدمي قلب النبي موسى حتّى أنه قال لهم في عتاب شديد: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}[293]، ومن أنواع الأذى الذي آذوه لسيدنا موسى:

---

[293] -الصف.

- آذوا موسى في الله إذ طلبوا رؤية الله جهرة {أَرِنَا الله جَهْرَةً}294 .

- طلبوا إلها منحوتا كما لبعض من مروا عليهم صنما {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ}295.

- آذوا سيدنا موسى أن عبدوا عجلا مصنوعا من حليهم.

- معصيتهم له لما طلب منهم الجهاد في سبيل الله وقولهم: {قَالُوا يا موسى إِنَّ فِيهَا قَوْما جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حتى يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا داخلون}296.

- التخلّي عنه شكّا فيه وفي قدرة الله على نصرهم فقالوا: {فاذهب أَنتَ وَرَبُّكَ فقاتلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}297.

- استبدال الطعام الذي وهبهم الله إياه فقالوا: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ}298.

على ما تقدّم يتبن أن الذين آذوا موسى سيتحينون فرصة غياب موسى لفعل معاص جديدة همٌ قد نشئوا على مثلها ويفعلونها وقت وجود موسى ووقت تعبد موسى لله.

294 - النساء 153.

295 -الأعراف 138.

296 -المائدة 21.

297 المائدة 24.

298 -البقرة 61.

- ولما كنا نبحث في طلب الرؤية جهرة وهو أمر لم يطلبه نبي من قبل ولم يطلبه أي قوم من أقوام الأنبياء السابقين على موسى وحتى اللاحقّين له كان لابدّ أن نقترب أكثر لنعرف ما سبب المواعدة.

سبب المواعدة:

ذكر في معظم التفاسير أنّ سبب المواعدة انحصرت في أمرين:

- المواعدة بالتوراة.

- أو بالكلّام.

وهنا نحن نقول:

يجوز أن تكون هناك احتمالات أخرى.

وهذا الأمر الذي لا نعلمه يفتح لنا باب بحث لا ينغلق فيفضي إلينا بأمور لم يذكرها المفسرون تتضح عبر تساؤلات منها:

. إنّ كانت المواعدة بالكلّام، فما الذي حدث يوم أن سار موسى بأهله عائدا من مدين إلى مصر؟ {وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النّار هُدًى فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كلّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا

الْأَوّلَى وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آَيَةً أُخْرَى لِنُرِيَكَ مِنْ آَيَاتِنَا الْكُبْرَى}299

فهذا كلّام من غير مواعدة

كلّام مباشر من غير واسطة ملك

أمر باستماع وحي من الله وحي كلّامي (فاستمع لما يوحى)

لا واسطة لملك مصداقا لقوله تعالى (إنني إنا الله)

تلقي الأمر بالنبوّة والكلّام

وهنا نتساءل:

هل من المعقول أن يذهب موسى إلى فرعون ليدعوه وليست معه شريعة؟

هل من المعقول أن يكون موسى نبي ورسول إلى بني إسرائيل وأهل مصر دون تعاليم للمستهدفين من الرسالة؟

يبدو أن ذلك الذي قالوه يخالف العقل، ونحن نقول الأقرب للعقل.

كما يبدو أن حصر تلقي التوراة في وقت لاحقّ بعد الخروج من مصر فيه أثر ليد عابثة محرفة تريد أن تنتزع أرضا من مصر لتلقي عليها ظلالا مقدسة يهودية.

فما معنى أن يقول موسى لبني إسرائيل بعد أن أنجاهم الله من فرعون اهبطوا مصرا؟

فهي مصر من أمصار مصر

---

[299] - طه: 9-23.

إذن، هم في مصر؟

وإن لم يكونوا في مصر فأين كانوا؟

وهنا نرد على التساؤلات بتساؤلات تفضي إلى الحقّيقة:

أليست سيناء من مصر؟

أليست عبادة العجل حدثت قبل دخول الأرض المقدسة؟

إذن هي بالمنطق في مصر.

نقول: الهبوط كان في مصر وليس خارجها.

كيف؟!!

في مصر بعيدا عن سطوة فرعون وملأه

والتساؤل:

ماذا حدث بعد هلاك فرعون؟

نقول احتمالا:

إنّ المصريين عكفوا على تمليك ملك جديد لا يقوم بمغامرة عسكرية مع قوّة مطلقة (الله)

عكفوا على إصلاح ما أفسده فرعون.

لم يتعقبوا بني إسرائيل.

وعليه:

يسقط الاحتمالان اللذان أسّس لهما المفسرون

فالكلّام قد حدث في فترة سابقة بدأت منذ عودة موسى بأهله من مدين

التعاليم لا يعقل أن تنزل دفعة واحدة

كما لا يعقل أن يواجه موسى فرعون والمصريين وبني إسرائيل والسّحرة دون تعاليم إلهية

وقت المواعدة:

من المؤكد أن المواعدة كانت ليلا بغض النظر عن مدتها أهي أربعون ليلة متصلة.

- أم ثلاثون ليلة متممة بعشر.

- إذن كانت حاصلة في الليل

- لم يكن النهار داخلا في المواعدة.

وهنا نتساءل:

لماذا المواعدة ليلا؟

هنا نتذكر أهمية الليل في تلقي الوحي مصداق لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا}[300] .

---

[300] -المزمل 1-7.

لابدّ أن لليل سر أيما سر عند الله فكما ذكر الله فقد حثّ على قيام الليل، لأن قيام الليل أقوم قيلا وأكثر خشوعا وأصفى لذهن الإنسان، في مناجاة الله والتلقي بومضات نوره على القلب.

وقد ذكرت كتب التفاسير معظمها أن المواعدة حدثت في العشر الأخيرة من الرّبعين ليلة.

ونحن نقول:

-إن المواعدة حدثت في الأربعين ليلة كاملة.

- لم يكن فيها امتحان لموسى وترقب

- بل كانت كلّها نفحات وعطاءات من الله

- لا نجزم انه قد نزلت التوراة على موسى فيها

- يمكن أن يكون موسى قد تلقى من الله شيئا لم يتلفاه من قبل

- من المؤكد أنّ موسى كلّم الله في الأربعين ليلة كما كلّمه قبل ذلك

-طلب النظر من موسى كان في الأربعين ليلة

- لا يستطيع أحد أن يجزم متى بالتحديد كان هذا الطلب

-يمكن أن نقول احتمالا إن طلب الرؤية بعد الكلّام

وهنا نتساءل:

موسى طلب النظر

فهل النظر ممكن؟

للنبي؟

في الدنيا؟

وعليه:

هل النظر يختلف عن الرؤية؟

أم الرؤية أعلى من النظر؟

وما الذي ألهم موسى بطلب النظر؟

أهو الكلّام أم التكلّيم؟

من المعلوم أن الله كلّم موسى تكلّيما وليس كلّاما

فالتعليم غير العلم

والتكلّيم غير الكلّام

فالكلّام أصوات

والتكلّيم قدرات

وملكات

يفهم بها موسى كلّ كلّام

أمّا الأصوات فلا يفهم غيرها إن نطقت نفس المعاني بأصوات مغايرة.

والتكلّيم القدرة على فهم المعنى بصوت ومن غير صوت

التكلّيم درجة راقية من الوحي

التكلّيم وحي دون واسطة مصداقا لقوله تعالى: {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}301

التكلّيم وحي مسموع من الله

ليس كلّ وحي تكلّيم

الوحي من الملك ليس تكلّيم

التكلّيم من الله وحي

نفي واسطة الملك تعني: تكلّيم الله

ونحن نقول:

إنّ الله كلّم موسى تكلّيما بالكيفية التي تليق بالله وبالقدرة التي منحها لموسى أن يتلقى تكلّيمه ويتفهمه، دونما الميل لفرقة دون فرقة ولجماعة دون جماعة.

فلا نحن نثبت كلّاما حادثا ولا نصر على كونه قديما.

بل نقول تكلّيما من الله بكيفية يعلمها الله وبقدرة من الله لموسى بفهم تكلّيمه، فنحن نثبت التكلّيم مع تفويض الأمر في الكيفية والتفهيم والاستماع لله سبحانه وتعالى.

مترتبات التكلّيم:

لا شك أنّ سيدنا موسى بشر والبشر من طبعه النظر والتطلع لما يغيب عنه، لذا، لما تجلّى الله لموسى بالتكلّيم طمح في النظر.

---

[301] - طه 13،14.

والتساؤل هنا:

هل طلب موسى النظر بعد بني طلب بني إسرائيل الرؤية؟

إن كانت الإجابة نعم.

فهل لم يستفد موسى ممّا حدث لقومه حينما طلبوا الرؤية جهرة؟

أم هل طلب موسى النظر لأنه نبي؟

هل علم موسى أن النظر يجوز والرؤية لا تجوز؟

أم هل أن موسى قد طمع في رحمة الله به أن منّ عليه بالتكلّيم فأراد أن ينال شرف الرؤية؟

وإن كانت الإجابة بلا؟

فيكون بنو إسرائيل لديهم من السند الذي يستندون عليه في طلب الرؤية

يكون بنو إسرائيل مصرون على طلب ما لا يطلب

لا يعلمون أن الذي لا يتحقّق للنبي لا يتحقّق لأتباعه

من المحتمل أن يكون طلب موسى على سبيل التعليم لبني إسرائيل أن النظر والرؤية ممتنعة لأن الله يحيط ولا يحاط.

ويحتمل أن يكون على سنة إبراهيم للطمأنينة

وعليه نقول:

إن كان طلب النظر سابق أو لاحقّ فالمعنى المستفاد:

- أنّ الله لا يرى جهرة.

- أنّ الله لا ينظر إليه.

- أنّ كلّام الله جائز بالكيفية التي يعلمها الله ونجهلها نحن مصداقا لقوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلّمَهُ ربّه قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجلّى ربّه لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أوّل الْمُؤْمِنِينَ}302

وهنا نتساءل: هل هذه الآية تجيز طلب الرؤية؟

هل الرؤية ممكنة؟

- من البداية فإن الآية تدلّ على أن موسى عليه الصّلاة والسّلام سأل النظر، ولا شك أن سيدنا موسى عليه الصّلاة والسّلام بكونه نبي ورسول يعلم بما يجب أو يجوز أو يمتنع في حقّ الله تعالى.

- فلو كانت النظر ممتنع في حقّ الله تعالى لما سأله سيدنا موسى صلّى الله عليه وسلّم.

- بما إنّ سيدنا موسى سأل النظر وهو نبي هل يفهم من ذلك أن النظر جائز على الله تعالى.

- ولكن هذا القول كلّه وإن كان منطقيا فينقضه قول الله تعالى: (لن تراني).

فيعلم منه أن الرؤية ممتنعة وأن سيدنا موسى سأل ما لا يجب أن يسأله الله.

ويترتب على ذلك:

---

302 الأعراف 143

- أنّ سيدنا موسى عليه الصّلاة والسّلام لم يكن يعرف أنّ الرؤية ممتنعة على البشر.

- ولكن حدث له هذا العلم بعد الرد من الله (لن تراني)

وقد يتساءل متسائل:

هل علم موسى يصل إلى الحد الذي لا يعلم ما يسأل الله وما لم يسأل؟

أليس النبي من المفترض أن يعلم ما يسأل الله عنه وما لم يسأل؟

نقول نعم النبي قد يكون عل على هذا العلم أو لا يكون.

. فإن كان على غير علم فقد سأل سيدنا موسى ما لا يسأل ثم علم وتاب عن هذا السؤال (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ ربّه قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلّى ربّه لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أوّل الْمُؤْمِنِينَ)

. وإن كان على علم بأنه لن يرى فلماذا سأل الله، يجوز احتمالا أنّه سألها على لسان قومه، فقد كانوا جاهلين بذلك ملحين عليه يقولون: (لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى الله جَهْرَةً فسأل موسى الرؤية لا لنفسه، فلما جاء الرد (لن تراني) علم سيدنا موسى أنّ الرؤية غير متحقّقة ولا سبيل إليها.

وكان السؤال لإثبات النفي

- لكن هذا الاحتمال العقلي يبطله إننا أثبتنا منذ بداية البحث في هذا الموضوع أنّ طلب الرؤية من بني إسرائيل منفصل عن طلب النظر من موسى.

- من المعلوم أنّ الرؤية تتطلب إحاطة والإحاطة مستحيلة لله.

- إن كان بنو إسرائيل طلبوا الرؤية موقنين بإمكانية الإحاطة فقد استحقّوا العقاب.

- يبدوا من سياق الآيات أنهم طلبوا الرؤية موقنين بالإحاطة.

- يوضح ذلك أنهم قد طلبوا إلها متجسدا مرئيا محاطا.

- لما زجرهم موسى انتهزوا فرصة غيابه عنهم وعبدوا عجل البقر.

- بيد أن طلب موسى النظر يختلف في لآتي:

- يعلم موسى أن الله لا يحاط فطلب النظر ولم يطلب الرؤية.

- بأنّه طلب من الله أن يريه لينظر إليه.

-لم يزجره الله بل أمهله ليعلم أن الرؤية والنظر غير متحقّقين.

- أفاق موسى من طلبه وتاب إلى الله

- آمن موسى بان الله لا يرى جهرة، ولا ينظر إليه.

وعليه:

- فطلب الرؤية منفصل عن طلب النظر.

- طلب الرؤية أدى لأخذهم بالصاعقة وموتهم وبعثهم وتوبة الله عليهم.

- طلب النظر تبعه صعق موسى بعد أن تجلّى الله للجبل الذي دك على الفور.

- خرّ موسى صعقا ولم يمت.

- أفاق موسى وتاب إلى الله.

- آمن موسى بان الله لا يرى جهرة ولا ينظر إليه.

ونحن نؤمن أنّ الله جلّ وعلا ليس له صورة ولا إدراك ولا إحاطة ولا توهم بعقل لأن العقل والتوهم والتخيل في عجز عن تصور اللطيف الخبير وكلّ ما يصل إليه وهم الواهم في إدراك المدرك ليس هو الله ولا أي اسم من أسمائه فالله وراء ذلك كلّه لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير.

عبادة العجل:

دأبت الطوطمية أن تكون جزءا من الفكر البشري، ذلك أنّ الجماعات البشرية المختلفة فتحت على نفسها بابا متسعا يتناسب حسب ما تعتقد مع اتساع المخاطر التي تتعرض لها من كلّ ما تتوقعه أو لا تتوقعه، هذه العبادة استمرت بين جنبات السنين ومتغيرات التاريخ وحتى بين دعوات الرّسُل صلّى الله عليهم وسلّم، وهذا أمر يدعو للتساؤل:

لماذا هذا الاستمرار؟

لماذا لا تزاح عن الفكر البشري؟

لماذا الطوطمية قابعة في الفكر البشري وخاصة القديم؟

إن البحث عن الآمان أو حتى الحماية هي مطلب بشري منذ الأزل، فسمة هذا البحث تنطوي على مفترق تحليلات مختلفة تبحث عن مركز تكمن فيه ما مطلوب فيتحقّق على سبيل الظن أو حتى على سبيل استقرار واطمئنان الحالة النفسية، هذا المركز كان يتشكلّ من حيوان، إذ تلتف جماعة حول الطوطم تتخذه حاميها والمدافع عنها من مثل كلّب وثور وثعلب وغير ذلك، هذه الصورة المتكررة لهذه العبادة ظهرت مثل ظهورها السابق في أزمان وبيئات سابقة على عهد موسى صلّى الله عليه وسلّم، فبعد أن ترك قومه مع هارون صلّى الله عليه وسلّم ، ثم بعد ذلك عاد إليهم وجدهم يعبدون عجلا . وقبل الخوض فيه هذه الواقعة المهمة يستدرجنا الفكر إلى تساؤلات منها:

لماذا هذه العبادة دون غيرها؟

أين يوم الزينة وما فيه من دلائل وبراهين؟

لماذا هذا الانحراف عن دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم؟

أين هارون من هذه الواقعة؟

ألم يكن هارون صلّى الله عليه وسلّم مقدما في بعض المواقف على موسى صلّى الله عليه وسلّم؟

ألم يكن هارون نبيا؟

لماذا كان السامري له المحور الرئيسي في هذه الواقعة دون غيره؟

لماذا اتبع بنو إسرائيل السامري وتناسوا موسى صلّى الله عليه وسلّم؟

إن هذه الواقعة تعد علامة فارقة في دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم، ذلك إن بني إسرائيل شكلّوا حالة معرفية غير متوقّعة لا على

مستوى الإدراك ولا على غيره، فهؤلاء تلقوا دعوة السامري بفكر مستشري فيه كلّ الإرهاصات التي انقادت دون أدنى شك لما يريده السامري، وهذا يحيل ألينا أنّ بني إسرائيل يقبعون حول مركزية شديدة التأثير تجذب نحوها الترسبات الفكرية المتأتية من الوعي الجمعي الذي رسخ كثير من الأفكار البدائية التي لا تقبل التغيير لا على مستوى الصورة العينية المتحقّقة و لا على مستوى الإبلاغ المتشكلّ فيه خطاب الله تعالى.

إنّ هذه الرؤية لبني إسرائيل تفتح أفق الأحداث أمامنا، أي أنّ مستقبل الأحداث المتعلق بهم سيشهد إخفاقات قد تقترب أو تبتعد إلا أنّها ستكون مصاحبة لهم على مر السنين.

رجع موسى صلّى الله عليه وسلّم فوجد أمامه صورة مغايرة لما تركه:

السامري.

العجل.

فعل بني إسرائيل.

اشتد غضب موسى صلّى الله عليه وسلّم، وأخذ بلحية هارون صلّى الله عليه وسلّم، إذ يقول تعالى: {قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}303. هذا الموقف حمل عدة تساؤلات منها:

لماذا حصل الذي حصل؟

---

[303] - طه 92 – 94.

أين هارون صلّى الله عليه وسلّم من هذه الأحداث؟

أين دور هارون صلّى الله عليه وسلّم؟

أين دور موسى صلّى الله عليه وسلّم في قومه؟

لماذا هذا الانحراف الفكري المفاجئ؟

هل ما حصل امتداد للبدائية الإنسانية؟

هل العبادة الطوطمية جزء لا يتجزأ من ارثهم الفكري أو الديني؟

هل وجد بنو إسرائيل بالطوطمية بديلا عن دين موسى صلّى الله عليه وسلّم؟

كيف ظهر السامري بهذه الشخصية؟

كيف اقنع السامري بني إسرائيل بالعجل؟

هل هناك توافق فكري بين السامري وبني إسرائيل؟

إنّ الإشكالية هنا إشكالية إتباع، ذلك أن فكر بني إسرائيل هنا غير كامن في الزاوية التي ارتضاها لهم موسى صلّى الله عليه وسلّم، فزاوية الاستقرار الفكري والديني التي منحت لهم أصبحت أرض فلاة لا تسمن ولا تغني من جوع، ذلك أن التقابل في الأحداث يدفع بنا إلى القول أن الدعوة لم تتحقّق لا على مستوى بني إسرائيل و لا على مستوى آل فرعون؛ إنما تحقّقت على مستوى السّحرة فقط، ويوم الزينة شاهدا على ذلك كما أن عبادة العجل أيضا تدخل ضمن هذا الإطار.

إنّ التقابل الحاصل بين هاتين القضيتين يفضي بالقول إلى خلق حالة استرجاعية تحسم المدركات الفعلية وتؤصلها ضمن آليات تثبت الحقّ وتخرج ما عداه من الدائرة التي جمع فيها كلّ متفق وكلّ مختلف.

فعبادة العجل لم تكن مرتبطة بالسامري ، فقد سبقت السامري ضمن سؤال بني إسرائيل موسى صلّى الله عليه وسلّم، إذ يقول تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ}304. هذه الآيات الكريمة رسمت لنا تصور عن فكر بني إسرائيل، فالتجسيد سمتهم بمعنى أنهم يبحثون عن أشكال تتجسد فيها الآلهة التي يريدون أن يعبدونها ضمن تحقّيق الرؤية العينة التي يُكتسب من خلالها الإيمان الذي يطمحون إليه، وهذا أمر يدلل على أمور عدة منهم:

عدم استيعابهم لدعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم.

لا يمكن الاعتماد عليهم وبخاصة في القضايا التي تتعلق بالدعوة.

استبطانهم لأمور تعد في غاية الخطورة على دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم.

يبحثون عمن يركنون إليه وهم يسيرون مع نبي الله صلّى الله عليه وسلّم.

لم تتمكن من قلوبهم دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم.

نقض الميثاق مع موسى صلّى الله عليه وسلّم ولو من باب رد الجميل لإنقاذهم من فرعون وجنوده.

---

[304] - الأعراف 138 – 140.

قبولهم بعجل السامري فيما بعد ألا يدعو إلى الاستفهام أو إلى التعجب على أقل تقدير.

ذكرهم موسى صلّى الله عليه وسلّم بعد كلّامهم عن العجل بنعمة الله عليهم في تفضيله إياهم على عالمي زمانهم بالعلم والشرع والرّسول الذي بين أظهرهم وما أحسن به إليهم وما امتن به عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد وإهلاكه إياه وهم ينظرون وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملؤه يجمعونه من الأموال والسعادة وما كانوا يعرشون وبين لهم أنّه لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له لأنه الخالق الرازق القهار وليس كلّ بني إسرائيل سأل هذا السؤال بل هذا الضمير عائد على الجنس في قوله: {وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة} أي قال بعضهم [305]، وإن كان القول هنا للبعض كما أشارت الآية الكريمة إلا أنّ الأحداث التي جاءت بعد ذلك وبخاصة مع السامري طغت عليهم ووسمتهم بكلّ الصفات التي تبين مدى ابتعادهم عن دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم.

إنّ كثرة التذكير بالنعم دليل على كثرة المعاصي، وذلك مثل:

عبادة العجل.

قتل الأنبياء.

نقض المواثيق.

طلب رؤية الله تعالى جهرة.

أكلّهم أموال النّاس بالباطل.

---

[305] – قصص الأنبياء، ج 1، ص 341.

أكلّهم الرّبا.

مثل العجل في النص القرآني حالة استدعائية لكلّ خصائص وسمات بني إسرائيل، فكان فيه التذكير بنعم الله تعالى عليهم، إذ يقول تعالى: {وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعجل مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعجل فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرّحيم وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كلّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}306 وكذلك قوله تعالى: {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعجل مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا}307 نلمس من كلّ السياقات السابقة وغيرها أنهم لم ينعتوا بأي صفة تجعلهم في مصاف عباد الله الطائعين، وهذا ما يجعلنا أن نقول إن عبادة العجل لم تكن بعيدة عن قوم مثل هؤلاء، فكلّ المقاربات تدلّ بشكلّ وبآخر أنهم يفعلون أكثر من عبادة العجل ومن ذلك قتلهم أنبياء الله تعالى، يقول

306 - البقرة 50 – 57.

307 - النساء 153 – 154.

تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آَمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الحقّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعجل مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ}308.

إنّ غضب موسى صلّى الله عليه وسلّم تدلّ على أن ما رآه يخرج عن دائرة المتوقّع، فكلّ الإرهاصات التي مرّ بها لم تنسج أسلبه تحيل إلى الواقع الجديد الذي رآه؛ ممّا يضفي طابعا نعتقد من خلاله أنّ ترك موسى صلّى الله عليه وسلّم لبني إسرائيل جعلهم يسلكون مسلكا لا يتلاءم مع خصوصية الدعوة التي هم طرف أساس فيها، فكان الأوّلى منهم:

الإتباع.

الحفاظ على دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم.

مناصرة موسى صلّى الله عليه وسلّم في الحضور والغياب.

إنّ ثنائية الحضور والغياب تقلب موازين الأحداث ضمن دائرتي المتوقّع وغير المتوقّع، فحضور النبي موسى صلّى الله عليه وسلّم وغيابه أضفى شكلّا جديدا على أحداث دعوته ضمن فتح هيكلّية الدعوة فتحا جديدا يلملم أطراف الأحداث ويعيرها سمة المغايرة التي ينطلق منها شكلّ الدعوة، فثنائية الحضور والغياب تدخل المعترك الديني بوصفها معيارية واضحة فينضح من خلالها سمة القبول أو الرفض أو الإيمان وعدمه، هذه المعيارية تكون في بداية دعوة الرّسول، إذ يكتنفها إرهاصات كثيرة تتكئ على حضور وغياب أو على معجزة أو غير ذلك.

---

308 - البقرة 91 – 92.

إنّ ثنائية الحضور والغياب مثلت فتنة لبني إسرائيل، إذ يقول تعالى: {فَأَخْرَجَ لَهُمْ عجلا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرّحمن فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى}309.

إنّ السياق هنا يتمثل به مركز يدور حوله الفكر السامري دون النظر إلى الفكر الذي جاء به موسى صلّى الله عليه وسلّم، وهذا الكلّام يتعلق ببني إسرائيل أكثر من السامري فهم المحور الرئيس في الدعوة، ولهذا اشتط غضب موسى صلّى الله عليه وسلّم، في صورة تدعو إلى التساؤل، يقول تعالى: {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعجلتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}310.

إنّ هذه الآية الكريمة فيها سمة العرض الواسع لكلّ الأحداث التي تحقّقت قبل موسى صلّى الله عليه وسلّم ضمن آليات البحث عن مرتكزات بينية مترابطة سبقت بإبلا غ من الباري جلّ جلاله، ولهذا كان الغضب أوّل موقف ظهر على موسى صلّى الله عليه وسلّم دون غيره من الأفعال، فالخطاب هنا كان" لهارون ووجوه القوم، لأنهم خلفاء موسى في قومهم فيكون (خلفتموني) مستعملا في حقّيقته، ويجوز أن يكون الخطاب لجميع القوم، فأما هارون فلأنه لم يُحسن الخلافة بسياسة الأمة كما كان يسوسها موسى، وأمّا القوم فلأنهم عبدوا العجل بعد غيبة موسى، ومن لوازم الخلافة فعل ما كان يفعله المخلُوف عنه، فهم

309 - طه 88 – 91.

310 - الأعراف 150.

لما تركوا ما كان يفعله موسى من عبادة الله وصاروا إلى عبادة العجل فقد انحرفوا عن سيرته فلم يخلفوه في سيرته، وإطلاق الخلافة على هذا المعنى مجاز فيكون فعل (خلفتموني) مستعملا في حقّيقته ومجازه"311.

إنّ غضب موسى صلّى الله عليه وسلّم ذُكر مرتين، فالبداية كانت في قوله تعالى: (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا) وفي نهاية هذا الحدث يقول الله تعالى: {وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ}312 فالاستعارة التي تلبست هذه الجملة جعلت الغضب الشديد يستحيل إلى مخلوق حي يلح على موسى صلّى الله عليه وسلّم ويسكن عنه في النهاية، فضلا عن ذلك أنه كان قوي الشخصية بدليل قول هارون صلّى الله عليه وسلّم: (إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي) فهو لم يستطع أن يملأ مكان موسى القوي. وانتهى هذا الغضب بدعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم، إذ يقول تعالى: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعجل سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}313.

تقاطرت الأحداث فكان أبرزها السامري الذي ارتبطت به عبادة العجل، يقول تعالى: {قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرّسول فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ

311 - تفسير التحرير والتنوير، ج 5، ص 465.

312 - الأعراف 154.

313 - الأعراف 151، 152.

لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كلّ شَيْءٍ عِلْمًا}314.

إن القراءة الأوّلى لهذه الآيات الكريمة تدلّل لنا أن السامري رجلّ غير عادي، ذلك أن رؤية جبريل صلّى الله عليه وسلّم على سبيل الافتراض وفرسه لم تتحقّق لأحد في هذا الموضع إلا للسامري، وهذا أمر يدعونا للتساؤل:

لماذا السامري فقط هو الذي رأى جبريل صلّى الله عليه وسلّم وفرسه على سبيل الافتراض؟

ما الحكمة من هذه الرؤيا؟

كيف يرى جبريل صلّى الله عليه وسلّم على سبيل الافتراض وفرسه ويأمر النّاس باتخاذ العجل إلها؟

هل أن هذه الرؤيا رؤية اختبار؟

هذه التساؤلات وغيرها تتقاطر علينا حين قراءة الآيات الكريمة و التمعن فيها، فكانت الخاتمة في هذه القضية أن موسى صلّى الله عليه وسلّم لم يزد في عقاب السامري على أنّ خلعه من الأمّة، إما لأنّه لم يكن من أنفسهم فلم يكن بالذي تجري عليه أحكام الشريعة، وإما لأنّ موسى أعلم بأنّ السامري لا يرجى صلاحه، فيكون ممن حقّت عليه كلّمة العذاب، أمّا قوله {فَإِنَّ لَكَ فِي الحَيَاةِ أن تَقُولَ لا مِساس وإنَّ لكَ مَوْعِدا لَن تُخْلَفَهُ} فهو إخبار بما عاقبه الله به في الدنيا والآخرة، فجعل حَظه في حياته أن يقول لا مِساس، أي سلبه الله الأُنس الذي في طبع الإنسان فعوضه به هوسا ووسواسا وتوحشا، فأصبح متباعدا

314 - طه 95 – 98.

عن مخالطة النّاس، عائشا وحده لا يترك أحدا يقترب منه، فإذا لقيه إنسان قال له: لا مساس، يخشى أن يمسه، أي لا تمسني ولا أمسك، أو أراد لا اقتراب مني315. هذا بالنسبة إلى السامري أمّا العجل فقد "عمد موسى صلّى الله عليه وسلّم إلى هذا العجل فحرقه: قيل: بالنّار كما قاله قتادة وغيره وقيل بالمبادر كما قاله على وابن عباس وغيرهما وهو نص أهل الكتاب"316.

العبد الصّالح:

إنّ قراءة المصحف الكريم أثارت فينا تساؤلات عدة نلتمس في آثارها معان اكتسبت الضمور في حدقات الأحداث المتتابعة إلا أنّها مثلت ينبوع العلم الواسع الخارج عن نطاق المألوف حتى على مستوى الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم، ممّا يستظهر في نفوسنا مسحة البحث عن مكنونات قابعة في مرتكزات سياقات قرآنية متنوعة آثرت أن تفصح عن رحلة مهمة، رحلة ليست كباقي الرحلات التي نراها أو نسمع أو نقرأ عنها، هذه الرحلة فيها طرفان تمثل فيهما أنهما مقربان من عند المولى تبارك وتعالى، واحد مفصح عن اسمه تتبعنا دعوته من بدايتها إلى نهايتها، وقرأنا في سور عدة المواقف المتنوعة التي تعرض لها، إذ حمل دعوة ربّه إلى رجلٍ تمثل فيه الكفر والجبروت والطغيان ألا وهو نبي الله موسى صلّى الله عليه وسلّم، أما الطرف الثاني فكان عبد من عباد الله دون التصريح باسمه أو كنيته أو أي شيء يتعلق بشخصيته. إذ ظهر فجأة في حياة النبي موسى صلّى الله عليه وسلّم في وقت أراده الله تبارك وتعالى.

315 -التحرير والتنوير، ج 9، ص 90.

316 - قصص الأنبياء، ج 1، ص 358.

هذه الرحلة وردت في الحديث النبوي بنفس النسق الذي وردت فيه في القرآن الكريم لكن مع بيان سبب تحقّق هذه الرحلة، حَدَّثنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ محمّد قَالَ حَدَّثنَا سُفْيَانُ قَالَ حَدَّثَنَا عَمْرٌو قَالَ أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ قَالَ قُلْتُ لاِبْنِ عَبَّاسٍ إِنَّ نَوْفًا الْبِكَالِيّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى لَيْسَ بِمُوسَى بَنِى إِسْرَائِيلَ، إِنَّمَا هُوَ مُوسَى آخَرُ. فَقَالَ كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ، حَدَّثنَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ عَنِ النَّبِيّ – صلّى الله عليه وسلّم – قَالَ "قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِى إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ أَيُّ النّاس أَعْلَمُ فَقَالَ أَنَا أَعْلَمُ. فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ يَا رَبِّ وَكَيْفَ بِهِ فَقِيلَ لَهُ احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهْوَ ثَمَّ، فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، وَحَمَلاَ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، حَتَّى كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَضَعَا رؤوسهما وَنَامَا فَانْسَلَّ الْحُوتُ مِنَ الْمِكْتَلِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمِهِمَا فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا، لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا، وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِى أُمِرَ بِهِ. فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ، قَالَ مُوسَى ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِى، فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا، فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ إِذَا رَجلٌ مُسَجًّى بِثَوْبٍ – أَوْ قَالَ تَسَجَّى بِثَوْبِهِ – فَسَلَّمَ مُوسَى. فَقَالَ الْخَضِرُ وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلاَمُ فَقَالَ أَنَا مُوسَى. فَقَالَ مُوسَى بَنِى إِسْرَائِيلَ قَالَ نَعَمْ. قَالَ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمّا عُلِّمْتَ رَشَدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا، يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لاَ تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لاَ أَعْلَمُهُ. قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا، وَلاَ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا، فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعُرِفَ الْخَضِرُ، فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي

الْبَحْرِ. فَقَالَ الْخَضِرُ يَا مُوسَى، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلاَّ كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ. فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ. فَقَالَ مُوسَى قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ. فَكَانَتِ الأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا. فَانْطَلَقَا فَإِذَا غُلاَمٌ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ مِنْ أَعْلاَهُ فَاقْتَلَعَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ. فَقَالَ مُوسَى أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا – قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ وَهَذَا أَوْكَدُ – فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ. قَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ فَأَقَامَهُ. فَقَالَ لَهُ مُوسَى لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا. قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ. قَالَ النَّبِيُّ صلّى الله عليه وسلّم يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى، لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا"[317].

قد يتراءى للبعض أن علم العبد الصّالح أعلم من موسى صلّى الله عليه وسلّم، وهذا لا يتحقّق، ذلك أن علم النبوّة هو أعلى العلوم، أما علم العبد الصّالح فكان في جانب آخر غير جانب النبوّة ولذلك قال له موسى صلّى الله عليه وسلّم: (هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا).

إنّ هذا اللقاء فيه تحديد للعلم الذي يحمله المخلوقان على مستوى الدرجة أو المكانة لكلّيهما، وهذا بطابع الحال ينقل للبشر كافة كيف أن الله تعالى يعطي علمه وفق حكمته وتدبيره.

---

[317] – صحيح البخاري، ج 1، ص 219.

إنّ هذه الرحلة ابتدأت بالبحث عن العبد، والتساؤل الذي يمكن أن يطرح هنا:

لماذا البحث عن العبد؟

لماذا لا يأتي العبد بنفسه إلى موسى صلّى الله عليه وسلّم؟

لماذا الرحلة من أصلها؟

هل في الرحلة دروس وعبر على مستوى البشر كافة؟

ابتدأت الرحلة باللقاء بين موسى صلّى الله عليه وسلّم والعبد الصّالح، إذ يقول تعالى: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا}318، ووصف العبد الصّالح هنا بأنه من عباد الله تعالى فهذا من باب التشريف كما قال الله تعالى في حقّ سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم في قوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}319، هذه البداية سبقها عرض لأحداث متتابعة تمثلت في مصاحبة موسى صلّى الله عليه وسلّم وفتاه الطريق المفضي إلى هذه الرحلة، إذ يقول تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حقبًا فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا}320

---

[318] - الكهف 65

[319] - الإسراء 1.

[320] - الكهف 60 – 64.

هذا اللقاء بين موسى صلّى الله عليه وسلّم وفتاه كانت وقتيا ضمن رحلة بسيطة انتهت بنقطة الالتقاء بين موسى صلّى الله عليه وسلّم والعبد الصّالح.

اكتنف هذه الرحلة أمرا يحيل إلى أنّ القادم لن يكون أمرا عاديا، إذ يقول تعالى: {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا}321 هنا نلاحظ أن موسى صلّى الله عليه وسلّم متشبث بهذا الاتفاق لدرجة أنه بين صفتين وهما (الصبر وعدم العصيان) هذا الأمر لاستباقي سوف نجد تبريره في كلّ الأحداث الثلاث التي ستقع، فكلّها لو لم يتحقّق فيها الصبر والطاعة لما استمرت الرّحلة.

إنّ هذه الرّحلة فيها لفظة نعتقد أنّها مثلت جانبا مهما، والتي نجد فيها البداية والنهاية للأحداث التي وقعت ألا وهي لفظة (فانطلقا) والانطلاق فيه نقطة ابتداء واضحة مرهونة باستمرار فيه ديمومة التواصل دون الوقوف إلا في حالة تحقّق ما هو متفق عليه، فذكر لفظة (فانطلقا) ثلاث مرات وان تنوعت الأحداث وأقفلت نهايتها بما يشير بتحقّيق هذه الرحلة، إلا أننا نجد في نهاية هذه الأحداث ممّا يوحي بأن جو الرحلة يكاد في بعض الأحيان يرتسم فيه النهاية التي يقف فيها موسى صلّى الله عليه وسلّم معترضا على فعل العبد الصّالح، فكلّ ذكر للفظة (فانطلقا) تدلّ على بداية جديدة لهذه الرحلة.

---

[321] - الكهف 66 – 70.

إنّ رحلة موسى صلّى الله عليه وسلّم مع العبد الصّالح اكتسبت تساؤلات عديدة جرت كلّها في صميم الأفعال التي قام بها العبد الصّالح، ومن هذه التساؤلات:

لماذا خرق السفينة؟

لماذا قتل الغلام؟

لماذا أقام الجدار؟

وهي أفعال تناقض ما قُوبل به صاحبا الرحلة، إذ يقول تعالى: {فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا}[322]؛ فكلّ المواقف الثلاثة كانت مقابلة العبد الصّالح عكسية ممّا أثار الدهشة والحيرة في نفس موسى صلّى الله عليه وسلّم، ذلك أن الاختلاف في كلّ المواقف كان يأتي وفق نسق يثير الدهشة ويعمق المسارعة في التعرف على مكنون هذا التصرف غير المبرر، ولهذا كان موقف موسى صلّى الله عليه وسلّم منساقا بهذا الاتجاه، حتى أن السياق القرآني كشف لنا ذلك من خلال لفظة (تستطيع) و (تسطع)، فالبداية كانت باستعمال لفظة (تستطيع) أما النهاية فكانت باستعمال لفظة (تسطع)، ففي قوله

---

[322] - الكهف 71 – 77.

تعالى: {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}323 فالذي نعتقده أنّ لفظة (تسطع) الواردة في الآية الكريمة على لسان العبد الصّالح جاءت لتحسم الموقف بسرعة، ذلك أنّ المفارقة بين الطرفين يجب أن تتحقّق وبتحقّقها يجب أن ينتهي كلّ ما هو قائم على الدهشة وحب المعرفة والتبيان فسقطت حروف اللغة من (تستطيع) لتدلّل على سرعة البيان ونهاية الرحلة.

إنّ الأجوبة عن هذه التساؤلات تحقّقت في نهاية هذه الرحلة؛ فهي صورة علم الغيب الخارج عن نطاق الإدراك المتعارف عليه أو المتقوقع في الفكر البشري الذي يحيل دائما إلى أمور تتشبث بفكر لا يدرك إلا ما جُبل عليه، أو ما تلقاه وتعلمه من دعوات الرّسُل صلّى الله عليهم وسلّم، فخرق السفينة وإقامة الجدار تدخل في منزلق الأحداث التي لا يقف عندها التساؤل كثيرا فهي من مقاربات الفكر الذي يرى أنها تنساق مع أفعال الغيب التي يُسمع بها أو تُرى، إلا أن قتل الغلام يطرح تساؤلات عدة منها:

هل قتل الغلام هو الحلّ؟

هل نهاية كلّ إنسان معروفة مسبقا؟

هل في هذا الفعل تسليم بما يكون عليه الإنسان؟

هل القتل فيه إصلاح؟

هل هذا الفعل مقتصرا على هذا الفتى دون غيره؟

---

[323] - الكهف 82.

عليه: نرى في هذه الرحلة استقطاب لفكر متحول يرى ظاهر الأشياء وقد لا يتجاوزها ممّا يفضي إلى استدعاء نصوص عقدية تثبت اليقين وفق رؤية متبصرة وواعية ومؤمنة.

أطلقنا على هذه الأحداث بالرحلة ذلك أننا وجدنا أنها اشتملت على بحث مطرد يتناغم مع الإيمان الذي يحمله صاحب البحث، ففعله هذا وان جاء بالأمر إلا أنه ارتسم فيه حب المعرفة والتعلم، وان كان صبره أراد أن ينفد في حالة عدم استيعاب ما يحصل أمامه، إلا أنّ إرادة الله تعالى اقتضت أن يتبع هذا العبد الصّالح إلى نهاية ما يحصل، كي يشكلّ أمامه صورة من صور العلم الإلهي المطلق الذي لا يكون للبشر فيه أي معرفة أو تبصر وان كان نبيا من أنبياء الله. هذه الرحلة هي رحلة لكلّ عباد الله تعالى الذين يريدون أن يرتموا في أحضان المعرفة الإلهية كي يغوصوا في سبر أغوارها.

بدأت الرحلة ثنائية (موسى صلّى الله عليه وسلّم وفتاه) وانتهت ثنائية (موسى صلّى الله عليه وسلّم والعبد الصّالح) فلم تكن ثنائية واحدة، فلم يكن لها أن تكون ثلاثية (موسى صلّى الله عليه وسلّم وفتاه والعبد الصّالح) ذلك أن منازل العلم ودرجات اللقاء ليست مطلقة إنما هي محددة ومقصورة يختصها الله تعالى لما يشاء وبخاصة من يكون مقصودا، مع عدم استمرار الثنائية بعد الفراق، إذ بدأت ثنائية وانتهت فردية، فكان موسى والعبد الصّالح كلّ واحد في مفترق طرق.

اشتملت هذه الرحلة على دروس عدة منها:

إن كلّ إنسان مهما امتلك من علم ومهما كانت منزلته فانّه علمه يبقى في دائرة محدودة وضيقة.

إن حب الاستطلاع سمة اعتبارية لكلّ من يقصد التعلم بنية صادقة بعيدا عن الرياء والتعالي.

طلب العلم وفق طريقة يكتنفها الأدب والتواضع، فموسى صلّى الله عليه وسلّم طلب العلم من العبد الصّالح وفق صيغة تنم عن تأدبه العالي، إذ يقول تعالى: {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا}324.

الصبر والطاعة فهما من الصفات التي يجبر أن يتحلى بهما المتعلم وكان موسى صلّى الله عليه وسلّم مثالا للمتعلم، إذ قال للعبد الصّالح في قوله تعالى: {قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا}325.

إن ظواهر الأشياء لا تعطي مكمنها، فالمعرفة تتطلب الوقوف على حقّائق الأشياء، وذلك بعد التبصر وتبيان ما تصبو إليه.

على المعلم أن يبين آفاق بحثه المراد ودرجة احتمالية استيعاب المتعلم له من خلال بيان النصيحة التي تحقّق هذا المفهوم، فالعبد الصّالح نصحح موسى صلّى الله عليه وسلّم في قوله تعالى: {قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا}326.

صبرُ موسى وعلمه في دائرة المُمكن:

الصبر: تحمُّل عن إرادة في سبيل غايات وفوائد لا تكون إلا به، فبالصبر يتم أخذ العلم من المتعلم ويتم كسب الخبرة من الخبير والحكمة

[324] - الكهف 66.

[325] - الكهف 69.

[326] - الكهف 67، 68.

من الحكيم، وبالصبر يتم اجتياز العقبات وتذلل الصعاب وبه تتم المغالبة ويتحقّق الفوز.

الصبر استقرار وثبات عن وعي وتبيُّن على فضائل وقيم دون ميل للمغريات والمثيرات التي ينبغي تجنبها والابتعاد عنها وتحريمها.

وإذا تساءل أحد:

هل الصبر وسيلة أم غاية؟

نقول:

الصبر لم يكن هذه ولا تلك.

إنَّه فضيلة تستمد منها قيم مكارم الأخلاق.

ولذا فالصبر عمل وثبات على الأداء الحقّ أو الامتناع الحقّ ولأن كلّ شيء يؤدى وينجز هو نتاج عمل نقول الصبر يؤدى بالتحمُّل على الشدائد في سبيل إحقّاق حقّ حتى يُحقّ وهو من أصعب الأعمال الحياتية ولا يقدر عليه إلا صبورا قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}327.

والصبور في دائرة الممكن هو: كثير التحمُّل دون استعجال ودون يأس يملؤه الأمل فلا يقنط من الرحمة والفوز على الذين يكيدون له كيدا أو يمكرون به مكرا، وذلك لإيمانه أنّ الله خير الماكرين ومكيد الكائدين، فلا يُخيفه مكرهم ولا كيدهم فهو يعلم أن بالصبر ستكون له الغلبة التي بها يُعيد حقّا أو يُحقّه إحقّاقا.

---

[327] - البقرة 155.

والصبور المطلق سبحانه وتعالى بقدرته فهو القادر وبقوته فهو القوي القهّار يستطيع أن يفعل ما يشاء، في الوقت الذي يشاء، فصبره دائما عن حكمة مُطلقة بها يمهل ولا يهمل صبره اعتدال وتوازن، ولأنه كذلك فهو المتّصف بالصبر والكمال والجلّال.

وعليه فالصبور بالإضافة هو من لا يقلق على إحقّاق الحقّ قبل وقته، لمعرفته بكثير من الأسباب التي منها:

أ ـ أنّ الجنين يحتاج لتسعة أشهر في بطن أمّه فينتظر مع فائق التقدير.

ب ـ أنّه يعرف إذا بذر بذرة في الأرض لن تعطيه سُنبُلة ولا ثمار قبل موعد نضجها.

ج ـ وهو يعلم أنّ الجنّة لا تتحقّق له في الدار الدنيا.

د ـ وهو يعلم أن للكذب نهاية لابدّ وأن يأتي من بعده الصدق.

هـ ـ وهو يعرف أَنْ أَلمَّ به مرضا فهو زائلا لا محالة بالشفاء ولذا فهو يؤمن أنَّ كلّ شيء عنده بميزان وبمقدار وبميعاد، قدرّه الخالق مسبقا وكلّنا نغضب ونتضايق من أمور تتعدد وتزول وبين هذا وذاك نجد الذين لا يتحكَّمون في أنفسهم عند الغضب ونجد من يتحكم في نفسه ويصبر فيتفوق على من غضب وفقد صوابه هؤلاء هم المؤمنون الذين إذا ضاقت بهم الدوائر أو أصابتهم مصيبة قالوا {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُوّلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوّلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}328.

الصبور من العباد: هو من لا قلق فيه، وهو الذي يعرف الحقّ ويعرف ما يقوله ويفعله ويظنه الظانون، ومع ذلك يترك الأمر إلى حين،

[328]-البقرة 156، 157.

ويصبر كما صبر أواو العزم من الرّسُل صلوات الله وسلامه عليهم مصداقا لقوله تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوّلو الْعَزْمِ مِنَ الرّسُل وَلَا تَسْتَعجل لَهُمْ}329، وقوله تعالى: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حقّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ}330.

بناء على ما جاء في الآيتين السابقتين أتساءل:

من الذي يُطلب منه أن يصبر؟

هل هو الصبور أم أنه العجول؟

بطبيعة الحال إجابة السؤال محمولة فيه حيث لا نُصحَ بالصبر إلا لِمن هو عجولا أو قلقا، ولذا فمن طبائع الخلق خُلِق الإنسان عجولا، مصداقا لقوله تعالى: {وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا}331، ولأنه كذلك فلا مفرَّ من تقديم النُصح له وإرشاده إلى الصبر إذا أراد أن يكون في وسطه الاجتماعي والإنساني سويا، وكذلك إذا أراد أن ينال الفوز والرضا من الآخرين الذين تربطه بهم علاقات اجتماعية وإنسانية وليتَّقي الإنسان ربّه في دعائه كي لا يظلم أحدا في استعجاله، وعليه بالتأني الذي هو مفردة من مفردات الصبر على ما يجب.

وعليه نقول مع أنّ الرّسُل أوّلي عزم إلا أنّهم لم يُخلقوا على الكمال فالكمال لله وحده، وهم في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع لا يخرجون عن قوله تعالى: (وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) ولذا فهم على درجة من الاستعجال والقلق إذا ما قورنوا بمن هو أكثر صبرا منهم كما كانت

329 - الأحقّاف 35.

330- الروم 60.

331- الإسراء 11.

العلاقة وحالها بين موسى صلّى الله عليه وسلّم والرّجلّ الصّالح (العالم) الذي آتاه الله تعالى من الرحمة والعلم ما لم يؤته لموسى صلّى الله عليه وسلّم، ومع أنّ موسى من الصابرين إلا أنه إذا قورنا بالذي آتاه الله علما من علمه الواسع يكون موسى على درجة من الاستعجال أو يصبح أكثر من ذلك عجولا.

وفي سبيل نيل التعلُّم وبلوغ مراتبه العالية علينا باستقراء تجربة موسى صلّى الله عليه وسلّم الذي قال لفتاه، مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حقبًا فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا}332.

قوله (لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حقبًا).

إنَّه قول إصراري يدل على تصميم موسى صلّى الله عليه وسلّم وقوّة إرادته وعزيمته في سبيل أن يتعلَّمَ ممن آتاه الله علما متميزا في التأويل ودروس الصبر، وفي سبيل بلوغ ذلك يقصد موسى صلّى الله عليه وسلّم بقوله الذي جاء في الآيات الكريمة السابقة، سأتحمَّل كلّ الأعباء إلى أن أبلغ مجمع البحرين (نقطة التقاء فرعي البحر الأحمر في أرض سينا المباركة) أو أن أقضي أعوام عمري كلّها سيرا، وهذا الإصرار لدليل على

[332] – الكهف 60 . 68.

قوّة عزيمة موسى، وقوّة العزيمة لا يمكن أن تكون ما لم يكن موسى صبورا، ولكن هذا مجرد قولٍ، أمَّا من الناحية العملية فالأمر يحتاج إلى امتحانات، وهذا ما تعرض له موسى صلّى الله عليه وسلّم أثناء مرافقته للعبد العالم الذي آتاه الله رحمة وعلَّمه تعالى من علمه الواسع.

وقوله (لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حقّبًا) يدل على أمرين:

الأمر الأوّل: استعجال موسى حيث لا تأني فيما قال، ولو كان موسى متأنيا لقال إلى جانب ما قاله (إن شاء الله).

الأمر الثاني: ولأنّ موسى كان مسرعا ومستعجلا بلغ مجمع البحرين قبل أن يكون حاضرا فيه العبد الذي آتاه الله علماَ وهو الذي يُراد له الالتقاء به.

ونقول:

بدأت الرحلة الثنائية (موسى وفتاه) في اتجاه مجمع البحرين إلى أن بلغا مجمع بينهما مصداقا لقوله تعالى: (فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا) في راحة لهما، وهما في نقطة مجمع البحرين غفلا عمَّ معهما من حوت قد تم اصطياده واستأنفا رحلتهما وهما لا يدريان بما نسيا (فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا) وبعد أن قطعا مسافة من التعب استراحا طلب موسى من فتاه أن يأتي بالغذاء، فالتفت الفتى فلم يجد بصحبته شيئا فقال له (أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا) تُبيّن هذه الآية الكريمة معلومة بها يتم تحديد المكان الذي جلّسا عليه عند ملتقى البحرين بدقة وهذه المعلومة أو العلامة هي الصخرة التي نسي الغلام عندها الحوت

الذي أنساه الشيطان إياه، ذلك الحوت لم يبق على الصخرة بل سقط في البحر واتخذ طريقه فيه.

وإذا تساءل البعض:

كيف يكون الحوت غذاءً ويتخذ سبيله في البحر سرب؟

نقول:

الحوت غذاءً لا شك في ذلك، فالغذاء لا يقتصر الاتصاف به على الطعام الجاهز للأكلّ فقط بل على جميع أنواع ما يؤكلّ.

وبما أنَّ الحوت الذي كان من المتوقّع أن يتغذيا به موسى وفتاه قد اتخذ سبيله في البحر سرب إذا يجوز أن يكون ذلك الحوت قد تم اصطياده من ذلك المكان الذي فيه الصخرة، وفي هذا الأمر ومع تسليمنا بالمعجزات العظام نقول: لا استغراب في أن يأخذ الحوت طريقه في البحر سربا، بل الاستغراب من قِبل موسى هو كيف يُنسى الحوت حتى يتخذ في سبيله البحر عجبا.

ومع ذلك فإن هذا الأمر العجب هو الغاية والمراد، وهو العلامة الدالة على الالتقاء بالعبد العالم ولهذا قال موسى صلّى الله عليه وسلّم: (ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آَثَارِهِمَا قَصَصًا)، فارتدا مسرعين (موسى وفتاه) على أثارهما قصصا حتى لا يضلون الطريق ويتيهون، أو أن يعودوا مع طريق قد يأخذ منهما وقتا أطول.

وبوصولهما تلك الصخرة عائدين وجدا عبدا عالما وكأنه على موعدٍ معهما مصداقا لقوله تعالى: (فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) فقال له موسى صلّى الله عليه وسلّم: (هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ

صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا فَانْطَلَقَا).

في هذا الفاصل نلاحظ أمور ثلاث:

1 . انتهاء الرحلة الثنائية الأوّلى (موسى وفتاه).

2 . انفصال الفتى عن مرافقة موسى.

3 . بداية الرحلة الثنائية الثانية (موسى والعبد العالم الذي آتاه الله رحمة وعلما) مصداقا لقوله تعالى: (فَانْطَلَقَا).

كان موسى صلّى الله عليه وسلّم حريصا على أن يتعلّم الصبر وما يرشده في مسيرته الحياتية، ومع ذلك كان أمر تعلُّمَ الصبر عليه ليس هيّنا حتى وإن كان مُمكنا، قال تعالى: {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ

يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}333.

في الآيات الكريمة السابقة بعد أن وجد موسى العبد الصّالح الذي آتاه الله رحمة وعلَّمه علما قال له: (هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا) إنه طلب للإتباع المشروط (إتباع مقابل تعلُّم)، ومع ذلك قال العبد الصّالح (المعلِّم) لموسى صلّى الله عليه وسلّم (إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) وفي هذه الآية حُكم تم استصداره من قبل العبد الصّالح على موسى بأنه لن يستطيع صبرا على التعلم من العلم الذي أتاه الله تعالى إليه، ولا أدري على أي أساس اصدر المعلم حكمه مسبقا على موسى بأنه لن يستطيع معه صبرا.

. هل لعلمه بحال موسى وعلمه؟

. أم لعلمه بصعوبة العلم الذي سَيُعلِّمَه لموسى؟

. أم لاختلاف المناهج والطرق والأساليب التي تُتبع من كلّا الطرفين؟

. أم لمعرفته بعلم المستقبل الذي لم يعرفه موسى بعد؟

. أم أنّ ما سيُعلِّمه لموسى سبق تعليمه لآخرين ومن معرفته تجاربّهم المماّثلة معه لن يكون موسى مختلفا عنهم فيما سيسأل عنه وهو الذي يعرفه المعِلّم بخبرته ولهذا كان من وراء قوله وكأنه يريد أن يُنبِّهَهُ أو ينذره بحاله مسبقا لعلّه ينتبه لأجلّ أن يتعلَّم المزيد؟

. أم أنّ المعلِّم يعلم أنّ حال الإنسان وإن نبهته أو أنذرته فهو من الخطاءين؟

---

[333]- الكهف 66 . 78.

ـ أم أنّ ما تعلَّمه موسى هو العلم الظاهر وما تعلَّمه المعِلّم هو العلم الباطن؟

ـ أم أنّ المعلِّم يود أن يُثبِتَ لنا أنه لا صبور بالمطلق غير الله تعالى ولذلك كان مستعجلا فيما قاله لموسى؟

وبإثباته لنا ذلك تكون بين أيدينا حجّة تُثبت أنَّ المعلِّم هو الآخر لم يكن صبورا ولنتابع التحليل والاستنتاج والتفسير لعلنا نعرف.

بتحليلنا للآيات الكريمة السابقة توفرت لدينا حجّة مفادها يقول: وكأن المعلَّم يود أن يلتمس عذرا للمتعلم فقال له، (وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا)، وفي جميع الأحوال وفقا للعلم الذي تعلَّمه المعلم من العليم جلّ جلاله فإن موسى لن يكون صبورا، وفي هذا الأمر قد أصدر العبد الصّالح (المعلَّم من علم الله) حكما في الزمن الآن على ما لم يقع بعد، أي أصدر حكمه على موسى بأنّه لن يكون صبورا عندما تبدأ الدروس في ميادين الحياة العملية، ووفقا لِما نعرفه من علم على المستوى البشري لا يمكن أن تصدر أحكام على أفعال لم تتحقّق بعد أو أعمال لم تُفعل بعد (إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)، وفي هذا القول الكريم تنبيه من قبل المعلِّم إلى عقل موسى الذي لن يُمكِّنه من تجميع حاله والتحكُّمَ في أمره وبالتالي لن يكون قادرا بأسباب عدم الاستطاعة، ومع هذا التنبيه ولفت النظر كان موسى مستدركا في قوله (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا) هذه الآية الكريمة تحمل ممّا تحمل في معانيها على لسان موسى احتمالات منها:

أ ـ إن شاء الله أن أكون صابرا سأكون.

ب ـ إن لم يشأ الله لي صبرا فلن أكون.

ج ـ وأن كانت المشيئة لي بالصبر ستجدني لن أعصيك أمرا.

وبعد المناقشة وعرض الاشتراطات من كلّا الطرفين تُركت حرية الاختيار للمتعلم إن أراد أن يتعلم وإن قَبِلَ بالشروط فعليه ألا يسأل عن شيء حتى يُحدث له منه المعِلّم ذكرا مصداقا لقوله تعالى: (قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا).

ترتب على محاورة موسى والعبد الصّالح (المعلّم) قبول ومصاحبة لأداء التعلُّم الميداني وليس لتلقي التعليم النظري الذي يقتصر على النصح والإرشاد والتفسير والتعليل وفقا لعلاقة بين طرفين (مُرسل ومستقبل) وبدأت الرحلة الثنائية (موسى والعبد المعِلّم)، مصداقا لقوله تعالى: (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا) قوله (فَانْطَلَقَا) يدل على أنَّ الانطلاق كان بقوّة وسرعة حيث لا إضاعة للوقت المخصص للتعلُّم، ولهذا قال (فَانْطَلَقَا) ولم يقل (فبداء) التي تدلّ على الهدوء والتأني والاعتيادية، وهذا الانطلاق يدل ممّا يدل عليه على الآتي:

أ . الاستعجال.

ب . السرعة.

ج . القوّة.

د . الحماس.

هـ . الحرص على الوقت.

و . شغف المعِلّم بمهنته المكلّف بتأديتها.

وقوله تعالى: (حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا) تدلّ هي الأخرى على أحد الفقرات السابقة أو بعضها أو كلّها مجتمعة، فهو لمجرد أن ركبا السفينة خرقها أي انه لم يعط الفرصة لإضاعة الوقت، ولهذا جاءت

دلائل السرعة من قوله (فَانْطَلَقَا) ثمَّ قوله: (حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا) كلّ ما حدث هو من قِبل العبد الصّالح.

أمَّا المترتب على ذلك فهو ردود أفعال موسى وما قاله للعبد الصّالح، (قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا) أمورا ثلاث متضمنة في هذه الآية الكريمة:

أ ـ استغراب وتعجب وتساؤل من موسى لمن قَبِلَ أن يتعلَّم منه ما لم يعلمه من قبل بقوله (أَخَرَقْتَهَا)؟! وفي هذا القول الاستغرابي والاستفهامي استعجال وتسرع لم يترك للصبر مكانا ليحلّ فيه.

ب ـ اتهام من المتعلم للمعلِّم بقوله (لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا) وهذا استعجال وتسرُّع بأسباب المفاجئة التي كانت درسا جديدا على موسى صلّى الله عليه وسلّم.

ج ـ أصدر موسى حكما على معلِّمه بقوله (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا) استعجال وتسرع من نوعٍ آخر من قبل موسى صلّى الله عليه وسلّم، والشيء الإِمْرًا هو الشيء الشنيع والعجب المنكر.

ولنستمع إلى قول المعلِّم لموسى: (أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) تأكيد على قولٍ سابقٍ أي ألم أقل لك يا موسى من قبل إنك لن تستطيع معي صبرا، وها أنت لم تستطع، ولتعرف أنَّ ما سبق أنْ قلته لك هو قول يقين، وهذه الآية تدلّ على دروس لأزمنة ثلاثة:

ـ الماضي: (أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)

ـ الحاضر: ها أنت لم تستطع، وهي إثباتٍ لقولٍ سابق وفعلتك هذه يا موسى تؤكد صدق ما قلته لك قبل أن نبدأ معك الدرس الذي نحن الاثنين الآن في صلب موضوعه.

ـ المستقبل: بناء على ما قلته لك وما أقوله الآن فإنك (لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) فلماذا التعجل؟

ولماذا التسرُّع؟

ولماذا القلق على ما فعلته قبل أن انهي معك ما طلبته مني تعلُّما؟

ولماذا لم تصبر؟

وتحمل الآية كذلك في مضمونها لوما من قبل المعلِّم على المتعلم (أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا).

بعد هذه الاحتجاجات واللوم على موسى لنرى ماذا يقول:

(قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا)، لغة راقية يملؤها التأدب والذوق الرفيع، (لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ) اعتذار من قبل موسى صلّى الله عليه وسلّم لمعلِّمه الكريم، واعتراف بأن الكمال لله تعالى حيث الإنسان ليس له بدا من النسيان فقال: (بِمَا نَسِيتُ) وفي هذه الآية الكريمة أيضا مضمونا محمولا يدل على عدم القصد أي وكأن موسى يريد أن يقول لم اقصد ذلك بتاتا، ولذلك كان العفو والتسامح والاستغفار سيدا محترما بينهما.

وكذلك قوله (بِمَا نَسِيتُ) يعني ممّا يعني:

أ ـ أن موسى صلّى الله عليه وسلّم نسي العهد الذي قطعه عليه بمشيئة الله تعالى، (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا).

ب ـ أنَّ موسى نسى الإنذار الأوّل الذي قيل له (أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا).

أمّا قول موسى صلّى الله عليه وسلّم، (وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا) وكأنّه يقول نأمل منك ألا تضيِّقَ الخناق عليَّ فأنا راغب في التعلُّم من العلم الذي تعلمته من العليم المطلق جلّ جلاله، وفي هذا المعنى، موسى ملتمسا للعذرِ وطالبا للتيسير من المعلِّم وعدم التعسير عليه، وهذه اللغة تسود بين متعلِّمٍ جاد وله الرغبة الشديدة فيما يود تعلُّمه وبين مُعلِّم متميِّز بعلم متميز من الله تعالى.

بعد هذه المحاورة الموضوعية قُبل العذر وأعطيت المعذرة واستأنفا المعلِّم والمتعلم رحلتهما التعلُّمية مصداقا لقوله تعالى: (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ) يُفهم من هذه الآية الكريمة أنهما على غير موعد مع الغلام ولكن الصدفة هي التي أوقعتهما في ملاقاته، وجاء في هذه الآية أيضا تكرارا لقوله (فَانْطَلَقَا) ممّا يؤكّد على القوّة والسرعة والعجلة أو شدة الحرص على أداء المهمة التعلُّمية دون ضياع للوقت المخصص للتعلُّم، ومع ذلك بمجرد ملاقاتهما الغُلام تقدَّم المعلِّم فقتله دون أسئلة ولا استفسار عن حاله ودون أن يعرف الغلام أسباب قتله فكان الموضوع مفاجئة وقتل من حيث:

أ ـ مفاجئة التلاقي الثلاثي موسى والعبد العالم والغلام (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا).

ب ـ مفاجئة الغلام بقتله (حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ).

ج ـ مفاجئة موسى بقتل الغلام بغير معرفة سبب (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ).

بناء على ما سبق لم يستطع موسى أن يصمت على فعلة هو يعتقد بعلمه أنها محرَّمة مصداقا لقوله تعالى: {أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ

فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النّاس جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النّاس جَمِيعًا}334، ولهذا تساءل موسى بقوله:

(أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا)؟

كان موسى صلّى الله عليه وسلّم غير قابل لفعلةِ القتل التي قُتل صاحبها دون أن يَقدِمَ على فعلٍ يستوجب من بعده أن يقتل فالغلام لم يقترف أمامهما جُرمٍ يدينه بالقتل على أي فعلٍ جنائي لا يليق بمكارم الأخلاق ولهذا كان اعتراضه في محله ضرورة، ونحن نعتقد أن موسى في دروسه التعلُّمية هو في حالة امتحان أمام ربّه الذي علَّمه ألا تُقتل النفس البريئة أبدا، ولذا فإن لم يتساءل احتجاجا لعلَّهُ يكون قد ارتكب خطيئة بصمته على فعلةٍ محرَّمةٍ من الله تعالى وهو يعلمها.

ووفقا لعلم موسى الذي يعلمه أصدر حُكمين اثنين:

أ . أصدر حكمه على المعلِّم بأنّه قتل نفسا زكية بغير نفس، وفي هذا الأمر تلحقّه صفة الاستعجال بأسباب قبوله التعلُّم ممن علَّمه الله علما لم يُعلِّمه لموسى في الوقت الذي أبدى فيه موسى استعداده القبول الالتزام باشتراطات المعلِّم الذي اختاره عن وعيا وإرادة وهو يعلم أنه يعلم أكثر ممّا يعلمه في مجال رسالته (أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ)، وكذلك يُفهم من هذه الآية الكريمة احتجاجا قويا يُقدَّم من موسى لمعلِّمه، ونحن إذا اعتمدنا اللغة التي يجب أن تكون بين المعلِّم والمتعلم نقول أن المتعلم لم يكن صبورا، وإذا اعتمدنا الشرائع الدينية التي جاء بها الرّسُل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم نقول من حقّ موسى أن يحتجَّ على فعلة القتل التي فُعلت أمامه وهو لم يعلم بمبرراتها المخالفة للمبررات المعتمدة في قاموسه الذي يعلمه من الله تعالى.

---

[334] – المائدة 32.

ب ـ قوله: (نَفْسًا زَكِيَّةً) يُعد حكما، وهذا الحكم لم يؤسس على معرفة سابقة بالغلام وأحواله فكيف لموسى بالحكم وهو فاقد للحجّة التي تسنده في قول ذلك أو الحكم به؟ وبأسباب الاستعجال وهو لم يعلم ولا يعرف بأحوال النفس التي وصفها بأنها (نَفْسًا زَكِيَّةً) بمعنى نفسٍ تائبة مسلمة مطهرة من الذنوب، فكيف له أن يقول ذلك وهو لا يعرف عنها شيء ولم يكن له سابق معرفة بهذه النفس؟

ونحن نقول: من حقّه أن يحتجَّ أو يتساءل أو يستغرب ويستفسر ولا يصمت على ما يعتقد أنه مخالفا لشريعة الله في الأرض ولكِّنه قد استعجل ولم يصبر على نفسه حتى يسأل معلِّمه عن أسباب قتله للغلام قبل أن يحكم بأنه نفس زكية.

ج ـ وكذلك قول موسى للعبد العالم: (أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ) من وجهة نظرنا قول فيه استعجال، وما يدري موسى أن الغلام لم يسبق له أنْ قتل نفسا بريئة، فمن أين هذا الحكم الجازم الذي قاله موسى: (أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ)؟ وما يدريه أن معلِّمه يدري بأن الغلام سبق له أن قتل نفسا بريئة من قبل؟

د ـ أصدر موسى صلّى الله عليه وسلّم حكمه على ما فعله المعلِّم بأنه شيئا نُكرا وفقا لعلمه الذي يعلمهُ، (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا)، والشيء النكر على احتمالين:

ـ أنَّه فعل غير متعارف عليه أو غير معروف من قبل.

ـ أنَّ هذا الفعل يعد منكرا ويُجرَّم عليه.

وفي كلّا الحالتين يعد اعتراضا صريحا من قبل موسى على معلِّمه الذي رافقه من أجلّ أن يتعلَّم منه علما لم يعلمه من قبل، وفي هذا الأمر يُعد المتعلِّم غير طائع لمعلمه بالمطلق وذلك بأسباب الأحكام

المسبقة التي أصدرها على كلّ فعل فعله قبل أن يسأل معلِّمه عن العلل والمبررات والأسباب التي تكمن وراء كلّ فعل من أفعاله التي واجهها موسى بالاعتراضات وإصدار الأحكام عليها إدانة.

وعلى ما تقدم من اعتراضات وتساؤلات استغرابية واحتجاجات على المعلِّم، المعلِّم يقول لموسى للمرة الثانية: (أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) هذه الآية جاءت للتأكيد على أنّ ما قاله المعلِّم في المرة الأوّلي أثناء الاشتراطات وقبولها من قبل موسى تمت مخالفتها من قبل موسى مرتين بعد أنْ بدأت من اجلّه الرحلة التعليمية؛ وكأن المعلِّم يود أن يقول لموسى: أين صبرك الذي وعدتني به؟ الم ترى أنّ ما قلته لك هو الحقّ من حيث:

أ ـ إنّك لن تستطيع معي صبرا.

ب ـ إنّ قولي لك أصبح حقّيقة ماثلة أمامك وها أنت تشهد عليها، والدليل إنك في كلّ مرة تلتمس العذر مني ولكن إلى متى؟ إنك أنت لا تدري أنني أدري.

وكأنّه يود أن يقول له أيضا وعلى الرغم ممّا قلته لك وما أقوله لك الآن تأكد لي إنك لن تستطيع معي صبرا وسأثبت لك ذلك وسأجعلك شاهدا على عدم صبرك، وبعد ذلك قال موسى في خشية من نفسه أمام معلمه: (قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا) يُفهم من قول موسى صلّى الله عليه وسلّم من حيث المعنى أمور منها:

أ ـ أظهر موسى قوله وكأنّه واثق من نفسه بأنه سيصاحب معلِّمه ولن يكون سائلا له في شيء باعتباره قد استفاد من الدروس السابقة التي تعلَّمها منه.

ب ـ يُفهم من الآية أيضا أن موسى صلّى الله عليه وسلّم كان راغبا في فرصة استثنائية من معلِّمه ليثبت له من خلالها أنه قادر على الصبر ولن يكون عجولا، (إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي).

ج ـ يُعد موسى قد قطع على نفسه عهدا آخر داعما به عهده السابق لمعلِّمه الكريم بأن يكون صابرا عن وعي وانتباه حتى لا تضيق نفس معلِّمه من تساؤلاته واحتجاجاته المتكررة له والتي في كلّ مرة توجَّه إليها التحذيرات من قبل المعلِّم بشكلّ مباشر أو بشكلّ ضمني. وهذه الحقّيقة تجعلنا نتساءل:

إلا يكون ذلك الإحساس بضيق النفس من قبل المعلِّم من تساؤلات موسى لدليل إثبات على عدم صبره هو الآخر؟

إذا صحَّ هذا الأمر نقول:

أنَّ الصبر دائما ومهما عظم على المستوى الخَلقي هو لن يخرج عن دائرة النسبية والممكن المتوقّع وغير المتوقّع، التي تسمح لنا بأن نُصنِّفَ ذلك وفقا لمجموعة من المستويات القيمية منها:

مستوى الكافر والمشرك، الذين لم يصبروا عن ممّارسة مكروه ومنهيا عنه من مسكرٍ وغيره كثير أو أنه في الحياة الدنيا محرَّما بالمطلق كالزنا وأكلّ لحم الخنزير الذي يُعد مصدرا لنقل الأمراض القاتلة لبني الإنسان والتي منها ما تم اكتشافه في هذه الأيام بالتحديد تحت مسمى مرض (أنفلونزا الخنازير) فهؤلاء هم الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة مصداقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآَخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ

الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكلّ صَبَّارٍ شَكُورٍ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ}[335].

مستوى المؤمن من عموم المسلمين الذين يُقصِّرون أحيانا في أداء العبادات هؤلاء بدون شك صبرهم أقوى من صبر الكافر والمشرك، وكذلك بدون شك صبرهم أقل من صبر المسلمين الصادقين حقّا، قال تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}[336].

المسلم الملتزم قولا وعملا وفعلا وسلوكا هؤلاء هم المسلمون الصابرون الصادقون حقّا مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوَلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}[337].

الصدّيق: على احتمالين اثنين:

. صدّيق وهو من صدّق الأنبياء والرّسُل صلوات الله وسلامه عليهم في زمانهم ومن صدَّق رسالاتهم من بعدهم من جيل إلى جيل، هؤلاء هم الصابرون الذين تزيد كفة صبرهم بازدياد تصديقهم والتزامهم على التمام بما أمر الله عزّ وجلّ، مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ

[335] – إبراهيم 3 . 8.

[336]– الحجرات 14.

[337] – الحجرات 15.

وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ}338، وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ}339.

ـ صدِّيق موقن: بأسباب اطلاعه مباشرة على آيات من آيات الله العظام فيُسلِّم ويصدِّق بها وبخالقها تعالى مع إعلانه الطاعة التامّة له جلّ جلاله واحدا أحدا لا شريك له، هؤلاء هم الصابرون الذين لا يحيدون عن إيمانهم وتسليمهم لله ربُّ العالمين، هؤلاء الصديقين الموقنين حالهم كحال إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم قبل أن يكون رسولا نبيا، مصداقا لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}340.

* الأنبياء والرّسُل: هم الذين تلقوا كلّمات وأنباء ورسالات تامة من الله تعالى وهم الذين آذوهم أقوامهم وهم الذين صبروا على الكفرة والمشركين الذين وصفوهم بالكذب والجنون والسحر وغير ذلك كثير قال تعالى: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِّمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ

338- الحديد 18.

339- الحديد 19.

340 - الأنعام 75 . 79.

الْمُرْسَلِينَ}341، وقال تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}342، هؤلاء الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم هم على الدرجات العلى في تصديقهم وصبرهم.

وبمقارنة نبيا منهم وهو موسى عليه وصلّى الله عليه وسلّم بالعبد العالم نلاحظ أن موسى على ما عليه من صبر فهو أقل صبرا من العبد العالم، ولهذا فالعبد العالم يُعد في صبره على مستوى أعلى من مستوى صبر النبي والرّسول موسى صلّى الله عليه وسلّم.

وعليه: توفرت بين أيدينا نتيجة مفادها:

كلّ صبرٍ قابل للمقارنة هو في دائرة النسبية وأصحابه في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، وهذا يعني وفقا للممّاثلة التي تسمح لنا بالمقارنة فكما هو الحال فوق كلّ ذي علم عليم كذلك فوق كلّ ذي صبرٍ صبور.

وعود على بدء لسؤلنا السابق: ألا يكون ذلك الإحساس بضيق النفس من قبل المعلِّم من تساؤلات موسى لدليل إثبات على عدم صبره هو الآخر؟

بعد استعراضنا للمستويات السابقة للصبر نقول:

لا صبور بالمطلق إلا الله تعالى أمَّا من هم من دونه فيترتبون من مستوى أقل إلى مستوى أرفع كما سبق تبيانه.

---

[341]- الأنعام 34.

[342]- الصافات 171 . 173.

ولإتمام متابعة الرحلة الثنائية (موسى والعبد العالم) نعود لتحليل قوله تعالى: (قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا) اعتراف من موسى بأنه قد أكثر من تحفظاته واحتجاجاته وأحكامه وتساؤلاته على ما يفعل معلِّمه بقوله: (قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا)، أي: قد أثقلت عليك كثيرا فاعذرني.

استأنفا الرحلة بقوّة وسرعة واستعجال (فَانْطَلَقَا) كما هو حال بداية كلّ رحلة من الرحلات العلمية التي يقودها المعلِّم في السابق (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ).

اختلاف العلوم أو تنوعها يؤدّي إلى اختلاف وجهات النظر أو تنوعها، فالعلم الذي المَّ به موسى لم يكن هو بالتمام العلم الذي عند العبد العالم (المعلِّم لموسى) ولهذا فكلّ منهما يرى بعلمه ما يرى وكلّ منهما يحكم على ما يرى بما يعلم.

كلّ المفسرين تكلّموا عن الجدار الذي يريد أن ينقض وبناه العبد العالم الذي آتاه الله علما ورحمة من علمه ورحمته، وبإمكاننا أن نتصوَّر صورة الجدار بأنه مائل تجاه السقوط ممّا جعل الحقّ يصوِّره على قوّة من الانقضاض على الأرض المائل تجاهها وكأنه صيد يريد أن ينقضَّ على الفريسة التي أصبحت على مقربة من مخالبه وأنيابه فهي لن تفلت منه، أي أن الانقضاض لا شك في حدوثه أبدا، فأسقطه أرضا قبل أن ينقض عليها كرها وأعاد بنائه فأقامه ارتفاعا على الثبات والاستقامة.

وفي جميع الأحوال لقد فعل المعلِّم عملا موجبا ولم يَقدِمَ في هذه المرة من حيث الظاهر على أي فعلٍ يمكن أن يلام أو يحتجّ به عليه من قبل موسى صلّى الله عليه وسلّم، ومع ذلك لم يستطع موسى صبرا بقوله:

(لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا) ردود الأفعال ظهرت على قول موسى بأسباب عدم ضيافة أهل القرية (فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا) أمَّا المعلِّم فقد تصرَّف دون أن يتأثر بردود أفعاله تجاه أهل القرية الذين لم يُضَيِّفُوهُمَا.

ويُفهم من الآية الكريمة (لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا) أن موسى والعبد العالم هما في حاجة أي لم تكن لديهما وفرة من الغذاء في الوقت الذي هما فيه في القرية وهما في حاجة.

وكذلك يُفهم من الآية الكريمة السابقة أن موسى لم يشارك أو يساعد معلَّمه في عملية إقامة الجدار، ولهذا قال (لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا) ولم يقل ينبغي أن نأخذ عليه أجرا، ولأن العمل كان فرديا من طرف العبد العالم فقط قال (فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ) كلّ الضمائر في هذه الآية الكريمة تعود على انفراد المعلِّم بإقامة الجدار، أي لا علاقة لموسى بالمساعدة أو العون ولم يُطلب منه ذلك أبدا سواء في خرق السفينة أو قتل الغلام أو بناء الجدار، فالأمر كلّ الأمر كان مقتصرا على قوّة ومقدرة العبد العالم التي مكَّنته ممّا شاءه الله أن يكون درسا لموسى.

ولأنّ رحلة موسى والعبد العالم هي رحلة إظهار المعجزات؛ فلا ينبغي لنا أن نتصوَّر زمنا لإقامة الجدار من العبد العالم فهو المسخَّر بالأمر كن ليكون معلِّما لموسى فكيف لا نقبل بإقامة الجدار تحت مظلة الأمر الذي به سُخِّر المعلِّم ليعلِّم موسى صلّى الله عليه وسلّم؟ ولهذا المبرر لم يجد موسى فرصة ليعمل مساعدا مع معلِّمه.

وعليه: لقد كان موسى صلّى الله عليه وسلّم مستعجلا باحتجاجه على معلِّمه بقوله: (لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا)، أي أن موسى يريد من المعلِّم أن يشترط على أصحاب الجدار أجرة، وهو لا يعلم بحال

أهله الذين لم يتمكنوا من استضافتهما، وكذلك لا يعلم هل هم في حاجة لإقامته أم ليسوا بحاجة؟

يا ليته كان صابرا حتى ازددنا من بعد علمه علما.

جاءت الإجابة قاطعة لمواصلة الرحلة مع موسى وقاطعة للعلاقة معه بقول العبد العالم (هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ) بأسباب عدم التزام موسى بتعهداته على الصبر مع معلِّمه الذي أعطاه أكثر من فرصة وبعد كلّ فرصة من الفرص التي لم يتقيد فيها موسى بالاشتراطات كان معلِّمه يُنَبِّهَهُ ويُنذِرَهُ لأجلّ ألا يغفل ثانية إلا أنّه في كلّ مرة لم يصبر على ما يشاهد ويلاحظ من أفعال صعبة وجريئة وشديدة من معلِّمه، ولهذا كان الفراق نتيجة بعد أن استنفذ موسى كلّ الفرص التي أعطيت له.

وبعد أن استنفذ موسى الفرص في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع قرَّر العبد العالم عدم مصاحبته لموسى بقوله: (هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ) أي لا لقاء من بعده، وهذا يدل ممّا يدل عليه أيضا عدم صبر المعلِّم على موسى صلّى الله عليه وسلّم، ولذا قد يتساءل البعض:

ـ كيف يمكن أن يكون المتعلِّم ناجحا في دروس تعلُّمه الصبر من معلِّم لم يكن صبورا؟

نقول:

بدون شك وفقا لقاعدة: (لكلّ بداية نهاية) أنَّ لكلّ صبر بداية ونهاية ولا مُطلق للصبر إلا للشكور تعالى، أمَّا صبر موسى والمعلم الصّالح فلهما بدايات ونهايات غير متساوية في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع.

وقبل الفراق أنبأ المعلِّم موسى بتأويل ما لم يستطع عليه صبرا ليُعرّفَهُ بمبررات ومعطيات الأفعال التي بأسبابها أقدم المعلم على فعل ما فعل من أفعال كان لموسى اعتراضات واحتجاجات وتساؤلات عليها، فقال: (سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) في هذه الآية الكريمة حُكم بالإثبات من قِبل المعلِّم على موسى بأنه لم يعد افتراضا عدم صبر موسى كما كان موسى غير واثق فيما قاله العبد العالم عن عدم صبره، بل أنَّه أصبح حقّيقة متحقّقة هي كما هي قيلت مسبقا على موسى من قِبل العبد العالم وكذلك أصبح موسى شاهدا عليها.

وقوله: (سَأُنَبِّئُكَ) التي جاءت على لسان العبد العالم مستقبلية تدلّ على غاية في نفس العبد العالم يمكن أن يكون مفادها لكي ينتبه موسى إلى النتائج التي هي في حقّيقتها علم بالنسبة للعالم الصّالح، أي وكأنه يريد أن يقول لموسى انتبه معي جيدا لكي تلمَّ بما لم تحط به خُبرا وهو ما لم تستطع عليه صبرا، وبدأ بإظهار علم التأويل قائلا:

1 . {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كلّ سَفِينَةٍ غَصْبًا}343.

لعلم العالم بما سيترتب على ركوب السفينة البحر أسرع قبل أن تقلع السفينة ليعيق حركتها قبل أن تتحرك وتصبح من بعد حركتها أسيرة بيد الملك الطاغية الذي يأخذ كلّ سفينة غصبا من أصحابها، ولأن أصحاب تلك السفينة مساكين إذا خسروها خسروا مصدر ووسيلة رزقهم جاء العالم فاعلا للخير بإعاقة السفينة قبل حركتها البحرية التي كانت مستهدفة بإبحارها وعلى ظهرها ركابها أو مالكيها (المساكين)، وفي هذا الصدد نحن نقول:

---

[343] – الكهف 79.

إنّ الإعابة ليست إفسادا للسفينة، بل لإظهار خللا لا يسمح بالتحرك، ولن تُصلح الإعابة إلا بعد خلو البحر من الملك وجنوده المترصدين لقطع الطريق بغير حقّ.

ولذلك؛ فقول العبد العالم: (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) تدلّ على إقدامه على إحداث خلل بأسبابه تتأخر السفينة عن الحركة في الوقت ألإبحاري الذي سيكون فيه الملك وجنوده في أعماق البحر مترصدين للسفن المبحرة ليأخذها الملك من أصحابها غصبا.

وبفعلته هذه الفعلة الكريمة سلِمت السفينة وسلّم رُكابها ومالكيها من المخاطر التي كانت مترتبة على إبحارها لو أبحرت في الزمن الذي كان فيه جند الملك في وسط البحر المتجهة السفينة إليه.

2 . {وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا ربهما خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا}344.

قوله: (وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا) هذه حقّيقة كان العبد العالم يعلمها وموسى ليس له بها من علم، ولهذا نقول:

لا فرق بين العبد العالم وموسى من حيث أنهما عبدين صالحين، ولكن الفرق بينهما بأسباب عدم توفر المعلومة التي لو كانت متوفرة لموسى لكان متماثلا في أحكامه على تلك الأفعال مع أحكام العبد العالم، وفي مقابل ذلك لو لم يكن العبد العالم مُكلّفا بعلم التأويل يجوز أنه لم يكن فاعلا لما فعل.

344- الكهف 80 . 81.

أمّا قوله على لسان النَّحنُ (فَخَشِينَا) نقول هذا القول تعظيم لقول الله تعالى الذي أظهره على لسان العبد العالم، وقد يتساءل البعض:

كيف نقبل بأن يكون ذلك قول الله تعالى ونحن نعلم أنَّ الله لا يخشى في أمره أحدا؟

نقول:

هذا كلّام الله على لسان العبد العالم، الذي يعني بقوله (فَخَشِينَا) يعني: (فَعَلِمنَا) من علم الله الواسع بأن الغلام سيكون مرهقا لأبويه المؤمنين طغيانا وكفرا ولذلك قَدِمنَا دون تردد أو تأخر عن قتله رحمة بوالديه المؤمنين فالحمد لله فعلنا طاعة لأمر الله لا شركا ولا كفرا.

وتأكيدا على قوله تعالى: (فَخَشِينَا) بمعنى فَعَلِمنا جاء قوله تعالى: (فَأَرَدْنَا) إنّه قول الله على لسان العبد العالم الذي أقدم على تنفيذ إرادة الله في الغلام الطاغي في كفره أي أن الإرادة هنا هي إرادة الله ومنفذ فعل الإرادة العبد العالم الذي من بعد تنفيذه لفعل القتل جاءت الإرادة بولدٍ مباركا للأبوين المؤمنين هو خير من أخيه زكاة وأقرب رُحما مصداقا لقوله تعالى: (فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا).

وعليه نقول:

إنَّ العبد العالم عَلِمَ من الله تعالى بحال الغلام، وأراد أن يفعل ما فعله تأسيسا على إرادة الله أي أن العبد العالم هو خير منفّذ لأمر الله تعالى في كلّ فعل فعله من الأفعال السابقة الذكر تحليلا وتعليلا.

3 . {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ}345.

اتضح لموسى من العبد العالم بعلم التأويل أنَّ الجدار كان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنزُ لهما، وهذا يدل على علم العالم بما لم يعلمه موسى ممّا يجعل لموسى عذرا في كلّ تساؤلاته واستعجالاته وعدم صبره ولذلك، لو كان موسى عالما بعلم معلِّمه لكان مشاركا في تنفيذ كلّ فعل، ولأنّه لم يكن عالما بذلك فلم يكن مشاركا بل كان محتجًّا ومستغربا ومتسرعا وغير قابلا لِما حصل أمامه من معلمه.

وعليه نقول:

كلّ من موسى والعبد العالم كانا على صواب، ومع ذلك كان موسى غير صابرا فلو كان أكثر صبرا لكان لنا المزيد من علم التأويل الذي لم نطَّلع إلا على القليل منه بأسباب مخافة موسى ربّه التي هي من حقّه حيث إنْ صمت على ما فُعل أمامه من أفعال لا يجانبها الصواب من وجهة نظره قد يجد موسى نفسه على مخالفة مع الله تعالى، ولهذا كان غير صابرا.

ولأن العبد العالم الذي رأى بأم عينيه حال الجدار وهو يعلم بحال الغلامين اليتيمين أيضا، وكذلك يعلم بأن تحت الجدار كنز لهما في الأرض تحت الجدار الذي لو انقض لأكتشف الكنز أمام أعين النّاس الذين لم يعلموا يقينا بأمر الكنز فيأخذوه دون أن يستفيد منه الغلامين اليتيمين اللذين هما في حاجة إليه وهو حقّ لهما إرثا من والدهما الصّالح فجاءت إرادة الله بالعبد العالم ليسقط الجدار المتهالك ويقيمه حفاظا

---

[345]- الكهف 82.

على الكنز وحقّوق أصحابه فيه، مصداقا لقوله تعالى: (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ).

وعليه: فالمخاطب بهذه الآية الكريمة على احتمالات منها:

أ . أنَّ المخاطب بقوله: (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) هو العبد العالم الذي أسرع دون انتظار ولا طلبا لأجرة لإقامة الجدار تنفيذا لإرادة الله كما جاء في هذه الآية الكريمة.

ب . إنَّ المخاطب موسى صلّى الله عليه وسلّم بقوله (فَأَرَادَ رَبُّكَ) وفي هذا التعليل يكون القول من الله لموسى على لسان العبد العالم.

ج . إنَّ المخاطب في الآية الكريمة السابقة هو كلّ من العبد العالم وموسى مع مراعاة كلّ لما يخصه مصداقا لقوله تعالى: (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ).

د . إنَّ الخطاب للكافة من بعد موسى والعبد العالم ليكون لكلّ مؤمنٍ نصيب من علم التأويل ولأجلّ أن يعلم الجميع الحقّ وأساليب إحقّاقه وإظهاره دون استعجال حتى لا يُظلم أحد من عباده، وليعرفوا أهمية العلم وقيمته فيتجهوا إلى مصادره وينابيعه المتدفقة في مشارق الأرض ومغاربها.

ويُطمئِن العبد العالم قلب موسى بقوله: {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}[346].

فقوله: (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي) أي كلّ ما رأيته يا موسى من أمورٍ غير مستساغة من وجهة نظرك واستنكرتها مني هي في حقّيقة الأمر لم

[346]- الكهف 82.

تكن من بناة أفكاري بل هي بإرادة الله وما أنا إلا منفذا لمشيئته لِما أراده فيما رأيت.

وختاما وكأن العبد العالم يريد أن يقول بعد تأويله لموسى مَا لَمْ يَسْتطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا أمرين:

أ . وكأنّه يود أن يقول لموسى بعد هذا التأويل والإيضاح هل فهمت؟ أو نأمل أن تكون قد فهمت (تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا).

ب . وكذلك كأنّه يقول لموسى: أعذرني فالأمر أمر الله تعالى وأنا العبد الذي علَّمني الله ما لم تعلم وعلمني تأوّل ما علمتك من البداية إلى النهاية فيما أراد الله أن تتعلَّمه أو تعلمه من علم التأويل الذي أظهرتك على منهجه وجانب منه.

وعليه نقول:

عدم صبر موسى صلّى الله عليه وسلّم وفقا لدائرة الممكن المتوقّع ولما لديه من معارف كان مؤسسا من وجهة نظره على الحرص، ولم يكن مؤسسا على قلق أو رغبة في مصلحة أو منفعة أو ما يُشبع حاجة.

في نهاية هذه الرحلة الجميلة كان موسى صابرا ولا قلق ولا استعجال ولا استغراب ولا اعتراض ولا تساؤل، بل كان الإنصات سيد الموقف حيث عدم مقاطعته لمعلِّمه الذي أتمَّ تأويله للأمر الذي كان مكلّفا به من الله تعالى، وهذا الإنصات دليل انبهار موسى بعلم التأويل وكذلك دليل نجاحه فيما تم تعليمه له وهو أن يكون صابرا فكان في النهاية خير صابرٍ، وكما يقولون في علوم التحليل في الرياضيات وطرق البحث ثبت وهو المطلوب، أي بما أنَّ موسى قد تعلَّمَ الصبر فقد فاز وهو المطلوب من كلّ تعلُّم.

وبناء على هذه النتيجة العظيمة نقول:

يؤسس الصبر على مجموعة من المبادئ منها:

أ . المعرفة الواعية.

ب . الخبرة والتجربة.

ج . تقوى الله ومخافته في القول والفعل والعمل والسلوك.

د . التفهُّم.

هـ . الحكمة.

ولذا؛ فالصبر فضيلة ذوقية تُستمدّ منه مجموعة من المبادئ الأخلاقية والإنسانية منها:

1 . نيل الاعتراف.

2 . نيل التقدير.

3 . كسب الاعتبار.

4 . إنجاز الأهداف.

5 . تحقّيق الأغراض.

6 . بلوغ الغايات.

7 . ممّارسة الحقّوق.

8 . أداء الواجبات.

9 . حمْل المسؤوليات.

10 . استيعاب الآخرين هم كما هم لأجلّ تحسين أحوالهم وإحداث النقلة بهم إلى ما هو أفضل وأجود وأنفع وأفيد وأعظم.

ومن خلال تحليلنا لقصة موسى مع العبد العالم عرفنا أن موسى لم يكن صبورا كما ينبغي أن يكون عليه ولهذا كان في حاجة لتعلُّم الصبر فتعلَّم بأمرٍ من الله تعالى الصبر وكذلك اكتسب من علم التأويل منهجه بمرافقته العبد العالم الذي كان له خير معلِّما.

أي؛ فبعد أن كان موسى عجولا مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أَعجلكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى قَالَ هُمْ أوّلاءِ عَلَى أَثَرِي وَعجلتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى}347. أصبح موسى صلّى الله عليه وسلّم في حياته ومعاملاته صبورا وهذه صفة من صفات الأنبياء والرّسُل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم.

وعليه: من أراد أن يكون صبورا فعليه بالعلم النافع الذي به يتمكن من المعرفة الواعية الممكِّنة من التميُّز والتمييز عن طريق الإتيان المباشر من الله تعالى أو عن طريق من آتاه الله تعالى علما من علمه الواسع الذي اتصف به من بين المتصفين العبد العالم وكذلك موسى الذي عندما بلغ أشده آتاه الله حكما وعلما حتى اتصف موسى بهما في حياته مصداقا لقوله تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}348.

ـ العلم:

وعليه عِلمُ موسى صلّى الله عليه وسلّم على وجهين:

---

[347] طه 83، 84.

[348] القصص 14.

الأوّل: علم أتاه الله تعالى له مباشرة.

الثاني: علم مُتلقّى من عالمٍ علّمه الله من علمه الواسع وهو العبد الصّالح {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا}349 فبالتقاء موسى مع العبد العالم الذي أتاه الله عزّ وجلّ علما متميزا لم يعلمه موسى من قبل تعلّم منه الصبر وعلم التأويل ومنهجه.

وعليه: من ينتهل من العلم يتصف به ومن يستمد صفاته من اسمه العليم المطلق يصبح خليفة في الأرض ومن الوارثين في الدارين.

ولذا فالعليم هو المدرِك لِما يَخلق قبل خلقه، والمدرك لأمره أثناء خلقه، وهو الذي لا تخفى عليه خافية فيما جرى قبل الخلق وأثنائه، وهو المذكِّر لمن أراد أن يتذكر أو يهتدي للحقّ الذي به هو أعلم.

إنّه مصدر العلم الناقل من الظلمة إلى النور، العلم الذي لا يقتصر على الأبصار فقط بل العلم الذي يمتد إلى البصيرة فيدرك إدراكا، إنّه العلم الذي تستنبطه العقول وتستدلّ عليه بالحجّة والبرهان والآية الدالة على الإثبات بالمطلق.

والعليم المطلق هو السابق على العلم حيث لا علم إلا منه جلّ جلاله، ولذا لا يستمد العلم إلا من عليم، فالعليم هو السابق على كلّ سابق ولا سابق عليه، وهو الذي يعلم بما يحدث قبل أن يحدث، وهو الدائم الذي يَنهي ولا يُنهى.

أمّا العليم بالإضافة فهو المؤقت الذي لا يبقى مهما ألمّ من علم من علمه الواسع، ولذا فالعلم الدائم للحي الدائم والعلم المؤقت للعالم

---

[349] - الكهف 65.

المؤقت الذي أظهره عليه العليم المطلق كما هو حال الرّسُل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أو كالمؤمنين الذين اهتدوا بالعلم الذي أظهره لهم الرّسُل والأنبياء وبما تركوه لهم من علوم ومعجزات وكتب محفوظة.

وعود على بدء أتساءل:

ما علاقة علم العبد العالم بعلم الغيب الذي لم يكن موسى من العالمين به؟

نقول:

بدون شك لموسى علم من علم الغيب خصَّه الله به وللعبد العالم علم من علم الغيب خصَّهُ الله به، فما يعلمه موسى صلّى الله عليه وسلّم من توراة قد لا يعلمه العبد العالم بالتمام كما يعلمه موسى، وهكذا ما كان يعلمه العبد العالم من علم التأويل وعلوم الصبر لم يكن موسى على التمام منها، وهكذا حال كلّ الرسالات والرّسُل الذين يصطفيهم الله ويظهرهم قبل غيرهم على علمٍ من علمه الواسع، ثم يكلّفهم بتبليغه للآخرين، ولذا يكون الأمر على مستويات منها:

أ ـ عالم الغيب بالمطلق هو الله خالق النسبي والمطلق.

ب ـ ما يظهره عالم الغيب لبعض من أنبيائه ورُسُله ومن يخصَّهم بعلم من الصّالحين كما هو حال العبد الصّالح الذي خصَّهُ الله برحمة وعلم منه تعالى، فهؤلاء يكون لهم شيئا من علم غيبه عزّ وجلّ لا يعلمه غيرهم ولذا فهؤلاء هم العليين.

ج ـ الذين يتم تبليغهم من قبل المكلّفين بالتبليغ من الأنبياء والرّسُل الكرام يصبحون من العالمين بما لم يسبق لهم أن علموا به وهؤلاء هم الصديقين.

د ـ الذين يكفرون ولا يستمعون إلى القول الحقّ (الذي هو من علم الغيب) هؤلاء يكونون في أسفل السافلين.

ولذا فعلم الغيب هو العلم الذي لا تدري به عقول وأذهان من يُسألون أو يتساءلون، وهو العلم المتعلق بالزمن وفقا للآتي:

أ ـ ما يتعلق بعلم الغيب بالزمن المستقبل: من حيث أنه العلم الذي لم يأتِ زمن ظهوره بعد، ولا شواهد له في الزمن الآن. إنه العلم الذي سيحدث وتظهر معطياته وبراهينه بقوّة علاَّم الغيوب في الزمن المستقبل دون أن يعلم بها أحد، قال تعالى: {يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرّسُل فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}[350]. بطبيعة الحال بما أن يوم الجمع لم يأتِ بعد فهو يُعدُ علم غيب إلى أن يُنفى بعلمه يوم يأتي في الزمن الآتي.

ب ـ ما يتعلق بعلم الغيب بالزمن الماضي: فعلى سبيل المثال: زمن بداية الخلق مع أنّه وقع في الزمن الماضي إلا انه غير معلوم بالنسبة لمن خُلق، ولذا فأمره أمر علم غيب الذي لا يعلمه إلا علاَّم الغيوب جلّ جلاله؛ وكذلك ما وقع في الزمن الماضي مع أنّ الخالق أحصاه وعده عدا إلا أن العقل البشري لا يُدرك منه إلا القليل، ولذلك فهو يجهل الكثير منه، ممّا يجعل المجهول منه في عِداد علم الغيب الذي لا تُخفى عليه خافية. قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كلّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا

[350]- المائدة، 109.

عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}351. لقد علّم العليم جلّ جلاله آدم الأسماء كلّها، أي الأسرار كلّها، ثم طلب من الملائكة التي لم تعلم بها أن تنبئه بها فعجزت عن ذلك.

والذي يتضح من هذه الآية أن الأسماء لم تعد من علم الغيب بالنسبة لآدم بعد أن علَّمه وأعلمه الله بها، ولكنها علم غيب بالنسبة للملائكة التي لم تعلم بها بعد مثلما علم بها آدم صلوات الله وسلامه عليه، ولذا فعلم الغيب أصبح بالنسبة لآدم علما ظاهرا، ويعده كما نحن نعده من علم الماضي. ولكن الملائكة الكرام في الزمن الذي طلب الله فيه منهم أن ينبئوه بالأسماء التي سبق أن علَّمها لآدم يعد الأمر بالنسبة لهم علم غيب، وظل العلم الذي أنبائهم به آدم علم غيب خلال الفترة الممتدة من علم آدم به إلى زمن ما قبل إنبائهم وإظهارهم عليه.

. ما يتعلق بعلم الغيب في الزمن الآن الحاضرة: إنه العلم الذي يحتوي الآتي:

1 . ما لا نتذكره من أحداث وقصص وآيات قد وقعت في الزمن الماضي.

2 . ما لا نفكر فيه وسيحدث لا محالة في الزمن المستقبل.

ولذا فعلم الغيب في الزمن الآن هو العلم ألإعجازي الذي لا تدركه عقولنا ومعارفنا ولا تستوعبه ذاكراتنا ولا نحيط به شيء، وهو العلم

[351]– القيامة، 31 . 33.

الذي إن سؤلنا عنه لا تكون عندنا إجابة له بشيء برغم حدوثه في الماضي أو ظهوره الذي سيحدث في المستقبل.

والأصل في العلم هو الغيب، والاستثناء منه هو الظهور، وإلا ما معنى أن الله خلق الشيء من لا شيء؟ أنه يعني قد خلق الله ممّا لا نعلم شيئا نعلمه، أي أننا عُلِّمنا ممّا لا نعلم علما. ووسيلة الاطلاع على علم الغيب هي الرسالات التي نزلت على الرّسُل صلوات الله وسلامه عليهم، الذين بُعثوا لأممهم وأقوامهم وشعوبهم وللكافة جميعهم مبشرين ومنذرين ومحرضين وفاعلين للخيرات، فقد بدأ علمنا من العلم الذي أظهر الله عليه أبونا آدم صلّى الله عليه وسلّم الذي اصطفاه الله بالعلم ممّا خلق وخصَّه بالمعجزة التي جعلت الملائكة تسجد له طاعة لأمر الله في الاصطفاء، وهكذا جاءت المعجزات ونزلت بعلومها على بقية الرّسُل الذين منهم نوح وآل إبراهيم وآل يعقوب وإسحاق وإسماعيل ويوسف وموسى وعيسى ومحمّد عليهم جميعا صلوات الله وسلامه.

وبما أنّ علم الغيب هو الأصل، والظهور هو الاستثناء، إذن من حقّ الجميع أن يقولوا صدق الله العظيم فيما قال: (وما أتيتم من العلم إلا قليلا)، وصدق الله العظيم فيما قال: (وقل ربي زدني علما). وبناء على هاتين الآتين الكريمتين، تتأكد المعطية التي تقول: (إن الاستثناء جزاء قليل من كلّ كثير) ولهذا فالاستثناء هو ما أُتينا من العلم إلا القليل، وهذا يدل على أن العلم الوافر هو علم غيب وهو القاعدة، ممّا يستوجب على المؤمن أن يسعى والأمل معه وهو ويقول: ربي زدني علما من علمك الواسع يا السميع يا العليم بأسرار الغيب يا المجيب لمن يدعوك وهو لا يشك في إنّك لن تُجيب.

ولأنّ العلم محتوى ومضمون لكامن وظاهر، يُعلَّم من عالمٍ ويُستمد من عليم حكيم، تعلَّم موسى صلّى الله عليه وسلّم تأويل علم الباطن من العبد العالم.

والعليم بالإضافة هو الملِم إلماما بالعلوم التي أظهره عليها العليم المطلق بسبب أو بدون سبب، ممّا يجعله يعلم ما لم يعلمه غيره وفي هذه خصوصية لمن يصطفيهم الله لسرٍ من أسراره وحكمة من حِكمتهِ كما هو حال يوسف صلّى الله عليه وسلّم في قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آَلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[352].

ولأنّ أمر الأسرار والحِكم التي من وراء العلم ليس هينا فيتولى الله اختيار وتفضيل من هم متهيئون لهذه المهمة الصعبة فيصطفيهم لها، ويعلمهم ما لم يعلموا إظهارا، فتصبح رؤاهم سابقة على حدوث الفعل، أي أن المعلومة التي تتعلق بأمرٍ سيحدث يتم اطلاع البعض عليها حتى يصبحوا أهل قدرة على الأنباء بها قبل حدوثها وإن حدثت فهم لها خير مفسرٍ.

ووفقا لهذه القاعدة كان يوسف صلّى الله عليه وسلّم خير مُفسر للأحاديث، التي علَّمه العليم تأويلها، وقوله (وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آَلِ يَعْقُوبَ) يقصد بالنعمة النبوّة التي أخص بها الله آل إبراهيم والذين جاءوا من أصلابهم إسحاق ويعقوب ويوسف وآخرين من بعدهم ومن بينهم موسى وعيسى ومحمّد عليهم جميعا الصّلاة والسّلام.

---

[352]- يوسف 6.

وفي قوله (إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) فهي تدلّ على علمه وحكمته من وراء العلم الذي أظهره الله ليوسف والنبوّة التي أتمها عليه كما أتمها من قبل على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق.

وفي آية أخرى يقول تعالى: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ}353. فإذا نظرنا لخاتمة هذه الآية (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ) نلاحظ أن العلم الذي علَّمه الله ليوسف هو علم الخصوص للعموم أي خصَّ الله به يوسف ليظهره للمستهدفين به من قومه، وليبقى من بعده آية تروى مع قصص الأنبياء كما نحن نحلل ونفسّر ونروي.

ولنعود لقوله (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ) أي بعد ما رماه أخوته في الجب لا لذنب إلا لأن محبته في حالة تميُّز عند أبيه صلوات الله وسلامه عليهما أصبح في محبة الملِكْ الذي اشتراه حتى تمكَّن من بيت التخطيط والمال، ممّا جعل سمعته قدوة حسنة لدى الملِكْ وفي محيطه الاجتماعي القريب والبعيد، وإلى يومنا هذا بين أيادينا آية.

وقوله: (وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)، ولنمكّنه من معرفتها وكشف أسرارها وتفسيرها لمن يتعلق الأمر بهم أو ذوي العلاقة، وهذه حكمة خصَّ بها الله تعالى يوسف صلّى الله عليه وسلّم.

فكما علَّم يوسف تأويل الأحاديث علَّم الرّجلّ الصّالح (العالم) الكريم ما لم يكن موسى على علم به ممّا جعله في حاجة لأن يتعلم منه ممّا علَّمه الله.

[353] - يوسف 21.

وعليه: فالعليم هو مصدر العلم من الأدق إلى الأدق منه والأشمل، وهو الذي لا تخفى عليه خافية فأينما تكون لا تخفى عليه فهو خالقها وخافيها حتى يظهرها على من يشاء من عباده متى ما شاء، قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}354.

علَّم آدم الأسماء كلّها: أظهره على الأسرار وعرَّفه بمسمياتها دون لبسٍ أو غموضٍ حتى أنه المَّ بها إلماما وإدراكا تاما غير منقوص، ولإظهار عدم معرفتها خُضع حضور الملائكة للاختبار بطلبه أن ينبئوه بالأسماء إن كان لهم علم بها، فقالوا: سبحانك، وفي هذا القول تنزيه لله تعالى الذي لا أحدٍ سواه يعلم علم الغيب المطلق، وقوله (لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) أي لا علم لنا بشيء لم تُظهرنا أو تطلعنا عليه، فأنت سبحانك العليم بكلّ اسم ومسمى.

وعليه: فبأسباب العلم الذي ميَّز به العليم جلّ جلاله آدم جعله بها خليفة في الأرض ليعمرها ولا يفسد فيها ولا يسفك الدماء وبهذه الحجّة (حجّة العلم) كان الاستخلاف في الأرض، وعلينا أن نقول العلم الذي وهبه الله وعلَّمه لآدم هو سبب الاستخلاف، ولذا فمن كان على علمه تعالى كان خليفة، ومن لم يكن على علمه تعالى فليس له علاقة بالاستخلاف في الأرض ولكنه من المخلَّفين عليها.

354- القيامة، 31. 33.

ولأنّ الملائكة مؤمنون فكان حال قلوبهم يقول وهم ينفذون أمر السجود لآدم: سبحانك جلّ جلّالك ما فعلت هذا باطلا، وذلك ليستغفروا على قولهم (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ)، وبسجودهم هذا كانوا يظهرون إيمانهم وتسليمهم لقوله (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)، والعلم الذي يعلمه الله ولا تعلمه الملائكة هو أن الله يعلم أن آدم وحده هو القادر على الأنباء بالأسرار التي علّمه إياها، ولذا فإن الذين يفسدون في الأرض من بني آدم ويسفكون الدماء فيها بغير حقّ هم ليسوا بخلفاء، وذلك لأن الخلفاء في الأرض هم المصلحون فيها. مصداقا لقوله تعالى: {وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ}355. وقوله تعالى: {وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}356 من الآيتين السابقتين يبرز وضوح العلاقة بين الأرض والاستخلاف فيها على الإصلاح، ويتضح في الوقت ذاته أنه لا علاقة للاستخلاف مع من يفسد فيها.

وقوله تعالى: {إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}357. تحتوي هذه الآية على أربع قضايا من علم الغيب:

. القضية الأوّلى علم غيب السماوات:

السماوات مليئة بالأسرار ولم يكشف أمرها بالتمام، فنحن بنو آدم من المستخلفين في الأرض تمكنّا من أن نلم بشيء من علوم الأرض ولم نتمكن إلا بالقليل القليل من علوم السماوات التي لا نعلم إلا بعددها

[355]- الشعراء، 151، 152.

[356]- الأعراف، 142.

[357] - البقرة 33.

(سبع سماوات) وما يحيط بها من كواكب ومداراتها الفلكية ولكن أين بداياتها ونهاياتها بالتحديد الدقيق وعلى ماذا تحتوي وأين الحياة فيها؟ فهذه في مُعظمها حتى الآن علم غيب لا يعلمه إلا العليم بأمر خلقها سبحانه عزّ وجلّ، فأمر السماوات أمر علو طبقي من السماء العليا إلى السماء الدنيا التي تحيط بكوكبنا وهي تحمل في مداراتها مالا يستطيع بشر إحصاءه من المصابيح العاكسة للضوء ليلا حتى يتمكّن الإنسان من مشاهدتها وملاحظة حركتها وهي تتلألأ من اتجاه إلى اتجاه وذلك ليرينا بعض من آياته العظام.

وإذا كان أمر السماء الدنيا هكذا فما بالنا بأمر السماوات التي لم يتم كشفها بعد، وكما سبق أن قلنا لا علم لنا إلا بعددها إبلاغا خبريا، أمَّا ما هي عليه وكيف هي بالتمام فهذا الأمر لا زال علم غيب، والحكمة من وراء إبلاغنا بالعدد دون أن يظهرنا على مكوناته هو لكي نفكر ونسعى ونبحث ونتعلَّم ونتعرف ونتطلع إلى ما خلق الخالق العظيم لنجلّه ونعبده ولا نشرك به أحدا، وإلى أن يظهرنا الله عليها أو على بعض منها سيظل علمها بالنسبة لنا نحن عموم البشر علم غيب.

قال تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا}358، سبحانك اللهم ما أعظمك أشهد أنك لم تكن في حاجة لمن يعبدك، وأشهد أن من يعبدك هو في حاجة إليك، لقد خلقت كلّ هذا ولا زلت تخلق فليؤمن من يؤمن وليكفر من يكفر لا إله إلا أنت.

---

[358]- نوح15، 16.

أنت الذي خلقتنا وأنت الذي تعلم بحالنا، وأنت الذي نُتَوَدَّدُ إليه ونستغفره ونؤمن به ونفوز برحمته، ونحن منَّا من يعتقد بأنه لا ضرورة لذلك ويطغى.

. القضية الثانية علم غيب الأرض:

الأرض هي الكنز الكبير وبيت الكسب الممتلئ بالوفرة لِمن أراد أن يكسب منها حلالا، وعلى أديمها نعيش فنحرث ونزرع ونحصد ثم نأكلّ، ومن باطنها نستمد الكنوز المتنوعة من ماء وذهب أسود واصفر وجميع أنواع المعادن النفيسة، ومع ذلك وُزِّعت الأرزَّاق على العباد في سهولها وجبالها وصحاريها وبحيراتها وبحارها ومحيطاتها وينابيعها ووديانها وأنهارها، وإذا ما غضبت وتزلزلت قذفت بقوتها الحجارة والصخور الصماء ونيران البراكين على رؤوس الذين يُفسدون فيها ولم يحسنوا إصلاحها.

قال تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النّاس أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ}[359]. علم الزلزلة من علم الغيب من حيث متى ستهتز الأرض وتتزلزل، وفي أي مكان بالتحديد، ومدى قوّة زلزلتها؟ وما هي الخسائر المترتبة على ما تُلحقّهُ الزلزلة من دمار؟ فالذي يعلمها قبل أن تظهر مؤشراتها هو العليم المطلق؛ أمَّا العليم بالإضافة لا يعلم أمرها إلا بعد أن يصدر لها صاحب الأمر أمر الزلزلة حينها تبدأ في حالة امتداد وثوران قابلان للقياس والرصد بالعلم الذي تَمكَّن العليم بالإضافة من معرفته من العليم المطلق، ولذا فمن لا يعلم

[359]– الزلزلة 1 . 6.

بأمر الزلزلة يفاجئ بزلزلتها وهي تخرج أثقالها وتقذفها مع براكينها بعيدا ممّا يجعله يتساءل:

مالها؟ أي ما الأمر؟ وما الذي يحدث؟

أسئلة استغرابيه حتى يعلم أنها الزلزلة أو يُخبر بأمرها في يوم من الأيام ليجاب على استفساراته الاستغرابية عن حالة الأرض وما المّ بها بقول الذين يعلمون بأن ربَّك هو الذي أوحي بأمره للأرض بأن تتزلزل، يومها يعلم النّاس إنَّ زلزلة الأرض من علم الغيب، أمَّا المؤمنون المستخلفون فيها فهم يدركون يقينا إن أمرها من أمر الغيب الذي لا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ.

وباستقراء قصة موسى مع فتاه والعبد العالم عرفنا أنّ الله قد يُظهر أحدٍ من عباده الصّالحين على شيء من علمه قبل أن يعرفه العموم، ولهذا الذين يعلمون الحقّ يتبعوه ولا يتبعوا الأهواء قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ ربّه وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}360.

وقال تعالى: {وَلَوِ اتَّبَعَ الحقّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات وَالْأَرْضُ}361، أهواء المشركين تظن أن في الأرض آلهة متعددة وليس إلها واحدا، ولأنه لا إله إلا الله فلا وجود لآلهة إلا قولا وشركا وكفرا، فلو كانت في الأرض آلهة لكان الاختصام والمواجهة بينهم على من يصدر الأمر، ولمن يُصدر؟، ومن الذي يطيعه؟؛ ولو كان الأمر كذلك لفسدت السماوات والأرض بالأوامر المختلفة للآلهة، فالحمد لله الواحد الأحد الذي لم يكن له والد ولا والدة ولا ولد، ولا صاحبة ولم يشاركه في الملك أحد سبحانه جلّ جلاله.

---

[360]- النازعات 40، 41.

[361]- المؤمنون 71.

. القضية الثالثة علم غيب الظاهر (ما تبدون):

ما تبدون تعني ما تُظهِرُون وتُعلنون وهي أيضا تعني ما يبدو لكم ظاهرا؛ فالله يعلم أمره قبل وبعد إعلانه، حيث لا سر عن علاَّم الأسرار والحِكم التي من ورائها، قال تعالى: {إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيمًا}362 وكان بكلّ شيء عليما: تدلّ على أسبقية علمه بالأشياء بالمطلق.

قال تعالى: {هُوَ الْأَوّل وَالْآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}363 مع أنّنا نؤمن به يقينا ونعرف صفاته الحسان يقينا إلا أننا لا نراه بأمهات أعيننا، وذلك لأنّه لم يكن مادة مجردة ولا روح مجردة بل هو الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، فهو الذي نَعلمه ونُدركه ونَخافه ونتقيه ونسجد له ونركع، ولا نسجد ولا نركع لسواه، هو الله الذي يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، وهو الحي الباقي الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، خلق كلّ شيء ويحيط بكلّ شيء علما سبحانه لا إله إلا هو الواحد القهَّار.

ومن خلال بحثنا في العلاقة التي كانت في رحلة اللقاء بين موسى صلّى الله عليه وسلّم الذي أوتي علم من علمه الظاهر والعبد العالم الذي أوتي علما من علمه الباطن عرفنا شيئا من علم التأويل الذي به نعرف العلاقة بين الظواهر والبواطن أي بين الأشياء وعلل وجودها والكيفيات التي يمكن أن تكون عليها، قال تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}364 جاء في هذه

---

[362]- الأحزاب 54.

[363] – الحديد 3.

[364]- الغاشية 17 . 21.

الآيات شواهد للظاهر مع استفسار عن الكامن الذي من ورائه وهو أننا نظرنا إلى الإبل والسماء والجبال والأرض ولمسنا منها ما لمسنا وعرفنا منها ما عرفنا ونظرنا ومشينا وشربنا ولبسنا وبنينا، ولكن هل نستطيع أن ننظر إلى الكيفية التي بها وعليها خُلقت لأجلّ أن نعرف؟.

إنه من حقّنا أن نسعى لنعرف، ولكن كلّما عرفنا منها شيئا آمنَّا بأن أمر الكيفية التي عليها وبها خلقت هو أمر غيب؛ ولأنه أمر غيب، لذا فنحن لأمر الغيب ليس بناظرين، وهكذا حال المخلوقات وفقا لما تنص عليه القاعدة: (المخلوق لا يرى خالقه في الدنيا والخالق يرى ما خلق).

. القضية الرابعة علم غيب الباطن (ما تكتمون):

الكتمان الإخفاء وعدم الإباحة بالسرِّ الذي ليس بسرٍ على من يعلمه، كما هو حال العبد العالم الذي أعلمه الله تعالى بعلم من علمه وأيده بإظهاره لموسى الذي لم يعلمه من قبل لو لم يظهره له العبد الصّالح وكذلك كما هو حال يوسف صلّى الله عليه وسلّم مصداقا لقوله تعالى: {فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ}365 أي أنه أخفاها ولم يظهرها لهم مع أنّه شعر بذنبهم نحوه بما رموه به من سرقة، وهو لم يكن من السارقين، إلا رميا بغير حقّ يوم أن أخذ الصنم من جدِّه أبي أمه وكسره366. ومع أنّ أخذ الصنم وكسره ليس بعمل باطل إلا أن إخوته كانوا به من الظانين، لا لشيء إلا لحب أبيه له وكأنّه المفضَّل عليهم، فما قام به يوسف صلّى الله عليه وسلّم هو عمل حقّ وفعل حقّ، وليس بفعل سرقة. فالسرقة سِرُّها أن تُخفى ويتم الاحتفاظ بالمسروق للفائدة الشخصانية غير المشروعة، وهذا ما لم يحصل مع

[365]- يوسف، 77.

[366]- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 9، ص 239.

يوسف والصنم الذي أقدم على تكسيره، فتكسيره يعد عمل خير من قبل من كانت النبوّة فيهم.

قال تعالى: {يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ}[367]، ما يخفونه في أنفسهم هو الذي يعلمه العليم الحكيم، فهم يعلنون الإيمان ويخفون في صدورهم حقّيقة أمرهم وهو الشرك والكفر والتكذيب، وهم على هذه الحالة يظهرون للرسول بأنهم من الذين آمنوا ويخفون له في أنفسهم ما لا يظهرونه وهو الشرك بالله تعالى، وبنزول هذه الآية الكريمة من علم الغيب أصبح الرّسول صلّى الله عليه وسلّم على علم بحالهم وهم على غير علم بأن الرّسول الكريم قد علم بحالهم من علام الغيوب.

وعلم الغيب هو العلم المدرَك لِما لا يُدرَك، وهو ينقسم على جزأين:

الجزء الأوّل:

كلّ ما خلقه الخالق هو يعلمه، وهو العلم الذي لم يطَّلع مخلوق عليه، فهذا الجزء علمه يقع في دائرة الغيب المحاطة بالاستحالة. فمع أنّه علم كامل بالإنجاز الخلقي، إلا أنه بالنسبة لبني آدم هو خارج دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، وسيظل أمره مستحيلا إلى أن يخرج أو يخرج شيء منه من دائرة المستحيل ويدخل في دائرة الممكن، التي من بعدها يتم التعرف عليه أو التعرف على شيء منه، وهذا الأمر لن يتمّ إلا إذا أراد العليم المدرك لما خلق أن يظهرنا عليه أو يظهرنا على شيء منه.

الجزء الثاني:

[367] - آل عمران 154.

هو الذي لم يُخلق بعد وسيخلق لا محالة هو الآخر علم غيب لا يعرفه إلا الذي سيخلقه حيث لا مستحيل أمامه، فهو الذي إذا أراد شيء أن يكون، يقول له كن فيكون، سبحانه أنه على كلّ شيء قدير وبكلّ شيء عليم. وعليه لا ينبغي الاستغراب لأن الله على كلّ شيء قدير وبكلّ شيء محيط وعليم.

الاستغراب كما حدث مع موسى في مصاحبته للعبد العالم لأجلّ أن يتعلم منه ممّا علّمه الله تعالى حدوده محيط دائرة الممكن، التي هي في حدود العلم البشري، الذي يمتد ويتقيد بالقدرة والاستعداد، أمّا دائرة المستحيل فهي الدائرة التي لا يمكن أن يدخلها العلم البشري، وذلك لأنّ أمر علمها أمر غيب، والغيب لا يعلمه إلا علاَّم الغيوب جلّ جلاله، ولذا فمحيط دائرة الممكن أبعاده نسبية، أمّا المستحيل فلا دائرة تحوطه.

قال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كلّ شَيْءٍ عَدَدًا}368.

ولتبيان ما تضمنه هذه الآية الكريمة علينا أنْ نعرف دلالة المعنى لكلّ من العالم، والغيب حتى نُدرك دلالة عالم الغيب جلّ جلاله:

العالم: هو المدرك للزمان والحركة وما يُحتوى فيهما.

والغيب: على وجه الاختصاص هو ما يعلمه الخالق ولا يعلمه المخلوق.

---

[368] – الجن 26 . 28.

وعالم الغيب: هو الذي بيده المشيئة، وهو الذي لا يتمكن مخلوق من الاطلاع على علمه مهما سعى، إلا من ارتضى بمشيئته من يشاء من الرّسُل أو عباده الصّالحين كما هو حال العبد العالم، أو الذي أوتي علما من علم الكتاب، وفي هذا الأمر كان الاستثناء في قوله (إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) والرّسول هو من تهيأ بمشيئته للاطلاع على ما يؤتيه من علم الغيب بعد أن يحيطه تعالى حفظا ورعاية وعناية، فأمر الأنبياء والرسالات ليس بالأمر الهيّن، ولذلك يحاط الأنبياء والرّسُل صلّى الله عليهم وسلّم بملائكة كرام يفعلون ما يؤمرون، لا يكلّون ولا يملُّون يعملون طاعة لله وهم يروننا ونحن لا نراهم ولله في أمره شؤون.

وقوله (لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلّ شَيْءٍ عَدَدًا) إنَّ إحاطة الملائكة الحفظة الكرام بالأنبياء ليُمكّنوا من إتمام رسالاتهم للناس رحمة. مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}369.

ولأنّ العلم حجّة والحجّة دائما بيد من يعلم، لذا كان موسى خير مثال للالتحاق بمن علم أن لديه علم لم يعلمه موسى من قبل، فسعى جادا في ذلك مصداقا لقوله تعالى {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حقّبًا}370 ولا يمكن أن تكون الحجّة بيد من يجهل، وعلاَّم الغيوب هو الذي لا تُخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض سبحانه انه بكلّ شيء محيط وعلى كلّ أمرٍ قدير فأعطى من أعطى علما وأعطى من أعطى حكمة وملكا ورسالة ونبأ وعلَّم من علمه من علَّم، وعليه فمن أراد أن يمتلك الحجّة فعليه

[369] – الانفطار 10 . 12.

[370] –الكهف 60.

بالبحث والتدبر في علمه تعالى وليتقي الله ربّه فيما يبحث ويحلل ويفسر ويتعرف حتى لا يضر أحدا.

الأرض سبحانه انه بكلّ شيء محيط وعلى كلّ أمرٍ قدير فأعطى من أعطى علما وأعطى من أعطى حِكمة وملكا ورسالة ونبأ وعلَّم من علمه من علَّم.

وعليه: فمن أراد أن يمتلك الحجّة فعليه بالبحث والتدبر في علمه تعالى وليتقي الله ربّه فيما يبحث ويحلل ويفسر ويتعرف حتى لا يضر أحدا.

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[371]، تحتوي هذه الآية الكريمة على ثمانية علوم مطلقة أمرها أمر غيب هي:

1 . علم الساعة الذي لا يعلمه إلا هو جلّ جلاله. (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ).

2 . علم الغيث الذي لا ينزله إلا هو سبحانه وتعالى (وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ).

3 . علم الأرحام لا يعلم تمامه وكماله إلا هو. (وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ).

4 . علم الكسب لا يعلمه إلا هو (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا).

[371]– لقمان 34.

5 . علم دراية الموت وأماكنها لكلّ نفس من الأنفس، (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ).

5 . علم الاكتساب والجزاء ثوابا أو عقاب في الآخرة لا يعلمه إلا هو. (ماذا تكسب غدا).

6 . علم الزمن المطلق الذي سينقلنا إلى يوم غدٍ علم غيب. وهو الزمن المستنبط ممّا تحتويه الآية بداية من الساعة إلى ما ستكسبه النفس غدا).

7 . علم الموت ومكانه الذي يعرفه الجميع ويؤمنون به لا يعلمه إلا هو. (بأي أرض تموت).

8 . علم الخبرة والدراية التامة لا يعلمه إلا هو: (إن الله عليم خبير).

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}372 تحتوي هذه الآية الكريمة على ثمانية علوم هي:

1 . علم الساعة الذي لا يعلمه إلا هو جلّ جلاله. (إنّ الله عنده علم الساعة).

2 . علم الغيث الذي لا ينزله إلا هو سبحانه وتعالى. (ويُنزل الغيث).

3 . علم الأرحام لا يعلم تمامه وكماله إلا هو. (ويعلم ما في الأرحام).

---

[372] - لقمان 34.

4 . علم النفس وما تخفي في باطنها لا يعلمه إلا هو. (وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت).

5 . علم الاكتساب والجزاء ثوابا أو عقابا في الآخرة لا يعلمه إلا هو. (ماذا تكسب غدا).

6 . علم الزمن المطلق الذي سينقلنا إلى يوم غدٍ علم غيب. وهو الزمن المستنبط ممّا تحتويه الآية بداية من الساعة إلى ما ستكسبه النفس غدا).

7 . علم الموت ومكانه الذي يعرفه الجميع ويؤمنون به لا يعلمه إلا هو. (بأي أرض تموت).

8 . علم الخبرة والدراية التامة لا يعلمه إلا هو: (إن الله عليم خبير).

ومع أنّ الله هو عالم الغيب والشهادة، إلا أنّه يُظهر على علمه من يشاء من رسول، وما يظهره من علم لرسول يشاءه يظهره على يديه للآخرين ليعلموا أنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا، وليعلموا أن وراء العلم عليم يعلم ما في السماوات وما في الأرض فإن أرادوا علما فعليهم بالتوجه إلى عالم الغيب الذي بيده مالا يعلمون، مصداقا لقوله: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا}373.

قال تعالى: {هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى}374 بطبيعة

[373] - الجن 27، 28.

[374] - النجم 32.

الحال الذي أنشأنا من الأرض هو اعلم منا وذلك وفقا للقاعدة التي تقول: (مُنشئ الأشياء أعلم من الأشياء ذاتها)، ولذلك لا يُعقل أن يكون الشيء المنشئ أدرى بأمره من الذي أنشأه. وللتوضيح الذي أنشأ الجنين في بطن أمه هو أعلم بالجنين من الجنين نفسه، فالجنين هو المنشئ بالقوّة، حيث لا رأي له في نشأته ولا صورته ولا نوعه، فهذا الأمر بيد من أنشأه إنشاء. ولأن أمر الخلق بالمطلق هكذا وفقا لقاعدة: (مُنشئ الأشياء أعلم من الأشياء ذاتها)، إذن فمن أين لنا أن نزكي أنفسنا. والتزكية: الظهور، أي إظهار ومدح النفس وإعطائها صبغة ليس لها، وهذه لا تعد من القيم المفضلة عند الله تعالى ولا من القيم المفضلة في أخلاق المؤمنين. فهي تحمل العيب على حساب الاستقامة بعلم الله تعالى.

ولذا؛ فمن يتوجه بالإيمان إلى عالم الغيب ليزيده علما من علمه يزده حتى يرفعه درجة، ومن يطلب المزيد يزيده ليرفعه إلى درجة من العلم أكبر، وهكذا ينبغي أن يكون الخليفة في الأرض دائما يطلب المزيد العلمي الذي يظهره على الآيات العظام ويُمكِّنه من العمل الذي به تُصلح الأرض ولا تُفسد. قال تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}375. الدرجات مراتب من العلم لا يتمكن منها إلا من يطلع عليها ويدركها لأجلّ أن ينقلها للآخرين ليتمكنوا من المزيد العلمي الذي يفيدهم في حياتهم ومماتهم ويوم بعثهم.

ولذا؛ فمن مهمة الخليفة أن يسعى بكلّ جهده وأساليبه الأخلاقية إلى إظهار علم الله الذي أظهره عليه ليكون بين النّاس ألفة ومحبة وعملا صالحا يرضاه. ولذلك لا ينبغي أن يُحجب العلم الذي هو من عند الله عن عباد الله، ومن يحجب علمه عن عباده مهما أُوتي من درجات

[375]- المجادلة 11.

العلم فلن يبقى على درجته إن لم يسع لتعميمه، فالذي يُسقِط العالِم من درجات علمه هو أن يحجب ما ظهر عليه من علم منه تعالى عن الذين يُراد لهم أن يكونوا خلائف في الأرض، وليتخذوا الرّسُل قدوة حسنة لهم في ذلك، فهم الذين ظلوا على أعلى الدرجات بما بذلوه من جهد في سبيل التبشير والدعاية والإنذار والتحريض على القول الحقّ والفعل الحقّ والسلوك الحقّ طاعة لأمر الله تعالى، {قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ}376. ولذلك، لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فالذين يعلمون يُظهرون ما أظهرهم الله عليه للعباد حتى يؤمنوا ويهتدوا إلى الحقّ والسبيل السليم. والذين لا يعلمون هم يجهلون وهم في حاجة لمن يظهرهم من الظلمات إلى النور ليروا الحقّ ويتبيّنوه من الباطل. قال تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ}377.

ومع أنّه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إلا أن العبد المؤمن هو الذي دائما يذكر ربّه بإيمانه فيما يقول وفيما يعمل، ولذا فالعلم الذي به يكسب العباد يجب أن يُدرك ويُبلغ بالحلال لا بالحرام، ولا ينبغي أن يغش المؤمن بعلمه أي إنسان في مشربّه ومأكلّه ومركوبه.

وفي الحديث: (فمن غشنا ليس منا) أي؛ لا ينبغي أن تغش بما عرفت من علم المكاسب والطعام الذي منه يتغذى البشر، ولا تغش الدواء الذي به يعالجون أمراضهم ومرضاهم، ولا تسهم بعلمك فيما يُدمر الخلق والخلائق، فالعلم النافع هو الذي ينفع النّاس ولا يضرهم، فإن كان الناتج من وراء العلم ضرر، فإن هذا العلم لا يعد بالعلم الحقّ، إنه العلم الباطل الذي يستوجب أن يُبطل بعلم الحقّ النافع.

---

[376]- الملك 26.

[377] – الزمر 9.

ومع أنّ الخليفة يسعى دائما لأن يستمد صفة العلم من العليم الحكيم، إلا انه يعلم ويؤمن بأنَّ ما أُتيه أو سيؤتيه من علم لم يكن إلا قليلا، مصداقا لقوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}378.

العليم اسم من أسماء الله الحسنى متضمن للعلم الكامل الذي لم يسبق بجهل ولا يلحقّه نسيان، العلم الواسع المحيط بكلّ شيء جملة وتفصيلا سواء ما يتعلق بأفعاله أو أقواله379.

قال تعالى: {عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى}380، فعُلم العليم محيط بكلّ شيء لأنه خالق كلّ شيء فهو أعلم به، ولأنّه حي قيوم انتفت عنه صفات النقص من سهو ونسيان وغير ذلك، ومن انتفت عنه هذه الصفات امتلك العلم التام المطلق، فعلى الخليفة أن يكون عارفا عالما يحيط من حوله يعرف عنهم دقائق الأمور، يسعى للذكرى وعدم النسيان والانتباه وعدم السهو لأن هذه الصفات هي ما تجعله عليما بالإضافة.

ولذا؛ فالصبر صفة وفضيلة تسري على الخالق والمخلوق الذي يُراد له أن يكون خليفة على الأرض، ولِنأخذ صبر الله على من خلق وكيف لهم أن يستمدوا هذه الفضيلة والصفة من الصبور جلّ جلاله:

1 - صبره عزّ وجلّ عن قوّة وقدرة مطلقتين:

378- الإسراء 85.

379- المجلي شرح القواعد المثلي، شرح القواعد المثلي في الأسماء والصفات الحسني، لابن عثيمين، ج 4، ص 2.

380 - طه 52.

فصبر الخالق المطلق على عباده تدعمه القوّة والقدرة لا الضعف والحاجة، فما حاجة الله لنا وهو المالك لكلّ شيء وبأمره (كن) يفعل ما يريد، قال تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}381، فمن يملك كلّ هذه القدرة بالتأكيد هو غنى عن كلّ ما خلق وصوّر، قال سبحانه وتعالى: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}382، فبما أنّه عزّ وجلّ الغني عنا فهو القوي القادر على كلّ شيء وبالتالي من يملك هذه القدرة المطلقة لا يمكن أن يكون صبره عجزا أو ضعفا أو حاجة، فهو المنزه عن النقائص والعيوب، ولا يمكن أن يكون إلا الكمال له في صفاته.

ولكن بالرّغم من قدرته المطلقة إلا أنّه صبورٌ على أخطائهم مُفسحا لهم المجال للرجوع عن ذنوبهم والتوبة منها فلا يظلم أحدا بسبب خطيئة غيره، ولهذا كان نوح مقتديا في صفاته بصفات خالقه تعالى لم يظلم أحدا ولم يكلّ ولا يمل في دعوته التي صبر على الدعوة لها ليلا ونهارا مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا}383.

ما أصبر نوح صلّى الله عليه وسلّم على قومه فقد انذرهم لأجلّ أن يتعظوا ويخشوا الله فيما يفعلون فلم يستجيبوا، ومع ذلك صبر على أنهم لم يستجيبوا لدعوته التي دعاهم إليها أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا،

381 - النحل 40.

382- لقمان 26.

383 - نوح 1 . 10.

ولقد استمرَّ فيهم داعيا ومبيّنا لهم خطورة كفرهم وشركهم بالله ومع ذلك لم يستجيبوا أيضا، أعاد الكرة أكثر من مرة لأجلّ أن يتقوا الله ويؤمنوا به فلم يستجيبوا، أنبأهم ليلا ونهارا بمغفرة الله لمن يؤمن منهم ويتوب ويتقي فازدادوا ضلالا وإصرارا واستكبارا ومع ذلك صبر ولم يستسلم لرفضهم واستكبارهم فازدادوا إصرارا وهكذا كلّما ازدادوا إصرار ازداد نوح صبرا.

وعليه فالأنبياء هم أكثر العباد صبرا، قال تعالى: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالحقّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ}384.

وهنا قد يتساءل البعض أو يكرر طرح السؤال الذي سبق طرحه من قبل وهو:

لِمن يقال أصبر؟

هل يقال أصبر للصبور أم يقال أصبر للعجول؟

الصّبور هو مصدر الصبر المطلق فلا يقال له بأي حال من الأحوال، أمَّا العجول فهو الذي لا يكون إلا على مستوى من مستويات الصبر التي تمتد من الأعظم إلى الأقل كما سبق تبيانه، ولذا في كلّ المستويات باستثناء المستوى الأعظم (مصدر الصبر) هم معرضون لأن يقال لهم أصبروا كما قال الله جلّ جلاله للذين آمنوا في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}385. أي؛ لا فلاح للمؤمنين إلا بالصبر والعمل وهو

384 - ق 39. 42.

385- آل عمران 200.

المرابطة ثباتا على الحقّ ودفاعا عنه، فالصبر والعمل يحقّقان الفوز ولذا فالصبر والإخلاص في العمل هما مفتاحي النصر والفلاح للمؤمنين الذين أسلموا وجوههم لله ربُّ العالمين.

2- صبره عن علم لا عن غفلة:

قال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}386، فالله تعالى ينفي عن نفسه صفة الغفلة والنسيان والتلاهي عن أيّ أمر، وصبره لا يعني أنه غافلا عما يفعله النّاس، وكذلك طول الفترة لا يعني نسيان أمرهم، بل صبره فيه تأخير لهؤلاء البشر وذلك لحكمته المطلقة جلّ جلاله وعلمه اللذان يقدّمان ويؤخّران الأمور حسب مشيئته وإرادته تعالى، فالغفلة تتنافى مع علم الله المطلق بكلّ شيء، وما صبره المطلق بعباده إلا لعلمه المطلق بما هو نافعٌ وضار بهم.

الصبور المطلق عزّ وجلّ يترك العبد أحيانا يسيء ويخطي في حقّه تعالى ومع ذلك يعطي الفرصة لمن خلق من العباد لعلهم يتوبوا إلى بارئهم فيغفر لهم من ذنوبهم ويرحمهم.

لقد صبر الله تعالى على قارون وأعطاه الفرصة فأعطاه من المال والخيرات ما لم يعطه لغيره، ولكنّه بدل أن يشكر الله على ذلك ويحمده تجبَّر وأخذه الغرور وجحد نعمة الخالق عليه، ومع ذلك تركه الله يزيد في غروره وظلمه وطغيانه وفقا لاختياره الإرادي وكأن ما ملك من خيرات هو مصدرها وليست من مالك الملك جلّ جلاله الذي يُمهِل ولا يُهمِل، قال تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوّلِي القوّة إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا

386- إبراهيم 42.

تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قوّة وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}[387]، فالعطاء هنا كان بخبرة الخبير المطلق لكي يفصل بين من تمنوا من نعم أنعمها الله على قارون ورأوا فيه الإنسان المحظوظ وبين من صبروا على عدم امتلاكهم لهذه النعمة، فالصبر فرّق بين الفريقين وخبرة الخبير المطلق أوضحت هذا الفرق عند حلول العقاب ووقوع الجزاء عليه في الدنيا، ولا يستطيع أن يقوم بذلك إلا من كانت له القدرة الكافية لتدبير الأمور بخبرة وحكمة.

ولأنّ الصبر على الحقّ صفة حميدة فقد تعلّمه موسى على يد العبد العالم الذي كلّف بتعليمة الصبر وأكسبه علم التأويل ومن قبله كان نوحا متصفا بالصبر لأجلّ أن يُعطي لقومه الفرصة بعد الفرصة لعلهم يستغفرون ربّهم ويتوبون إليه، مصداقا لقوله تعالى: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا}[388]، وذلك لعلم نوح أنَّ الخالق عزّ وجلّ بخبرته

[387]- القصص 76 . 82.

[388]- نوح 10.

المطلقة يعلم أن من عباده من هو قابل للتوبة والرجوع عن الخطأ إذا أتيحت له الفرصة لذلك، قال سبحانه وتعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}[389].

ولأنّ صبر الصبور المطلق ترافقه الحكمة المطلقة فكان ذلك علاج لأمور كثيرة، فلله المثل الأعلى، وقد يكون من بيننا من يدَّعي الصبر ولكنه في حقّيقة أمره لا يرى الأمور أبعد من أنفه، فلا يستطيع أن يحسب الأمور بشكلّ صحيح وواضح، فلا يصل لنتيجة مع نفسه أو مع غيره ترضيه وتجعله راضيا أو مدركا، ولكنّ الصبور المطلق هو الذي يرى ويحسب ويدقق ويدرك الأمور دون أن تأخذه العجلة والتسرع، لذلك لابدّ أن يجتمع في نفس خليفة الله الصبر الممزوج بالحكمة والوعي التام والعلم المفيد الذي يدعم الحكمة في الإنسان.

فالإنسان الحكيم تجده يعالج أموره من زوايا عدة فلا يضعها تحت زاوية واحدة فقط، بل إنه يقلِّبها حيث يجد الأفضل والأنسب لها، إذن فهو هنا يعالج المشكلّة بحكمة ولابدّ أن يصل إلى أفضل الحلول والنتائج، فقد يضطر الإنسان أحيانا في المجتمع أنّ يقف أمام مشكلّة ما بعد أن يستنفد جميع المحاولات لعلاجها والوصول إلى حلّ واضح وإيجابي، فلابدّ للإنسان أن يصبر أكثر وأكثر لأن علاج كثير من المشاكلّ والقضايا يكمن في المزيد من الصبر مع القبول بإعطاء الوقت المناسب لمعالجاتها وحلولها، فتأخذ المشكلّة وقتها وتبدأ بالانتهاء، وبذلك تبدأ هذه المشكلّة بالتلاشي والانسحاب بعد أن كانت ذات تأثير كبير على الأنفس والعلاقات بين بني آدم صلّى الله عليه وسلّم.

---

[389]- الشورى 25.

فقد خلق الله الصبر ليكون عونا للمؤمن فيرضى بنصيبه ويعلم بأنّ ما من شيء يصيبه إلا فيه خير لا يدركه هو بعقله المحدود، فالصبور سبحانه وتعالى لا يمكن أن يظلم أحدا من عباده بل هو العدل في حكمه وبين خلقه، فلا يصيب المؤمن إلا ما فيه الخير، ولذا فرحمة الله في صبره تتجلّى فيما يلي:

أ. عدم تعجيل العقوبة على العصاة والكافرين:

تبارك في علاه يتجلّى لنا المعنى العظيم والعميق لهذا الاسم في أنّه لا يعاجلّ في عقابه وانتقامه كلّ مستحقّ لهما، مهما كانت درجة الخطأ والجحود، فقد وصل الأمر ببعض البشر أن ينكروا وجوده وبعضهم يشرك به وبعضهم أكثر من افتراءاته، قال سبحانه وتعالى: {قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ}390، وبالرغم من ذلك فقد أرسل الصبور جلّ جلاله الرّسُل والأنبياء لهداية أقوامهم وشعوبهم وأممهم وإرجاعهم للحقّ الذي عليه يفترون.

وقد وصلت درجة كفر الكفرة إلى مرحلة يستحقّون معها أن يسخطهم الله في حينها وينزّل عليهم عقابه في وقتها، قال تعالى: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ}391، وكذلك قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ}392، فالخالق عزّ وجلّ قادر على أخذ الكفار في أي وقت يشاء ولكن

[390]- يونس 68، 69.

[391] - الرعد 32.

[392]- الأعراف 182، 183.

حكمته المطلقة ورحمته وصبره الذي هو صفة مطلقة له أخّرَ عقابه في مُعظم الأمر وفي بعضها القليل الذي منه حال قوم نوح وعاد وثمود وقارون الذين جعلهم دروسا للناس لعلهم يتعظون، ومن يتمادى في كفره فإنّ عذاب جهنم سيكون له بالمرصاد، ولن يغفر لهم ولن يعفو عنهم بصبره، بل يمهلهم الوقت فمن رجع للحقّ كان له الفوز والنجاة، ومن لم يرجع فإن الله شديد العقاب.

ب – خلق الفرص للتوبة لمن أذنب:

هناك الكثير من المسلمين الذين يقترفون الذنوب والكبائر في حياتهم، ويمضي بهم العمر وهم غافلون عن ضياع حياتهم سدىً، ومع ذلك فإنّ الرّحيم بصبره عليهم وعدم تعجيل عقابه لهم على ذنوبهم يمنحهم الفرص المتكررة للتوبة والتكفير عما صنعوه، مصداقا لقوله تعالى: {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}[393]، فبصبر الصبور المطلق يريد الخالق أن يُصحِّحَ من سير العباد ويغفر لهم بحبه الذي يمنحهم الوقت لمراجعة أنفسهم والعودة لطريق الحقّ والصواب، فيأتي صبر الخالق عليهم في مواجهة إغراءات الدنيا ووسوسة الشيطان من الإنس والجن، قال تعالى: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[394]، وكذلك قوله عزّ وجلّ في كتابه الكريم: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ

[393] – النساء 27، 28.

[394]– المائدة 39، 40.

يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}395، فكم من ناجٍ من العذاب بسبب صبر الله تعالى عليه مانحا له الفرصة لتغيير مسار حياته أحيانا بكلّمة أو موقف أو فعل أو ابتلاء فينجو من عذاب الحريق بالعودة عما كان فيه والتوبة من ذنوبه.

ج – ضرب الأمثال للعباد بصبر رُسُله:

من كرمه تعالى على عباده أن أمرهم بالصبر علاجا لما قد يتعرض له الإنسان من ضيق وبلاء بأشكاله المتباينة، وقد جعل الله عزّ وجلّ الرّسُل صلوات الله وسلامه عليهم أمثلة للصبر على الابتلاءات والمحن، فما من رسولٍ أو نبيٍ إلا وكان الصبر من صفاته، فالصبر فضيلة من الفضائل التي لجأ إليها المصطفين الأخيار في مشوار دعواتهم ومسيراتهم وتبليغهم لرسالات الخالق عز، قال تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}396، وقوله تعالى: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا}397، وكأن أمر الله بالصبر لرُسُله علاجا يتعامل به مع الكفرة والعاصين، وليس مجرد توقيت فيه تأخير أو مماّطلة، وهو عبارة عن مبدأ اعتمد عليه الرّسُل والأنبياء في تحمُّل معاناة تبليغ الرسالات المكلّفين بها، ولولا الصبر ما بلغت الدعوة إلى توحيد الله هذا المدى بإذنه تعالى، فصبرهم كان سلاحا قويا يدعم فيهم شعور الفوز والنصر ولذا فكان صبرهم على الشدائد والأذى حتى من أقرب النّاس إليهم نابعا من حبهم لله سبحانه وتعالى وحرصهم على الفوز برضاه مع التزامهم الكبير بأمره واصطفائه لهم أنبياء ورُسُل مكرّمين، فكان مبتغاهم

[395]- التوبة 102.

[396] – النحل 127، 128.

[397]- المزمل 10.

مرضاته عزّ وجلّ، قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}398.

لذا؛ فعلى خليفة الله أن يكون حبّه لله دافعا لصبره، محتذيا بالصّالحين والأنبياء والرّسُل من قبله، فلا ينكّسِر أمام حزنه أو يستسلم أمام فشله، أو يضعف أمام مصيبة أو بلاء قد يحلان به، بل عليه أن يستحضر الصابرين في سبيل الله ليشد من عزيمته وأن يكون على يقين بأن الله يزيد من محبته لعباده الصابرين، فيكون مضرب مثل بصبره فلا يستطيع كائن من كان أن يخترق هذا الحصن المنيع الذي لا يبنيه ولا يعمّره إلا الرضا والقبول بقدر الله ولا يأتي هذا الرضا إلا بحبه جلّ جلاله.

حديث الفتون:

شكلّت حياة الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم ومن بينهم النبي موسى صلّى الله عليه وسلّم صورة متغايرة لما يكتنف خواطر وتوجهات وإدراكات النفس البشرية، ذلك أن التسلسل الفكري يرنو إلى أحداث الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم بعين التعظيم والتبجيل؛ لان الذي أرسلهم هو الله تعالى، وهذه السمة الاعتبارية تتراءى لهم في كلّ حدث يحدث للأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم. ونحن إذ نفتح هذا الجانب نستهله بقول الله تعالى: {إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى}399. هذه الآية هي المعبر الذي نقف من خلاله على أحداث موسى صلّى الله عليه وسلّم من البداية إلى النهاية ضمن

398 – آل عمران 142.

399 - طه 40

حركة لولبية تريد الغوص في أحداث قُدر لها أن تكون شاهدا على سيرة عظيمة تمركزت فيها أحداث عظام أفرزت دروسا وعبرا لكلّ بني آدم.

والتساؤل المهم الذي يطرح في هذا المقام، وهو تساؤل لا يخص سيرة موسى صلّى الله عليه وسلّم بل هو يخص كلّ الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم ألا وهو:

لماذا الفتنة؟

هل الأنبياء بُعثوا من اجلّ أن يفتنوا؟

هل مهمة الأنبياء تقتضي أن يتعرضوا للفتنة؟

هل الفتنة مقصودة؟

هل في حياة الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم ما يكون منها صور مكررة في حياة النّاس؟

هل الفتنة ترافق داعي الله تعالى؟

إنّ الحديث عن الفتون ورد في قوله تعالى: {وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا} ضمن الآية الواردة من سورة طه، وكذلك ورد في سنن النسائي، أنا عبد الله بن محمّد أنا يزيد بن هارون أنا أصبغ بن زيد أنا القاسم بن أبي أيّوب أنيّ سعيد بن جبير قال سألت عبد الله بن عباس عن قول الله عزّ وجلّ لموسى صلّى الله عليه وسلّم وفتناك فتونا فسألته عن الفتون ما هو قال استأنف النهار يا بن جبير فأنّ لها حديثا طويلا فلمّا أصبحت غدوت على بن عباس لا نتج منه ما وعدني من حديث الفتون فقال تذاكر فرعون وجلّساؤه ما كان الله عزّ وجلّ وعد إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكا قال بعضهم إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك ما يشكون فيه وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب عليهما

السلام فلما هلك قالوا ليس هكذا كان وعد إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم فقال فرعون فكيف ترون فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالا معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولودا ذكرا إلا ذبحوه ففعلوا ذلك فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم والصغار يذبحون قالوا توشكون أن تفنوا بني إسرائيل فتصيروا أن تباشروا من الأعمال والخدمة الذي كانوا يكفونكم فاقتلوا عاما كلّ مولود ذكر فيقل نباتهم ودعوا عاما فلا تقتلوا منهم أحدا فينشأ الصغار مكان من يموت من الكبار"400 هذا النص هو جزء من حديث طويل ورد عن ابن عباس فيه تفصيل عن الفتون، هذا الحديث و إن لم يرد عند بقية المحدثين إلا أننا نعتقد أنه هو المقصود من الآية الكريمة التي ورد فيها قول الله تعالى: {وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا}وذلك لسببين:

السبب الأوّل: أنّ الصّيغة التي ورد ت في القرآن الكريم تدلّل من خلال السياق أن الفتنة لم تكن واحدة إنما هي أكثر من فتنة، فقد سبق القول الشريف فتنتان ممّا يدلّ على أنّ الصيغة التي وردت في النص فيها إطلاق العدد غير المقيد.

السبب الثاني: أنّ ما ورد عن ابن عباس فيه تفصيلات حياة موسى وبخاصة الأحداث الجسام التي تدخل تحت مسمى الفتنة المتحقّقة.

إنّ المتتبع لحياة النبي موسى صلّى الله عليه وسلّم من بدايتها إلى نهايتها، يلتمس أن هذه الحياة تتطلب تأملات عدة، إذ فيها تشابك فكري لكنه غير مشتت بل يصب في البحث عن مكنونات كلّ الأحداث التي وقعت، وفي الوقت نفسه أفضت إلى فتح أمور عقدية أفصحت عن قدرت الله تعالى في تسيير الأحداث وفق إرادته

400 - السنن الكبرى للنسائي، ج 6، ص 896 – 400.

ومشيئته، فالبداية كانت مع أم موسى، إذ يقول تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ}401 هذه هي بدية الإفصاح عن بداية فيها فعل لم يرد في ذهن أم موسى، والتساؤل الذي يطرح هنا:

هل هذا الفعل ورد في فكر أم موسى؟

كيف يكون الإلقاء في النهر فيه حفظ لولدها؟

هل أن الماء الذي يغرق النّاس فيه حفظ؟

هل أن هذه المفارقة العجيبة فيها لقاء آخر؟

هذه الفتنة إن صح وصفها كانت فتنة دائرية، إذ بدأت من نقطة وعادت إلى نفس النقطة التي انطلقت منها، أي أن الإلقاء تم من بين أحضان أم موسى عليها السلام، وعاد موسى صلّى الله عليه وسلّم إلى هذه الأحضان، فهذا الفتون الإيجابي المعني به الأنبياء وهو التخليص من الشر والأذى لأداء المهمة التي جبلوا عليها، فهذا الشّكل الدائري فيه خطوط رافقته وواكبته على مستوى الغياب وعلى مستوى الحضور، فأخته صلّى الله عليه وسلّم تابعته ضمن سياق متصل فيه نبرات وصور الأخوة الحقّيقية التي نبعت بين هذه الأحداث، والتي قدر لها أن تكون ضمن سياق مترامي الأبعاد والتوجهات، فقد واكبت أخته طوفان الصندوق ضمن حركة دؤوبة أرادت لها المشيئة الإلهية أن تستمر، وأن تتوقف أمام قصر فرعون ليدخل موسى صلّى الله عليه وسلّم من هذه البوابة التي يعجز أي إنسان أن يدخل منها، ولكنه دخلها ليلتقطه

[401] - القصص 7 – 8.

حضن زوج عدوه ويتنفس الصعداء ثم يقابل بعد ذلك عدوه الذي بحث عنه سنين طوال بين الآلاف الأطفال لكنه لم يجده، وهنا تكتمل نصف الدائرة ليبحثوا لموسى صلّى الله عليه وسلّم عن مرضعة بعد أن عجزوا عن إرضاعه، فتأتي أخته لتدلّهم إلى من يرضعه، إذ يقول تعالى: {وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حقّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}402 وعاد موسى صلّى الله عليه وسلّم إلى أمه كما وعدها ربّها تبارك وتعالى، فهذا هو الفتون الخاص بموسى، فخلصه من أذى فرعون وأوصله إلى حضن أمه .

عليه يمكن القول أن هذا الفتون فيه دروس وعبر منها:

بيان التعلق بالله تعالى والإيمان به.

الخضوع لأمر الله تعالى.

الصبر على البلاء.

الاحتساب لله تعالى.

اليقين بحسن العاقبة.

الإنسان لا يملك شيء فهو وما يملك لله تعالى.

الإدراك الواعي بحقّيقة الأمور في التبصر في مكنونات الأمور دون ظواهرها.

---

[402] - القصص 11 – 13.

وتتعدد الفتنة فلم تبقى عند حد معين لتكتمل حياة موسى صلّى الله عليه وسلّم، بل برزت واقعة جديدة أشرف عليها موسى صلّى الله عليه وسلّم من شرفات ارتباطه ببني إسرائيل، إذ يقول تعالى: {وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحيم قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ}[403] هذه الفتون جعلت من موسى صلّى الله عليه وسلّم خائفا يترقب، إذ يقول تعالى: {فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ وَجَاءَ رَجلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[404] وهنا تتفاعل الأحداث وتستمر لتنقل موسى صلّى الله عليه وسلّم إلى ارض جديدة فيها:

الاستقرار.

الأمان.

التفكر.

[403] - القصص 15 - 17

[404] - القصص 18 - 21

الاستبصار.

التأمل.

التهيؤ.

البيان.

الإدراك.

فالفتون وان كان فيها قتل وهو غير متعمد إلا أن نتائجها أفضت إلى الابتعاد عن العدو، ونحن نعتقد أن هذه الواقعة أجلّت المواجهة مع فرعون رغم حتميتها.

التقى موسى صلّى الله عليه وسلّم بالفتاتين، فشكلّ اللقاء أفضى إلى أن يتزوج من واحدة منهما، وذلك ضمن عرض كريم عرضه الشيخ عليه، وهنا أيضا فتنة فقبول العرض أو رفضه مرتبط بإيقاع الحياة التي يعيشها موسى صلّى الله عليه وسلّم، فكان القبول مدعاة لتساؤلات عدة منها:

لماذا قبل موسى صلّى الله عليه وسلّم العرض؟

هل في القبول استدراك لأمور فاتته؟

هل في القبول تهيئة للقادم من حياته؟

هل في القبول بداية لعهد جديد في حياته؟

إنّ استنطاق هذا الحدث من خلال فاعلية الأحداث ينبني على الفتنة المتحقّقة هنا، إذ حملت معها تداعيات جديدة كانت عل مستويين:

المستوى الأوّل: الخروج من دائرة المتوقّع (فرعون وجنوده).

المستوى الثاني: الدخول في دائرة غير المتوقّع (الشيخ وأرضه).

هذه الأرض تكمن خارج دائرة المتوقّع، ممّا يفضي بموسى صلّى الله عليه وسلّم من تناسي الدائرة الأوّلى ولو بشكلّ مؤقت، والتشبث بدائرة غير المتوقّع التي سيكون منها الانطلاق نحو دائرة المتوقّع مرة أخرى، وذلك:

لمجابهتها.

لتفتيتها.

إعادة تشكيلها.

محاولة إصلاحها.

إنقاذ ما مطلوب إنقاذه.

فالفتنة هنا خدمت الدعوة ضمن حركة استباقية أُريد لها الإعداد:

النفسي.

الذهني.

المعرفي.

الدعوي.

الإيماني.

لهذا، كان اللقاء مع الشيخ، والزواج من إحدى ابنتيه فيه تمظهرات عدّة أكسبت دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم تجلّيات واضحة المعالم، وذلك ضمن شطر حياة موسى صلّى الله عليه وسلّم إلى شطرين، فقبل

هذه الفتنة كانت حياة موسى صلّى الله عليه وسلّم مختلفة وبعد الفتنة أيضا مختلفة، فالنبوّة أخذت شكلّها التبليغي، فكلّ المراحل السابقة لحياة موسى صلّى الله عليه وسلّم لم يتحقّق فيها الشّكل التبليغي، فكلّها كانت عبارة عن أشكال مختلفة للنبوة لم يطرح فيها الشّكل التبليغي إلا حين مغادرته مع أهله من أرض الشيخ.

إنّ الفتن التي تعرض لها موسى صلّى الله عليه وسلّم، ليس فيها تعالق أو ارتباط إنساني عام، ذلك أن البشر عامة يخرجون من دائرته التي لا تسعهم، وليس فيها باب واحد يدخلون من خلاله إليها، فسمة النبوّة ابعد من أن يتعلق بها إنسان ذو إدراكات محدودة قابعة في تشكلّه الإنساني الذي لا يرتقي إلى منزلة الأنبياء.

وتدخل الفتون شكلّا آخر ضمن صورة مرئية تفيض:

وعيا.

إدراكا.

جذبا.

خوفا.

إرهاصا.

تفنيدا.

مغايرة.

إيمانا.

ذلك هو يوم الزينة ففيه الفتنة التي تسربلت بين جوانح الدعوة، وارتمت بين أحضان ذلك اليوم المشرق لتجد صداها في عقل ووعي من

شاهدها، ضمن أطراف اختلفوا في وعيهم وإدراكهم ونظرتهم وتصورهم ، فكلّ واحد يرجو أن يكون هو الفائز في هذا اليوم، ذلك أن الوعي الجمعي يبحث عن حتمية الخروج من هذا اليوم بأيّ صورة وبأيّ شكلّ، فالنبي موسى صلّى الله عليه وسلّم دخل في يوم الزينة وهو ضمن دائرة المتوقّع ذلك أن الذي سيحصل هو في دائرة المتوقّع، إذ يقول تعالى: {فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجلّ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النّار لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ}405 هذا الموقف قبل يوم الزينة فالعصا تحولت إلى أفعى، بمعنى أن المشهد تحقّق أمامه وهو أمر خارج دائرة المتوقّع، فان تكرر سيكون داخل دائرة المتوقّع، وهذا ما تحقّق في يوم الزينة، إذ يقول تعالى: {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أوّل مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}406 ففي هذا اليوم كانت الفتنة ضمن شكلّ علني تفتح أبعاد الدعوة، ليتقابل الأمر المطلوب أمام فضاء واسع يلملم ما هو متشظي، ويصلح ما هو فاسد وبعيد عن دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم.

---

[405] - القصص 29 – 31.

[406] - طه 65 – 69.

هذا الامتحان أو الاختبار كان لوعد في إدراك موسى صلّى الله عليه وسلّم، فالخروج منه بهذه النتيجة أكسب الدعوة بعدا جديدا تمثل في دخول السّحرة في دين موسى صلّى الله عليه وسلّم، وانفصامهم عما كانوا عليه، إذ يقول تعالى: {فَأُلْقِيَ السّحرة سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجلّكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ ربّه مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصّالحاتِ فَأوّلئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى}407.

فتنة العجل:

إنّ فتنة العجل فيها انشطار للانتظار الذي يرجى منه تمام الدعوة ضمن الشّكل التبليغي، فالألواح تمثل نقلة جديدة في الدعوة، إذ تحول الخطاب من خلالها إلى نص مدون بعد أن كان نصا شفهيا، فصورة بعض بني إسرائيل تهشمت كلّيا بعد أن وجدهم يعبدون العجل، إذ يقول تعالى: {يسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجل مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا}408.

407 - طه 70- 76.

408 - النساء 135.

وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعجل سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ ربِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ وَالَّذِين عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ}409.

إنّ منظر عبادة العجل انطق غضب موسى صلّى الله عليه وسلّم وجعله يتكئ على تصرف فيه دلالة:

الرفض.

الاستهجان.

الحيرة.

النسيان.

فكان الغضب سيد الموقف، ففيه كلّ الدلالات التي يتبين من خلالها أن موسى صلّى الله عليه وسلّم دخل فتنة جديدة:

كيف يتصرف مع هذه الفتنة؟

من يخاطب؟

من يعاتب؟

من يستفهم؟

---

409 - الأعراف 152 – 155.

من يتحمل هذا الوزر؟

كيف يعيد بني إسرائيل إلى ما قبل هذا الموقف؟

كيف يصحح هذا الموقف؟

كيف يستدرك هذا الموقف؟

من أين يبدأ؟

هل يبدأ بالسامري؟

هل يبدأ ببني إسرائيل؟

هل هناك طريقة أخرى لكي يبدأ؟

إنّ هذه التساؤلات في هذا الموقف تقف عند حاجز الغضب، فبزواله تبدأ استنطاقات موسى صلّى الله عليه وسلّم لأخيه فهو الموكلّ من بعده فيأخذ بلحية أخيه، إذ يقول تعالى: {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعجلتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}410والأخذ هنا فيه دلالة:

الحرص.

الخوف.

هول المنظر.

---

[410] - الأعراف 150، 151.

الغيرة على الدين.

وهنا، تبدأ الاستدراكات النبوية في معالجة الموقف ضمن البحث عن رأس الفتنة الذي صاغها وفق منظور بدائي فيه تقاطيع الكفر والإشراك بالله تعالى. هذه النقطة مهمة جدا ذلك أن هذه الفتنة قد تتكرر بأشكال مختلفة، إلا أنّ طريقة المعالجة هي واحدة، ذلك أنّ الرأس في كلّ الفتن يجب إما أن يدخل في دائرة الإصلاح، وإمّا أن يدخل في دائرة العقوبة المتحقّقة من خلال فعله، فالنسق الذي تتابع لنا من آدم صلّى الله عليه وسلّم يتمثل أمامنا في هذا الموقف، فقصة إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم انبرى فيها موقف الفتى الذي هشم صورة الكفر والإشراك بالله تعالى، فالفتى خاطب الراس وأدحضه، ورمى بين يديه مفاتيح الإيمان التي يكون من خلالها تحويل هذا الجمع الهائل بلحظات معدودة إلى حالة جديدة مطلوبة من قبل رب هذا الفتى، إذ يقول تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي ربّه أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}411، فموسى صلّى الله عليه وسلّم تحدث مع السامري لأنّه عرف أن كلّ ما تحقّق كان بسبب السامري لذلك عمد إلى معالجة هذه الشخصية والفتنة بطريقة تؤدها وتقتلعها من جذورها، فعن السامري يقول الله تعالى: {قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرّسول فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ

---

[411] - البقرة 258.

الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كلّ شَيْءٍ عِلْمًا}412 أمّا الإله وهو العجل فقد حرقه ونسفه في اليم، هذا الفعل فيه محو لكلّ آثار الكفر والإشراك، حتى لا يبقى لهم أي اثر وهذا ما فعله الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم حين فتح مكة، فقد كسر كلّ الأصنام التي فيها ولو تحرق لحرقها، فقد جعلها جذاذا كما جعلها نبي الله إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم.

ذهبت هذه الفتنة وأصبحت في غياهب الماضي إلا أن ما حدث فيها حمل دلالات واضحة، يتبين من خلالها:

كيف تعامل موسى صلّى الله عليه وسلّم معها؟

وكيف خرج منها منتصرا؟

الفتنة بين موسى والعبد الصّالح:

إنّ هذا السياق القرآني هو دعوة واضحة للاعتبار والاتعاظ، فالأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم لم تكن دعوتهم تسير دون عقبات أو إرهاصات، ذلك أن إرادة الله تعالى اقتضت أن تكون بهذا الشّكل، فهي صورة واضحة ينظر لها الدعاة بعين:

- الترقب.
- التأسي.
- التبصر.
- الإدراك.
- البيان.

---

[412] - طه 95 – 98.

- الاتعاظ.

موسى والسامري:

لم يكن السامري أحد أتباع موسى صلّى الله عليه وسلّم ثمّ ارتدّ ونقض ميثاقه فحسب، وإنما كان يمثل قضية من أعظم قضايا الصراع بين الخير والشر وما ينضوي تحت ذلك من جزئيات كثيرة منها:

التوحيد والشرك

الإيمان والكفر

الحقّ والباطل

الهدى والضلال

المعروف والمنكر

الحسن والسيئ

وعلى كثرة الذين ارتدوا بعد ذهاب موسى لميقات ربّه في قوله تعالى: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ ربّه أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}413.

إلا أنّ الذي برز من بين هؤلاء كان يمثل محور الشر الذي دارت حوله أحداث الدعوة إلى الشرك ومحاولة إضلال النّاس وإبعادهم عن طريق الحقّ وسبيل الهدى الذي ارتضاه الله لعباده لما فيه من خير الدنيا والآخرة، فقد كان السامري رأس الفتنة بعد مغادرة موسى صلّى الله عليه وسلّم لميقات ربّه

---

[413] - الأعراف 142.

لقد واعد الله موسى عليه الصّلاة والسّلام على ميعاد ضربّه له ليلقاه بعد أربعين يوما لتلقي التكاليف، وهذه التكاليف في العقيدة لابدّ لها من:

تهيؤ

استعداد

إرادة

ثم الفعل

لقد أعدّ موسى صلّى الله عليه وسلّم لهذا الأمر عدته:

. اختار سبعين رجلّا:

قال تعالى: {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجلّا لِمِيقَاتِنَا}414.

. ترك على من تبقى منهم أخاه هارون خليفة عنه:

قال تعالى: {وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}415.

. انطلق إلى ميقات ربّه

قال تعالى: {وَمَا أَعجلكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى قَالَ هُمْ أوّلاءِ عَلَى أَثَرِي وَعجلتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى}416.

414 - الأعراف 155.

415 - الأعراف 142.

416 - طه 83- 84.

إنّ موسى صلّى الله عليه وسلّم لم يترك أمر القوم على عواهنه ولم يلقِ لهم الحبل على الغارب، وهذا شأن النبوّة في:

. الإعداد

. التنظيم

. الاستخلاف

. القيام بالواجبات

. منح الحقّوق

. الاطمئنان على الأتباع

ولذا؛ فإنَّ موسى صلّى الله عليه وسلّم انطلق إلى ميقات ربّه وهو قرير العين مطمئن القلب، لأنه فعل ما ينبغي فعله قبل أن يترك من قومه من ترك لميقات ربّه.

غير أنّ قومه من بعده أضلهم السامري، ولم يجدِ كلّ ما فعله موسى صلّى الله عليه وسلّم من أجلّ بقائهم على التوحيد حرصا عليهم.

هنا تبرز مسألة مهمة وهي مشيئة الله تعالى حيث قال: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}417.

لذلك وقعوا في الفتنة التي كان رأسها السامري الذي زين لهم الشرك والضلال، ذلك أنّ الفجور ومن يمارسه يحاول دائما أن يبسط الكبائر ويتغافل عن الصغائر من الذنوب، ويحيي فكرة كانت قد اندثرت أو أنّها رفضت من قبل، ذلك أن بني إسرائيل عندما أنجاهم الله تعالى زين لهم

---

417 - القصص 56.

موقف القوم الذين يعكفون على أصنام لهم واستحسنوا ذلك، ولم يكن السامري ليطرح عليهم فكرة اتخاذ إلهٍ لو لم يكن لديهم التهيؤ لذلك والاستعداد له، حيث نجد هذا الموقف متمكنا من نفوسهم عندما طلبوا من موسى صلّى الله عليه وسلّم أن يوافقهم على الشرك، على الرغم من أنهم حديثي عهد بالمعجزة الإلهة التي أجراها الله تعالى على يد نبيه موسى صلّى الله عليه وسلّم بعد أن أنجاهم من فرعون وجنوده عندما جاوز بهم البحر وأهلك فرعون وجنوده حيث نقف على ذلك في قوله تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}418.

فموسى صلّى الله عليه وسلّم نهاهم عن ذلك وبين لهم ضلال هؤلاء وقبح فعلهم وميز لهم الهدى من الضلال وأن ما يفعله هؤلاء هو الكفر بعينه وبين لهم ذلك من وجوه:

أنهم مهلكون بفعلهم هذا

عملهم باطل

هم يعبدون الأصنام

أنتم على الحقّ

لأنّكم تعبدون الخالق

لا يقرهم على عبادة المخلوق

---

[418] - الأعراف 138- 140.

المخلوق لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا

النفع والضر بيد الله تعالى

أنتم تعبدون الله فأنتم على الحقّ

ولذا فإنّنا نرى أنّ لديهم نزوعا نفسيا واستعدادا لتقبل الشرك، وهذه النزوع والاستعداد وقف عليه السامري وأجال فكره فيما يراودهم، لذلك بدأ يتحين الفرص لطرح القضية من جديد، وهو دليل على أنه لم يكن رجلّا عاديا، بل كان مميزا بغير مرضاة الله بمعنى أنّه لا يعلم ما يريد وإنّما كان:

يفكر

يخطط

يعرف

يعلم نفسيتهم

أدرك نزوعهم

وقف على استعدادهم

يتحين الفرص

ولذا فقد اختار الوقت المناسب لطرح القضية، فموسى صلّى الله عليه وسلّم هو قطب الرحى الذي يدور حوله قومه في هذه القضية وفي جميع القضايا الأخرى من:

هارون

بني إسرائيل

السامري

قارون

فرعون

السّحرة

وكلّ ما جاء في قصة موسى من أحداث وشخصيات تنقسم على فئتين:

الأوّلى: إمّا أن تؤوب إليه في التوجيه منه بما هو حقّ أو الاستشارة منهم من أجلّ النصح واستبيان الرشاد

الثانية: تتمثل في المواجهة والمصادمة لحسم الموقف مع الخصوم.

ولذا فإنّ هارون صلّى الله عليه وسلّم لم يخرج عن الفئة الأوّلى كونه وزيرا قال تعالى: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي}[419].

لذلك كانت نظرة قومه ومعهم السامري إلى هارون على أنه واحد منهم لا يرقى إلى مرتبة موسى من وجهة نظرهم، وإن السامري أدرك ذلك في نفسية بني إسرائيل لأنه:

هو واحد منهم

يعيش معهم

يعرف طريقة تفكيرهم

علم مكانة موسى في نفوسهم

علم مكانة هارون

[419] - طه 29- 30.

استنتج أن هارون لا يتمتع بمكانة موسى في بني إسرائيل

هي فرصة مواتية لما يريد

لقد طلبوا ذلك من موسى من قبل

موسى لم يوافقهم في طلبهم

موسى ردّهم إلى الصواب

موسى غير موجود الآن

طرحت القضية في غياب موسى

الأمر مع هارون ربما يكون أسهل

إلى أن يعود موسى تكون الفتنة قد استقرت

هذه الأسباب مجتمعة دفعت السامري إلى التصريح بما كان يضمر: {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ}[420].

لقد فعل السامري ما فعل من إضلال بني إسرائيل ظنا منه أن غياب موسى سوف يتيح له الوقت الكافي لإغراق قومه في الشرك والضلال، غير أن الله تعالى أنبأ موسى صلّى الله عليه وسلّم بطريقة استفهامية (وهو أعلم بهم) أنهم قد ضلوا من بعد موسى بما صنع السامري فقال تعالى: {وَمَا أَعجلكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى قَالَ هُمْ أوّلاءِ عَلَى أَثَرِي وَعجلتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى}[421].

تعجل موسى صلّى الله عليه وسلّم متسرعا إلى الميقات، ليظفر بمناجاة ربّه، فسأله الله عن السبب الذي أعجله بالحضور دونهم، وما

[420] - المدثر 18- 20.

[421] - طه 83- 84.

كان ذلك إلا رغبة في لقاء الله تعالى ورضاه ومحبة له، علما أنه أعد للأمر عدته خوفا عليهم من الفتنة والضلال فقد استخلف عليهم هارون وتركهم وهو آمن عليهم لأنّه:

استخلف عليهم وزيره هارون

هارون أخو موسى وهو نبي

منهم على جادة الصواب

تركهم على طريق الهدى

على سبيل الرشاد

لذلك كان صلّى الله عليه وسلّم واثقا من نفسه، دقيقا في إجابته وفق ما تركهم عليه (هم أوّلاء على أثري).

فموسى صلّى الله عليه وسلّم لم يراوده شكّ في أنهم يؤولون إلى ما آلوا إليه من بعده لأنه تركهم على أثره من الخير والصلاح:

توحيدا

اقتداءً

إتباعا

هدى

عبادة

فهذا ما تركه فيهم من أثر في عقيدة التوحيد، وإن ذهب البعض إلى أنهم قريبون منه لاحقّون به اقتفاء لأثر المكان الذي ذهب إليه، وهو بعيد كلّ البعد لأنّ موسى صلّى الله عليه وسلّم قال لأخيه (اخلفني في

قومي وأصلح) ولم يقل له اتبعني في قومي حتى يقتفوا أثره ويتبعوه إلى المكان الذي قصده، وأغلب الظن أنّه لم يخبرهم بالمكان الذي يريده وإن اختار منهم سبعين رجلًا فليس بالضرورة أن يعلمهم مكان الميقات.

ولذا، كانت المفاجأة لموسى صلّى الله عليه وسلّم عندما أعلمه ربّه خلاف ظنه بهم ممّا افتتنوا به قال تعالى: {قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السامري}422.

فقد فوجئ موسى صلّى الله عليه وسلّم بموقف قومه بعد أن كان عجلان فرحا بلقاء ربّه، وقد تهيأ واستعد أربعين يوما، ليلقاه ويتلقى الرسالة والألواح التي تحدد لهم شريعتهم في أمور دينهم ودنياهم وتخرجهم من الظلمات إلى النور باستخلاصهم من الذل والاستعباد ليجعل منهم أمة ذات رسالة وتكاليف.

ويبدو أنّ الاستعباد والذل والتصاغر الذي اعتادوا عليه ونشؤوا فيه ودرجوا في مسالكه في ظل الوثنية عندما استعبدهم المصريون كان ذا أثر كبير في نفوسهم حيث:

أفسد طبعهم

أضعف استعدادهم

لم يعتادوا احتمال التكاليف

ليس لديهم الصبر على مقاومة هوى النفس

عدم الوفاء بالعهد

عدم قدرة الثبات على الموقف

---

422 - طه 85.

الحنين الدائم إلى الاستعباد

كلّ ذلك ترك في كياهم النفسي اضطرابا يدفعهم بالحنين إلى ما كانوا عليه على الرغم من المعجزات التي حصلت أمامهم وآمن بها علية القوم من الذين كانوا يناصرون فرعون، فهي إذن بنية نفسية لهؤلاء مركبة على خلخلة داخلية نزاعة للهوى، وهذه النفسية ليس لديها الاستعداد للانقياد للحقّ إلا بالقوّة.

فما كاد موسى صلّى الله عليه وسلّم يتركهم في رعاية هارون بعد أن استخلفه عليهم ويبتعد عنهم قليلا حتى تزعزعت تلك العقيدة:

. لم يستطيعوا الصبر على الحقّ

. عقيدتهم في نفوسهم غير سليمة

. شهوات النفس تطغي عليهم

. انهاروا أمام أوّل اختبار

فلم يكن بدّ من اختبارات متوالية وابتلاءات متعددة ومواقف متكررة لإعادة بنائهم النفسي تهيؤا واستعدادا وإرادة من أجلّ استقبال الفعل وممّارسته.

فكان أوّل ابتلاء بعد أن أنجاهم الله تعالى من فرعون ونسوا تلك النعمة بل كفروها وجحدوها على الرغم من تذكير موسى لهم بما أنعم الله عليهم، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ}423.

423 - إبراهيم 6.

فكان ابتلاؤهم بالعجل الذي صنعه لهم السامري: {قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السامري}424.

فمعنى الفتنة هنا: هو بمثابة الاختبار والامتحان لمدى إيمانهم وصبرهم على المغريات وشهوات النفس وما يوسوس لهم الشيطان في تزيين أعمالهم الخارجة عن طاعة الله تعالى، وتظهر الفتنة مدى صبرهم على التكلّيف بين نوازع النفس التي تدعو إلى التهلكة، وصواب العقل الذي يحملهم إلى النجاة، فقد شدد الله التكلّيف عليهم لحكمة، وذلك أن السامري لما أخرج لهم ذلك العجل صاروا مكلّفين بأن يستدلّوا على الحقّ بتمييز الإله الحقّ وهنا تكمن الفتنة، فإن تمسكوا بدينهم وما عاهدوا عليه الله بما أعطوا لنبيهم من مواثيق فقد تجاوزوا الفتنة ونجحوا في الاختبار وحينئذٍ يكونون قد عرفوا أن العجل لا يصلح لأن يكون إلها، ولكنهم في الفتنة سقطوا، وبسقوطهم هذا خرجوا من الإيمان فأضلهم السامري بما وافقوه عليه من عبادة العجل.

لم يكن لدى موسى علم بهذا الابتلاء حتى جاء ميقات ربّه، وتلقى الألواح وفي نسختها هدى ورحمة:

. هدى

حيث أخرجهم الهدى من الظلمات إلى النور، ومن الباطل إلى الحقّ ومن عبادة الإنسان إلى عبادة الواحد الديّان.

. رحمة

وهي رحمة الله تعالى التي تداركهم بها فأطلقهم من رق الاستعباد إلى حرية الانعتاق، فلم يعد هناك قتل لأبنائهم أو استحياء لنسائهم، وإنما

---

424 - طه 85.

جاءتهم رسالة من الله تعالى على يد نبي الله موسى صلّى الله عليه وسلّم:

. ليصلح لهم ما أفسدوه بأيديهم من دنياهم وآخرتهم،

. يبين لهم أسس العقيدة والدين الذي ارتضاه الله تعالى لعباده

. يكرم الإنسان في جعله خليفة في الأرض ليصلحها ويعمرها

. عدم الإفساد فيها وسفك الدماء بغير حقّ

لقد اتخذ قوم موسى من بعده عجلا جسدا وفق ما زينه لهم السامري، قال تعالى: {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عجلا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ}[425].

وأوّل ما أعلم الله تعالى موسى صلّى الله عليه وسلّم بصنيع قومه بدا عليه الخوف من الله ممّا علم من أمر الفتنة لذلك:

. سارع بالعودة

. في نفسه حزن وغضب

. يريد أن يقف على الأسباب

فقد أنقذ الله قومه عل يديه من الاستعباد والذل ورق العبودية وهداهم إلى الصراط المستقيم وأسبغ عليهم من النعم الجلّيلة وأعطاهم من كلّ ما سألوه، لذلك نرى موسى صلّى الله عليه وسلّم يذكرهم بتلك النعم حتى لا ينجرفوا إلى الضلال:

---

[425] - الأعراف 148.

. أنّ الله تعالى منَّ عليهم بالرزق والعناية والرعاية والرحمة في الصحراء

. قبل ذهابه ذكرهم بنعم الله عليهم

. حذرهم الضلال وعواقبه

ثم ها هم أوّلاء يتبعون أوّل ناعق إلى الوثنية، وأوّل ناعب ينذر بالهلاك بإخراجهم من عبادة الله الواحد الأحد إلى عبادة عجل! نعم له خوار، ولكن لا يكلّمهم ولا يهديهم سبيلا.

إنّ الله سبحانه وتعالى لم يخبر موسى بتفاصيل ما حدث لقومه:

. من الفتنة وأسبابها

. ما الذي دعاهم إليها؟

. لماذا اتخذوا العجل إلها؟

ولو أنّ الأثر النفسي والمعنوي لوقع الحدث كان ظاهرا من خلال الآيات، إلا أنّ الله تعالى أراد لموسى صلّى الله عليه وسلّم أن يقف على تفاصيل الأمر كلّه من مبتدئه إلى منتهاه:

السبب

المسبب

الدوافع

النتائج

الحلول

إلا أنّ تفصيلات الضلال والفتنة، لم يُذكر منها شيء في هذا السياق، ذلك أنّ معالجة هذا الخطأ الجسيم لابدّ أن يكون على مسرح

الحدث بحضور المعنيين في الأمر من أجلّ الوقف على الحجّة المقنعة وإظهار الحقّ وإحقّاقه، ولو أنّ السياق يبدي الحالة النفسية لموسى صلّى الله عليه وسلّم مع غياب الحالة الواقعية للحدث.

فقد عاد موسى غضبان أسفا يوبخ قومه ويؤنب أخاه. فلابدّ أنّه كان يعلم شناعة الفعلة التي أقدموا عليها:

{فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السامري أَخْرَجَ لَهُمْ عجلا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرّحمن فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى}426.

هذه الفتنة يكشف عنها السياق شيئا فشيئا في المواجهة والمحاجّة بين موسى وقومه، وقد أخر كشفها عن موقف الكلام، واحتفظ بتفصيلاتها لتظهر في مشهد التحقّيق على أرض واقع الحدث الذي يعود إليه موسى صلّى الله عليه وسلّم.

لقد رجع موسى ليجد قومه عاكفين على عجل من حليهم له خوار، ولم يكن السامري وحده مقتنعا بفكرة الإله العجل، وإن كان هو صاحب الفكرة الشيطانية إلا أنهم جميعا أو قسم كبير منهم قال:

هذا إلهكم وإله موسى

---

[426] - طه 86- 91.

موسى نسي ذلك

ذهب يطلب ربّه

ربّه هنا حاضر بيننا

إنّ موسى صلّى الله عليه وسلّم عندما عاد إلى قومه ووقف على حقّيقة الأمر أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، قال تعالى: {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعجلتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}427.

إنّ موسى صلّى الله عليه وسلّم بدأ بمعالجة الأمر نزولا من الأهم إلى المهم حيث أوّل ما توجه إلى صلب الموضوع في القضية الكلّية وهو أمر العقيد الذي يشمل الجميع، فكان الخطاب تنازليا من الكلّية إلى الجزئيات:

أوّلا ـ قومه لأن القضية عامة تشمل الجميع قال: بئسما خلفتموني من بعدي

ثانيا ـ أخاه الذي استخلفه عليهم لأنه في موضع المسؤولية: (وأخذ برأس أخيه يجره إليه)

ثالثا ـ السامري الذي زين لهم عبادة العجل: (ما خطبك يا سامري)

427 ـ الأعراف 150.

لقد بدأ موسى صلّى الله عليه وسلّم يستفهم من قومه سبب فعلتهم بأسلوب إنكاري:

. سألهم في حزن وغضب: (يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) وقد وعدهم الله بالنصر ودخول الأرض المقدسة في ظل التوحيد؛ ولم يمض على هذا الوعد وإنجاز مقدماته طويل وقت

. يؤنبهم في استنكار: (أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) فعملكم هذا عمل من يريد أن يحل عليه غضب من الله كأنما يتعمد ذلك تعمدا ويقصد إليه قصدا!

. هل طال عليكم العهد؟ أم تعمدتم حلول غضب الله عليكم (فأخلفتم موعدي) وقد تواعدوا على أن يبقوا على عهده حتى يعود إليهم، لا يغيرون في عقيدتهم ولا منهجهم بغير أمره بما يشرّعه الله لهم.

عندئذٍ يعتذرون بذلك العذر العجيب الذي يكشف عن أثر مكامن الكفر في نفوسهم وعدم الوفاء المتأصل بطبعهم، إضافة إلى تحييد العقل المفكر الذي يرجح كفة الصواب وينجي من مهالك الضلال حيث قالوا: (ما أخلفنا موعدك بملكنا) لأن الأمر كما ادعوا هو أكبر من طاقة تحملهم (ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها).

هذه الأوزار التي حملوها من زينة القوم كما ذكرت بعض الروايات أنهم عندما أزمعوا على الخروج من مصر كلّ منهم استعار زينة من الذهب والفضة من جيرانهم المصريين بادعاء أن لهم يوم عيد وزينة ليتزينوا بها فأخذوها وخرجوا.

هم يقولون أنّهم استدركوا فيما بعد أن هذا التصرف من المحرمات الذي يدخل في باب الخيانة والغدر ولذلك ألقوها حتى يتخلصوا من وزر فعلتهم.

ونحن نرى أن الأمر ليس كذلك، لأنهم عندما أخذوا هذه الحلي كانوا قد عاهدوا موسى وعاهدوا الله تعالى على الشريعة الحقّة التي ارتضاها الله لهم ولكن أسباب إلقائها يعود إلى:

. لم يعد لهم قدرة الصبر على حملها في صحراء التيه

. إعجابهم بفكرة العجل التي طرحها السامري

. أن الكفر متأصل في نفوسهم وتصرفهم هذا دليل حنينهم إليه

. قذْفها لم يكن من أجلّ التوبة والخروج من الخطيئة

. لو كان الأمر كذلك لرفضوا أن يصوغ منها السامري عجلا للعبادة

. هم منافقون بإظهارهم الإيمان وإبطانهم الكفر

. هم كفروا لما اتخذوا العجل إلها

ولذا فإن قذفها تخلصا منها لأنها حرام أدخلهم في النفاق لأنهم ارتضوا العجل إلها، فأخذ السامري هذه الحلي وصاغ منها عجلا جسدا له خوار، وجعل له منافذ إذا دارت فيها الريح أخرجت صوتا كصوت الخوار، ولا حياة فيه ولا روح فهو جسد، ولفظ الجسد يطلق على الجسم الذي لا حركة له ولا حياة فيه، فما كادوا يرون عجلا من ذهب يخور حتى نسوا ربّهم الذي أنقذهم من الكفر والذل، وعكفوا على عجل الذّهب، ثم قالوا في تصميم على الكفر:

. هذا إلهكم وإله موسى

. موسى راح يبحث عن إلهه

. الإله موجود هنا وهو هذا العجل

. موسى يريد أن يضللكم

هذه اتهامات من القوم لنبيهم صلّى الله عليه وسلّم الذي أنقذهم تحت عين الله وسمعه، وبتوجيهه وإرشاده، من اتهامهم له بأنه:

. غير موصول بربّه

. يضل الطريق إليه

. فلا هو يهتدي ولا ربّه يهديه

لذلك قال تعالى: {أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا}428.

وتسفيها لهم بين الله تعالى:

. أنّه لم يكن عجلا حيا يسمع قولهم ويستجيب له على عادة العجول من فصيلة البقر.

. هو درجة أقل من درجة الحيوانية.

. من يعبده هو أقل منه.

. هو بطبيعة الحال لا يملك لهم ضرا ولا نفعا.

لقد نصح لهم هارون صلّى الله عليه وسلّم، وهو نبيهم وخليفة نبيهم، ونبههم إلى أن هذا ابتلاء من الله تعالى فقد قال: {وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرّحمن فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي}429.

[428] - طه 89.

[429] - طه 90.

ونصحهم باتباعه وطاعته كما تواعدوا مع موسى، وهو عائد إليهم بعد ميعاده مع ربّه على الجبل.

ولكنّهم بدلا من الاستجابة له التووا وتملصوا من نصحه، ومن عهدهم لنبيهم بطاعته، ونجدهم يردون عليه: {قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى}430.

رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا، فسمع منهم حجتهم التي تكشف عن مدى ما أصاب نفوسهم من خلل، وأصاب تفكيرهم من فساد، فالتفت إلى أخيه وهو في فورة الغضب لله تعالى، يأخذ بشعر رأسه وبلحيته: {قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي}431.

فهو يؤنبه على تركهم يعبدون العجل دون أن يبطل عبادته، اتباعا لأمر موسى صلّى الله عليه وسلّم بألا يحدث أمرا بعده ولا يسمح بإحداث أمر يغضب الله تعالى، فقد أنكر عليه عدم تقيده بما أوصاه به، فهل كان ذلك عصيانا لأمر موسى من قبل هارون عليهما الصّلاة والسّلام؟

لقد قرر السياق القرآني ما كان من موقف هارون صلّى الله عليه وسلّم، فهو يطلع أخاه على مجريات الأحداث التي لم يشهدها موسى صلّى الله عليه وسلّم وموضحا التزامه بما أوصاه به: {قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}432.

---

430 - طه 91.

431 - طه 92، 93.

432 - طه 94.

وهكذا نجد هارون صلّى الله عليه وسلّم يذكّر أخاه بالتزامه فيما أمره به: {وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}433.

. أن يخلفه في قومه

. الإصلاح بينهم

. عدم إتباع سبيل المفسدين

ونحن لا نذهب إلى أن هارون صلّى الله عليه وسلّم هو أهدأ أعصابا وأملك لانفعاله من موسى صلّى الله عليه وسلّم كما فهم ذلك كثير من النّاس ولكن كلاّهما كان موقفه الذاتي والموضوعي من حيث الجانب النفسي والحدث الموضوعي موقف حقّ لأن:

موسى صلّى الله عليه وسلّم كان شديد الغضب لله تعالى ومن هنا ذهب من ذهب إلى أنه انفعال وعصبية وهو بعيد كلّ البعد عن هذا الفهم.

هارون صلّى الله عليه وسلّم كان هادئا مطمئنا لموقفه بحيث نفذ ما أمره به أخوه: {إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}434.

ولذا، فإن ذلك لم يكن شدة وغضبا من موسى، ولا لينا وضعفا من هارون عليهما الصّلاة والسّلام، وإن دخل هارون في حديثه مع أخيه من جانب عاطفي ليس من أجلّ أن يسكّن غضب موسى ويلمس مشاعره في نقطة حساسة، وإنما ذلك زيادة الثبات على العهد

433 - الأعراف 142.

434 - طه 94.

من ناحية الرحم وهي أشد حساسية، ويعرض له وجهة نظره في صورة الطاعة لأمره حسب وصية موسى له، وأنه خشي إن هو عالج الأمر بالعنف أن يتفرق بنو إسرائيل شيعا، بعضها مع العجل، والبعض الآخر مع نصيحة هارون، فكيف يكون ذلك وقد أمره بأن يحافظ على بني إسرائيل ولا يحدث فيهم أمرا، فهذا الموقف عبر فيه عن الطاعة وامتثال الأمر وفق وصية موسى وتوجيهاته.

حسب هذا التسلسل الذي ذكرناه يعالج موسى صلّى الله عليه وسلّم القضية بالوقوف على حيثياتها تنازليا من الأهم إلى المهم بحيث وقف على النتائج وبدأ يفند الأسباب.

بعد أن وقف موسى صلّى الله عليه وسلّم على حيثيات القضية من:

النتائج

الدوافع

الأسباب

توجه إلى السامري الذي أضل القوم، ولم يتوجه إليه منذ البدء، لأن:

. القوم هم المسؤولون عن فعلتهم

. هارون هو المسؤول بأن يحول بينهم وبين فعلتهم

. هو الخليفة المؤتمن عليهم

أما السامري فذنبه يأتي متأخرا لأنّه:

. لم يضلهم بالقوّة

ـ لم يضرب على عقولهم

ـ أغواهم فغووا

ـ كانوا يملكون أن يثبتوا على هدى نبيهم الأوّل

ـ أن يأخذوا بنصح نبيهم الثاني

فالتبعة عليهم أوّلا وعلى الداعي إلى الضلال والفتنة والغواية ثانيا.

اتجه موسى صلّى الله عليه وسلّم إلى السامري: {قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ}435.

وهو أوّل سؤال يوجهه إليه ليقف على حقّيقة أمره ممّا يريد، لذلك سوف نقف مع هذه الكلّمة وأبعادها كي نستطيع أن نتبيّن حقّيقة السامري وما الذي دعاه إلى أن يصنع ما صنع ويزين للقوم الضلال بعد أن اهتدوا أو أوشكوا على الهدى.

جاء في لسان العرب: "الخطب الشأن أو الأمر صغر أو عظم وقيل هو سبب الأمر يقال ما خطبك؟ أي ما أمرك؟ وتقول هذا خطب جلّيل وخطب يسير والخطب الأمر الذي تقع فيه المخاطبة والشأن والحال ومنه قولهم جلّ الخطب أي عظم الأمر والشأن وفي حديث عمر وقد أفطروا في يوم غيم من رمضان فقال الخطب يسير وفي التنزيل العزيز قال فما خطبكم أيّها المرسلون؟ وجمعه خطوب"436.

إذن، أصبح من المعلوم أن هناك أمر عظيم وقف عليه موسى صلّى الله عليه وسلّم من تصرف السامري لذلك قال له: (ما خطبك)

---

435 – طه 95.

436 – لسان العرب، ج 1، ص 360.

وأيّ شيء أعظم من إخراج النّاس من النور إلى الظلمات

من الهدى إلى الضلال

من الإيمان إلى الكفر

من عبادة الله الواحد إلى عبادة ما لا يضر ولا ينفع

فما من كلّمة تجمع من المعاني في هذا الموقف غير ما قاله موسى: (ما خطبك) لأنها في هذا السياق تحمل كثيرا من المعاني منها:

أنا أعرفك

أعرف ماذا تريد؟

لقد جئت شيئا فريا

لن أدعك حتى نحسم الموقف

أدلي بحجتك

ومن صيغة دخول الاستفهام على هذه الكلّمة أنّك لا تستفهم بها عمن لا تعرفه، لأننا عندما نقول:

ما خطبك

ما خطبه

ما خطبكم

ما خطبهم

هو دليل على أنه لدينا معلومات عمن نستفهم منهم ومعرفة سابقة بهم وأنهم أتوا بأمر عظيم يستدعي نزول الخطب.

أمّا في غير ذلك فيكون الاستفهام بألفاظ أخرى مثل:

ما شأنه؟

ماذا يريد؟

لماذا فعل ذلك؟

نريد من هذا أن نقول: أن موسى صلّى الله عليه وسلّم لما قال ما خطبك أن لديه معرفة تامة بالسامري ومتوقّع منه أن يأتي بما أتى لأنّه يعلم:

نفسيته

أخلاقه

تصرفاته

نواياه

غاياته

فمن هو هذا السامري؟

لقد وقفنا على كثير من المصادر التي تناولت هذه الآيات بالشرح والتفسير، وقد ذهب معظمها إلى القول بأنّ السامري رجلٌ منسوب إلى المكان وهي (سامرة) بلدة في فلسطين أي أن هذا السامري من السامرة جريا على النسب في اللغة إلى أشياء كثيرة مثل:

المكي نسبة إلى مكة

المديني نسبة إلى المدينة، وهو من أقام فيها ولم يفارقها

المدني نسبة إلى المدينة، من أقام فيها ثم تحول عنها

وعلى هذه الشاكلّة:

ابن منظور الأفريقي المصري

أبو عمرو الداني الأندلسي

الخطيب البغدادي

إلا أنّ نسب السامري إلى السامرة في فلسطين مسألة غير صحيحة:

أنّ موسى وقومه في هذه القضية لم يدخلوا فلسطين بعد.

أنّ السامرة لم تكن موجودة لا من حيث الواقع، ولا من حيث التسمية وإن كان هناك يهود سامريون سكنوا ذلك المكان بعد دخول موسى وقومه فأقام سبط من أسباطهم في ذلك المكان فجاءت التسمية فيما بعد ومن ثمّ نسبوا إلى تلك المدينة، حيث يستوقفنا نص بهذا الصدد يقول: "وتجدر الإشارة هنا إلى أنه قبيل عهد السيد المسيح ظهرت فرق يهودية أخرى تؤمن بالقيامة والعقاب وبالملائكة ومنها السامريون وأقاموا صلواتهم الطقسية هذه في جبل جرزيم في شكيم (نابلس)"[437].

وهذا يعني أنّ: هذا الاسم لا يمكن أن ننسبه لذلك المكان، لأنّ: "مدينة السامرة في فلسطين لم يكن لها وجود لما خرج بنو إسرائيل من مصر، مع موسى، وسكنوا أرض سيناء، وفيها عمل لهم السامري العجل الذهبي كطلبهم، فكيف نتخيل سامريا يضع لهم العجل قبل أن يكون للسامريين وجود"[438].

---

[437] – التلفيق الصهيوني واغتيال التاريخ، ج 1، ص 122.

[438] – شبهات المشككين، ج 1، ص 28.

بقي لدينا في نسبة هذا الرّجلّ أمران هما:

1 . أنّه نُسب إلى سمرة في لون بشرته وهذا معروف في لغة العرب.

2 . أنّه نسب إلى صفة من صفاته وهي السَمَر من المنادمة والمحادثة فهو كثير السمر.

وكذلك فإنّ السامر هو المكان الذي يجتمع فيه النّاس للسمر، وربما كان السامري كثير الحضور في السامر فنسب إلى مكان السمر.

ولابدّ هنا أن نشير إلى نقطة مهمة حتى نبدد الشكوك من أننا نجري هذا الأمر على لغة العرب وهذا ربما يرفضه الآخرون، لذلك نقول: أن القرآن الكريم باللغة التي يخاطبنا بها عن الأقوام السابقة، لم يكن ينقل لغات تلك الأقوام وأصواتها، وإنما يتلو علينا معاني لغات تلك الأمم ومفاهيمها باللغة التي نفهمها، والذي نرجحه أن موسى صلّى الله عليه وسلّم نسبه إلى صفة هو معروف بها من المنادمة والمسامرة، وربما أنه كان يقصّ عليهم القصص والأخبار والحكايات في مجلّس المسامرة، فوصفه موسى صلّى الله عليه وسلّم بالسامري (القصصي) استهانة به لما يدخل في قصصه من كذب أثناء المسامرة من كثرة الحديث الذي يغلب عليه أسلوب الثرثرة الذي يختلط به:

الواقع بالخيال

الصدق بالكذب

الحقّيقة بالأسطورة

الجدّ بالهزل

وربما جمع لون البشرة إلى السمر والمنادمة والتردد على السامر (مكان السمر) فقال موسى صلّى الله عليه وسلّم: (ما خطبك يا سامري).

ما شأنك

ما قصتك

ما الذي فعلته

تساؤلات كثيرة تحملها هذه الصيغة التي تشير إلى جسامة الأمر وعظم الفعلة وفداحة التصرف.

قال السامري: {بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرّسول فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي}439.

لقد ذهب الذين تناولوا هذه الآية مذاهب شتى في توضيح معنى قصد السامري:

فما هو الذي بصر به؟

ومن هو الرّسول الذي قبض قبضة من أثره

وما هو النبذ؟

وما علاقة هذا بالعجل الذي صنعه؟

وما أثر هذه القبضة فيه؟

---

[439] - طه 96.

والذي يتردد كثيرا في هذه الروايات أنه رأى جبريل صلّى الله عليه وسلّم وهو في صورته التي ينزل بها إلى الأرض، فقبض قبضة من تحت حافر فرسه، فألقاها على العجل، فكان له هذا الخوار.

ونحن قبل الإثبات والنفي لابدّ من الوقوف على معاني بعض الألفاظ ودلالاتها واستخدامها في السياق الذي يعطي حقّيقة المعنى المقصود، وهذه الألفاظ التي تحدد المعنى والقصد هي:

بصرت

قبضت

نبذت

ونحن نعتقد أن (بصرت) في هذه الآية جاءت بمعنى علم وعرف، وليست بمعنى (رأى) وهذا ما يطابق ما جاء في اللسان: "بصر صار مبصرا وأبصره إذا أخبر بالذي وقعت عينه عليه، وبصرت بالشيء علمته قال عز وجلّ بصرت بما لم يبصروا به والبصير العالم وقد بصر بصارة والتبصر التأمل والتعرف والتبصير التعريف والإيضاح ورجلّ بصير بالعلم عالم به"440.

ولذا فإنّنا نجد أن(بصر) تخرج في هذه الآية عن معنى الرؤية البصرية إلى:

العلم

المعرفة

التأمل

---

[440] – لسان العرب، ج 4، ص 64.

التحقّق

وكذلك إن القرآن الكريم عندما يقصد المشاهدة العينية يستخدم لفظ (رأى) ولا يستخدم لفظ (بصر أو أبصر) دلالة على المشاهدة، وإنما يستخدمها للعلم والمعرفة والتفكر والتحقّق والتأكيد مثل:

قوله تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ}441.

وقوله تعالى: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ}442.

أمّا المشاهدة البصرية فإن القرآن الكريم غالبا ما يستخدم لفظ رأى، وهذا مطرد في جميع المشاهد البصرية التي تعبر عن الوقوف على الحدث بالعين الباصرة مثل:

قوله تعالى: {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ}443.

وقوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ}444.

وقوله تعالى: {وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ}445.

---

441 – الأنعام 104.

442 – الكهف 26.

443 – الأنعام 76.

444 – يوسف 28.

445 – هود 29.

وعلى ما تقدم فإن (بصر وأبصر) تخرج عن المشاهدة والرؤية البصرية لأن معنى اللفظ في هذه الآية يتحدد من خلال السياق.

وأمّا القبض فهو خلاف البسط ولو أن من معناها أخذ الشيء في قبضة اليد، فقد جاء معناها في اللسان: "القبض خلاف البسط قبضه يقبضه قبضا، والانقباض خلاف الانبساط وقد انقبض وتقبض وانقبض الشيء صار مقبوضا وتقبضت الجلّدة في النّار أي انزوت، وقبضت الشيء قبضا أخذته والقبضة ما أخذت بجمع كفك كلّه فإذا كان بأصابعك فهي القبصة بالصاد"446.

وقد جاء في الحديث عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "يأتي على النّاس زمان، القابض على دينه كالقابض على الجمر"447.

فإن كان الأثر من موسى صلّى الله عليه وسلّم للسامري كما ادعى البعض لتسنى ذلك لكلّ من أراد وفعل ما فعله السامري أو غير ذلك الفعل.

ومن ادعى أن ذلك الأثر من أثر جبريل صلّى الله عليه وسلّم، فنحن نرى أنّ جبريل صلّى الله عليه وسلّم وإن تجسد بصورة بشرية، فإنه لا يترك أثرا بعودته إلى حقّيقته الملائكية.

وأمّا ما ورد في كتاب الله تعالى من مشتقات قبض:

قوله تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}448.

---

446 – لسان العرب، ج 7، ص 213.

447 – جوامع الأخبار، ج 1، ص 25.

448 – البقرة 245.

وقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا}449.

وقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَن إِنَّهُ بِكلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ}450.

وعلى ما تقدم فإن للقبض أكثر من معنى لا يظهر فيها الإمساك بالشيء إلا بقرينة موضحة تبين المادي من المعنوي وتبين الحقّيقي من المجازي فقوله: (قبضت قبضة من أثر الرّسول) لم يذكر معه قرينة موضحة للدلالة على المادة أو التراب الذي ذهب إليه كثيرون، ولذا فإن القرينة الموضحة للمعنى على ما نعتقد هي استنتاجية عقلية وليست قرينة لفظية، فإن كان البشر لا يرون الملائكة فكيف يرون أثرهم، والملائكة لا يراها إلا الرّسُل والأنبياء، لأنّ رؤية الملائكة شيء عظيم، قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا}451.

وعندما نعود إلى معنى (بصرت) التي دلت على العلم والمعرفة ونربطها بهذه القبضة (كالقابض على دينه) أي علمه وعرفه فقبض عليه تمسكا به.

ونحن نرى أنه قبض قبضة من أثر الرّسول موسى صلّى الله عليه وسلّم بما جاء من دعوة الحقّ ثم نبذها لأن الإيمان لم يتمكن من قلبه فعاد إلى كفره وصنع ما صنع.

449 – الفرقان 45، 46.

450 – الملك 19.

451 – الفرقان 21، 22.

ولذلك قال: فنبذتها. لأنّه هذا ديدن بني إسرائيل والسامري على سنتهم الضالة قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ}452.

وقال تعالى: {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}453.

فالنبذ منهم كان للعهود والمواثيق التي واثقوا الله عليه بما أخذ عليهم أنبياؤهم، فهو نبذ معنوي مجازي لا علاقة للماديات أو الأشياء الحسية به، لأن النبذ منهم كان يقع على:

العهود

المواثيق

الدين

الإيمان

الشريعة

الحقّوق

الواجبات

الحرام

الحلال

[452] – آل عمران 187.

[453] – البقرة 100.

فكلّ هذا هو من النبذ والترك وعدم الالتزام، وهذه قرائن إضافية تساعد على فهم ما تبين لنا معاني كلّ من:

بصرت

قبضت

نبذت

ولذا نقول أنّ السامري أحد شياطين بني إسرائيل ومنافقيهم لأنّه قبض قبضة من أثر الرّسول وما فيها من تعاليم وتكاليف ليظهر إيمانه وضمر الكفر لغاية في نفسه يظهرها عندما تحين الفرصة، وهذه القبضة اليسيرة جعلت الإيمان في نفسه ضعيفا، وعندما حانت الفرصة بغياب موسى صلّى الله عليه وسلّم أظهر ما كان يخفيه للوصول إلى مآربّه التي كان يطمع إلى أشياء يحقّقها مثل:

الملك

السيادة

الغنى

لكن موسى صلّى الله عليه وسلّم حسم الأمر على رؤوس الأشهاد بالقول الفصل والفعل المصدّق لقوله: {قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كلّ شَيْءٍ عِلْمًا}454.

454 - طه 97، 98.

لقد علم موسى صلّى الله عليه وسلّم أن السامري هو سبب الفتنة وأنه لن يعود إلى الإيمان والإسلام ودين الحقّ لذلك:

نهى القوم عن مخالطته

أنذره بالموعد الذي لن يخلفه

نسب الإله إليه (إلهك)

حرق الإله ونسفه

لو كان إلها لدافع عن نفسه

الإله الواحد الحقّ هو الله تعالى.

موسى وقارون:

لم يكن قارون شخصية من أتباع موسى أصابه الغنى فبطر نعمة الله عليه فحسب، وإنما هو شخصية تمثل الصراع بين الشر الذي تجسد في شخصية قارون بما تحمل من طمع وبين جانب الخير الذي يوازن بين الحياة الدنيا والآخرة حتى تستقيم الحياة في ميزان العدل

إن الصراع بين الحقّ والباطل يأخذ صورا كثيرة وأشكالا متعددة، ومغريات الإمداد بالباطل كثيرة ومتنوعة منها:

. التكبر

. العلو

. الإسراف

. الظلم

. البغي

إنّ جميع ما خلق الله تعالى هو مسخر للإنسان، لا لأجلّ الاستحواذ عليه والاستئثار به ومنعه عن الآخرين، وإنّما هذه الأشياء خلقها الله تعالى لإشباع حاجة الإنسان وليس من أجلّ أن يستحوذ عليها البعض بغية حرمان الآخرين لذلك قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}[455].

فالمسألة هي مسألة تزيين وليست من الحقّيقة في شيء إلا بقدر إشباع حاجة الإنسان من أجلّ الوصول إلى الهدف الأسمى والغاية الكبرى في تجاوز التزيين إلى حقّيقة اليقين.

والتزيين هو إخفاء حقّيقة الشيء عن أصل ما يظن الإنسان أنّه حقّيقة، بينما الحقّيقة تكمن وراء التزيين في حسن التصرف بما زين للناس في حب الشهوات من:

- النساء
- البنين
- الذهب
- الفضة
- الخيل المسومة
- الأنعام
- الحرث

[455] – آل عمران 14.

فهذه النعم التي أنعم بها الله تعالى على خلقه إنما هي متاع للحياة الدنيا، وبما أن الحياة الدنيا زائلة، فمن الطبيعي أن ما هو متاع فيها آيلٌ إلى الزوال أيضا، فالاستئثار بها هو البغي بعينه لذلك قال تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ}[456].

فقارون هو واحد من أتباع موسى صلّى الله عليه وسلّم، إلا انّه بغى عليهم بما صدر منه من أفعال وتصرفات أخرجته منهم وكان عاقبته أن خسف الله به الأرض نتيجة بغيه.

فما هو البغي؟

ما مفهومه؟

ما معناه؟

جاء في لسان العرب: "والبغي التعدي وبغى الرّجلّ علينا بغيا عدل عن الحقّ واستطال"[457]، وعلى هذا فالبغي لفظ عام يدخل فيه جميع أنواع المظالم التي تصدر من الباغي بحقّ من يبغي عليهم سواءً أكان:

. بغي مادي يصدر عن الاستئثار بالمال وغيره من الأشياء المادية.

. بغي معنوي يتمثل في التكبر والتعالي ممّا يسبب أذى نفسيا للآخرين.

. بغي قولي من شطحات اللسان.

. بغي عملي يتمثل في تصرفات الباغي بما يسب الإساءة للآخر.

[456] – القصص 76.

[457] – لسان العرب، ج 14، ص 75.

ولذا؛ فلم يذكر البغي في القرآن الكريم إلا في موضع الذم لما يحمل من تبعات سلبية ونتائج تصل إلى حدّ القبح إن لم يكن القبح بعينه لذلك:

1 . إنّ الله تعالى حرم البغي على المؤمن والكافر فكان تحريمه مطلقا قال الله تبارك وتعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الحقّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}458.

2 . إنّ الله سبحانه وتعالى نهى عن البغي وقرن ذلك النهي بالفحشاء والمنكر في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}459.

3 . إنّ اختلاف الأمم وتفرقهم وابتعادهم عن الحقّ كان بسبب البغي فيما بينهم، وقد أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}460.

4 . إنّ كفر كثير من الأمم كان بسبب البغي عندما حسدوا الآخرين على ما آتاهم الله من فضله قال تعالى: {أَمْ يَحْسُدُونَ النّاس عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا}461.

---

458 – الأعراف 33.

459 – النحل 90.

460 – آل عمران 19.

461 – النساء 54.

وقال الله سبحانه وتعالى في هؤلاء: {بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ}462.

5 . لقد أجاز الله تعالى لمن يبغى عليه أن ينتصر لنفسه إن أصابه البغي أو وقع عليه من قبل أحد، قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ}463.

6 . إنّ البغي لابدّ أن يعود أثره على الباغي طال الزمن أم قصر وهذا الأثر لا يجاوز الباغي ولا يتعداه قال تعالى: {فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ يَا أَيُّهَا النّاس إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}464.

7 . إنّ كثيرا من العقوبات والجزاءات والحرمان الذي ينال كثيرا من النّاس هو بسبب بغيهم حيث قال تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كلّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}465.

وربما يكون البغي مشتركا لا يصدر عن طرف واحد وإنما ممن تقع الخصومة بينهم وكلّا الخصمين يحيد عن الحقّ فيحصل البغي من أكثر من طرف وعلى هذا يحصل التباغي بالرد على الظلم بظلم أعظم منه:

من ظلم إنسان فقد بغى عليه

462 – البقرة 90.

463 – الشورى 39.

464 – يونس 23.

465 – الأنعام 146.

العدل في ذلك ردّ الظلم نفسه

إذا زاد عن الحقّ فقد بغى

البغي أصبح مشتركا من جميع الخصوم

وقد أثبت القرآن الكريم هذه الحالة للدلالة على أنها قائمة بين النّاس وساعتئذٍ يحتاج إلى قاضٍ عدل يفصل في التباغي قال تعالى: {خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالحقّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ}466.

ومسألة التباغي تقع بين كثير من الخلطاء والشركاء إلا من رحم ربي ففي قوله تعالى: {وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالحاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ}467. دليل على أنّه لا ينجو من الخلطاء في التباغي إلا القليل وهم:

ـ الذين آمنوا وأخذوا بشروط الإيمان واستمسكوا بها

ـ الذين يعملون الصّالحات نتيجة إيمانهم

والبغي ليس محصورا في إنسان دون آخر أو طائفة أو فئة، ولكن ربما يبغي الكافر والمسلم والمؤمن والمنافق، وقد يحدث البغي من قبل طائفة مؤمنة لا من فرد أو أفراد لذلك فإن الله تعالى أوضح للذين يكونون خارج النزاع موقفهم الذي يجب أن يكونوا عليه، وأنهم ينبغي أن لا يكونوا على الحياد بل يجب أن تقف في وجه الطائفة أو الفئة الباغية، وتقاتلها إذا تطلب الأمر حتى تفيء وترجع إلى أمر الله تعالى، ومع ذلك فإن الفئة الباغية توصف بالإيمان قال تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ

---

[466] - ص 22.

[467] - ص 24.

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}468.

ثم إنّ زيادة بسط الرزق للعباد يكون سببا للبغي من قبل الذين يبتليهم الله بزيادة النعمة وبسط الرزق فلا يشكرونه ولا يؤدون حقّه قال تعالى: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ}469.

ولذا، فقد شاء الله تعالى أن يبسط لقارون من الرزق والنعم: {وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أوّلي القوّة إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ}470.

لقد أوتي قارون من الأموال والأملاك ما لا تستطيع العصبة من أوّلي القوّة حمل مفاتيح أبواب تلك الكنوز، فإن كانت العصبة لا تستطيع حمل تلك المفاتيح وتنوء تحتها لكثرتها وثقل وزنها فلنا أن نتصور حجم تلك الكنوز من صورة المفاتيح.

فالمسألة هنا ليست خاصة بقارون وقومه، وإنما هي قضية كبرى تدخل في الجانب الاجتماعي والاقتصادي الذي ينعكس سلبا أو إيجابا على جميع أفراد المجتمع من خلال الآتي:

. تنظيم الثروة

. حركة رأس المال

---

[468] – الحجرات 9.

[469] – الشورى 27.

[470] – القصص 76.

. تداول النقد

. استثمار الأرض

وكلّ ما له علاقة بالجانب الاقتصادي الذي يعود بالنفع على جميع أفراد المجتمع، فإن تكدس رأس المال بيد بعض الأفراد وكان هذا المال على سبيل الكنز فقد حُرم منه جميع أبناء المجتمع، وإن كانت دورته قصيرة فقد اقتصرت الفائدة منه على بعض الأفراد بما يسد رمقهم ويبقى المال كنزا في هذه الحال.

وأمّا امتلاك الإقطاعات الكبيرة من الأرض وعدم استثمارها أو توزيعها على من يستثمرها ويعمرها، فهذا يعني إفساد الأرض وعدم إصلاحها، وتبقى الغاية القصوى لأصحاب الأموال ومالكي الأرض أن يحتفوا بما عندهم متاع الحياة الدنيا، وهو من غاياتهم التي يريدون تحقّيقها، وهم يعلمون أنهم لا يحتفي بهم وهم على هذا الباطل إلا أتباعهم من أهل الباطل، وأما أهل الحقّ فلا يعبؤون بما عندهم من متاع الحياة الدنيا، ولهذا فإن أهل الباطل يضيقون ذرعا بأهل الحقّ، لعدم اغترارهم بما عندهم، كما قال تعالى عن قوم قارون: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} 471.

فالميزان يختلف عند هؤلاء وأوّلئك: أهل الحقّ يزنون النّاس وما يملكون بالإيمان والعمل الصّالح والصبر، وهي الصفات التي يترتب عليها رضوان الله وثوابه، وأهل الباطل يزنون النّاس بما عندهم من ملك وغنى وشتان بين هذا وذاك.

[471] - القصص 80.

وممّا يدل على أنّ أهل الباطل يضيقون ذرعا بأهل الحقّ ونصحهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، ليقيدوا تمتعهم في الحياة الدنيا بقيود الحقّ والشرع وما أمر الله به من حقّ الفقراء في أموال الأغنياء من جانب، ومنع تحكم هؤلاء الأغنياء بأقوات الفقراء من جانب آخر، لذلك فإن موقف شعيب صلّى الله عليه وسلّم في قومه من الباغين الذين كانوا يبخسون يصب في هذا الاتجاه من ردّ البغاة إلى الحقّ حيث بين الله تعالى هذه القضية الاقتصادية في البغي على الآخرين بأن البغاة يأخذون ما ليس لهم بحقّ، ولا تستقيم المسألة بعبادة الله الذي يفرق لهم بين الحقّ والباطل ويبين لهم الحلال من الحرام حيث قال تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ}472.

والفرق بين بغي هؤلاء وبين بغي قارون، أن قارون يمنع النّاس أشياءهم، وقوم شعيب يبخسون النّاس أشياءهم.

إن الله تعالى بين أن قارون بخل بما آتاه الله من فضله، وأن هذا الأمر منكر ويحسب الذين يبخلون إنما يستكثرون من الخير والأمر عكس ذلك قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا الَّذِينَ

[472] - هود 84، 87.

يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النّاس بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا}473.

إنّ تعطيل الحركة الاقتصادية في المجتمع يترتب عليها ضرر بحجم الأموال التي يمتلكها صاحب تلك الأموال وعليه إثم بقدر ما يلحقّ أفراد ذلك المجتمع من الفساد والضرر، فإن كانت مفاتيح كنوز قارون من الكثرة بأن تنوء به العصبة أوّلي القوّة، فإن تلك الأموال ينوء تحت بغيها وظلمها مجتمع بأسره ودليل ذلك أن الذين يريدون الحياة الدنيا قالوا تحسرا: {يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}474.

أمّا الذين أوتوا العلم فكان موقفهم مختلف بل هو على النقيض: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ}475.

لأنهم يعلمون أن قارون:

. مختلا

. فخورا

. متعاليا

. بخيلا

فقد كتم ما آتاه الله من فضله بمنعه عن الآخرين بجميع السبل من:

. الزكاة

---

473 – النساء 36، 37.

474 – القصص 79.

475 – القصص 80.

. الصدقة

. التدوير

فموقف الله تعالى من قارون وأمثاله واضح بين حيث قال: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}476.

إن هذه النصوص القرآنية توضح جزء من وجوب حركة رأس المال وتداوله حتى لا يكون دولة بين الأغنياء حتى لا يجتمع المال والسلطة وينشأ من ذلك فراعين آخرين، فهذه النصوص والتعاليم والأحكام تريد أن تفصل المال عن السلطة داخل المجتمع حتى لا يُعبد الأغنياء من دون الله، ولكيلا تتحول الثروة صنما:

باسم الإقطاع يوما

باسم الرأسمالية يوما آخر

باسم الحزب الحاكم يوما ثالثا

لأنّ اجتماع المال والسلطة يؤدّي إلى البغي والطغيان الذي يحول المجتمع بالتدريج إلى العبودية، وما نظن قارون في فعله هذا إلا أنّه تمثل تجربة فرعون وبدأ يترقى بها شيئا فشيئا إلا أنّ هذه التجربة لم يكتب لها النجاح، فقد خسف الله به الأرض.

---

[476] – آل عمران 180.

إنّ أهم عبرة من قضية قارون الذي حاول أن يكون فرعونا آخر أن نستنتج وجوب فصل المال والثروة عن السلطة الاجتماعية والسياسية، كي لا يتحول المجتمع إلى عبيد وأصحاب المال والقرار يتألهون.

ولذا، لابدّ من وجود صيغ وأساليب وضمانات تفصل المال والثروة عن السلطة والقرار كي لا تتكرر تجربة فرعون التي حاول قارون أن يكون أحد أعمدتها، وهذه الضمانات كثيرة، أهمها كما نعتقد:

أوّلا: التوزيع العادل للثروة:

وذلك عن طريق فرض الضرائب التصاعدية على أصحاب الدخول العالية، والزكاة والصدقات والحقّ المعلوم، وتقسيم الأموال بالإرث، وما إلى ذلك، هذه الأحكام الشرعية لا تدع المال يصبح دولة بين الأغنياء يتداولونه كما يحلو لهم، ولا يدعون الآخرين يستفيدون منه، بل عندما تكون الثروة متداولة يعود النفع والفائدة على جميع المجتمع في كلّ مجالاته الحياتية ويأخذ بالنمو والارتقاء لأن المال وسيلة تحسين أوضاع المجتمع من خلال ما يأتي:

. الجانب الاقتصادي:

وينصب ذلك على التجارة في البيع والشراء الذي يستوعب أعدادا كبيرة من الأيدي العاملة، أي تهيئة فرص عمل تغلي جزء من البطالة التي قد تدفع البعض إلى سلك طريق المحرمات، ومن هذه الفرص نستطيع أن نؤمن المجتمع من انتشار السرقة والنصب والاحتيال الذي يلجأ إليه بعض من لا يتوفر لهم فرص للعمل.

. الجانب الاجتماعي:

إنّ الجانب الاقتصادي الذي يؤمن فرص عمل للعاطلين، يؤمن كذلك علاقات طيبة بين هؤلاء من خلال التعامل والاحتكاك في مجال الجانب الإنساني، وكذلك توفير ما يشبع الحاجة لهؤلاء من المأكلّ والملبس وبناء أسرة جديدة الأمر الذي يشد الأواصر بين أفراد المجتمع من خلال علاقات الزواج والمصاهرة والنسب.

الجانب العمراني:

عندما تدور عجلة الاقتصاد القائم على المال والإنسان، فإن هذه العلاقة سوف تطرح معطيات جديدة وتتطلب معطيات أخرى، فالتجارة تأخذ بالتوسع، والمجتمع يتجه نحو النمو، وكلّا الجانبين يتطلب مشبعات للحاجات الجديدة التي نشأت عن العلاقة بين الاقتصاد والمجتمع، وهذه المشبعات تتمثل في المساكن والمخازن والمصانع والطرق والخدمات بجميع أنواعها ممّا يؤدّي إلى تقدم العمران وتطوره.

الجانب الزراعي:

من الطبيعي عندما يتحرك رأس المال ويؤمن هذه الفرص من العمل والخدمات والتطور، فلابدّ أن ينعكس ذلك إيجابيا على الزراعة التي هي أساس تلك الحركة، إذ لا يمكن المحافظة على استمرار التجارة والصناعة وتأمين المجتمع وديمومة نموه وتطوره ما لم ترفده الزراعة بعوامل البقاء.

ثم إنّ الإسلام والحقّ والشرع والعقل يؤكد على ضرورة تقسيم المال لو سبب ضررا على المجتمع، ولو كان بغير الطرق السالفة الذكر وفق ثوابت معمول بها:

. لا ضرر ولا ضرار

. من أحيى أرضا مواتا فهي له

وهكذا تستمر الحياة وفق ما أراد الله للإنسان أن يكون خليفة في الأرض من أجلّ إصلاحها وإعمارها وعدم الإفساد فيها، لا كما فعل قارون.

ثانيا: القضاء على احتكار الأرض.

إنّ العبرة في الخسف بقارون لا ينحصر في امتلاك الذهب والفضة ومنع الآخرين الإفادة منهما، وإنما ينسحب ذلك على الأرض التي هي من أكرم الأموال وأعزها وأغلاها، ذلك أن الأرض هي التي تنتج ما يجلّب الذهب والفضة، وأحيانا بعض الأرض تنتج الذهب والفضة، فإن كانت هذه الأرض مستحوذ عليها من قبل أفراد قليلين بالتسلط أو الامتلاك أو أي وسيلة أخرى فهي لابدّ معطلة:

. جزئيا

. أو كلّيا

فإن كان التعطيل جزئيا فإن الضرر الذي تحدثه هو مساوٍ لجزء التعطيل

وإن كان التعطيل كلّيا فإن الضرر مساوٍ للكلّ أيضا

وكلّا الضررين بالنتيجة يعود على أبناء المجتمع بما فيهم مالكو الأرض

لذا، لابدّ من معالجته مشكلّة الأرض لأنها المورد الرئيسي والهام للإنسان، وعدم جعلها حكرا على مجموعة خاصة، تستغل النّاس:

مرة باسم الإقطاع

ومرة باسم الشركات الزراعية

فكما يقتضي العدل جعل الأموال متداولة بين الأفراد، كذلك فإن العدل يقتضي ألا تعطل الأرض، بل يجب استثمارها على الوجه الأمثل الذي يعود بالمصلحة والفائدة على الجميع.

ثالثا: محاربة احتكار المواد الأوّلية الضرورية:

إنّ بعض المواد الضرورية الأساسية (أو ما يطلق عليها بالمواد الاستراتيجية) بسبب حاجة النّاس الماسة إليها، يجب أن تكون مشتركة المنافع فيما بينهم، ولا يحقّ لأحد احتكارها. وهذا يدل على أنّ كلّ مادة أصبحت ذات حاجة اجتماعية شاملة، فالنّاس فيها شركاء

رابعا: وضع ضوابط التجارة والبيع والشراء:

إن التجارة والبيع والشراء ما يختص المواد الضرورية الأساسية يجب أن يكون له ضوابط تمنع أصحاب النفوذ من احتكاره أو التحكم بأسعاره وفق ما تقتضيه مصلحتهم، كالتي تُعتبر أساسا لسائر الصناعات، مثل الحديد والنفط وما أشبه، أو المواد الغذائية الرئيسية كالقمح والأرز واللحم والسكر وغيرها والتي يحتاج إليها النّاس في حياتهم اليومية، وأدنى ما يحتاجونه من الملابس، ووسائل النقل، ووسائل البناء يجب ألا تصبح أداة للاستغلال من قبل التجار.

ومن هنا يجب مراقبة التجار وإلزامهم بمراعاة الحدود المشروعة في أعمالهم ونشاطاتهم. فإذا رأى المجتمع أو من يقوم على رعاية هذا المجتمع، أن هؤلاء يحتكرون هذه المواد، ويستغلون النّاس بها، ويفرضون وصايتهم على النّاس عن طريقها، ولا يوفرونها بصورة تكون سببا لرفاه المجتمع، فمن الواجب أن تضبط التجارة والبيع والشراء بشروط توفر الأمن الغذائي وتلزم هؤلاء بعدم تجاوز المصلحة العامة.

خامسا: فصل العلم عن الثروة.

لأنّ ذلك من الضمانات الهامة في هذا المجال، إذ أنّ الثروة لا تستطيع أن تستغل النّاس إلا تحت غطاء العلم، وعن طريق بعض العلماء. فهؤلاء البعض الراكعون على أبواب الأغنياء والتجار، والذين يبيعون علمهم بثمن بخس للمستكبرين، كانوا دائما أداة طيّعة بيد أصحاب الثروة، لكي يحولوا ثروتهم إلى سلطة يفسدون بها في الأرض، لأن قارون عندما نصحه قومه بنصائح كثيرة منها قولهم:

. لا تفرح

. ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة

. لا تنس نصيبك من الدنيا

. أحسن كما أحسن الله إليك

. لا تبغ الفساد في الأرض

فما كان منه إلا أن قال: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي}477.

سادسا: رفع مستوى النّاس علميا واقتصاديا.

من الناحية التاريخية فإن التجارب تثبت أن المجتمعات التي يحكمها الاستبداد، ويتسلط عليها الاستعباد، هي المجتمعات الأقل وعيا والأكثر فقرا، بمعنى أنّه كلّما ارتفع مستوى النّاس إلى حد معين من الوعي والرفاه الاقتصادي، فإنّ قدرة أصحاب المال والثروة على السيطرة من خلال التسلط والاستغلال تضعف تدريجيا وتبدأ بالتنازل الذي يوازي الوعي المتصاعد حتى يتلاشى ذلك التسلط والاستعباد.

فالمجتمع المتخلف هو الذي يهيئ البيئة لهؤلاء المتسلطين من خلال:

---

[477] – القصص 78.

انتشار الجهل

قلة المعرفة

انعدام الوعي

وبالتالي فإنّ أصحاب الأموال وملاك الأراضي جرى دأبهم على نشر الفساد في الأرض ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، لن هؤلاء لا يستطيعون أن يستمروا في طريقة حياتهم القائمة على استعباد الآخر واستغلال جهده إلا بعدم الوعي وقلة المعرفة لدى الآخرين، ولذا فإنّ محافظتهم على واقعهم يكمن في أن يستشري الجهل ويعم الفساد حتى يبقى قارون ومن هو على شاكلّته صاحب القوّة المادية والقرار السياسي.

إنّ الجهل والفساد مادة دسمة للمستغلين، لذلك فالجهل:

خطر على حرية الإنسان

خطر على مستقبله

خطر على حياته

لذلك كان العلم من الواجبات الشرعية لما له من مردودات إيجابية على المتعلم ومحيطه وبيئته، وحتى على المستوى الإنساني لما يحمل من قيم منها:

الرفعة

المكانة

المعرفة

الاعتراف

التقدير

الحقّ

العدل

وقد ربط الله تعالى الإيمان بالعلم في قوله تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}478.

وذلك لما له من أهمية ومكانة، لذلك قال صلّى الله عليه وسلّم: "طلب العلم فريضة على كلّ مسلم"479.

إنّ الواجب والواقع يجعلان طلب العلم فوق كلّ الواجبات، ويشترط أن يقترن ذلك بالوعي والإدراك، فلا يجتهد النّاس في طلب علوم بعيدة عن واقعهم، بل ينبغي أن يكون العلم فيما يخص الإنسان مباشرة، ويعالج مشاكلّه ويلبي احتياجاته التي يواجهها في زمانه، من معرفة أهل زمانه، وطبيعة القوى والتيارات الحاكمة في الحياة من:

أسبابها

مسبباتها

نتائجها

طرق معالجتها

[478] – المجادلة 11.

[479] – شعب الإيمان، ج 2، ص 253.

أي أن يكون علما بالسياسة والمجتمع والاقتصاد والنفس وما تحتاج هذه العلوم من علوم مساعدة تصب في خدمة الإنسان بالمعنى الشامل للحياة.

والذي ينصب اهتمامنا عليه في هذه القضية هو علم الاقتصاد أكثر من غيره، وبعبارة أهم الوعي الاقتصادي من حيث حسن التصرف، لأن المجتمع الذي يملك أبناؤه مستوى معينا من الثروة والغنى، فإنهم بطبيعة الحال يرفضون الاستعباد، وليس المقصود بذلك أن يكون دخل الفرد كبيرا. وإنّما الغرض من قيمة الدخل أن تغطي النفقات ويبقى منها شيء للادخار، فلو كان الدخل الشهري كبيرا جدا، ولكن كانت النفقات الطبيعية أكثر من هذا الدخل لأصبح فقيرا، والفقير حقّيقة ليس الذي لا يملك، وإنما هو الذي يكون إنفاقه الطبيعي أكثر من دخله، ولذلك يجب أن نبعد أفراد المجتمع عن الفقر.

ولا يعني ذلك أن يكون همه الحصول على المزيد من المال، بل المقصود أن يقتصد في النفقات وألا يجعل ميزانيته دائما في السالب. لن المال معونة في كلّ شيء، ونعم العون على تقوى الله الغنى.

والغنى أن يكون الإنسان مبسوط اليد يوم الحاجة، وهو ذلك اليوم الذي يحاول فيه الغني أن يستغل الآخرين، فحينما تقرر سلطة الأغنياء أن تتحكم في مصائر النّاس، يجب أن يكون النّاس قادرين على المقاومة بمدخراتهم حتى لا يسلط عليهم سيف الجوع بالتهديد بالفصل من العمل أو غير ذلك. أو أنّ أصحاب الأموال الذين يريدون أن يسخروا الآخرين وفق ما يشاؤون ويلجؤون إلى قطع مرتباتهم مثلا، فإنّ المدخرات لدى الآخرين كفيلة بأن تعيد لهؤلاء حقّوقهم ولأوّلئك عقولهم، لأنهم يمتلكون مدخرات يعيشون بها ريثما ينجلّي الأمر، فهذا

صمود يرغم المتحكمين بمصائر النّاس من خلال المال للعودة إلى الحقّ وبالتالي هو إرغام لسلطة الاستبداد في الرضوخ إلى الحقّ.

لذلك فإن سيطرة الاستبداد مقرونة بقلة الوعي وقلة المال عند النّاس. فكلّما توزعت الثروة وانتشر الوعي كلّما ضعفت سلطة الاستبداد والاستعباد.

سابعا: الخضوع لغير الله ذل.

هنا ينجلّي الإيمان بأبهى صورته في التسليم بأن: {إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}480.

الأرض لله سبحانه وتعالى

ما في الأرض ملكه

من على الأرض خلقه

خلق الله عباده

التساوي في الخلق هو تساوٍ في الحقّوق والواجبات

الله تعالى حرم الظلم على نفسه

حرم الظلم بين عباده

الاستئثار بالمال بغي

البغي ظلم

على الباغي تدور الدوائر

---

480 – الأعراف 128.

ولذا؛ فإنّ الأرض يرثها الصّالحون من عباد الله تعالى بضمانة صلاحهم وعدم بغيهم، لذلك عندما بغى قارون وصل إلى سوء المنقلب، وما كان بغيه على قومه إلا لافتقاره إلى الصلاح وبهذا فقد ضمانة وراثة الأرض والمال الذي جعله الله تعالى من نصيب الصّالحين في الميراث حيث أن الصّالحون يرثون من بغى عليهم وإن طال عليهم الزمن، فهنا تأتي ضمانة الإيمان وهو الأهم، حيث أنّ الله تعالى حرم على الإنسان الخضوع لسلطان غير سلطان الله، أو لحاكم لم يأمر الله بإتباعه، لأنّ ذلك يعتبر شركا بالمقياس الإلهي، وذلا بالمقياس الإنساني.

وعليه نقول:

المال يستعبد مالكه مثل قارون

من يملك المال يستعبد الآخرين

من استعبده المال فقد أشرك

من استعبده صاحب المال فقد دخل في الشرك

كلّاهما دخلا في البغي

البغي ظلم

وعندما بغى قارون على قومه لم يكن يخطر بباله كلّ هذه الموبقات، ولو أنّ القرآن الكريم لم يبن لنا جزئيات البغي، إنما يمكن أن نعلم من النتيجة التي أوصله إليها بغيه ومن خلال افتتان قومه به لما خرج عليهم بزينته أنّ المسألة خرجت عن الحد الإنساني في التساوي بين البشر، ولابدّ أن هناك مؤشرات بدأت تظهر من خلال تصرفات قارون تدلّ على الطموحات النزاعة باتجاه التمرد على الخلق وصولا إلى الحالة

الفرعونية التي يدخل فيها الشرك ويدعو قارون نفسه إلها من خلال ما أوتي من كنوز.

فالشرك عند الله ظلم عظيم غير قابل للغفران، لذلك نهى الله تعالى عن الشرك كبيره وصغيره، وأكد على ضرورة مقاومة الشركاء والمشركين من دون الله، والتمرد على الآلهة التي تُعبد من دون الله، ومن هذه الآلهة أصحاب الثروة الذين يتسلطون على النّاس ويستغلونهم بما آتاهم الله من فضله.

إنّ هدف الجانب الإيماني في الإسلام تجاه الحياة الاجتماعية هو:

أن يجعل المال خاضعا للإنسان

أن لا يكون المال حاكما عليه

أن يجعل الإنسان مسخِّرا للحياة

أن لا يكون تابعا لما فيها من متاع زائل

وهذه الأهداف تتحقّق عن طريق الإيمان عبر مجموعة كبيرة من المعطيات منها:

تعليمات تربوية

أحكام اجتماعية

وصايا أخلاقية

وإذا استطاع مجتمع أنّ يتحرر من سلطة المال ويجعله مملوكا له وليس مالكا، فإنّه ليس فقط تنطلق مواهبه وتتفجر إمكاناته ويتحرر من الجمود، وإنما تنمو ثروته أيضا، ويستطيع أن يفلت وإلى الأبدّ من قيد

الفقر، فالمال حيث يُعبد من دون الله يصبح فقرا، والمجتمع الذي يحكمه المال هو المجتمع الفقير.

وعلى ما تقدم؛ فإنّنا نقول ما يأتي:

1 . إنّ هناك قوتان تتجاذب الإنسان هما: قوّة الطمع، وقوّة القيم

2 . إذا سادت المجتمع قوّة الطمع، فذلك هو مجتمع الجبت والطاغوت، وإذا سادته قوّة القيم، فهو مجتمع والإيمان.

3 . المال والثروة هما أهم مظاهر قوّة الطمع.

4 . الإيمان يحل مشكلّة خضوع الإنسان للثروة، ويغلّب قوّة القيم على قوّة الطمع في ذات الإنسان ومن ثم في المجتمع من خلال:

. جعل سلطة القيم هي الحاكمة على الطمع في ذات الإنسان كفرد.

. التأكيد على عدم تركيز السلطة بيد أصحاب المال والثروة، بل جعلهم تابعين للعلماء والمفكرين

5 . يضع الإيمان عدد من الضمانات لفصل المال والثروة عن السلطة، من أهمها:

. التوزيع العادل للثروة

. القضاء على احتكار الأرض

. مكافحة احتكار المواد الأساسية

. ضبط التجارة

. فصل العلم عن الثروة

. رفع مستوى المجتمع في مجالي العلم والاقتصاد

. رفض الخضوع لغير سلطان الله.

عود على بدء:

وعود على بدء في قوله تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوّلِي القوّة إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ}481[481].

لقد كان قارون من قوم موسى، فآتاه الله مالا كثيرا، يصور كثرته بأنه كنوز والكنز هو المخبوء المدخر من المال الفائض عن الاستعمال والتداول وبأن مفاتيح هذه الكنوز تعيى بها المجموعة من أقوياء الرجال.

من أجلّ هذا بغى قارون على قومه، ولا يذكر القرآن الكريم فيم كان البغي، ليس ليدعه مجهولا، وإنما ليشمل شتى الصور من البغي المحتمل من إنسان يمتلك هذا القدر من المال الذي يستطيع أن يفل به ما يحلو له عندما يتجرد من الأخلاق والقيم والإيمان.

فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم كما يصنع طغاة المال في كثير من الأحيان والأزمان وربما بغى عليهم بحرمانهم حقّهم في ذلك المال، لأن الله سبحانه وتعالى جعل في أموال الأغنياء حقّ الفقراء وأقواتهم، كي لا يكون دولة بين الأغنياء وحدهم وإذا بقي المال في يد الأغنياء فيترتب على ذلك:

فساد القلوب

انتشار الظلم

---

[481] - القصص 76.

طغيان البغي

فساد الحياة

وربما بغى عليهم بهذه الأمور وبغيرها من الأسباب التي أدت إلى أن غضب الله عليه فخسف به وبداره الأرض.

وعلى أية حال فقد وجد من قومه من يحاول رده عن هذا البغي، وإرجاعه إلى النهج القويم، قال تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}482.

فهذه النصيحة من قومه تمثل النهج الذي يرضاه الله في التصرف بهذا الثراء، وهو نهج:

لا يحرم الأثرياء ثراءهم

لا يحرمهم المتاع المعتدلّ بما وهبهم الله من مال

يفرض عليهم القصد والاعتدال

يفرض عليهم مراقبة الله الذي أنعم عليهم

مراعاة الآخرة وما فيها من حساب

وفي هذا القول جماع الحكمة في هذا الاتجاه، لما في المنهج الإلهي القويم من قيم وخصائص يتفرد بها عن سائر مناهج الحياة.

فقول قومه لا تفرح، فرح الزهو المنبعث من الغرور الذي يتمثل في:

---

[482] – القصص 76، 77.

الاعتزاز بالمال

الاحتفال بالثراء

التعلق بالكنوز

الابتهاج بالملك والاستحواذ عليه

والنهي عن الفرح هنا (لا تفرح) هو نهي عن فرح البطر:

فرح الذي يستخفّه المال

يشغل به قلبه

يطير له لبه

يتطاول به على العباد

ينسي المنعم بالمال

ينسي نعمته

ينسي الحمد والشكران له

والقول بأنّ الله لا يحب الفرحين، فهم يردونه بذلك إلى الحقّ وإلى الله الذي لا يحب الفرحين المأخوذين بالمال، المتباهين به، المتطاولين بسلطانه على الآخرين.

لذلك كانت منهم نصيحة محب يدعونه إلى الهدى والخير (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) وفي هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهي القويم، وهذا المنهج يقوم على:

تعلق قلب صاحب المال بمن وهب له هذا المال

لا يحرمه أن يأخذ قسطا من المتاع في هذه الحياة

يحضه على هذا ويكلّفه إياه تكلّيفا

لا يتزهد الزهد الذي يهمل الحياة ويضعفها

لقد خلق الله طيبات الحياة ليستمتع بها النّاس، وليعملوا في الأرض من أجلّ إعمارها وإصلاحها، فتنمو الحياة وتتجدد، وتتحقّق خلافة الإنسان في هذه الأرض. ذلك على أن تكون وجهتهم في هذا المتاع هي الآخرة، فلا ينحرفون عن طريقها، ولا يُشغلون بالمتاع عن تكاليفها. والمتاع في هذه الحالة لون من ألوان الشكر للمنعم بها، وتقبل لعطاياه وانتفاع بها، فهو طاعة من الطاعات التي يجزي الله عليها بالحسنى. قال تعالى: {وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}483.

وهكذا يحقّق هذا المنهج التعادل والتناسق في حياة الإنسان، ويمكّنه من الارتقاء الروحي الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة المتوازنة، التي لا حرمان فيها، ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة، ولا استعبادا للآخرين.

لذلك كانت الدعوة إلى الإحسان إلى الآخرين (وأحسن كما أحسن الله إليك).

لأنّ هذا المال هبة من الله وإحسان منه، ويجب أن يقابل الإحسان بالإحسان من جميع الوجوه تجاه الخالق والمخلوق:

إحسان التقبل وإحسان التصرف

[483] - النمل 40.

الإحسان به إلى الخلق

إحسان الشعور بالنعمة

إحسان الشكران على النعمة

والإحسان على ما تقدم من هذه الوجوه، هو الابتعاد عن الفساد: {وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}484.

فإذا كان دأب الإنسان هو الإحسان فقد ترك الفساد وابتعد عنه لما أمر الله به، ونحن لا نعلم طبيعة الفساد الذي مارسه قارون الأمر الذي دفع قومه إلى تنبيهه على ذلك، غير أن صور الفساد من قبل أصحاب المال لا تخفى فهو يحمل صورا كثيرة وأشكالا متنوعة وأحوالا متعددة منها:

الفساد بالبغي والظلم

الفساد بمنع الحقّوق

الفساد بالمتاع

عدم مراعاة الآخرة

الفساد بملء صدور النّاس البغضاء

الفساد بالحرج والحسد

الفساد بإنفاق المال في غير وجه حقّ

الفساد بإمساكه عن وجه الحقّ

الله لا يحب الفرحين

---

[484] – القصص 77.

الله لا يحب المفسدين

كلّ ذلك كان على مسمع قارون أو بالأحرى أنّه حوار كان يدور بين قارون وقومه، ويبدو أن قارون ضاق بهم ذرعا ولم يحتمل قول الحقّ وسماعه، فأراد أن يضع حدّا لقومه لا يتجاوزنه ويبرهن لنفسه بصدق قناعاته، فكان جوابه زيادة في البغي وإمعانا في الضلال في جملة واحدة تحمل شتى معاني الفساد والإفساد وكفران النعمة والاستهانة بالنصائح التي أسداها له قومه: {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي}[485].

إنّ هذا الجواب يدل على أنه سادر في الغي والبغي، لأنه يعتقد أنّما أوتي هذا المال نتيجة علمه واستحقّاقا على جهده اللذين طوعهما في جمع المال وتحصيله، بمعنى أنه لم يكن لهم أن يملوا عليه طريقة معينة في التصرف بما استطاع أن يمتلكه من مال أو يتحكموا في ملكه الخاص، وفي ظنه واعتقاده إنما امتلك هذا المال بما بذله من جهد، واستحقّه بما تحمل من علم، والله تعالى يقول: {وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أوّلي القوّة}[486].

إنّ تناسي المنعم عزّ وجلّ يجعل قارون وأمثاله أن يصدر منهم هذا الجواب (إنما أوتيته على علم عندي) فهي إجابة المغرور المتغطرس الذي:

ينسى مصدر النعمة

يجحد الحكمة من إنعامها

يفتنه المال

---

[485] - القصص 78.

[486] - القصص 76.

يعميه الثراء

فهو مثال متكرر في بني البشر، فكم من النّاس يظن أن علمه وكده وجهده هم وحدهم سبب غناه، وبالتالي فهو يعتقد أنّه:

غير مسؤول عما ينفق

غير محاسب عما يمسك

لا شأن لأحد بما يفسده من المال وما يصلح منه

فإذا كانت قناعة كلّ ذي مال وفق هذه الرؤية فلنا أن نتصور الفوضى التي تعم المجتمع وتخرج البشر عن الإنسانية المقيدة بالعقل إلى الحيوانية المطلقة بالغريزة، وبذلك تتلاشى قيود الدين والأخلاق والشرائع والقوانين والأعراف وتنتفي القيم ممّا يجعل الفضيلة والرذيلة متساويتان في النظرة والتصرف والاعتقاد.

نعم إن الدين والإيمان والعقل والمنطق يعترف بالملكية الفردية، ويقدر الجهد الفردي الذي بذل في تحصيلها من وجوه الحلال التي شرعها الشارع، ولا يهوّن من شأن الجهد الفردي أو يلغيه، ولكنه في الوقت ذاته يفرض منهجا معينا للتصرف في الملكية الفردية كما يفرض منهجا لتحصيلها وتنميتها وهو منهج متوازن متعادل:

لا يحرم الفرد ثمرة جهده

لا يطلق يده في الاستمتاع به حتى الترف

لا يسمح له بإمساكه حتى التقتير

يفرض للجماعة حقّوقها في هذا المال

رقابتها على طرق تحصيله

رقابتها على طرق تنميته

رقابتها على طرق إنفاقه والاستمتاع به

وهو منهج واضح الملامح متميز السمات، ذلك أن هذا المال الذي تمّ الحصول على في بيئة تضم أفرادا كثيرين، ولولا وجود هذه البيئة والأفراد التي كانت هي عوامل مساعدة في تنمية هذا المال وربما كانت سببا في وجوده لما استطاع أحد بمفرده في معزل عن الآخرين أن يجمع ثروة أو ينميها، ومن هنا جاءت حقّوق الآخرين في مال الفرد.

فقارون، وكلّ قارون لم يستمع لنداء قومه، ولم يشعر بنعمة ربّه، ولم يخضع لمنهجه القويم، ثمّ بعد ذلك يعرض عن هذا كلّه في استكبار مقيت وفي بطر ذميم، لذا الإخبار والتهديد قبل تمام الآية ردا على بغيه وجحوده: {أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قوّة وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ}487.

فإن كان ذا قوّة وذا مال، فقد أهلك الله من قبله أجيالا كانت أشد منه قوّة وأكثر أموالا. وكان عليه أن يعلم هذا، لأنّ هذا هو العلم المنجي وليس العلم الذي ادعاه.

فيجب على قارون وأمثاله أن يعلموا حقّ المال بما فرض الله فيه، لذلك فهم أهون على الله حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم، فليسوا هم حكام ولا أشهاد لأنهم دخلوا في دائرة المجرمين الذين قال الله تعالى بحقّهم: {أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قوّة وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ}488.

---

[487] – القصص 78.

[488] – القصص 78.

ولأنّ قارون كان من المجرمين البغاة، فقد ظهر في موقف وتجلّى في تصرفاته:

البغي والتطاول

الإعراض عن النصح

التعالي على العظة

الإصرار على الفساد

الاغترار بالمال

البطر وكفران النعمة

الإعراض عن الشكر

ثم إنّ من زيادته في الإفساد يخرج قارون بزينته على قومه، فتطير لها قلوب فريق منهم، وتتهاوى لها نفوسهم، ويتمنون لأنفسهم مثل ما أوتي قارون، ويحسون أنّه أوتي حظا عظيما يتمناه المحرومون.

بينما نجد فريقا آخر يستيقظ الإيمان في قلوبهم والوعي في عقولهم، فيعتزون به على فتنة المال وزينة قارون، ويذكّرون إخوانهم المبهورين المأخوذين بزخرفة قارون وزينته بأن ذلك متاع زائل وما عند الله خير وأبقى، ذلك أن قارون وإن أوتي من الكنوز ما لم يؤتَ لأحد، إلا أنه كان ذلك وبالا عليه وليس كما زعم البعض عندما افتتنوا بما رأوا أنه ذو حظ عظيم قال تعالى: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ}489[489].

والإفساد الذي مارسه قارون يتجلّى مظهر من مظاهره عند خروجه على قومه بزينته حيث وقفت طائفة منهم أمام فتنة الحياة الدنيا وقفة المأخوذ المبهور المتهاوي أمام ما رأى، المتهافت توقا أن يكون له مثل ما رأى، بينما وقفت طائفة أخرى تستعلي على هذا كلّه وترفضه جملة وتفصيلا لما وقع في يقينها من:

قيمة الإيمان

الرجاء فيما عند الله

الاعتزاز بثواب الله

فكان من الفتنة التي أوجدها خروج قارون على قومه بزينته، أن انبثق عامل إيجابي وهو الموازنة بين الفريقين بالقيم، ووقع التصادم بين قيمة المال وقيمة الإيمان وبدأت عملية الترجيح من خلال القيم التي يحملها كلّ من الفريقين. في الميزان.

وبدلالة ما يحمل الفريق الثاني من قيم تتمثل في العلم فإن الفريق الأوّل يحمل الجهل بجميع قيمه.

لذلك نجد أن الفريق الأوّل: {قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}490[490].

---

[489] - القصص 80،79.

[490] - القصص 79.

بينما الفريق الثاني اتخذ موقفا مغايرا هو على النقيض تماما: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ}491.

إنّ موقف قارون من اغتر به يعبر عن شهوات النفس التي تنفلت من قيود العقل والحكمة، ونجدها تتكرر في كلّ زمان ومكان، بحث تستهوي هذه الزينة وأمثالها بعض القلوب وتبهر الذين يريدون الحياة الدنيا ويريدون العلو والإفساد في الأرض، فهم لا يتطلعون إلى ما هو أسمى من ذلك وأبقى من زينة الحياة الدنيا وأعلى من زخرفها، ولا إلى الطرق التي يمكن أن يصل بها الإنسان إلى زينة منصفة لله وللنفس وللآخرين كما قال تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ}492.

فالذين تمنّوا أن يكون لهم مثل ما أوتي قارون لم يدرْ في خلدهم المصير والمآل الذي أوصل قارون إلى الهاوية لأنهم يدركوا:

السبب

الطريقة

الهدف

الوسيلة

النتيجة

إن كثيرين من الذين يتمنون الزينة والمتاع يجهلون بأي ثمن امتلك صاحب الزينة زينته، ولا بأي الوسائل نال عرض هذه الحياة من:

491 - القصص 80.

492 - القصص 77.

. مال.

. منصب.

. جاه.

. سلطان.

لذلك تتهافت نفوسهم وتتهاوى أفئدتهم طلبا للزينة ويسيل لعابهم على ما في أيدي المحظوظين من متاع، غير ناظرين إلى الثمن الباهظ الذي أدوه، ولا إلى الطريق الذي خاضوه، ولا إلى الوسيلة التي اتخذوها، ولا يعلمون ما ينتظرهم من مصير.

فأما الذين أوتوا العلم فقد أوتوا الإيمان، ولذلك كان لهم ميزان آخر يقيم الحياة، وفي نفوسهم قيم أخرى غير قيم المال والزينة والمتاع فهم:

أرفع درجة

أعلى نفسا

أكبر قلبا

أكثر وعيا

أعظم زينة

من أن يتهاووا ويتصاغروا أمام زخرف الحياة الدنيا وزينتها، ولهم من استمساكهم بالله عاصم من أن يفتنوا بالمال أو يغتروا به، هؤلاء (الذين أوتوا العلم) فإنهم يقومون به الحياة حقّ التقويم، فيعرفون ما لهم وما عليهم:

{وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ}493.

ثواب الله خير من هذه الزينة

ما عند الله خير ممّا عند قارون

هذه الدرجة الرفيعة من الوعي لا يلقاها إلا الصابرون

الصابرون على معايير النّاس ومقاييسهم

الصابرون على فتنة الحياة وإغرائها

الصابرون على الحرمان

ولما علم الله سبحانه وتعالى (وهو أعلم) منهم الصبر رفعهم إلى هذه الدرجة.

فهي درجة الاستعلاء والترفع عن المتاع الزائل وعرض الحياة الدنيا، وجعل في قلوبهم التطلع إلى ثواب الله في ثقة واطمئنان، لأن علمهم منحهم الصبر على أشياء كثيرة من الزينة والزخرف والبغي والظلم.

إن هذا الصبر الذي امتلكوه وقاوموا به زينة قارون كان قارب النجاة الذي عبروا به إلى ضفة الأمان، لأنّه عندما تبلغ فتنة الزينة ذروتها في الطغيان والبغي، وبدأت وتتهافت إليها النفوس وتتهاوى أمامها القلوب، جاءت رحمة الله تعالى لتنقذ النّاس من الضلال وتضع حدا للفتنة والبغي والطغيان، وترحم الذين استهوتهم إغراءات الزينة، وتصدق الصابرين بما نصحوا الذين تمنوا مثل ما أوتي قارون رأوا الواقعة:

[493] - القصص 80.

{فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ}[494].

ساعتئذٍ استبشر الصابرون بصدق وعد الله لهم، واستيقن الذين تمنّوا مثل زينة قارون أن الله يمد للظالمين حتى إذا أخذهم لم يفلتهم، وكلّا الفريقين وقف على البرهان قال تعالى: {وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}[495].

التيه:

لم يعرض علينا القرآن الكريم قصة تيه بني إسرائيل مباشرة رغم ما ذُكر عنهم في مواضع كثيرة تحيل إلى عقوبة متحقّقة بانتظارهم، إلا أن ورود هذا الأمر في سورة المائدة انبلج فيه أمر تفرع كثيرا في النص القرآني، إلا انه عاد هنا ضمن حركة تجميعية تلملم الأحداث والأفكار والمتحقّقات المختلفة وتطرحها بطريقة تمهيدية تسلك فيها مدارات متنوعة لتستفيق بعد ذلك أمام صورة العذاب الدنيوي الذي وقع على بني إسرائيل.

إن عقوبة التيه لم يتحقّق فيها نهاية بني إسرائيل، لا على المستوى المادي، ولا على المستوى المعنوي، إلا أن فيها طروحات مختلفة تسير في فلك واحد، ذلك أن المدارات التي سلكتها مختلفة، والتساؤلات التي تطرح هنا:

لماذا التيه؟

[494] - القصص 81.

[495] - القصص 82.

لماذا كان محدود الزمان؟

لماذا كان محدود المكان؟

لماذا لم يكن فيه نهاية بني إسرائيل؟

إن هذه التساؤلات تكشف عن وجوه النص، والذي يمكن أن ينتج عند الدخول في سبر أغواره أبعاد وتجلّيات قضية التيه.

كانت البداية بالتذكير، إذ يقول تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ}496 والتذكير يفتح باب التساؤل:

لماذا التذكير؟

هل التذكير لأمور حدثت في الماضي؟

هل التذكير لأمور تحدث بالحاضر؟

هل التذكير فيه إعادة لبني إسرائيل إلى الواقع الذي يجب أن يكونوا عليه؟

إنّ الذكرى لم تكن أمرا:

عرضيا.

أو وقتيا.

أو حتى لأمر دون آخر.

إنما هي أمر يتعلق بصلب الدعوة، فقد ورد في قوله تعالى: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ}497، فهي إحدى سمات الدعوة،

---

[496] – المائدة 20.

فالدعوة بطبيعة الحال تكون موجهة لبشر، والسمة البشرية تقبع فيها سمة النسيان، ممّا تحتاج إلى إيقاظها وجعلها دائما في حضن غير مستقر رغم سمة الاستقرار التي يجب أن تتحقّق فيها.

ثم يبدأ في تذكيرهم بنعم الله التي أسبغها عليهم في تاريخهم الطويل. مخاطبا الحاضرين منهم كما لو كانوا هم الذين تلقوا هذه النعم على عهد موسى – صلّى الله عليه وسلّم – وذلك باعتبار أنهم أمة واحدة متضامنة الأجيال، متحدة الجبلة 498.

إنّ خطاب موسى صلّى الله عليه وسلّم لبني إسرائيل يحمل دلالات عدة تتمحور كلّها حول دائرة واحدة يتمركز فيها بنو إسرائيل ألا وهي دائرة عدم الاستقرار الذي منه:

الفكري.

العقدي.

المكاني.

إذ أنّ الأحداث الماضية كانت شاهدة عليهم من ذلك على سبيل المثال قصة العجل، وهي الأشهر في كشف فكر ومعتقد بني إسرائيل، إذ يقول تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}499 إن هذه الآية الكريمة تترك انطباعا أن بني إسرائيل مستحقّون لهذا التذكير، حتى يمكن القول

---

[497] – الذاريات 55.

[498] – في ظلال القرآن، ج 1، ص 35.

[499] – الأعراف 138 – 140.

أنهم يستحقّون التذكير على مستوى الحضور وكذلك على مستوى الغياب، وهذا يتأتى في سياق وصف حالة بني إسرائيل من جانبين:

أبستمولوجي.

سيكولوجي.

فكان التذكير الأوّل {إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ} لم يرد في القرآن الكريم أنّ قوما من الأقوام وصفوا بكثرة الأنبياء مثل بني إسرائيل، والذي نعتقده في هذا الأمر عدة أوجه:

الوجه الأوّل: إنّ كلّ الأقوام كانت فترتهم الزمنية محدودة أو قصيرة، وكانت نهايتهم تمثل نهاية لاستمرارهم أو حتى لوجودهم الأرضي، مثل قوم لوط، إذ يقول تعالى: {قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ}500 أو عاد، إذ يقول تعالى: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُل مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قوّة أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قوّة وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ}501.

500 -الحجر 71- 76.

501 - فصلت 13- 16.

الوجه الثاني: تعدد معصية بني إسرائيل لفترات طويلة ومتباعدة، ما أفضى أن يكون إرسال الأنبياء تترا فيهم ضمن سياق التذكير المستمر.

الوجه الثالث: هو رحمة رب العالمين، فوجود الأنبياء بهذه الكثرة هو رحمة من رحمات ربّ العزّة بهم، إعطاء الفرصة لهم لعلهم يتعظون.

الوجه الرابع: ليتبين لهم الرشد من الغي.

الوجه الخامس: تركهم لان الله تعالى يريد أن يتم نوره برسالة الكافة محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

أمّا قوله تعالى: (وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا) والجعل في اللغة هو التحويل، والتحويل فيه التغيير الواضح من حالة إلى حالة جديدة تختلف جذريا عن الحالة الأوّلى، ممّا يكسب التحول حالة جديدة تتحقّق فيها المفارقة الحقّيقية عن الحالة الأوّلى، وهنا تكمن النعمة المتحقّقة والواضحة على بني إسرائيل، فبعد هلاك فرعون انفتحت باب الحرية لبني إسرائيل على مصراعيها، فواقعهم الجديد فيه السمات الواضحة التي تنطق بالتحويل، بعد أن كانوا مستعبدين لفرعون وقومه.

إن سمة الملك تعطي لبني إسرائيل شخصية جديدة تستطيع من خلالها:

اختيار الإتباع.

الثقة بالنفس.

البحث عن الحقّيقة.

استدراك ما فات.

الوقوف على العتبة الصحيحة.

إن واقع بني إسرائيل الجديد نفي هذه السمة، فكلّ أفعالهم وأقوالهم سلكت مسلكا مغايرا لما يجب أن يكونوا عليه بالسمة التي ذكرت (ملوكا)، فكلّ تصرفاتهم على مستوى دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم كانت سابحة في بحار واسعة، أمواجها متلاطمة، لا تعرف أين تتجه، ولم تقف عند مرسى النبي موسى صلّى الله عليه وسلّم، وهو الذي قادهم نحو الخير والنجاة.

وقوله تعالى: (وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ) هنا لا ينفتح النص على دلالات متعددة، إنما ينفتح على دلالة واحدة تكون هي العنوان العريض الذي لا يقبل:

التفاضل.

التغاير.

التماثل.

التقارب.

التشابه.

الإحالة.

فالإتيان هنا وان تعدد وتنوّع إلا أنّه يمثل فضل الله سبحانه وتعالى عليهم، فقد آتاهم الشريعة الصحيحة الواسعة الهدى المعصومة، وأيّدهم بالنّصر في طريقهم، وأنقذهم من فرعون وبطشه وساق إليهم رزقَهُم المنّ والسلوى أربعين سنة، وتولّى تربية نفوسهم بواسطة رُسله، وهذه الأمور جميعها تدخل في باب التكريم والتفضيل، مصداقا لقوله تعالى: {يَا بَنِي

إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}502.

إنّ آية الإتيان فيها كلّ التجلّيات والاستظهارات التي تميّز بني إسرائيل وتمنحهم الدلالة الكبيرة التي لم ينتبهوا لها، أو يمكن القول أنّهم تغاضوا عنها، والتغاضي كما نعتقد هو الأقرب، فكلّ السياقات التي عرضناها دللت وتدلّل أنهم تغاضوا ونظروا إلى دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم من طرف عين، وكأنّ الذي بين ظهرانيهم ليس بنبي مرسل صلّى الله عليه وسلّم، فكلّ تصرفاتهم فيها إشارات إلى بلادة التعامل مع موسى صلّى الله عليه وسلّم كنبي ومع دعوته كرسالة، فخطابهم مع موسى صلّى الله عليه وسلّم لم ينتسب إلى أصول معرفية متعارف عليها يدخلون من خلالها مداخل العاقلين، ولا هي شذرات من بقايا دعوات الأنبياء السابقين صلّى الله عليهم وسلّم.

والإتيان جاء في باب التذكير، وذلك ليحيل عقولهم إلى إدراكات سابقة نمت في أفكارهم، وهذا يقلب السنين والأيام والساعات والدقائق والثواني في دولاب لا يعرف له بداية ولا نهاية، فالبحث عن البداية صعب، والبحث عن النهاية يدخل في المتاهات، ذلك أنهم لم يفلحوا في معرفة البداية فكيف يفلحوا في معرفة النهاية، تلك النهاية التي تتسعهم وتكسبهم شكلًا ومعرفة جديدة وذلك في حالة معرفتهم بها.

وعند تقليب الإتيان في جميع الجهات نجده:

لم يكن الإتيان واحدا.

لم يكن وقت الإتيان واحدا.

---

502 – البقرة.

لم تكن طبيعة الإتيان واحدة.

فالتغاير فيه اكسب شكلّ الدعوة بعدا متعددا يحسبه كلّ من يطلع عليه أنّ عقول بني إسرائيل سوف تتحرك وتتجه نحو الحقّيقة التي يدعو لها موسى صلّى الله عليه وسلّم، لكن الإتيان كلّما تكرر وورد بشكلّ مغاير لم يحرك تلك العقول، وهنا نتساءل:

هل الإتيان جاء موافقا لعقول بني إسرائيل؟

هل الإتيان جاء مخالفا لعقول بني إسرائيل؟

هل الإتيان لم يكن فيه شيئا غريبا؟

هل الإتيان لم يكن موافقا لزمانهم؟

هل الإتيان لم يطرح أمرا جديدا؟

إنّ هذه التساؤلات وغيرها تفتح سبل التفكير في البحث عن كينونة هذه العقول التي لا تعرف تفكيك هذا الإتيان وإعادة تركيبه بما يتفق ودعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم، ذلك أن الإتيان لم يأتي كلّه دفعة واحدة، فتعدده المختلف بحسب:

الزمان.

المكان.

التغاير.

الخارج عن المألوف.

المحير للعقول.

اكسب دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم القوّة والمتانة، فالنبي لا بد أن تظهر معجزاته، وهذا الإظهار كان في وقت ومكان تتحقّق فيه المعجزة، وهنا يكمن أمران:

الأمر الأوّل: المعجزة.

الأمر الثاني: الإتيان.

وهذا الأمران فيهما:

تقابل.

تماثل.

تشابه.

فالسياق الذي نبحث عنه هنا هو الإتيان، وهو المرتكز الذي ظهر في سياق الآية الكريمة ليفتح دلالات عدة دون الإشارة إلى دلالة واحدة بالنص، ممّا يسلك الأمر هنا مسلكا مندوحا تظهر فيه كلّ تمظهرات الدعوة، ممّا يتجلّى الإتيان في أوضح صوره.

وقوله تعالى: {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ}503 فقوله تعالى: (يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ) فقد "كرّر النداء مع الإضافة التشريفية اهتماما بشأن الأمر، ومبالغة في حثهم على الامتثال به، والأرض المقدسة هي ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما والسدي. وابن زيد بيت المقدس، وقال الزجاج: دمشق وفلسطين والأردن، وقال مجاهد هي أرض الطور وما حوله، وعن معاذ بن جبل هي ما بين

---

[503] - المائدة 21.

الفرات وعريش مصر، والتقديس: التطهير، ووصفت تلك الأرض بذلك إما لأنها مطهرة من الشرك حيث جعلت مسكن الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم، أو لأنها مطهرة من الآفات، وغلبة الجبارين عليها لا يخرجها عن أن تكون مقدسة، أو لأنها طهرت من القحط والجوع، وقيل: سميت مقدسة لأن فيها المكان الذي يتقدس فيه من الذنوب"504 وإن أُختلف في مكان الأرض المقدسة إلا أننا نعتقد أن تحديد المكان ليس بالأمر المهم، إلا أنّ المهم أنّها تتسم بالتقديس كما وصفها الله تعالى، وهذا يدل على أن التحريم شمل كلّ أرض مقدسة يحرم الدخول إليها لأصالة النجاسة فيمن كفر منهم.

وعليه نتساءل:

هل هناك أرض أكثر قداسة في المكان المختلف حوله من الأرض المباركة؟

نحن نقول هي القدس وما حولها مصداقا لقوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}505

إن خطاب موسى صلّى الله عليه وسلّم هنا فيه نبرة ما سيكون من بني إسرائيل ضمن الأحداث القادمة، في هذا الخطاب يبدأ موسى صلّى الله عليه وسلّم بكشف شخصية بني إسرائيل علنا ضمن آلية ما سيتحقّق أو ما سيصدر، فالتنبيه هنا فيه دلالات الخطر بما سيتحقّق من بني إسرائيل على مستوى الأحداث القادمة، فالخسران سمة فيها الهلاك الذي يفضي إلى سقوط كلّ شيء قائم، وهنا نتساءل:

504 – روح المعاني، الألوسي، ج 4، ص 442.

505 – الإسراء 1.

هل يتوقع موسى صلّى الله عليه وسلّم هلاك بني إسرائيل؟

هل يحدد نهايتهم؟

هل يرسم نهايتهم؟

هل ينذرهم من نهايتهم؟

كما أن الارتداد على الإدبار فيه:

إدراك.

استبطان.

إظهار.

إيضاح.

بيان.

لبني إسرائيل، ذلك أن سياق الآية هنا فيه حزم دلالية متنوعة يتمثل بها بنو إسرائيل من بداية دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم إلى هذا الخطاب، ممّا يثري في الاعتقاد كوامن واضحة الظهور في خطاب موسى صلّى الله عليه وسلّم، إذ بدأت فيه صيغة المستقبل المتوقّع، بمعنى أن خطابه بدأ يدخل في دائرة المتوقّع دون دائرة غير المتوقّع، ذلك أن تداعيات الأحداث والمواقف المختلفة، والإرهاصات المصاحبة لدعوته بدأت ترسم خطابه ضمن دائرة واحدة لا يخرج عنها ألا وهي دائرة المتوقّع، ونحن نعتقد أن هذه الدائرة (المتوقّع) اكتسبت مركزية واضحة المعالم في خطاب موسى صلّى الله عليه وسلّم، ممّا يفضي إلى أن هذه الدائرة ادخل فيها كلّ سمات وخصائص بني إسرائيل.

وقوله تعالى: {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}506، بدأ بنو إسرائيل بوصف القوم بالجبارين بمعنى "متغلّبين لا يتأتّى منازعتهم ولا يتسنى مناصبتهم. والجبارُ العاتي الذي يُجبرُ النّاس ويقسرهم كائنا من كان على ما يريده كائنا ما كان، فعّال من جبرَه على الأمر أي أجْبَرَه عليه"507 كما أن رفضهم الدخول فهو "من الجبن وقلة اليقين، وإلا فلو كان معهم رشدهم، لعلموا أنهم كلّهم من بني آدم، وأن القوي من أعانه الله بقوّة من عنده، فإنه لا حول ولا قوّة إلا بالله، ولعلموا أنّهم سينصرون عليهم، إذ وعدهم الله بذلك، وعدا خاصا"508.

وقوله تعالى: {قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}509 هذه الآية الكريمة تحيل إلى طرح دعوي ليس مقصورا على مدة موسى صلّى الله عليه وسلّم بل هو مطلق في كلّ العصور، ذلك أنّ الله تعالى يقيض للناس من يبصرهم أو يوجههم وحتى يدعوهم دعوة تتراءى للكلّ أنّها بداية جديدة لدعوة الله تعالى، ذلك أن الدين يحتاج في كلّ زمان ومكان من يجدده، ويجدد التفاعل الإيماني

---

[506] – المائدة 22 – 25.

[507] – تفسير أبي السعود ج 2، ص 221.

[508] – تفسير السعدي ج 1، ص 227.

[509] – المائدة 23.

للناس عامة بصور وأشكال مختلفة، وحتى بقراءة جديدة للنصوص الدينية المختلفة، فالحياة لم يكن لها أن تبقى على وتيرة واحدة فهي معرضة:

للتغير.

للتبديل.

للتشكلّ.

كذلك الدين يحتاج إلى انفتاح على الحياة المختلفة، ففيها يظهر ما هو جديد ومختلف عما يحدث في الماضي، وهذا الانفتاح يتطلب وضعا معرفيا يواكب ما هو مطروح من قضايا مختلفة لم تجد لها تحقّقا في الماضي.

والرّجلّان المذكوران في الآية الكريمة يخالفان النكوص عن أمر الله، بينما بنو إسرائيل -كمجموع - لم يفهموا أمر الله حقّ الفهم؛ لأنّهم لو نفذوا أمر الله لهم بالدخول إلى الأرض المقدسة ولم ينكصوا لمكنهم الله من ذلك. لكن لم يفهم أمر الله فيها إلا رجلّان. وهما كالب، ويوشع بن نون، أحدهما من سبط يهوذا والآخر من سبط افرايم، وهما ابنا يوسف صلّى الله عليه وسلّم، فقد قالا: مادام الله قد كتب لكم الدخول، فهو لا يطلب منّا إلا قليلا من الجهاد.

فحين يأمر الله الإنسان بعمل من الأعمال، فيكفيه أن يتوجه إلى العمل اتجاها والمعونة من الله. وسبحانه يقول للعبد: "أنّا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني. فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ، ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرّب إليّ بشبر

تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إليّ ذراعا تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرول"510.

فإذا كان الشأن في المشي أن يتعب الذاهب والسائر، فالله لا يرد أن يرهق بالمشي من يقصده ويطلبه؛ لذلك يُهرول فضله ورحمته – سبحانه – إلى العبد511.

إنّ رفض بني إسرائيل الدخول هو العتبة التي سيزحف بعدها الخطاب إلى الرفض الكلّي، فلم يكن رفضهم رفضا عاديا، بل كان رفضا فيه:

تبجحا.

استنكارا.

استظهارا.

وذلك لكلّ مكنوناتهم القابعة خلف حائط قلوبهم إلا أن قولهم {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}[512] فيه تساؤلات منها:

هل فيه رفض لكلّ دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم؟

هل أنّ إيمانهم كان أيمانا ظاهرا؟

لماذا لم يقولوا اذهب أنت وقاتل دون ذكر (ربك)؟

لماذا التأكيد ب (إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)؟

---

510 – صحيح مسلم، ج 4 ، ص 2067.

511 – تفسير الشعراوي، ج 1 ، ص 2116.

512 المائدة 24.

لماذا لم يجزأ الخطاب فيكون الذهاب دون القعود؟

لماذا لم يكن القعود دون الذهاب؟

لماذا لم يدخلوا أنفسهم في الخطاب فيقولون ربنا؟

إنّ سياق هذا الخطاب تكرر على عهد رسول الله محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ولكن بصيغة مغايرة تنم عن تغاير واضح بين أصحابه صلّى الله عليه وسلّم وبين بني إسرائيل، فالصحابة رضوان الله تعالى عليهم يمثلون الإيمان الراسخ الثابت والطاعة المطلقة في إتباع أوامر رسول الله محمّد صلّى الله عليه وسلّم، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ مُخَارِقِ بْنِ خَلِيفَةَ الْأَحْمَسِيِّ عَنْ طَارِقٍ أَنَّ الْمِقْدَادَ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم يَوْمَ بَدْرٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى {اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمْ مُقَاتِلُونَ 513. فشتان بين بني إسرائيل وأصحاب رسول الله محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

يقول تعالى: {قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}514 إن قصة التيه لم تكن ضمن النسق المتحقّق من نزول آدم صلّى الله عليه وسلّم إلى مبعث موسى عليه والسلام، ذلك أن كلّ الإحالات تكتسب التوافق حين عرضها على تشكيلات الماضي المختلفة، إلا أن التيه لا يقبل الإحالة حتى ولو بجزء يسير، فهو أمر مخصوص لأمة مخصوصة، والتخصيص هنا يبحث عن مدخل يدخل فيها ليأخذ شكلّها الذي يتلاءم أو يتناسب معه، والتساؤلات التي تطرح هنا:

[513] - مسند الإمام احمد، ج 31 ، ص 124.

[514] - المائدة 26.

هل هناك خصوصية لبني إسرائيل؟

هل هو إصرارهم على المعصية؟

هل هو إصرارهم على الرفض؟

هل أن بني إسرائيل صورة جديدة لأمة جديدة؟

هل ما حصل لبني إسرائيل سيحصل لأمم أخرى؟

تشير المصادر المختلفة إلى أن الأرض التي تاه فيها بنو إسرائيل (صغيرة المساحة) بمعنى أنها غير مترامية الأطراف، وهنا تكمن قدرة الله تعالى، فكانت عقوبتهم بهذا الشّكل غير المتوقّع عندهم.

إن التيه بهذه الخصوصية يكتسب تساؤلات عدة أهمها:

لماذا كان التيه لبني إسرائيل بهذا الشّكل؟

ألا يتناسب مع طبيعتهم المعرفية والإيمانية؟

ألا يعينهم على فتح صفحة جديدة في عقيدتهم؟

ألا يكمن فيه إصلاحهم؟

ألا يكمن فيه إنابتهم؟

ألا يكون فيه دروس لمن يأتي بعدهم؟

ألا يكون فيه إعادة لتشكيل فكرهم؟

ألا يكون فيه إعادة لتشكيل إيمانهم؟

ألا يكون التيه درسا لهم؟

هل هو مجرد عقاب ينتهي بنهايته؟

إنّ التيه فيه خروج عن دائرة المتوقّع، فكيف يتيهون في هذه الأرض الصغيرة، يسلكون نفس المسلك، ويرون نفس الآثار، ويقفون عند نفس الأماكن، فلا يغادروها بل يتشبثون بها كأنها أمهم التي ولدتهم.

بقي بنو إسرائيل في التيه، أكلّهم واحد: (المنّ والسلوى) ولهم ظلّ واحدٌ (الغمام) ولهم ماء واحد هو ما يتفجّر من (الصخرة) إذ يقول تعالى: {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كلّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كلّوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}515، هذه الآية الكريمة فيها "تذكير بنعمة أخرى جمعت ثلاث نعم وهي الري من العطش، وتلك نعمة كبرى أشد من نعمة إعطاء الطعام ولذلك شاع التمثيل بري الظمآن في حصول المطلوب. وكون السقي في مظنة عدم تحصيله وتلك معجزة لموسى وكرامة لأمته لأن في ذلك فضلا لهم. وكون العيون اثنتي عشرة ليستقل كلّ سبط بمشرب فلا يتدافعوا"516.

عادت العصا إلى ساحة الأحداث مرة أخرى، ولتشكلّ لبني إسرائيل صورة مضافة إلى الصور التي تحقّقت أمام أعينهم مثل يوم الزينة، لكن هذا التحقّق كان لهم ليرتموا في حضن دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم، لكن هذا الارتماء لم يتحقّق، بل بقي فكرهم يدور كما تدور الرحى في مكان واحد.

أمّا ماذا كان لباسهم؟ وهل كانت لهم خيامٌ؟ وكيف كان يربّون أوّلادهم؟ وهل كانوا يقضون الأيام والليالي بالبطالة أو العمل؟ وغير ذلك من الأسئلة، فلا نعلم عنها شيئا ملموسا لكن من الطبيعي أن

---

515 - البقرة 60.

516 - التحرير والتنوير، ج 1، ص 310.

يتضجّروا ويملّوا هذه الحياة البدائية الرّتيبة، التي لم تدم يوما ولا شهرا ولا سنةً وإنما استمرّت أربعين عاما والتي نعتقد أنها عقاب مشدد.

وعند قراءة الآيات المتعلقة ببني إسرائيل قرآنيا وربطها بالتيه تتجلّى لنا بعض التساؤلات منها:

أين خطاباتهم؟

أين محاوراتهم؟

أين مكامن علمهم؟

أين استدراكاتهم للأحداث؟

أين تأويلاتهم للأمور؟

أين دهاؤهم؟

أين مكرهم؟

كلّها وقفت عاجزة أمام قدرة الله تعالى.

إنّ التيه لم يكن يوما ولا أسبوعا ولا شهرا ولا سنة واحدة؛ إنّما استمر لمدة أربعين سنة، وهنا نتساءل:

ما سر هذه المدة؟

لماذا أربعين سنة بالتحديد؟

لماذا لم يكن أقل من أربعين سنة؟

لماذا لم يكن أكثر من أربعين سنة؟

ولعلّ إبقاءهم في التّيه لم يكن صرف عقوبةٍ على عدم إطاعتهم في دخول الأرض المقدسة، بل كان وراء ذلك إرادة تأديبهم ونضجهم، ليصلحوا أن يكونوا حملة رسالة موسى إلى الأمم الآتية، فإن حملة الرسالة لابدّ لهم من عقل ونضج، لا يتوفران للشخص بسرعة، وإنّما بطول المحنة والتجارب والشدائد.

إنّ هذه العقوبة لم تدخل في غياهب الماضي السحيق وتنسى، بل هي خالدة وتحتاج إلى تأملات متعددة تعيد النظر فيها لتفرز على مر السنين دروسا وعبر وعظات، إذ يقول تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كلّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}517.

وقوله تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحقّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}518، (وإذ قلتم) تذكير لجناية أخرى لأسلاف بني إسرائيل وكفرانهم لنعمة الله عزّ وجلّ خاطبهم تنزيلا لهم مكان آبائهم لما بينهم من الاتحاد وكان هذا القول منهم في التيه حين سئموا من أكلّ المن والسلوى لكونهما غير مبدلين والإنسان إذا داوم شيئا واحدا سئمه وتذكروا عيشهم الأوّل بمصر لأنهم كانوا أهل فلاحة فنزعوا إلى عكرهم عكر السوء واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم فقالوا (يا موسى لن نصبر على طعام واحد) الطعام ما يتغذى

517 - يوسف 111.

518 - البقرة 61.

به وكنوا عن المن والسلوى بطعام واحد وهما اثنان لأنهم كانوا يأكلّون احدهما بالآخر فيصيران طعاما واحدا أو أريد بالواحد نفى التبدل والاختلاف ولو كان على مائدة الرّجلّ ألوان عدة يداوم عليها كلّ يوم لا يبدلها قيل لا يأكلّ فلان إلا طعاما واحدا519.

إنّ طلب بني إسرائيل هنا فيه قراءات متعددة تبنى على الوضع النفسي والفكري، ذلك أن مثل هذا الطلب لا يتحقّق ضمن أسلوب الحياة العادية، والتساؤل الذي يطرح هنا:

لماذا هذا الطلب المفاجئ؟

لماذا تغيير الطعام دون غيره؟

هل في الطعام تغيير لحياتهم؟

هل في الأصناف التي طلبوها تغيير لحياتهم؟

هل كان تغيير نوعية الطعام هو الحجّة الحقّيقية؟

هل يتقابل ما طلبوه مع ما كان؟

هل يختلف ما طلبوه مع ما كان؟

والتساؤل المهم الذي يجب أن يطرح:

- لماذا لم يختاروا ثمارا لا تحتاج إلى حراثة وزراعة وجهد مستمر من ذلك على سبيل المثال التمر، فهو غذاء متكامل ولا يحتاج إلى جهد مثل الفول والعدس والبصل، فالذي نعتقده في هذا الأمر أن عقوبة التيه شكلّت لديهم بعدا:

---

519 - تفسير روح البيان، إسماعيل حقّي، ج 1، ص 185.

نفسيا.

جسديا.

عقليا.

فالدوران في حلقة مفرغة أكسبهم خمولا فكريا وعقليا وجسديا، ممّا جعلهم يترنحون في متاهات مختلفة فرضت عليهم البحث عن زوايا ينفذون منها إلى أي عالم كان، سواء كان فيه نصب أو غيره، فالسنون التي مرت عليهم في التيه ألبستهم لباس الذل والقهر بعد أن كانوا أعزة، وهذا بطبيعة الحال كان من أفعالهم التي أوصلتهم إلى هذا الوضع.

إنّ عقوبة التيه فيها استدراكات وتشكيلات مختلفة، إذ سلكت مسلكا يفصح عن استبطانات مهمة آثرت أن تبقى بعيدة دون الظهور على السطح، فهذه المرحلة من حياة بني إسرائيل بقيت راسخة في أذهانهم، وأصبحت جزءا لا يتجزأ من طباعهم، وهذا الجزء هو انعكاس حقّيقي لبني إسرائيل، وذلك على مستويين:

المستوى الأوّل: ففيه بيان لنتيجة أفعال بني إسرائيل، فالتيه لا يكون إلا عقوبة رادعة لمن تحقّق منه الذنب.

المستوى الثاني: إنّ عقوبة التيه كما نعتقد ليست هي عقوبة فقط لبني إسرائيل؛ إنما قد تخللها إصلاح ذاتي مغاير لما يفهم منها بأنها عقوبة استدراكية نتيجة لما حصل منهم، فلم تتحقّق فيها نهايتهم، ولو تحقّقت نهايتهم فيها لانعدم الإصلاح، وذلك لعدم فائدته كما حصل لقوم لوط وهود وغيرهم.

إنّ التيه وان تحقّقت فيه العقوبة إلا أنّه قد رافقته رحمة الله تعالى ببني إسرائيل، فالأنعام المختلفة التي تحقّقت لهم إذ "ظلل عليهم الغمام من

الحر، وهذه نعم من الله عظيمة وعطيات جسيمة فما رعوها حقّ رعايتها ولا قاموا بشكرها وحقّ عبادتها ثم ضجر كثير منها وتبرموا بها وسألوا أن يستبدلوا منها ببدلها ممّا تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها. فقرعهم الكلّيم ووبخهم وأنبهم على هذه المقالة وعنفهم قائلا لهم {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}520 أي هذا الذي تطلبونه وتريدونه بدل هذه النعم التي أنتم فيها حاصل لأهل الأمصار الصغار والكبار موجود بها وإذا هبطتم إليها أي ونزلتم عن هذه المرتبة التي لا تصلحون لمنصبها تجدوا بها ما تشتهون وما ترومون ممّا ذكرتم من المآكلّ الدنية والأغذية الردية ولكني لا أجيبكم، قال تعالى: {كلّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى}521 أي فقد هلك وحقّ له والله الهلاك والدمار وقد حل عليه غضب الملك الجبار ولكنّه تعالى مزج هذا الوعيد الشديد بالرجاء لمن أناب وتاب ولم يستمر على متابعة الشيطان المريد 522.

معطيات التيه:

عاش بنو إسرائيل حياة متعثرة تحت ظل فرعون وقومه، فقد تجاذبتهم الحياة بأبعادها المختلفة، إذ كانوا يعيشون على شفا جرف

---

520 – البقرة 61.

521 – طه 81.

522 – البداية والنهاية، ج 1، ص 283.

هار، يتقمصون الأدوار المختلفة كي يجدوا ملجأ آمنا ينامون فيه ويصبحون على يوم آخر فيه نفس إرهاصات الأمس.

انقسمت حياة بنو إسرائيل على شطرين ضمن سياق أعده فرعون للبحث عن قاتله كي يقتله، ذلك أن هذا الهاجس نما وترعرع ليكون كابوسا مرعبا يعيش معه في اليقظة والمنام، هذا الانتظار أفضى إلى تقليص عدد بنو إسرائيل وجعلهم ضمن الدائرة الأضعف عددا، فالقتل قد سلب أبناؤهم، وهذا يجعلهم أكثر ضعفا، ذلك أن الذكر هو العنصر البارز في سياق القوّة المتعارف عليه، فإذا ما قل عدد الذكور تكون القوّة سالكة لسلم الهاوية.

لم تظهر ملامح وجود بني إسرائيل مع دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم إلا في استصراخ رجلّ من شيعة موسى صلّى الله عليه وسلّم، إذ يقول تعالى: {وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجلّيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ}523، ثم يتكرر هذا المشهد مرة ثانية لكن النتيجة تكون مغايرة لما كانت عليه في المرة الأوّلى، إذ يقول تعالى: {فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ}524 وفي هذا الموقف خرج موسى صلّى الله عليه وسلّم من مكانين:

[523] - القصص 15.

[524] - القصص 18، 19.

المكان الأوّل: أرض فرعون.

المكان الثاني: أرض بنو إسرائيل.

وهنا تبدأ العلاقة بين موسى صلّى الله عليه وسلّم وبين بنو إسرائيل، وذلك ضمن حركة تضادية تشير إلى بداية انزياح بني إسرائيل عن طريق موسى صلّى الله عليه وسلّم، وان لم يكن الأمر يتعلق بدعوته.

بعد خروج موسى صلّى الله عليه وسلّم من مصر انقطع ذكر بني إسرائيل، فلم نلحظ عليهم الحضور للبحث عن موسى صلّى الله عليه وسلّم رغم نصره لواحد منهم، فقد كان الغياب هو السمة البارزة عليهم.

إن السنين الطوال التي عاش فيها بنو إسرائيل تحت حكم فرعون أسبغ عليهم طابع:

- الخوف.

- الحيرة.

- الحذر.

فضلا عن ذلك استخدامهم في خدمة فرعون وقومه في الأعمال الشاقة وغيرها، وهنا يمكن أن نفصل حياة بني إسرائيل ضمن ثلاثة محاور مثلت التشكيل الواضح لحياة بني إسرائيل:

المحور الأوّل:

- الخوف.

- الحيرة.

- الحذر.

المحور الثاني:

- خدمة فرعون وقومه.

- العمل بالأعمال الشاقة.

المحور الثالث: وهو جوهر حياتهم كما نعتقد، وذلك تعرضهم:

- للقتل.

- الاستحياء.

هذه المحاور الثلاثة أفرزت سيسيولوجيا واضحة لبني إسرائيل، هذا الوضوح واضح الملامح ينفرد بتشكلّ غريب الأطوار قابع في مكان واحد لا يستطيع التحرك، وهو في الوقت نفسه غير مستقر، فالبحث عن الخلاص كما نعتقد لم يكن في أجندتهم، وهذا يجعلنا أن نطلق بعض التساؤلات منها:

- هل اتسم بنو إسرائيل بالجبن؟

- هل بنو إسرائيل لا مواقف لهم؟

- هل دخلوا في دائرة الاستعباد المغلقة؟

- هل استسلموا للأمر الواقع وقبلوا به؟

إن عدم التغيير الذاتي أكسبهم خمولا فكريا ظهرت تمظهراته كما نعتقد في تصرفاتهم مع النبي موسى صلّى الله عليه وسلّم.

إن عرضنا لبداية الأحداث المتعلقة بعلاقة بني إسرائيل مع النبي موسى صلّى الله عليه وسلّم فيه معطيات حصول التيه، ذلك أن كلّ

الاستدعاءات التي يمكن أن تحصل لتاريخ بني إسرائيل تدخل تحت عنوان (معطيات التيه) وهذا يتطلب منا الوقوف على أبرز هذه المعطيات.

يوم الزينة:

مثّل يوم الزينة بداية للوقوف على تفكير بني إسرائيل ففيه عرض لقضية مهمة اكتسبت في حقّيقة الأمر شكلّ الدعوة التي جاء بها موسى صلّى الله عليه وسلّم ففيه:

- اتعاظ.
- استدراك.
- استبصار.
- إدراك.
- إعادة إنتاج للفكر.

هذا اليوم فيه تقابل فكري مختلف قائم على وعي واضح بما يتفق أمام العين، وهذا بطبيعة الحال يلملم الأفكار المتشظية التي آن لها أن تستقر على:

- إدراك واحد.
- فكر واحد.

يمسي ويصبح على حقّيقية واحدة تكون هي الموجه الوحيد لكلّ نفس إنسانية.

لم نرى بني إسرائيل في يوم الزينة لهم ظهور واضح كوضوح ظهور السّحرة، وهذا أمر كما نعتقد من البديهيات، فالصراع كان بين موسى صلّى الله عليه وسلّم وفرعون، لكن هذا الأمر لا يكون على كلّ أحداث يوم الزينة، فكان لا بد أن يكون لهم دور يضفي عليهم سمة المهمة الملقاة على عاتقهم، فتحول السّحرة إلى واقعهم الجديد أخرجهم من:

- كنف فرعون.
- سلطانه.
- ماله.
- قوته.
- جبروته.

إلى حالة جديدة يتحقّق فيها الخروج التام عن كلّ ما كانوا عليه، إذ يقول تعالى: {قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}525، فضلا عن ذلك العقوبة التي تنتظرهم، إذ يقول تعالى: {قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا

---

[525] - الأعراف 121 – 123.

تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}526.

إن كلّ ما حدث للسحرة أمام أنظار بني إسرائيل لم يحركهم فيأخذوا موقفا حازما من فرعون، ويبينوا له موقفهم من موسى صلّى الله عليه وسلّم، كي يتشكلّ موقف مختلف الأطراف يرتسم فيه الرفض الكبير الذي لم يتحقّق من قبل، فقد غربت شمس يوم الزينة، ولم نعرف عنهم أنهم احتفوا بنصر موسى صلّى الله عليه وسلّم على فرعون، وهذا يجعلنا أن ندخل في غياهب فكر بني إسرائيل لنستوحي من ذلك بعض السمات التي وسم بها بنو إسرائيل.

إنّ المتتبع لحياة بني إسرائيل من قبل بعثة موسى صلّى الله عليه وسلّم إلى ما بعد وفاته صلّى الله عليه وسلّم، يلتمس أن بني إسرائيل مروا بظروف مختلفة شكلّت فكرهم، وأدخلتهم في أحضان مختلفة لا يعرفون الاستقرار على جنب واحد، وهذا كلّه لا يبرر ما فعلوه مع موسى صلّى الله عليه وسلّم، لكننا حين نستطلع الأحداث نحللها وفق سند معرفي يفكك الحدث ثم يضعه في الزاوية التي تتلاءم معه.

ذلك أنّ كلّ الأحداث التي مرت على بني إسرائيل لم تكن حافزا لهم، أو حتى درسا للبحث عن قاعدة جديدة يتم بناءها وفق ما دعا إليه موسى صلّى الله عليه وسلّم، ذلك أن يوم الزينة كان يجب أن يكون حدا فاصلا لتفكير ولطبيعة بني إسرائيل، فقد اكتسبوا من خلاله:

- القوّة.

- المنعة.

---

[526] - طه 71 – 73.

- القاعدة الجديدة.

- الشخصية الجديدة.

- الفكر الجديد.

- الحرية المفقودة.

هذه الفرصة أسبغت عليهم سمة التقوقع على الإتباع الغير مجدي، وهذا ما عرّض استجابتهم لدعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم إلى انحراف عنها كادت تغير مسارها وتضيف عليها أمورا تخرجهم من دائرة الإيمان والتوحيد، وتدخلهم في دائرة الكفر والخروج من الملة من ذلك على سبيل المثال ما ورد في قوله تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ}[527]، كما أن هناك أمرا في غاية الأهمية ألا وهو وجود النبي موسى صلّى الله عليه وسلّم بين ظهرانيهم وهو منهم ألا يكون له دور في:

- ثبات قلوبهم.

- تغيير حياتهم.

- تصحيح أفكارهم.

- فتح صفحة جديدة في حياتهم.

---

[527] - الأعراف 138 – 141.

- تقويم انحرافاتهم العقدية.

أثر يوم الزّينة:

بعد يوم الزينة سار موسى صلّى الله عليه وسلّم مع قومه، وهذا السير ليس سيرا عاديا؛ إنما هو سير الانتصار، فقد استظل بنو إسرائيل:

- بظله.

- بسلطانه.

- بقوته.

- بنبوته.

وخرجوا من مستنقع:

- الكفر.

- الجبروت.

- البطش.

- القتل.

- الاستحياء.

هذه المدركات كلّها تعطي انطباعا لما سيكون عليه بنو إسرائيل ضمن دائرة المتوقّع، لكن المتتبع لما كانوا عليه يخرجهم من دائرة المتوقّع، ويدخلهم في دائرة غير المتوقّع، وهذا مستوحى من قولهم لموسى صلّى الله عليه وسلّم في قوله تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى

قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ}528.

إنّ الوقوف على عتبة هذا الحدث يفتح لنا عدة تساؤلات منها:

- لماذا هذا الطلب؟

- أين كانوا من دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم؟

- أين كلّ الأحداث السابقة؟

- ألم يفكروا في منقذهم؟

- هل هناك رابط بين دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم وعبدت الأصنام؟

إنّ تصرفهم هذا تتشابك فيه أمور عدة تطرح فكرا مغايرا لما يجب أن يكون عليه الفكر النير الذي يفكك ويعيد الإنتاج بصورة صحيحة تتلاءم مع النسق المعرفي الرّباني، الذي بدأ بنزول آدم صلّى الله عليه وسلّم إلى الأرض، إذ يقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}529، هذا النسق الذي تمثل به النسق الدعوي ليفتح بداية للبشرية في معرفة دعوة الله تعالى، يقول تعالى: {مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجلّهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كلّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}530.

---

[528] - الأعراف 138.

[529] - آل عمران 33، 34.

[530] - المؤمنون 43، 44.

إن المعرفة الإنسانية تتعامل مع الأحداث المختلفة وفق منطلقات مختلفة تتباين فيها المعرفة، وهذا التباين يقسم البشر إلى حقّول معرفية مختلفة، ذلك أن ثنائية القبول والرفض رافقت النسق الدعوي، إلا أنها كما نعتقد لم تجد صداها مع بني إسرائيل، فلم يكن قبولهم قبول ولا رفضهم رفض، ذلك أن تصرفاتهم لم تكن تخضع لثنائية القبول والرفض، فقد تبعوا طريقة التضليل في التعامل مع الأحداث ففي قصة البقرة يقول الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالحقّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ} 531 هذه الآيات الكريمة فيها يتحقّق ما ذهبنا إليه، فسياقها فيه مماّطلة واضحة من قبل بني إسرائيل في تنفيذ ما أمر به الله تبارك وتعالى، فذبح بقرة ليس بالأمر الصعب الذي يحتاج إلى كلّ هذه الأسئلة، فعند قراءة سياق كلاّمهم قراءة عموديا نجد تكرار كلّمة (يُبَيِّنْ) التي شكلّت بوجودها طبيعة الخطاب المفضي إلى فتح انساق:

مختلفة.

متكررة.

مفتعلة.

[531] - البقرة 67 – 71.

مطولة.

مقحمة.

ممّا جعل أمر الذبح بعيدا عن الذهن، وبقي البحث عن سمات البقرة هو المرتكز الذي يشغل الذهن ويدور بعيدا عن كلّ ما هو مطلوب حقّيقة.

نعود إلى طلبهم في عبادة العجل، في قوله تعالى: {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعجل مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا}532. هذا الطلب فيه متاهات فكرية تخرج من تحت أكمامهم بصيغة تراتبية تستقطب كلّ ما تراه أمام عينها، وتحاول محاكاته بقصد أو بدونه.

إنّ عبادة العجل سبقها أمر في غاية الأهمية، فيه نطقت دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم، ألا وهو غرق فرعون، إذ يقول تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النّاس عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ}533، هذه المعجزة التي يقشعر لها البدن كيف تمر مر السحاب:

- ألم تكن لها تداعيات عليهم؟

[532] - النساء 153.

[533] - يونس 90 – 92.

- ألم تحرك عقولهم؟

- ألم يروا نهاية فرعون أمامهم؟

- ألم يدخل الإيمان في قلوبهم؟

لهذا، يمكن أن نعقد مقارنة بين بني إسرائيل والسّحرة في قضية الإيمان، فهي ليست قضية شائكة؛ إنما هي قضية واضحة تفتح دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم ضمن اطر عدة، يكتنف كلّ إطار سمة مغايرة عما يكون عليه كلّ إطار.

إنّ السّحرة لم يكن لهم تاريخ إيماني مثل بني إسرائيل، فقد ظهروا على سطح الأحداث في يوم الزينة دون معرفة أي تاريخ لهم مع دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم، إلا انهم اثبتوا تحولا حقّيقيا فيما اعتقدوا، إذ يقول تعالى: {فَأُلْقِيَ السّحرة سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرجلّكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}534، فكانوا في الصباح يُلعنون وبعد الضحى يترضى عنهم، هذا هو التحول الذي يتحقّق فيه ثنائية القبول والرفض. أما بنو إسرائيل فلهم تاريخ طويل مع دعوة الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم، إذ يقول تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الحقّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعجل

---

[534] - طه 70 – 73.

مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ}535 هذا التاريخ الطويل لم تتضح فيه صورة واضحة كصورة السّحرة أمام فرعون.

هذه التداعيات المختلفة في حياة بني إسرائيل، يمكن أن نعدها بأنّها معطيات للتيه، فهو عقوبة ملازمة لفعلهم، فيها إعادة تنظيم مختلفة لواقع بني إسرائيل، ذلك أن أي تصحيح لا يقوم إلا بعد الوقوف على مكامن الخلل، ومحاولة إصلاحه والتيه يتمثل به.

إنّ قصّة التيه لم تكن ضمن النسق المتحقّق من نزول آدم صلّى الله عليه وسلّم إلى مبعث موسى عليه والسلام، ذلك أن كلّ الإحالات تكتسب التوافق حين عرضها على تشكيلات الماضي المختلفة، إلا أن التيه لا يقبل الإحالة حتى ولو بجزء يسير، فهو أمر مخصوص لأمة مخصوصة، والتساؤل الذي يطرح هنا:

هل هناك خصوصية لبني إسرائيل؟

هل أنّ بني إسرائيل صورة جديدة لأمة جديدة؟

هل أنّ بني إسرائيل جمع فيهم ما تحقّق؟

هل أنّ بني إسرائيل جمع فيهم ما سيتحقّق؟

هل ما حصل لبني إسرائيل سيحصل لأمم أخرى؟

إنّ هذه التساؤلات وغيرها وحتى الاستدراكات المختلفة التي تقتصي أثر التيه، لم تجد بابا واسعا تقف عنده، إلا بعد الوقوف على الآيات القرآنية التي تفتح انساق الكلّام بما يوضح قضية التيه بالشّكل الذي يصيرها من عذاب إلى رحمة، إذ يقول تعالى: {قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ

---

[535] - البقرة 91، 92.

عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}536 هذه الآية الكريمة لم تحيل إلى نهاية بني إسرائيل، ضمن شكلّ الانتهاء الكلّي وحتى الجزئي، بل وقفت حياتهم وقفت مؤقتة، إذ أوجدت لهم فاصلا زمنيا تنفتح فيه كلّ العقد الفكرية التي تسلسلت طوال حياتهم، فتفتح واحدة تلو الأخرى، وتعاد من جديد إلى ما كانت عليه لكن ليس كما كانت عليه، وهذا هو المراد من التيه.

إنّ سمة التذكير أغدقت على بني إسرائيل بشكلّ لم يتحقّق مع الأقوام الأخرى، وهنا يتمثل أمر المغفرة المفتوحة على بني إسرائيل، فإنهاءهم يعني إنهاء ذكرهم وجعلهم كالأمم التي ذهبت ولم تبقى لها باقية، إذ يقول تعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ}537، فسياق التذكير يطرح بني إسرائيل ضمن أروقة الماضي في كلّ تفصيلاته، ففيها ماضيهم الذي استعرضه القرآن الكريم، وهذا الاستعراض تشكلّ فيه أمران:

الأمر الأوّل: التذكير.

الأمر الثاني: الدعوة إلى التصحيح.

إذ نرى هذا التشكلّ في قوله تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوّل كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ وَلَا تَلْبِسُوا الحقّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحقّ وَأَنْتُمْ

---

[536] - المائدة 26.

[537] - الحاقة 4 – 8.

تَعْلَمُونَ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ أَتَأْمُرُونَ النّاس بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ}538 وقوله تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كلّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى}539، هذه الآيات الكريمة تطرح التذكير مقرونا بالتوجيه، فهي نصوص تحتاج إلى:

تدبر.

استدعاء.

إعادة إنتاج.

وهذه الحاجة تكمن في التيه، ذلك أن التيه كما نعتقد مرتبط بالآيات الكريمة لان فيه يكون:

التصحيح.

البحث عن الحلول.

الاستبصار.

---

[538] - البقرة 40 - 48.

[539] - طه 80 – 82.

المقابلة بين الأمور.

الوقوف على الأخطاء.

تجاوز الأخطاء.

إنّ السياق القرآني عرض الأرضية الخصبة لإصلاح بني إسرائيل، ذلك أنّ التيه لم يكن عند بداية دعوة موسى صلّى الله عليه وسلّم ولا في وسطها، إنّما كان في نهايتها، وهذا يجعله متقابلا مع عذاب الأمم السابقة، فنهايتهم كانت بالعذاب، وبنو إسرائيل كانت نهايتهم بالتيه، إلا أنّ الاختلاف بين الاثنين أن عذاب الأمم السابقة تحقّق فيه نهايتهم، أما التيه فكان بداية جديدة لبني إسرائيل وان كانت النهاية فيما بعد من ضمن اختياراتهم.

إنّ الشبه والمقابلة بين الأقوام السابقين وبني إسرائيل تفرز لنا أمورا تخرج عن دائرة المتوقّع، فحين نقرأ الآيات القرآنية التي تتحدث عن الأقوام السابقين وبين بني إسرائيل نجد أن عددا من الأقوام السابقين كانت أفعالهم مقرونة بقضية دنيوية، وذلك مثل أفعال قوم لوط، إذ يقول تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ}540. وقوم هود، إذ يقول تعالى: {إِذْ قَالَ

[540] - الشعراء 160 – 163.

لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَبْنُونَ بِكلّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ} 541.

أما بنو إسرائيل فكان التذكير والتوجيه في أمور عقدية تتعلق بصلب عبادة الله تعالى وتوحيده، إذ يقول تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوّل كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ وَلَا تَلْبِسُوا الحقّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحقّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ أَتَأْمُرُونَ النّاس بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ}542 يبدأ السياق القرآني هنا بنداء علوي جلّيل إلى بني إسرائيل، يذكرهم بنعمته – تعالى – عليهم ويدعوهم إلى الوفاء بعهدهم معه ليوفي بعهده معهم، وإلى تقواه وخشيته؛ يمهد بها لدعوتهم إلى الإيمان بما أنزله مصدقا لما معهم. ويندد بموقفهم منه، وكفرهم به أوّل من يكفر! كما يندد بتلبيسهم الحقّ بالباطل وكتمان الحقّ ليموهوا على النّاس – وعلى

541 – الشعراء 124 – 136.

542 – البقرة 40 – 48.

المسلمين خاصة – ويشيعوا الفتنة والبلبلة في الصف الإسلامي، والشك والارتياب في نفوس الداخلين في الإسلام الجديد. ويأمرهم أن يدخلوا في الصف. فيقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويركعوا مع الراكعين، مستعينين على قهر نفوسهم وتطويعها للاندماج في الدين الجديد بالصبر والصلاة. وينكر عليهم أن يكونوا يدعون المشركين إلى الإيمان، وهم في الوقت ذاته يأبون أن يدخلوا في دين الله مسلمين![543]. فعند المقابلة ما بين الأقوام السابقة وبين بني إسرائيل نجد أن القرآن الكريم عمد إلى تصحيح عقيدة بني إسرائيل ففيها الفساد التي ينطلق منه كلّ:

الأكاذيب.

التدلّيس.

الحض على قتل الأنبياء ومن ثم قتلهم بالفعل.

عدم الوفاء بعهد الله تعالى.

يحرفون الكلّم عن مواضعه.

وغير ذلك من الأمور، والتي تتعلق كلّها بالعلاقة مع الله تعالى. هذه الأمور بمجموعها تدخل التيه الذي فيه تتقلب الأمور رأسا على عقب وتدرك حقّيقتها وكنهها، وتعاد مرة ثانية ضمن السياق التي يريده الله تعالى، وهذا لا يكون لكلّ من دخل التيه.

إنّ عقوبة التيه كما نعتقد ليست هي عقوبة فقط لبني إسرائيل؛ إنّما قد تخللها إصلاح ذاتي مغاير لما يفهم منها بأنها عقوبة ملازمة للفعل نتيجة لما حصل منهم، فلم تتحقّق فيها نهايتهم، ولو تحقّقت نهايتهم فيها لنعدم الإصلاح، وذلك لعدم فائدته كما حصل لقوم لوط وهود

---

[543] – في ظلال القرآن، ج 1، ص 35.

وغيرهم، كما أن عملية الإصلاح تتطلب أداة تكون محفزة للتصحيح، تمسك الممحاة بطرف فتمحي، وتكتب من جديد وهو المراد، وهذه الأداة هي العقل المتجدد الناضج الذي يرى دقائق الأمور، ويقلبها وفق أشكال مختلفة، فيختار الشّكل الذي يوافق رسالة الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم، إذ يقول تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}544.

يقول الله تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ}545. جاوزنا بني إسرائيل البحر لكن فرعون غرق في اليم، فاليم مكان فيه نجاة موسى عليه الصلاة وهلاك فرعون، بداية لموسى صلّى الله عليه وسلّم ونهاية لفرعون.

كان اليم بداية وكان نهاية، كان بداية لنجاة موسى صلّى الله عليه وسلّم، إذ يقول تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ

---

[544] - يوسف 108 – 111.

[545] - يونس 90.

الْمُرْسَلِينَ}546 وكان بحمد الله تعالى أيضا نهاية لفرعون وجنوده الظالمين، اذ يقول تعالى: {وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى}547 والحمد لله رب العالمين.

النساء في رسالة موسى:

إنّ من الحقّائق التي نقف عليها في القرآن الكريم أنّه انطلق في خطابه للمرأة من مبدأ الخطاب الكلّي للإنسان على قدر المساواة، منذ أن انبثق خطاب الوجود الأوّل للنفس الإنسانية، وذلك في قوله الله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ}548.

فكان هذا التكلّيف الإلهي يشمل النوع بجنسيه من الذكر والأنثى المتمثل في الإنسان قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}549.

وقد خاطب الله سبحانه وتعالى المرأة في القرآن وتعامل معها باعتبارها عنصرا فاعلا وعاملا مهما على سبيل التسوية المطلقة بين الرّجلّ والمرأة في المسؤولية من حمل الأمانة الكبرى.

---

546 – القصص 7.

547 – طه 77 – 79.

548 – الأعراف 172.

549 – الأحزاب 72.

لذلك كانت الاستجابة للنوع بجنسيه من الذكر والأنثى على قدر المساواة أيضا حيث قال تعالى: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ}550.

وأمّا ما خالفت المرأة الرّجلّ فيه من أحكام، فذلك راجع إلى الطبيعة التكاملية بين الذكورة والأنوثة، وليس إلى نقص خلقي تكويني في طبيعتها، فقد ينقص الرّجلّ في شيء لتكمله المرأة، وقد تنقص المرأة في شيء ليكمله الرّجلّ، سعيا لإشباع الحاجة الفطرية الطبيعية بينهما، ورغبة في دوام الالتقاء وضمان استمرار الحياة.

وقد كان ذكر النسوة في قصة موسى صلّى الله عليه وسلّم تتمثل في نساء خمس شكلّنَ الإطار العام لوجود المرأة في حياة الرّجلّ وما يرمز إلى ذلك من علاقات بين أي رجلّ وأي امرأة على صعيد الحياة الإنسانية وهنّ:

1 . أمّ موسى

2 . أخت موسى

3 . امرأة فرعون

4 . زوجة موسى

5 . أخت زوجة موسى

---

550 – آل عمران 195.

لم يكن من المصادفة أو نافلة القول ذكر خمس نساء في قصة موسى صلّى الله عليه وسلّم، على الرغم ممّا كان يربط موسى مثله مثل أي إنسان من صلات رحم أو علاقات اجتماعية لم يذكرها القرآن الكريم وإنما اقتصر ذلك على:

. الأم (المرضع)

. الأخت

. الحاضنة (زوج فرعون)

. الزوجة

. المرأة الأجنبية

وبتعبير آخر، إن الحديث عن المرأة والمظاهر الإنسانية التي تنبثق منها المعطيات المدنية والعلمية والفنية والعمرانية ماديا ومعنويا في المجتمع بشكلّ عام، والمظاهر الاجتماعية من علاقات بين الرّجلّ والمرأة بشكلّ خاص، والكلّام في هذا الاتجاه، ليس إلا حديثا عن بناء متكامل تضع أسسه المرأة والرّجلّ لبنة إثر أخرى ليكوّن بالنتيجة مجموعة متكاملة للحياة والحضارة والإنسانية ومن هذه الأسس:

بناء الأسرة

بناء المجتمع

البناء الأخلاقي

البناء العقائدي

البناء الفكري

وهذه الأبنية جميعها تسهم في تكوين المجتمعات البشرية، وبالتالي فإنّ من يسلط الضوء على ما تنتجه هذه الأبنية من حضارة يجعل الرّجلّ عمادها، وعندما يغض الطرف عن المرأة سهوا أو جهلا فإنه يغض من شأن هذه الحضارة والقيم والأخلاق، لأنه يجردها من نصف الحقّيقة ونتاجها الخاص باختصاصات المرأة وإسهاماتها المقصورة عليها دون الرّجلّ، وبالتالي فإنّه يكون قد ألبس الحقّيقة غير لبوسها، وادعى أشياء لمن ليس له بها حقّ من ثمار متميزة لا يمكن أن توجد لولا وجود المرأة.

ذلك أن المرأة والرّجلّ وإن اجتماعا في النوع الإنساني الذي يحتاج إلى متطلبات عامة تشبع احتياجات الإنسان، إلا أنهما يختلفان في خصوصية الجنس بين الذكر والأنثى ولكلّ متطلباته الخاصة التي تؤدّي بالنتيجة إلى التعاون والتفاهم في تكوين مجتمع يتسلسل صعودا ليرتقي إلى الإنسانية التي كرّمها الله تعالى.

وهذه الإنسانية لا تتحقّق إلا بتوافق ما يحمله النوع بكلّا جنسيه من الأفكار والمشاعر والأحاسيس والنظرة والأنظمة في التعامل ونقصد بذلك ما يلي:

. نظرة الأم إلى الابن

. نظرة الأخت إلى الأخ

. نظرة الزوجة إلى الزوج

. نظرة الحاضنة إلى المحتضن

. نظرة الأجنبية إلى الرّجلّ

والعكس صحيح في نظرة الرّجلّ الذي يمثل الابن والأخ والزوج والمحتضن، ويمثل أيضا الأجنبي بالنسبة للمرأة التي لا تربطه بها إحدى هذه الروابط.

وأمّا ما لم يذكر من صلات أخرى في القرابة بين البشر، فإن العلاقات التي ذكرت تمثل امتدادات بين الرّجلّ والمرأة في صلات العصب والرحم التي تنتمي إليها إحدى العلاقات المذكورة.

وإن كان الأصل بداية قبل الامتداد والتشعب هي النفس الواحدة قبل الذكر والأنثى حيث قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}551.

ثم بدأ الامتداد والتداخل، ثمّ الافتراق والتباعد، ثم عودة أخرى إلى التقارب والتعارف كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}552.

وما يحكم ذلك من:

عواطف

مشاعر

أحاسيس

مواقف

[551] – النساء 1.

[552] – الحجرات 13.

قوانين

أنظمة

تشريعات

أعراف

صلات

كلّ في اتجاهه حسب ما يربط المرأة بالرّجلّ من العلاقات الخمس الأساسية التي ورد ذكرها مع موسى صلّى الله عليه وسلّم، لأنها هي التي تصوغ المجتمع وتميزه بإنسانتيه وفق هذه العلاقات وما يحكمها من نظرات ومشاعر وأسس وقوانين وشريعة بما أحلّ الله تعالى وما حرّم وفق هذه العلاقات، وبالتالي فإن هذه الأسس التي يبنى عليها المجتمع الإنساني تجعل منه مجتمعا ذا طراز خاص ونمط متميز عن مجتمعات المخلوقات الأخرى قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}553. وعليه فإن مضمون المجتمع الإنساني الذي يقوم على المرأة والرّجلّ يتمثل في:

العقد الاجتماعي

مجموعة العقائد والإيمانيات

المفاهيم الأساسية

النظرة إلى الحياة الدنيا وما قبلها وما بعدها

مفاهيم القيم الكبرى في الحياة

553 - الأنعام 38.

مفاهيم السعادة

الخير والشر

الفضيلة والرذيلة

مقياس الأعمال

الحلال والحرام

المعايير السلوكية التي توجه طبيعة العلاقات في المجتمع

فهذه العلاقات التي تحكمها الأنظمة التي ذكرناها تراعي شؤون الإنسان في نظام اجتماعي ينظم علاقة المرأة بالرّجلّ في جميع امتداداتها من:

أمومة

أخوة

زواج

كفالة وحضانة

محارم

لذلك لم يكن من العبث أو الصدفة أن ذكر النساء في قصة موسى صلّى الله عليه وسلّم اقتصر على هؤلاء الخمس لأن ذلك يستوفي علاقة المرأة بالرّجلّ، فلو كان أقل من ذلك لكان هناك خلل في العلاقة بين الرّجلّ والمرأة، ولو كان أكثر من ذلك لما أضافت الكثرة زيادة في الفائدة عما ذكر.

وممّا تقدم تتكون كلّ الروابط الروحية والنفسية والاجتماعية بين الرّجلّ والمرأة التي هي دعامة قيام الأسرة التي تؤسس لقيام المجتمع، ولذا سنتناول كلّ امرأة ممّا ذكر في قصة موسى صلّى الله عليه وسلّم على حدة حتى نقف على جزء من الدور الذي تقوم به، وأمّا العمة والخالة اللتان يراود البعض عدم ذكرهن فإن أيٍّ منهما لا تسدّ الثغرة التي تتركها إحدى هؤلاء النساء الخمس اللواتي رافقن موسى صلّى الله عليه وسلّم إن هي غابت، ولا تخرج أي امرأة في علاقتها بالرّجلّ عن واحدة من هؤلاء الخمس وهن:

آ ـ الأم

وهي تمثل الركن الأساس في الأسرة التي تكوّن المجتمع، وأمّ موسى صلّى الله عليه وسلّم كانت رمز مجتمع الأمومة فيما يجري عليه من:

خوف وحزن

أفراح وأتراح

مسرات ومصائب

صبر وحكمة

رعاية وعناية

اهتمام وتنشئة

أمّ موسى:

قال تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}554.

لقد ألقى الله تعالى في روع أم موسى أن ابنها سيرجع إليها لذلك أرضعته وألقته في اليم، والخوف الأوّل الذي نبهها الله تعالى عليه هو خوف حرص وتحسب مثلها في ذلك مثل أي أمّ تضع مولودا، وأمّا الخوف الثاني فهو ما كان ينتاب بني إسرائيل من أمر فرعون في قتل الأطفال الذكور الذين يولدون، فأدركها ما أدرك النّاس من فعل فرعون خوفا على ابنها، لذلك فإن الله تعالى أثبت لها الخوف الأوّل وهو خوف عام لدى كلّ أمّ:

(أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم)

ثم نهاها عن الخوف الثاني وهو خوف خاص بأمّ موسى:

(فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني)

ومن عجائب الحكمة الإلهية أن الله تعالى أذن لها أن تخاف على مولودها وهو بين يديها، وهو كما ذكرنا خوف خشية من:

المرض

الجوع

الإهمال

---

554 – القصص 7.

لأنّ الأم قد تسهو وتنشغل عن وليدها بأمور كثيرة وهي ربة أسرة يتطلب ذلك منها أن تقوم بواجبات البيت والزوج وما يترتب على ذلك من أعمال كثيرة قد تطول أو تقصر ممّا يؤدّي إلى التعب والإرهاق أحيانا يستدعي الراحة والنوم، وبالتالي الانشغال القسري عن الطفل الذي يستوجب الرعاية والعناية، فهنا كان خوفها مباحا وأذن الله لها بذلك.

ولكن عندما أسلمته لله تعالى بما أوحي إليها من إلقائه في اليم انتفت عنها المسؤولية الجزئية والكلّية اتجاه هذا الطفل وإن كان مولودها وهذا لم ينف الخوف عنها، لأنه أصبح في رعاية خالقه، وعناية بارئه، والذي برأ الكون وما فيه لن يعجزه رعاية الكون ومن فيه.

وفي النهي عن الخوف أضاف له شعورا آخر ينتاب أم موسى بعد مفارقة ولدها عندما تلقيه في اليم، ولذلك نهاها عنه أيضا:

لا تخافي

لا تحزني

فهذا وإن كان نهيا، إنما هو نهي تطمين ينتج عن ثقة، ولكن مع هذا راودها أشياء غير الخوف والحزن بعد أن ألقت هذا الطفل الرضيع في متلاطم الأمواج، فذهب الخوف والحزن وحلّ محله الحيرة في التصرف لانشغال العقل وتحرق القلب مع اطمئنان النفس، إلا أن عاطفة الأمومة لابدّ وأن تأخذ مداها في هذا الموقف: {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}555.

555 - القصص 10.

والسؤال هنا؟

كيف أصبح فؤاد أم موسى فارغا؟

وبأي شيء كان ممتلئا ليصبح فارغا؟

فالفراغ الذي يمكن أن ينتاب الفؤاد هو خلوّه من أشياء كثيرة ما قد يراود الإنسان ممّا حدث أو ممّا يمكن حدوثه، والفؤاد هو القلب الذي يمثل العقل في التفكر والتدبر، قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}556.

فإذا امتزج شعور العاطفة بذاكرة العقل تحول القلب إلى فؤاد لأنه اجتمع فيه العقل والعواطف والمشاعر والأحاسيس، قال تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}557.

وقال تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كلّ أوّلئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}558.

فقد ذكر الله تعالى أدوات الإدراك التي يصل بها الإنسان إلى الحقّائق وهي:

السمع

البصر

---

556 – الحج 46.

557 – الأحقّاف 26.

558 – الإسراء 36.

الفؤاد الذي يجمع بين العقل والعاطفة

وعليه فإن فؤاد أمّ موسى فرغ من أشياء كان ممتلئا بها، ولابدّ أنه حلت محل تلك الأشياء شيء آخر أو أشياء أخرى

لأن الفراغ الكلّي أو الفراغ المطلق يعني الجنون، وهذا محال في حقّها لأن موسى صلّى الله عليه وسلّم عاد إلى أمه، قال تعالى: {فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حقّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[559].

وهذه الآية تنفي عنها الفراغ المطلق لأنه تعالى:

ردّ موسى إليها

نفى عنها الحزن الذي يصيب الوالهة العاقلة

التأكيد على علمها بأن وعد الله حقّ

وهذه كلّها صفات للعاقل الذي لم يصبه الفراغ المطلق، وإنما هو أحد فراغين:

إمّا فراغ جزئي

وإمّا فراغ استبدالي

وهذا هو المنطق الذي لا يخالف العقل، لأن ما ذكر في حقّها من الفراغ حسب ما ذهب كثير من المفسرين لا ينسجم مع سياق الآية حيث قال البعض:

. فارغا من كلّ همٍّ إلا همٍّ موسى صلّى الله عليه وسلّم

---

[559] - القصص 13.

. الفراغ هو الخوف والإشفاق

. فارغا صفرا من العقل، حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والخوف

. فارغا من الوحي الذي أوحاه الله إليها أنّ ألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني

. لما أتاها خبر موسى عليه الصّلاة والسّلام أنه وقع في يد فرعون فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها

. فارغا من الحزن لعلمها بأنه لا يقتل اعتمادا على تكفل الله بمصلحته

غير أن الذي نراه في فراغ فؤاد أمّ موسى صلّى الله عليه وسلّم، هو أن الله تعالى أفرغ فؤادها من الهم والخوف والحزن، وأحل محله السكينة والأمن والسرور، وهو الذي يستقيم مع الفراغ بنوعيه جزئيا أم استبداليا، لأن الفراغ المطلق للفؤاد يعني فقدان السيطرة على العقل والمشاعر، لذلك كانت إضافة الفؤاد إلى أم موسى فذلك:

لم يضفْ لغيرها

لم يوصف بنوع الفراغ

لأنّ الله تعالى عندما يريد الفؤاد السيء يوضحه وصفا أو إخبارا عنه قال تعالى: {مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ}560.

---

560 – إبراهيم 43.

فكانت إضافة الفؤاد إلى أم موسى صلّى الله عليه وسلّم التي كادت أن تبدي به تجسد مشاعر الأمومة في موقف كهذا، لذلك كان الرّبط على قلبها (لولا أنْ ربطنا على قلبها) ينصبّ على العقل الذي يتحكم بالعواطف من أجلّ حسن التصرف كي لا تبدي به.

ولكن عندما قذفت به في اليم وفارقته أصبح عقلها مشغولا وعواطفها متأججة فكان التعبير عن ذلك بالفؤاد، وعندما كادت أن تبدي به بدفع من تلك العواطف، ربط الله على قلبها بإعادتها إلى سيطرة العقل على العاطفة من خلال الرّبط على القلب، فأصبح العقل هو الذي يتحكم بالعواطف ويوجهها لما فيه الخير والرشد لها ولهذا الطفل.

الأمّ مع الطفل في الطفولة المبكرة:

قال تعالى: {فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حقّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}561.

لقد صدق الله وعده فردّ موسى إلى أمّه ليقضي الله أمرا كان مفعولا، وحتى تقرّ عين أمّه به وينشأ النشأة الطبيعية التي يدرج بها الطفل بين أحضان والدته وما يحتاج من رعاية وعناية وعطف وحنان لا تعوضه امرأة أخرى وإن كانت حاضنة أو مرضعة.

فالطفولة المبكرة مرحلة مهمة لتنشئة الطفل، ودور الأم فيها أكبر من غيرها، فهي في مرحلة الرضاعة أكثر من يتعامل مع الطفل، ولحكمة عظيمة يريدها الله سبحانه وتعالى يكون طعام الرضيع في هذه المرحلة من ثدي أمه وليس الأمر فقط تأثيرا طبيًّا أو صحيًّا، وإنما لها آثار نفسية أهمها إشعار الطفل بالحنان والقرب الذي يحتاج إليه، ولهذا

---

561 - القصص 13.

يوصي الأطباء الأم أن تحرص على إرضاع الطفل، وأن تحرص على أن تعتني به وتقترب منه وإن لم ترضعه.

فالله سبحانه وتعالى الذي أدخل موسى صلّى الله عليه وسلّم قصر فرعون وجعله قرة عين لفرعون وامرأته: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}562.

كان من الممكن أن تأتي كلّ مرضعة ترضع من هو قرة عين لامرأة فرعون وقد كان ذلك وجاءت المراضع من كلّ حدب وصوب، إلا أنّ الله تعالى لم يشأ أن يحرم موسى صلّى الله عليه وسلّم ممّا تضفيه الأم على وليدها غير الرضاعة والعناية لذلك قال تعالى: {وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ}563.

علما أنّ المرضعة والمربية والحاضنة تقوم باحتياجات الطفل من:

إرضاعه وإطعامه

تنظيفه وتهيئة لباسه

تعليمه وإرشاده

محبته ومداعبته

ولكن الشيء الذي لا تستطيعه أيٍّ من هؤلاء النسوة هو منحه الحنان والطمأنينة النفسية التي يشعر بها الطفل عندما ترعاه أمّه الوالدة، فإذا كانت مشبعات حاجاته متوفرة على يد هؤلاء النسوة من:

الرضاعة

---

[562] - طه 39

[563] - القصص 12

الحضانة

الرعاية

النظافة

فإنّ الطفل يفقد قدرا كبيرا من الرعاية النفسية التي هو بأمس الحاجة إليها، لأنّ الطفل لن يجد الحنان والرعاية من الحاضنة كما يجدها من الأم، وهذا له دور كبير في نفسية الطفل واتجاهاته في المستقبل.

إنّ الأم تحسن التعامل في هذه المرحلة مع الطفل أكثر من أي إنسان آخر، وفي هذه المرحلة يكتسب العديد من:

العادات

المعايير

الأخلاق

السلوك

التصرف

فكلّ هذه القيم يصعب تغييرها في المستقبل، لذلك وجب أن يتأسس عليها من قبل أقرب النّاس إليه لأنّ رابطة التفاهم عن طريق الإحساس والعواطف بين الأم وطفلها أكثر من رابطة التفاهم عن طريق الإشارة واللغة، وهذا لا يمكن أن تدركه بسهولة امرأة أخرى غير الأم، وهنا تكمن مهمة دور الأم لأنّها بوابة الطريق إلى المرحلة القادمة من حياة الطفل فيما بعد وهي المرحلة الأخطر.

ومع ذلك فإننا نجد من تربى بعيدا عن أمّه قد يكون مستقيما صالحا، لكنّه لم ينشأ على علاقة الحنان الذي تمنحه الأم من الصغر

وفق المعايير المنضبطة في السلوك والأخلاق التي تربط كلّا من الوالدة والمولود بعلاقات روحية ينتج عنه نوع من الاحترام نفتقده عند من تربى بعيدا عن أمّه، وهو أمر مهم جدا لأن هذا الاحترام الطوعي الناتج عن عاطفة بمعنى أنه ليس تعليما، سوف يكون جزءا من سلوك هذا الطفل مستقبلا في جميع علاقاته مع الآخرين فلا يستطيع أن يفارقه ولا هو ينفك عنه.

ولذا فإنّ من تربى بعيدا عن الأمّ الوالدة وإن نشأ سويا مستقيما، قد يبدر منه نوع من سوء الخلق أو عدم الانضباط السلوكي في مواقف كثيرة نسبةً وقياسا لمن تربى في أحضان أمّه، والسبب في ذلك أنّه افتقد العلاقة الروحية والنفسية والحنان الذي ينتج عنه، هو احترام طوعي داخلي غير تعليمي خارجي.

وعندما تكون الأم أكثر التصاقا بالولد في الطفولة المبكرة، فهذا القرب يزداد وينمو حتى يتطور إلى نوع من الشعور بالمسؤولية، وأن أحد أهم مشاكلّ الأبناء الذين يتربون بعيدا عن أمهاتهم الوالدات يعانون معانة نفسية متفاوتة فيما بعد مثل:

الانطواء

الانزواء

الكتمان

الوحدة

وهذا يعود إلى تخلف دور الأمّ في الطفولة المبكرة، لأن ذلك يعكس:

قلة الحنان

التوتر النسبي

الاضطراب النفسي

الشعور بالفراغ العاطفي

لذلك وجب أن تعيش الأم مع ابنها وتكون قريبة منه، ذلك أن الابن يجرؤ أن يصارح أمّه أكثر من أن يصارح أحدا سواها وإن كان أباه، فاقتراب الأم من ولدها والوقوف على ما يريد وما لا يريد يملأ لديه الفراغ العاطفي والنفسي ويكون أكثر استقرارا.

فالأم تتطلع على التفاصيل الخاصة للولد، ويستطيع هو أن يطلعها على ما يمكن أن يطلع عليه الحاضنة أو الكافلة والمرضعة، وبذلك تقف على أحواله الخاصة، فتكتشف مشكلّات عند الطفل أكثر ممّا يكتشفه غيرها، فتدرك الأم من قضايا الأوّلاد أكثر ممّا يدركه الآخرون.

هذه الأمور تؤكد لنا دور الأم وأهميته في:

الرضاعة

الحضانة

العطف

الحنان

التربية

فتجعل هذه القيم والمعطيات تتضافر خدمة للطفل وتسير في خط واحد.

ومهما تؤدّي الأخريات من دور في حياة الطفل إلا أن الأم تشعر:

بأهمية التربية وخطورتها

خطورة الدور الذي تتبوؤه

أنّها مسؤولة عن الجزء الأكبر من مستقبل ابنها

فمسؤولية الأم بمعناها الواسع الذي لا يقف عند حد العقوبة أو الأمر والنهي، كما يتبادر لذهن كثير من النّاس، بل هو أكبر من ذلك، فهي تعنى بإعداد الولد من كافة جوانب شخصيته:

السلوكية

الإيمانية

الجسمية

النفسية

العقلية

فالله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يحرم موسى من معطيات التربية بين أحضان الأمّ، وكذلك تحقّيقا لوعده برده إليها (ولتصنع على عيني):

نشأة وتسوية على دين الله تعالى

رعاية وعناية ورضاعة وحفظا

في البيئة الصحيحة التي يجب أن يكون فيها

والجوانب الشخصية المتكاملة أمر له أهمية في حياة الطفل المستقبلية، وأفضل أوقات اكتسابها والتمثل بها هو وقت النشأة، وخير من يمنح هذه الصفات أو يرسخها ويضيف إليها في الشخصية هي الأم، لذلك حرم الله تعالى على موسى المراضع ورده إلى أمّه قال تعالى:

{وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حقّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}564.

فالمرأة صنو الرّجلّ وشريكته في صنع الحياة، وهي الحضن الذي يترعرع فيه رجال الغد، ومنه تنبت فسيلة الأسرة الصّالحة، فلم يكن ردّ موسى لأمّه من أجلّ أن:

ترضع ولدها

تطفئ ظمأ أمومتها

تهدي شغف قلبها

تأخذ على ذلك أجرا

وإنّما هناك رسالة تحملها وجب عليها أن تؤدّيها على الوجه الأكمل اتجاه هذا الطفل بكلّ صدق ونبل وإخلاص، والأمومة من هذا الوجه، هي حاجة الطفل إلى نوع آخر من الميزات الفطرية الاجتماعية التي لا ترتبط بتغذية الوليد وطعامه ولا بحرص الأم على أن يكون بين يديها وإنما لأشياء أخرى لها أثرها في الشخصية والتكوين النفسي منها:

العاطفة الدافقة

الحنان الدافئ

الإحساس المرهف

لذا، كان ردّ موسى إلى أمّه من أجلّ استكمال التهيؤ والاستعداد النفسي والمعنوي بين أحضانها لما سيكلّف به من مهامٍ ثقال، وهذا ما

---

564 - القصص 12، 13.

لا يوفره له أيّ مرضعة أو حاضنة، وإن توفر ذلك فهو لابدّ أن يكون ناقصا.

وأمّا أمّ موسى فإنها تمثل الأم مطلقا على المستوى الإنساني فيما يجب أن تكون عليه من التحمل والتجمل والصبر، فهي درس ورسالة في آنٍ معا

هو درس لجميع الأمهات لأنه لن تصاب أمٌّ بمصاب أمّ موسى لأنها عندما أخفته وقعت فيما كانت تخشاه، وإن أوحي إليها أنّ الله سيرده عليها، ولكن ليس كلّ الأمهات يوحى إليهن بما أوحي إلى أمّ موسى، لذلك شرع الله باب التوكلّ.

وأمّا الرسالة فهو أنّ هذا الدرس ليس مقصورا على موسى وأمّه ومن عاصرهما، وإنما هي رسالة مستمرة دائمة لكلّ الأمهات على صعيد الزمان والمكان.

أخت موسى:

إنّ أخت موسى هي المرأة الثانية من النساء الخمس اللاتي ذكرهن الله تعالى وهي تعطي امتداد صلات القربى من العصب والرحم وما يجري على ذلك من محارم الرّجلّ وما يمكن أن يقدمن له من خدمات تطوعا، وهنا يكمن الدور الكبير للمرأة في مثل هذه المواقف التي يمكن أن يكون الرّجلّ فيها خطرا على المهمة.

فمن الطبيعي أن موسى صلّى الله عليه وسلّم له من صلات القربى الذكور من:

أب

أعمام

أخوال

أبناء الأعمام

أبناء الأخوال

صلات أخرى

ما يمكن أن يقوموا بتلك المهمة وربما فعلوا خفية، لكن المرأة في هذه المهمة تستطيع أن تتحرك بحرية أكبر في التقصي والسؤال وجمع المعلومات والأخبار دون أن تثير الشكوك التي يثيرها الرّجلّ، ولهذه الأسباب تمّ التصريح بمن له القدرة في الوقوف على النتيجة خشية من العواقب لذلك توجهت أم موسى إلى أخته بطلب التقصي دون غيرها على كثرة من حولها في هذا الموقف، لأن من طبيعة البشر أن يساند بعضهم بعضا عند نزول الخطوب ومداهمة المصائب، وعلى ما نرى أن تقصي أخت موسى له كان من أمّه بدافع الأمومة ومن أخته بدافع الأخوة وصلة الرحم، ونرى في ذلك أنه:

اختيار الذي يحمل التعقل

دليل على الطبيعة البشرية

الله تعالى طمئن أمّ موسى

لم يمنعها تكلّيف من يقصه

قال تعالى: {وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}565.

565 - القصص 11.

إن التأمل في طلب أم موسى من أخته في تقصيه يعطي دلالة كاملة على يقين أمّه أنه سوف يعود إليها بما أوحى الله تعالى (إنا رادوه إليك).

فكيف تلقيه في اليمّ ثمّ تطلب من ابنتها أن تقصه؟

إنّ أمّ موسى على يقين من أنّه لن يناله سوء، ولكنّها لا تعلم الوسيلة التي ستؤمن له:

الحفاظ على حياته

العناية

الرعاية

الحضانة

كانت مشيئة الله تعالى أن جعل هـ مهمة تربية موسى ورعايته من أصدر الأمر بقتل موسى صلّى الله عليه وسلّم قال تعالى: {أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}566.

فبعد أن أخذه عدو الله وعدوه، من ذا الذي يبحث في بيت فرعون عن الطفل المطلوب بعد أن ألقى الله تعالى محبة منه على هذا الطفل الذي خلقه، وفي دار فرعون يصنع على عينه وأنف فرعون راغم.

قال تعالى: {فَالْتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ}567.

566 – القصص 39.

567 – القصص 8.

فإذا التقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا، فكيف لأخته أن تقصه؟

بإتباع الأثر

بمعرفة الخبر

هل هو حي؟

هل أنّه هلك؟

أين استقر به القرار؟

في أي أرض

إنّ ذهاب أخته في تقصيه لم يكن ذاك التقصي في مرافقة التابوت على الساحل كي تنظر أين يستقر به القرار، فلو كان الأمر كذلك وسلّمنا بهذا فسوف ترافق التابوت إلى حدّ لا تستطيع بعد ذلك تجاوزه، لما سيواجهها من حمى قصر فرعون وجنوده وحراسه، فبعد هذه المرحلة ينتهي التقصي وينقطع الأثر.

وإن كان كذلك فقد انقطع الأثر عند تلك المرحلة لسببين موضوعي وذاتي:

السبب الموضوعي: أنها لا تستطيع أن تتجاوز حمى فرعون

السبب الذاتي: أنّها لا تريد أن تكشف حقّيقة أمرها

ولكن الذي نرجحه ونعتقده أنّها عندما ذهبت تقص أثره كان ذلك في حذر وخفية، فهي: تتلمس خبره

تسمع من النّاس

تسأل عن القضية العامة

القضية العامة قتل الأطفال

الدخول من العموم إلى الخصوص

هذا الأمر يبعد الشبهة

إذا ما هي الوسيلة التي استطاعت من خلالها أن تتوصل إلى أن موسى صلّى الله عليه وسلّم في قصر فرعون.

معلوم أن فرعون كان يستعبد بني إسرائيل، وهذا الاستعباد من ضمن ما يدخل فيه:

العمل

الزراعة

الصناعة

تنظيم الحدائق

الخدمة في القصر

ومن الطبيعي أن خدمة نساء فرعون وأهل بيته تقتصر على النساء فقط، ومن خلال النساء اللواتي كنّ يخدمن في قصر فرعون نعتقد أنّها استطاعت أن:

تقتفي أثره

تعلم خبره

ومن المؤكد أن أخت موسى صلّى الله عليه وسلّم لم تكن واحدة من تلك الخادمات، ولو كانت واحدة منهن لاختلفت صيغة الإخبار في العثور عليه.

وهنا تأتي المرحلة الثانية عندما أبصرت به عن جنب، والذي نرجحه أنها دخلت قصر فرعون عن طريق هؤلاء النّسوة اللواتي كنّ يخدمن أهل فرعون بطريقة أو بأخرى، ومعلوم أنّ الخادمات وخاصة في قصور الملوك لا يتدخلن ولا يسألن عن أي شيء إلا ما كلّفنّ به من عمل، وبدخولها إلى بيت فرعون بالطريقة التي لا نعلمها وإنما نرجح:

دخولها مع واحدة بدعوى صلة القربى

دخولها بديلة مكان واحدة بدعوى المرض

دخولها إلى واحدة بدعوى حاجة تريدها منها

دخولها مع المراضع مع أنّها غير مرضعة

ولذا أبصرت به عن جنب، فلما رأت ما رأت من حيرتهم في هذا الطفل الذي أُلقيت عليه محبة من الله تعالى وشدة الاهتمام به وقد حرّم الله تعالى عليه المراضع قالت: {وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ}568.

فالكفالة كانت من أمّه له:

رضاعة

عناية

رعاية

---

568 - القصص 12.

تمريض

والنصح من أخته بإرشادهم لما فيه خير هذا الطفل من:

المحافظة عليه

الإخلاص في خدمته

فكأنما حاولت بداعي الشفقة على الطفل من جانب، وخدمة لآل فرعون من جانب آخر أن تقدم لهم النصح في أهل بيت يكفلونه لهم.

إنّ الله سبحانه وتعالى حرّم على موسى صلّى الله عليه وسلّم المراضع بنص الآية.

فكيف يجري التحريم على طفل غير مكلّف شرعا؟

فالتحريم هنا تحريم منعٍ وليس تحريم شرع

لأن تحريم الشرع يكون في حقّ المكلّفين كما في قوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكلّ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ}569.

وأمّا تحريم المنع فيجري على غير المكلّف (وحرمنا عليه المراضع) بمعنى المنع كما في قوله تعالى: {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النّار وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ}570.

لأنّه لا معنى للتحريم على صبي غير مكلّف، فقد منع اللهُ موسى أن يرضع من المرضعات أو يشرب لبنا غير لبن أمه بطريقة ما مثل أن:

569 – المائدة 3.

570 – المائدة 27.

جعل في نفسه وطبعه كراهة الأثداء

تغير طعم اللبن كونه رضع لبن أمه

النفور من رائحة المراضع

وهذه الأسباب جميعها أو بعضها أو واحد منها يجعله ألا يُقبل على المراضع سواء من قبل قص أخته أثره أو من قبل مجيء أمه، لأنّ الله سبحانه وتعالى اقتضت حكمته ألا يرضع لبن امرأة غير أمه لكي يرده عليها فتقرّ عينها.

ولم يراود أهل فرعون الشك في أخت موسى وذلك:

أنّها قدمت لهم نصيحة

لأنّهم وقفوا على مبتغاهم

رفْض موسى المراضع لأنها محرمة عليه

شدة الفرح في الحصول على المرضعة

محبتهم لموسى جعلهم يدفعونه لمن يُقبل على ثديها

وهنا يتحقّق وعد الله تعالى برده إلى أمّه، وقدرته التي ترعاه وتدبر أمره فهذه القدرة: تكيد بموسى لفرعون وآله

تجعلهم يلتقطونه

تجعلهم يحبونه

تحرّم عليه المراضع

تجعلهم يبحثون له عن مرضعة

تدعهم يحتارون به

فهو يرفض كلّ ثديٍّ عرض عليه

وهم يخشون هلاكه

كلّ هذه الأسباب هيأها الله تعالى حتى تبصر به أخته من بعيد، فتعرفه وتتاح لها الفرصة في الوقوف على لهفتهم من أجلّ الحصول على مرضع يقبل الطفل ثديها حتى يطمئنوا على حياته.

فتقول أخته: (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون).

وما إن تكلّمت أخت موسى حتى تلقفوا كلّماتها وهم مستبشرون يودون لو تصدق بما تقول فينجو الطفل الذي ألقيت محبته في قلوبهم، ويجدون بهذه المرضع أو أهل البيت الذين يكفلونه ضالتهم التي ينشدونها.

ومع كلّ ما ذكرنا من أسباب إقبال الطفل على الرضاعة من هذه المرضعة، يبقى السؤال المنطقي الذي يراود أي فرد من آل فرعون وجنوده الذين يجدون البحث عن أمثال هذا الطفل، من أين لها اللبن حتى ترضع هذا الطفل وهي ليست ذات ولد تدرّ عليه.

نقول إن المقادير تجري بما قدرها الله تعالى في علمه، فقد كان فرعون يقتل كلّ طفل ذكر يولد، حتى أشاروا عليه أن يقتل عاما ويعفو عاما:

فكانت ولادة هارون صلّى الله عليه وسلّم في العام الذي يُعفى فيه عن المواليد من القتل

وكانت ولادة موسى صلّى الله عليه وسلّم في العام الذي يقتل فيه الأطفال

ومعلوم أن الأم ترضع مولودها عامين أو أكثر في بعض الأحيان، فإذا سُئلت عن لبنها فإنها جديدة عهد بولد ربما أتمّ عامه الأوّل أو يكاد، وهنا تنتفي الشكوك التي تراود المتسائل عن عملية الرضاعة لموسى من قبل هذه المرضعة التي لا يعلم صلتها بموسى أحد من آل فرعون.

إنّ المتأمل في هذه الحالة يقف على حقّيقة إلهية من علم الله تعالى فيما سيكون قبل أن يقع، فقد هيّأ الله تعالى المسَبِبات والأسباب لموسى وأمّه من أجلّ ردّه إليها:

قبل أن تعلم

قبل أن تحمل بموسى

وقبل أن يولد موسى

أنجبت هارون عام العفو

أنجبت موسى عام القتل

ولادة هارون سبب في إرضاع موسى

جمع الله لها هارون وموسى

وهارون صلّى الله عليه وسلّم أحد احتمالين:

إمّا أن يكون ولد قبل موسى

وإما أن يكون ولد بعد موسى

لكنه ولد عام العفو

لذلك كان لدى أم موسى مبررا في إرضاعه لأنها ذات ولد هو هارون.

وأغلب الظن أنّه أكبر من موسى وقد ولد قبله تقديرا من الله حتى يكون لديها عذر اللبن الذي سترضع به موسى، فلو كان موسى ولد قبل هارون لراود الشك جنود فرعون، وأمّا أن موسى أكبر من هارون بدليل أنه أخذ (برأس أخيه يجره إليه) فلو كان موسى أصغر من هارون لما فعل ذلك فنقول: إن أخذ موسى بلحية هارون ورأسه لا يقوم دليلا على أن موسى أكبر من هارون لأن تلك الأخذة كانت غضبة لله تعالى بغضب لها الكبير والصغير.

وهنا يتحقّق وعد الله تعالى بما أوحى به لأمّ موسى صلّى الله عليه وسلّم: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}571.

ومن عجائب هذه الآية أن خوف أمّ موسى قائم طالما ولدها بين أحضانها، فالله تعالى قال لها إذا راودك الخوف عليه وهو بين أحضانك ورعايتك فادفعيه إلينا.

لذلك كان الاطمئنان لأمّه بالتخلي عنه في أن تلقيه في اليم حتى يزول خوفها وحزنها، لأن هذا الطفل سوف يعود أمّه:

تقر عينها

تهدئ لهفتها

---

571 – القصص 7.

هو معافى في بدنه

مرموق المكانة

يحميه عدوه فرعون

ترعاه امرأته

يحرسه جنوده

وكلّ هذه الرّعايات مصداقا لقوله تعالى: (ولتصنع على عيني)

وعلى كثرة ما اضطربت المخاوف من حوله . عدا أمّه الموحى إليها. وهو آمن قرير العين هانيها.

أمّا آية سورة طه فقد قال تعالى: {أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}572.

على ما جاء من معنى (اقذفيه) من أنه بمعنى ضعيه وهو ما ذهب إليه جمٌّ غفير من المفسرين، علما أن اليمّ مأمور بإلقاء موسى صلّى الله عليه وسلّم بالساحل، على عكس القذف الذي أمرت به أمّ موسى، ولذا فالوضع يكون قاصرا عن أداء المعنى المطلوب لما في القذف من:

الرمي

باتجاه العدو

السرعة

عدم المبالاة

---

[572] - طه 39.

الثقة في بلوغ الهدف

ففي مثل هذا السياق المقصود من مشتقات لفظ (قذف):

قوله تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالحقّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ ممّا تَصِفُونَ}573.

وقوله تعالى: {وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا}574.

وقوله تعالى: {وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}575.

وعلى كثرة ما ورد من مشتقات (قذف) في القرآن الكريم فإنها:

موجهة إلى العدو

تحمل معنى الرمي

يرافقها الرعب تصريحا أو كناية

فهل يمكن أن يكون القذف بمعنى الوضع، فالوضع يحمل معانٍ منها:

الدعة

الانتباه

[573] - الأنبياء 18.

[574] - الأحزاب 26.

[575] - الحشر 2.

الهدوء

بينما معاني القذف على النقيض تماما إذ أن القذف فيه معانٍ منها:

الشدة

العنف

القوّة

وهذه الأمور هي التي تتطلبها المواجهة بين موسى وفرعون، لذلك جاء ذكر العدو بعد القذف للدلالة على المعنى البعيد والغاية من القذف الذي هو على خلاف الوضع.

إضافة إلى ذلك فإن القذف لا يكون إلا رميا للعدو، وكأن الله تعالى أراد أن يعلمها أنه رمى فرعون بموسى، ولا يحقّق ذلك إلا القذف بيد أمّه ترمي به عدوّ الله وعدو موسى قذفا متتابعا لبلوغ الهدف الذي يريده الله تعالى:

اقذفيه في التابوت

فاقذفيه في اليم

أُصيبُ به العدو

وهذا المعنى هو المعنى المراد من القذف، وليس معنى الوضع الذي يحمل الرفق واللين، وهذا المعنى لم يقف عليه أحد على حدِّ علمنا ولا قرأناه في كتاب، فاعتبروا يا أوّلي الألباب.

امرأة فرعون:

{فَالْتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ}576.

لقد التقط آل فرعون التابوت الذي فيه صبي حتى يتبدى أن ذلك الأمر قد وفّر على جنود فرعون عناء البحث والجهد عن طلبتهم في قتل الأطفال الذي شرعّه فرعون، وهنا تظهر التساؤلات حول ما أوحي إلى أمّ موسى صلّى الله عليه وسلّم:

أهذا هو الأمن؟

أهذا هو الوعد؟

أهذه هي البشارة؟

فهل كانت أمّ موسى تخشى عليه إلا من آل فرعون؟

وهل كانت تخاف أن ينكشف أمره إلا لآل فرعون؟

وهل كانت تتوجس من أن يقع إلا في أيديهم؟

إنّ قذف موسى صلّى الله عليه وسلّم في التابوت يشعر الآخرين أنّه يمكن أن يقع في أيدي أيّ أحد إلا آل فرعون، وإن كان احتمالا ممكنا إلا أنّه يبقى أضعف الاحتمالات.

غير أن الله تعالى بمشيئته أراد أن يكون هذا الطفل في حرز حصين وركن متين لا يناله إنسان ولا يشي به أحد، فأراد الله تعالى أن يحمي هذا الطفل بمن يجد البحث عنه من أجلّ قتله.

576 - القصص 8.

فكان هذا الأمر زيادة في الإعجاز وقهرا في التحدي (ألم نربك فينا وليدا)

فهذه القدرة تتحدى كلّ جبروت الظلم والطغيان وقوتها بطريقة المواجهة المباشرة، فهي تتحدى فرعون وهامان وجنودهما، فهم يتتبعون الذكور من مواليد قوم موسى خوفا على ملكهم وعرشهم وذواتهم، ويبثون العيون والأرصاد على كلّ حامل تضع كي لا يفلت منهم طفل ذكر.

فها هي مشيئة الله تعالى تلقي في أيديهم بلا بحث ولا عناء ولا جهد بطفل ذكر يبحثون عنه وعن أمثاله لينفذوا به حكم فرعون.

وأي طفل هذا؟

إنّه الطفل الذي على يديه يكون هلاكهم أجمعين! ها هي مشيئة الله تعالى تلقيه في أيديهم مجردا من أيّ قوّة ومن أيّ حيلة عاجزا عن أن يدفع عن نفسه أو حتى أن يستنجد أو يفصح عمّا يريد وما لا يريد!

فالطفل المطلوب يقتحم على فرعون حصونه وجنوده وهو الطاغية السفاح المتجبر، ليصدق قوله تعالى: (ليكون لهم عدوا وحزنا).

ليكون لهم عدوا يقهرهم وحزنا يدخل الهم والأسى على قلوبهم: {إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ}577.

ولكن كيف ذلك؟

قال تعالى: {وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}578.

---

[577] – القصص 8.

وهنا، يشخص دور المرأة الحاضنة التي خصها الله تعالى بالذكر وإن كانت امرأة بعينها هي امرأة فرعون، إلا أن الموقف والمهمة يتجاوز امرأة فرعون إلى كلّ حاضنة مؤمنة تجسدت في شخصية امرأة فرعون في حبها لهذا الطفل وحنانها عليه، إذ أننا نحسّ بمشاعر امرأة فرعون وقلقها أمام فرعون وكبار قومه وآله:

. في قولها: {عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا}579 ما يشعر من خلال استخدام لفظة (عسى) بمحاولتها التأثير عليهم نفسيا بأسلوب الترجي

. وفي قولها: {أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا}580 جعلت الصورة شاخصة أمام عين فرعون، الذي يبدو أنه لم يكن له ولد ذكر.

فقالت امرأة فرعون: قرة عين لي ولك.

والقرآن الكريم لم يثبت ما أجاب به فرعون امرأته، ولكن من المؤكد أنّ فرعون أبى أن يكون موسى صلّى الله عليه وسلّم قرة عين له، لأنه لو قبل ذلك من امرأته ما كان من المهلَكين، فلما تبين فيما بعد إيمان امرأة فرعون وكفر زوجها:

كان موسى قرة عين لها

لم يكن قرة عين لفرعون

لقد أقنعت امرأة فرعون زوجها أن يكون هذا الطفل قرة عين لها، وهو أقرها على ذلك، لتقر عينها بولد حرمت منه أن يكون من رحمها فدفعه الله إليها وأصبحت له أمّا وكان لها قرة عين.

---

[578] – القصص 9.

[579] – القصص 9.

[580] – القصص 9.

لقد أصبح لامرأة فرعون ولدا رضيعا وهي ليست بذات لبن، فلابدّ أن تطلب له من يرضعه، فأرسلت إلى من حولها من النساء أن يجدوا مرضعة لولدها كي يختاروا لها من المراضع من هي أهل لهذه المهمة في إرضاع ابن امرأة فرعون.

جاءت المراضع من كلّ حدب وصوب وكلّ واحدة تتمنى أن تحظى بشرف إرضاع ابن امرأة فرعون وتكون له ظئرا، فجعل كلّما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها: {وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ}581

وهنا أشفقت أم الصبي (امرأة فرعون) على ولدها من الهلاك أن يمتنع من اللبن فيموت فأحزنها ذلك حزنا شديدا، هذا الأمر جعل آل فرعون يقبلون أي مرضعة خوفا على حياة ذلك الوليد.

وفي الجانب الآخر أصبح فؤاد أم موسى فارغا وقلبها والها فقالت لأخته قصي أثره واطلبيه، فجدت أخته في البحث والسؤال عنه بطريقة ما إلى أن بصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون. والجنب أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد وهو إلى جنبه لا يشعر به.

فلما رأت حيرتهم في ذلك وجزعهم على حياة الطفل قالت: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون، قال تعالى: {فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حقّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}582.

لقد شاء الله تعالى أن تكون امرأة فرعون لموسى:

---

[581] - القصص 21.

[582] - القصص 13.

الحاضنة

الكافلة

الأم

وعليه نتساءل: أليس الله بقادر على أن يدفع موسى صلّى الله عليه وسلّم إلى زوجين مؤمنين يتربى في كنفهما؟

نقول: إن الله سبحانه وتعالى قادر على كلّ شيء: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}583. فقد اقتضت الحكمة الإلهية:

أن يلتقط آل فرعون موسى من اليم

أن يلقي عليه محبة في قلوبهم

أن يأخذه عدو لله وعدو لموسى

ليكون لهم عدوا وحزنا

وفي ذلك حكمة أخرى أراد الله تعالى أن يبين تشريعا للمسلمين في جواز كفالة المؤمنة للمؤمنين وإن كانت من نساء الكفار.

ومن جانب آخر بين الله تعالى للمؤمنين على أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم، فقد كانت امرأة فرعون مؤمنة مخلصة لله، وكان فرعون طاغية جبارا، فما ضرّ امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربّها، وما ضرّ نوح ولوط عليهما الصّلاة والسّلام كفر زوجتيهما ليعلم النّاس أن الله حكيم عادل، لا يؤاخذ أحدا بذنب غيره.

---

[583] - الأنبياء 23.

وقد سألت امرأة فرعون ربّها أن يجعلها قريبة من رحمته، وأن يبني لها عنده بيتا في الجنة، وأن ينقذها من فرعون وأعماله الخبيثة، وأن ينجيها من قومه الظالمين حيث قالت: {رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}584

إن هذه المرأة لم يصدها طوفان الكفر الذي تعيش فيه، في قصر فرعون عن طلب النجاة وحدها، وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربّها بيتا في الجنة وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربّها النجاة منه، وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقّها من عمله شيء وهي ألصق النّاس به: {وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}585.

وتبرأت من قوم فرعون وهي تعيش بينهم أنّه مثل للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا في أزهى صورة، فقد كانت امرأة فرعون، أعظم ملوك الأرض يومئذ!! في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي! لقد استعلت على هذا بالإيمان ولم تعرض عنه فحسب، بل اعتبرته شرا ودنسا وبلاء بطلب النجاة من فرعون وقومه.

لقد ألقى الله تعالى محبة منه على موسى صلّى الله عليه وسلّم، فأحبه كلّ من رآه، لذلك كانت امرأة فرعون متمسكة به، لأنه غبط قلبها به من شدة محبتها له لذلك بادرت: {وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}586.

---

584 – التحريم 11.

585 – التحريم 11.

586 – القصص 9.

لقد ألقى الله تعالى محبة خاصة في قلب امرأة فرعون لموسى كما ألقى مثل ذلك من قبل في قلب عزيز مصر ليوسف لما اشتراه فحقّق الله تبارك وتعالى بالرغبة فيه من عزيز مصر ما أمضى به حكته فقال مخبرًا عنه بعدما اشتراه: {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا}587. وكذلك وصف امرأة فرعون في رغبتها في موسى عليه الصّلاة والسّلام بقولها قرّة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا، فما كان عزيز مصر زاهدا في يوسف وما كانت امرأة فرعون بموسى من الزاهدين.

زوج موسى:

عندما فشا أمر موسى صلّى الله عليه وسلّم بقتل رجلٍ من شيعة فرعون بعد أن أراد في اليوم الثاني أن يبطش بالآخر، خرجوا في طلبه بأمر من فرعون وسمع بذلك رجلٌ يبدو أنّه من شيعة موسى صلّى الله عليه وسلّم لأنّه نبهه على أنّ القوم يطلبونه قال تعالى: {وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ}588.

إنّ الله سبحانه وتعالى يجري الأمور بحكمته لما يريد أن يبلغ أمره، فقد كان قتل الرّجلٍ من قبل موسى صلّى الله عليه وسلّم سببا لانطلاقة جديدة وإن ذهب متخفيا لا يدري أين وجهته ولكنه خرج خائفا يترقب أمر القوم الذين يأتمرون به ليقتلوه، قال تعالى: {فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}589.

---

587 - يوسف 21.

588 - القصص 20.

589 - القصص 21.

إنّ خروج موسى صلّى الله عليه وسلّم مترقبا يحمل دلالات كثيرة تعتمل في نفسه منها:

. عدم معرفته الوجهة التي يتوجه إليها

. التطلع إلى بارقة أمل

. التردد بين البقاء والانطلاق

. البحث عن سبيل النجاة

. الخوف من فرعون وجنوده

فالحيرة بالنسبة لموسى صلّى الله عليه وسلّم أمر طبيعي عندما علم أن الملأ يأتمرون به، فقد أوصدت أبواب المدينة

جنود فرعون وقفوا على الطرق يبحثون عنه

الجنود الذين يبحثون عنه لا يعرفونه

ربما كان لديهم صورة مرسومة لموسى

موسى من علية القوم فقد تربى في قصر فرعون

هو لا يعرف أبناء المدينة كي يطلب من أحدهم المساعدة

إذا انطلق إلى الصحراء فلا يعرف مسالك الفيافي والبوادي

وعندما أوصدت الأبواب بوجهه قال (ربّ نجني من القوم الظالمين)

وهذا الدعاء والاتصال بالله تعالى كان قبل الرسالة والتكلّيف، وهو دليل على أنّ الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم كونهم مصطفين من الله تعالى واختارهم للنبوة فقد جعل هدايتهم في قلوبهم قبل بعثهم وتكلّيفهم، فنور هدايتهم يسعى بين أيديهم منذ وجودهم، فكانت

هداية الله له أن توجه تلقاء مدين قال تعالى: {وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ}590.

فوجهه الله تعالى وهداه في الصحراء لا مرشد ولا هادي، إنما يمشي وكأن أحدا يستدعيه، لأن الله يحفظه ويحرسه، ومشى يخترق هذه الرمال حتى وصل إلى أناس وإلى مكان فيه ماء، وفيه أناس رعاء وفيه حركة وسكون وهو يريد الاستئناس بهم، والإنسان مدني بالطبع يستأنس بالإنسان، وقد لفت انتباهه أمر تبينه الآية في قوله تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النّاس يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ}591.

لما ورد ماء مدين فإذا النّاس يسقون، وإذا بامرأتين اثنتين تقفان وتذودان غنمهما عن الماء، تريدان أن يخف الزحام وأن ينتهي تدافع النّاس عن الماء حتى توردان غنمهما، فجاء صلّى الله عليه وسلّم بعد أن رأى موقف هاتين المرأتين وما بهما من الضعف وقلة الحيلة، فسقى لهما الأغنام، ثم أوى إلى الظل ولكن:

به من الجوع العظيم مالا يعلم به إلا الله

وبه من الغربة ما لا يدركها إلا الله

وبه من الحذر والترقب ملا يدركه إلا هو نفسه

---

590 - القصص 22.

591 - القصص 23.

ويصور لنا القرآن الكريم حال موسى صلّى الله عليه وسلّم ونفسيته وما يراوده من أفكار بجملة وجيزة مختصرة تحمل معاني كثيرة قال تعالى: {ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}592.

وفي هذه الآية تأكيد على ما ذهبنا إليه من أن الأنبياء على هدى قبل بعثهم، فهو صلّى الله عليه وسلّم يخاطب ربّه قبل أن يبعثه نبيا وعنده علم من النبوّة وإن لم يعلم أنّه سيكون نبيا وهذا ممّا يتضمنه معنى الآية الكريمة ومن هذه المعاني:

موسى يعلم أن الله تعالى هو ربّه

أنّ ما فيه من البلاء هو خير

أنّ الخير بيد الله

ما عند موسى من الخير لا يفي بمتطلبات ما هو فيه

زيادة الخير من الله

والملاحظ من سياق الآية شدة حياء موسى صلّى الله عليه وسلّم من الله تعالى والقناعة بما قسمه الله له في قوله: (إني لما أنزلت إلي من خير فقير) فقوله هذا:

أنّه لم يكن طلبا

يعبر عن الرضا

جاء في صيغة الإخبار

---

[592] - القصص 24.

ولكن الله سبحانه وتعالى هو أعلم من موسى بحال موسى لم يكن ليدعه، فقد ذهبت المرأتان وأخبرتا أباهما بما كان من أمر هذا الرّجلّ الذي سقى لهما قال تعالى: {فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}593.

ذهب موسى صلّى الله عليه وسلّم مع تلك المرأة ولما وصل إلى هذا الرّجلّ الصّالح الذي قيل:

إنّه شعيب صلّى الله عليه وسلّم

وقيل ليس شعيبا بل غيره

والذين قالوا إنه شعيب فأغلب الظن أنه ربطوا بين الآيات التي ذكرت فيها مدين وأخوهم شعيب في ثلاث آيات من ثلاث سور هي:

قوله تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النّاس أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ}594.

وقوله تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ}595.

---

593 – القصص 25.

594 – الأعراف 85.

595 – هود 84.

وقوله تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآَخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}[596].

فكان الظن أنه شعيب صلّى الله عليه وسلّم عندما ذكرت مدين مرتين في رحلة موسى صلّى الله عليه وسلّم في موضعين هما:

تلقاء مدين

ماء مدين

ونحن لا نرجح أنه نبي الله شعيب وذلك لأسباب منها:

أنّ القرآن لم يصرح بذلك.

لو كان نبي الله شعيبا لأرسل إلى موسى أحد أصحابه.

عندما يجتمع نبيان في فترة واحدة فإن القرآن يخبرنا بذلك.

ولذا؛ فلا يسعنا إلا أن نقول: أنّه رجلّ صالح هو على التوحيد على ملة إبراهيم أو غيره من الأنبياء وربما يكون على دين شعيب، أمّا أنّه هو شعيب فلا نعتقد ذلك لما تقدم من أسباب وأدلة إضافة إلى سياق النصوص القرآنية في هذا الجانب، فلما قص عليه القصص، وأخبره بالأنباء والحوادث وما لاقاه من فرعون وجنوده، فإن هذا الرّجلّ الصّالح بحكم سنه الكبيرة وخبرته في الحياة وتجربته طمأن موسى صلّى الله عليه وسلّم حيث قال تعالى: {قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[597].

[596] – العنكبوت 36.

[597] – القصص 25.

لابدّ أن هذا الرّجلّ الصّالح رأى من موسى صلّى الله عليه وسلّم أمورا ومواقف من خلال حديثه معه وإقامة موسى عنده ما جعله يطلب منه أن يكونا صهرا ونسبا بعد أن قالت إحدى ابنتيه: {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ}598.

لقد كانت نظرة هذا الرّجلّ إلى موسى صلّى الله عليه وسلّم أعمق من نظرة ابنته التي أشارت عليه أن يستأجر موسى من جانبين على ما نعتقد هما:

1 . أنّه رأى في موسى أعظم من أن يكون أجيرا

2 . لا يستأجره وهو شيخ كبير وعنده ابنتان في مقتبل العمر

فكان الحل الأمثل أن:

لا يفرط بموسى

لا يتخذه أجيرا فقط

وإنّما عرض عرضا منطقيا ينم عن صاحب مروءة حيث قال تعالى: {قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصّالحينَ}599.

إنّ الشيخ لم يأخذ بما قالت ابنته من الاستئجار فقط، بل زاد عليه الارتباط بالمصاهرة والنسب ليكون الحل الأوفق في دخول رجلّ محرم على أهل الشيخ وعياله، و في بساطة وصراحة ودون تكلّف أو مقدمات عرض الرّجلّ إحدى ابنتيه من غير تحديد، ونحن لا نذهب

---

[598] – القصص 26.

[599] – القصص 27.

مذهب بعض التفاسير التي قالت بأن الشيخ شعر بما وقع من التجاوب والثقة بين إحدى هاتين البنتين وبين موسى صلّى الله عليه وسلّم، ولكن الرّجلّ عرض القضية بشرع الله تعالى بما لا يُستحيي منه، لأنّ ذلك سنة الله في خلقه، فطرح القضية دون تحرج أو التواء بما فيه مصلحة جميع الأطراف:

موسى صلّى الله عليه وسلّم الذي سيصبح صهرا

الشيخ أبو الابنتين الذي سيصبح نسبا

إحدى ابنتيه تكون زوجة لموسى

الأخرى يكون موسى محرما لها

فهذا ليس زواجا فحسب، وإنما علاوة على ذلك فهو عقد اجتماعي مصغر نظم العلاقة بين جميع الأطراف التي تتعلق بها القضية، كونه يعرض نكاحا شرعيا من أجلّ بناء المجتمع.

فهو يعرض بناء أسرة وإقامة بيت وليس في هذا ما يخجلّ، ولا ما يدعو إلى التحرج والتردد والإيماء من بعيد، أو التصنع والتكلّف ممّا يشاهد في البيئة التي تنحرف عن الفطرة السليمة، وتخضع لتقاليد مصطنعة باطلة عندما تمنع الوالد أو ولي أمر المرأة من التقدم لمن يُرتضى خُلقه ودينه وكفايته لابنته أو أخته أو قريبته، وتحتم أن يكون الزوج أو وليه أو وكيله هو الذي يتقدم، أوّلا يليق أن يجيء العرض من الجانب الذي فيه المرأة! وهذه القضية التي عرضها الشيخ في طلب الزوج لابنته تجعلنا نقف على مفارقات وممّارسات البيئة المنحرفة والمجتمع المتصدع في قيمه حيث أننا نجد الآن من الفتيان والفتيات من يلتقون ويتحدثون ويختلط بعضهم ببعض في غير ما خطبة ولا نية نكاح. وحين تعرض الخطبة أو يذكر النكاح والزواج، نفاجأ بالخجلّ المصطنع، فتقوم الحوائل

المتكلّفة وتعلو الحواجز المانعة وتمتنع المصارحة والبساطة من الإبانة والوضوح.

لقد كان هذا طرح الشيخ وعرض القضية بهذا الوضوح والصراحة يعبّر عن ذي عقل رشيد، حيث حفظ لموسى صلّى الله عليه وسلّم كرامته، وحفظ لنفسه مروءته بأن يزوجه إحدى ابنتيه على أن يُمضي في خدمته أحد الأجلّين:

إمّا ثماني حجج

وإمّا عشر حجج

وقد قبل الشيخ بثماني حجج إلا أن يتمها موسى على الأجلّ الثاني فذلك تفضل منه وتبرع ليس بواجب عليه ولا يلزمه ذلك إتمام العشر إلا تتبرعا ودليل ذلك قوله: ستجدني إن شاء الله من الصّالحين في أمور كثيرة منها:

في المصاهرة والنسب

في طيب العشرة

في حسن الصحبة

الوفاء بالاتفاق

الصلاح بحسن المعاملة

الرفق ولين الجانب

وقد قبل موسى صلّى الله عليه وسلّم هذا العرض ورضي بالاتفاق فقال: {قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}600.

ونقف هنا على ما أطلق عليه بعض المفسرين شروط الشيخ على موسى، غير أن الآيات تعطي معنى الخيار أكثر من الشرط وذلك قوله: (وما أريد أن أشق عليك) فكان الخيار لموسى صلّى الله عليه وسلّم في موضعين:

الأوّل: اختيار أحد الأجلّين

الثاني: اختيار إحدى الابنتين

وعليه: فإن اختيار النبي لا يكون إلا في الأوفى والأصلح

فالأوفى: أنه أتم عشر سنين لأن الوفاء هو الذي يليق بحضرة النبوّة

والأصلح: أنه اختار الصغرى على الكبرى

ولنا أن نقول: ما من امرأة فيما نعلم أنها حظيت بمهر مثل الذي حظيت به امرأة موسى صلّى الله عليه وسلّم، وذلك أنه جهد عشر سنين متواليات من الكد والعمل والتعب، وما يقدمه خادم لمخدومه من خدمة أو أجير لمستأجره على مدى هذه السنوات.

ورب قائل يقول: إن تاجرا كبيرا يقدم مهرا لامرأة من عمل سنة أضعاف ما أنتجه موسى صلّى الله عليه وسلّم وقام به من خدمة خلال السنين العشرة.

---

[600] - القصص 28.

فالأمر هنا ليس كذلك، فهل يتساوى جهد إنتاج التاجر أو من هو مثله على ما يدرّ من أموال، بالجهد الذي قدّمه موسى صلّى الله عليه وسلّم مهرا لامرأته؟ لا يستويان مثلا.

لقد أقام موسى صلّى الله عليه وسلّم في أرض مدين حتى وفّى عهده وقضى الأجلّ الذي اتفق عليه مع الشيخ الذي زوجه ابنته، قال تعالى: {فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلّ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النّار لَعَلّكُمْ تَصْطَلُونَ}601.

إن السياق القرآني في قصة موسى أسدل الستار على أحداث زمن أحد الأجلّين اللذين قضى موسى أحدهما فقد سكت السياق فيها عند موافقة موسى: {قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجلّيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}602.

والسبب في ذلك على ما نعتقد أن الله تعالى أراد أن يثبت أشياء وينفي أشياء أخرى منها:

. أن يثبت سنة الزواج في الخلق وهنا ما يخص الإنسان بين الذكر والأنثى، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}603.

. الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم ضمن هذه السنة كونهم من البشر قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ

601 – القصص 29.

602 – القصص 28.

603 – الحجرات 31.

وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}[604].

. نفي البدع التي ابتدعها بعض أتباع الأنبياء كالرهبنة وعدم الزواج في النصرانية لأنها توقع فيما حرّم الله، قال تعالى: {وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حقّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}[605].

فزواج موسى صلّى الله عليه وسلّم:

حقّق الغاية

أقرّ تشريعاً

نفى بدعة

وأمّا أحداث زمن الأجلّ الذي قضاه موسى صلّى الله عليه وسلّم فإنّه خارج عن الرسالة والتكلّيف، وإنما هو زمن يبدو أنّ أحداثه عامة تجري كما تجري لدى أي أسرة يتساوى فيها جميع المتزوجون في الكد والسعي على الرزق من أجلّ إعالة أسرهم، لذلك نرى أن القرآن الكريم سكت عن مدة ذلك الأجلّ لسببين:

الأوّل: وضوح معناه

---

[604] – الأحزاب 50.

[605] – الحديد 27.

الثاني: عدم اختصاصه

وهكذا مضت السنوات العشر التي رجحناها لأنها أوفى الأجلّين الذي يليق بحضرة النبوّة والتي قضاها موسى صلّى الله عليه وسلّم في أهل مدين.

بعد أن قضى موسى صلّى الله عليه وسلّم الأجلّ وسار بأهله، عائدا من مدين إلى مصر، فلابدّ أنه سلك الطريق الذي سلكه منذ عشر سنوات كونه أصبح صاحب خبرة وتجربة، ولكنه في طريق العودة لم يكن وحيدا، والسفر في طريق العودة مختلف عن الرّحلة الأوّلى، ففي رحلة العودة معه هذه المرة:

الزوج

المؤنس

الرفيق

عاد موسى صلّى الله عليه وسلّم بأهله ليلقى في الطريق ما لم يخطر له على بال:

ناداه ربّه وكلّمه

كلّفه النهوض بالمهمة

أعطاه الرسالة

تحقّيق وعد الله

أن يكون موسى عدوا وحزنا لفرعون وهامان وجنودهما

لقد رأى موسى صلّى الله عليه وسلّم في طريق عودته نارا يبدو أنها بعيدة شيئا ما لأنّه قال لأهله: (امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النّار لعلكم تصطلون)

ويتضح لنا من قول موسى صلّى الله عليه وسلّم ما يأتي:

. أنّه ينتابه بعض القلق بدليل إني آنست نارا

. أنّ الوقت كان ليلا لأن النّار لا تبدو للناظر بالنهار

. أنّ أهله كانت تشكو شدة البرد لقوله لعلكم تصطلون

وبذهابه إلى مصدر النّار التي أنسها تختفي زوجة موسى صلّى الله عليه وسلّم من واقع الحدث، لأن الأحداث توجهت إلى القضية الكبرى عند وصوله إلى المكان الذي صدرت منه تلك النّار قال تعالى: {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآَهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآَمِنِينَ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآَيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ}[606].

[606] - القصص 30- 35.

خت زوج موسى:

لم تظهر المرأة الأجنبية من النساء في مَن ذُكر في قصة موسى بوضوح وتفصيلات إلا في إشارة دلالية تحدد أوجه العلاقة بين الرّجلّ والمرأة فيمن ذكر من المحارم والأجنبيات إلا في قوله تعالى: {قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصّالحينَ}607.

فقد كانت إحدى الابنتين زوجة لموسى صلّى الله عليه وسلّم

وكانت الأخرى تمثل المرأة الأجنبية، لأنها لا تدخل ضمن المحارم، لأنّ ذوات محارم الرّجلّ هن جميع النساء اللواتي يحرم عليه الزواج منهن على التأبيد بنسب أو رضاع أو مصاهرة.

فمحارم الرّجلّ تأبيدا ما ذكر في قوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا}608.

وإن كانت أخت زوج موسى من محارمه شرطا لا تأبيدا وهو عدم الجمع بين الأختين

. ذكرت الآية ثلاثة عشر نوعا من المحارم

---

607 - القصص 27.

608 - النساء 23.

. ذكرت الآية التي قبلها نوعا واحدا خاصا هو في قوله تعالى: {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا}609.

. ذكرت الآية التي بعدها نوعا واحدا عاما هو في قوله تعالى: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ}610.

وعلى هذا فإنّ أخت زوج موسى صلّى الله عليه وسلّم تأخذ بعدين هما:

الأوّل: أنّها من المحارم الشرطية تتغير صفتها بزوال الشرط

الثاني: أنّها من الأجنبيات المحصنات طالما الشرط قائم

وبما ذكر في قصة موسى من النساء يكون قد استوفى هذا الذكر جميع المحارم والأجنبيات عن الرّجلّ بالشرط والتأبيد.

الاستبدالات عند قوم موسى:

الاستبدال والتغيير في أي مجتمع ربّما يكون له عامل إيجابي يعود بالنفع والفائدة عندما يكون لهذا الفعل بعض المبررات الإيجابية تصب في جوانب منها:

الاجتماعية

الاقتصادية

السياسية

609 – النساء 22.

610 – النساء 24.

وهذه الاستبدالات والتغيرات يجب أن تصب في الوعاء المادّي والمعنوي والنفسي الذي يرتبط بالحاجات وإشباع تلك الحاجات في تطوير البدائل وتحسينها أو صناعة البدائل الأفضل التي تقدم فائدة للمجتمع في كثير من المجالات بما شرّعه الله تعالى وأمر به.

أمّا أن يكون الاستبدال فيما شرّعه الله تعالى لعباده تارة وفيما خلقه لهم تارة أخرى كالذي مارسه بنو إسرائيل ولا يزال دأب اليهود ينصب عليه فهو الظلم بعينه، لأنه ظلم للنفس وظلم للآخرين والله تعالى لا يحب الظالمين.

وقد تمثل صدور الظلم من بني إسرائيل في ممّارسات كثيرة أهمها طلب الاستبدال من أنبيائهم أو ممّارسته من تلقاء أنفسهم في أشياء كثيرة منها:

1 . استبدال المعبود

2 . استبدال العقيدة

3 . استبدال النعمة

4 . استبدال الأخلاق

فإن لم يكن من الاستبدال بدّ، فيجب على الإنسان أن يستبدل ما يحقّق له فائدة في الدنيا وخيرا كثيرا في الآخرة، فإنّ رضي الله عن قوم جعل استبدالاتهم في الخير، لأنه من العقيدة الصحيحة والعقل السليم والحكمة التامة أن يستبدل الإنسان:

الباطل بالحقّ

الشر بالخير

الرذيلة بالفضيلة

المرض بالصحة

السقم بالعافية

الجهل بالعلم

فإذا ما استبدل فيستبدل لله لا لهوى النفس أو شهوة لها، ولا يستبدل مرضاة النّاس وشهوات النفس وأطماعها بغضب الله تعالى كما فعل بنو إسرائيل ولم يزل هذا دأب اليهود في هذه الاستبدالات: (بئس للظالمين بدلا).

وسنتناول بعض استبدالات السوء التي سعى إليها هؤلاء سواء أكان الأنبياء بين ظهرانيهم أم بين فترات النبوّة، أم بعد خلوهم من الأنبياء.

أوّلا: استبدال المعبود

في بحثنا هذا يكاد يكون القرآن الكريم هو المصدر الوحيد الذي نستقي منه معلومات البحث في موضوع استبدالات بني إسرائيل، وقد ظهر لنا من خلال التتبع أن قوم موسى من بني إسرائيل ومن جاء منهم بعد ذلك هم المستهدفون فيما نقول، ولا يعني هذا أن من كان قبلهم لم يفعل فعلهم أو لم يطلبوا من أنبيائهم ما طلبه قوم موسى من موسى صلّى الله عليه وسلّم.

أمّا قوم موسى صلّى الله عليه وسلّم فقد ألحوا كثيرا في طلب الاستبدال، لذلك لعدم تمكن الإيمان من قلوبهم على ما نعتقد، فإننا نرى أن الله تعالى ما كاد ينجيهم من فرعون وجنوده وجاوز بهم البحر حتى كفروا نعمة الله وفضله عليهم بأن طلبوا أن يكون لهم إله أو صنم

يعكفون عليه حيث قال تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ}611.

لقد أنجى الله تعالى بني إسرائيل وتجاوز بهم البحر بعنايته وتأييده، فتيسير الأمر لهم وخلصهم من سوء العذاب الذي كانوا فيه من تذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم، فلما تجاوزوه مرّوا على قوم عاكفين على عبادة أصنام لهم، فلما شاهدوا هذه الحالة غلب عليهم ما ألفوا قديما من عبادة الأصنام ذلك أن الإيمان لم يتمكن من قلوبهم ولم ينبذوا ما كانوا فيه من الكفر والضلال وإنما بقي متأصلا في نفوسهم، فطلبوا من موسى صلّى الله عليه وسلّم أن يجعل لهم صنما يعبدونه، كما أن لهؤلاء القوم أصناما يعبدونها غير أن موسى صلّى الله عليه وسلّم أوضح لهم الدين الحقّ والإله الحقّ فهو يأخذ بأيديهم إلى الفضيلة وهم في مستنقع الرذيلة متشبثون، فلم يمضِ طويل وقت على نعمة الله وفضله التي عاينوها وعاشوها بإنقاذهم من عدوهم وفلق البحر لهم حتى كفروا نعمة الله وطلبوا صنما يعبدونه وهذا من أعظم استبدالات بني إسرائيل ذنبا، لذلك نبههم موسى صلّى الله عليه وسلّم وكأنهم لا يعرفون العبادة الحقّة، وكأنهم لا يعلمون من هو الإله الذي يستحقّ العبادة فقال لهم: {إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}612.

فهم يواظبون على عبادتها ويلازمونها، لأن العكوف عليه هو الإقبال عليه والإقامة عنده لأجلّ التعبد مواظبة في العبادة، ويبدو أن المشهد التجسيدي للأصنام التي رأوها قد استهوت أفئدتهم فقالوا ذلك

---

611 - الأعراف 138.

612 - الأعراف 139 – 140.

عند ما شاهدوا أحوالهم (يا موسى اجعل لنا إلها) يكون مثالا نعبده كما لهم آلهة يعبدونها (قال إنكم قوم تجهلون) فوصفهم بالجهل المطلق لبعد ما صدر عنهم عن العقل بعد ما شاهدوا من الآية الكبرى والمعجزة العظمى، ودليل وصفه إياهم بالجهل المطلق أنه اقتصر على الفعل والفاعل ولم تأتِ قرينة توضح نوع الجهل أو حجمه أو صفته لذلك:

لم يذكر مفعولا

لم يذكر تمييزا

لم يذكر صفة

لم فضلة موضحة

وهذا دليل على أن الجهل بالله تعالى هو جهل مطلق مطبق ليس بعده جهل، لذلك كان التوضيح بجملة مستقلة مقطوعة عن سابقتها لتأكيد معنى الجهل ومستواه الذي وصفهم به موسى صلّى الله عليه وسلّم فقال لهم: (إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

فجاء بجملة جديد لتأكيد جهلهم بقطع العلاقة بين ما وصفهم به وبين ما وصف لهم هؤلاء الذين طلبوا أن يكون لهم إله مثل ما لهؤلاء آلهة، عندما ابتدأ الكلّام ب (إن) التي تفيد الابتداء وتقطع علاقة الكلّم السابق بالكلّام اللاحقّ ما لم يسبقها العطف.

فقد أراد موسى صلّى الله عليه وسلّم أن يوضح لهم أنّ هؤلاء القوم الذين يعبدون تلك التماثيل متبر ومهلك ما هم فيه من الدين الباطل، فالله تعالى سيهدم دينهم الذي هم عليه ويحطم أصنامهم ويجعلها هباء

منثورا. لأنّه باطل ما كانوا يعملون من عبادتهم حتى وإن كان قصدهم بذلك التقرب إلى الله تعالى فإنه كفر محض

فالله تعالى خصهم بنعم لم يعطها غيرهم من الآيات القاهرة والمعجزات الباهرة والتي لم يحصل مثلها لأحد من العالمين، وذلك من أجلّ ترسيخ الإيمان في قلوبهم القاسية وتصحيح عقيدتهم الفاسدة، ومع كثرة ما أنعم الله عليهم من النعم فقد قابلوا:

الإحسان بالإساءة

المعروف بالمنكر

الخير بالشر

الهدى بالضلال

لذلك كان قول موسى صلّى الله عليه وسلّم فيه تنبيه على سوء معاملتهم حيث قابلوا تخصيص الله إياهم من بين أمثالهم بما لم يستحقّوه تفضلا، وذلك عندما قصدوا إلى أخس شيء من مخلوقاته الله تعالى ليجعلوه شريكا له تعالى وبهذا:

لم يقبلوا قدرهم الذي أراده الله لهم

لم يعلّقوا همتهم بما ينبغي عليه أن تكون

لقد كان قوم موسى كلّما أحسن إليهم الله تعالى قابلوا ذلك الإحسان بالإساءة، فلم يمضِ على موسى أربعين ليلة عندما تركهم وذهب لميقات ربّه حتى اتخذوا العجل إلها ومعبودا قال تعالى: {وَإِذْ

وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعجل مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ}613

فبعد مضيّ موسى صلّى الله عليه وسلّم إلى ميقات ربّه ما كان منهم إلا أن اتخذوا العجل إلها، فكان الميقات من أجلّ خيرهم في الدين والدنيا وإكمال الشريعة التي ارتضاها الله لهم فكان ذلك من أعظم النعم، وما كان منهم إلا أن أتوا بأقبح أنواع الكفر والجهل.

ومن هنا نتبيّن استخدام لفظة(ثمّ) العاطفة ولكن هنا لا تعطي معنى الترتيب والتراخي بقدر ما تعطي معنى التعجب، فكان معناها تعجبية من أفعالهم وتصرفاتهم بما لم يؤمروا به وذلك كقوله تعالى: {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}614.

وقوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}615.

فهنا جاءت في محل التعجب فهو كمن يقول إنني أحسنت إليك ثم إنك تقصدني بالسوء والأذى، فكان سوؤهم وأذاهم لله تعالى بوضع الشيء في غير موضعه واستبدال ما أمر به الله تعالى وشرّعه بما حرمه ونهى عنه، فاستبدلوا عبادة الله تعالى بعبادة العجل.

---

[613] – البقرة 51.

[614] – البقرة 75.

[615] – البقرة 84، 85.

إنّ هذا الاستبدال الذي عمد إليه بنو إسرائيل من قوم موسى هو من عظم افتراءات الخلق على الخالق، لذلك فإن الله تعالى توعد هؤلاء بغضبه عليهم، ومن يناله غضب الله تعالى فقد خسر الدنيا والآخرة قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعجل سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ}616.

وهذا لا يقتصر على اتخاذ العجل إلها من دون الله تعالى، وإنما من اتخذ إلها كائنا ما كان شكلّ هذا الإله أو حجمه أو نوعه أو مادته فإنه قد كفر حيث قال تعالى: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ ربّه إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}617.

ثانيا: استبدال العقيدة:

إن كان قوم موسى صلّى الله عليه وسلّم من السهولة أن يستبدلوا عبادة الخالق بعبادة المخلوقين فإنه من السهولة أيضا أن يهون عليهم استبدال عقيدتهم وتغييرها حسب ما يقتضي هواهم وتميل نفوسهم فإن كانوا قد طلبوا إلها غير الله تعالى كي يعبدوه فخرجوا بذلك من الإيمان إلى الكفر، وهذا ما تحقّق بالفعل فقد استبدلوا العقيدة الصحيحة باستبدالهم الخالق بالمخلوق.

وأمّا خروجهم من الإيمان إلى الشرك فقد ادعوا لله تعالى ابنا قبل ادعاء النصارى ذلك، وما نظن إلا أن النصارى أخذوا ذلك عنهم تأثرا بفعلهم وتشابه قلوبهم حيث قال تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ

---

616 – الأعراف 152.

617 – المؤمنون 117.

وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}618.

فقد استبدلوا عقيدة التوحيد بالشرك الذي نهى عنه الله تعالى تكريما للإنسان، وهذا التكريم من الله تعالى هو ارتقاءً بالإنسان إلى إنسانيته، لذلك يكون فساد العقيدة باستبدال ما أمر الله به من خير للإنسان، بما هو أدنى من ذلك تنازلا وفقا للاستبدالات الآتية:

. ادعاء الولد شريكا لله تعالى

. ادعاء اتخاذ الله تعالى صاحبة

. عبادة العجل الجسد

. عبادة الأصنام

. عبادة الأوثان

وإن كانوا يحاولون أن يجدوا مبررات استبدال العقيدة السليمة بالعقيدة الفاسدة بالحجج الواهية من خلال الجدل بأنهم يؤمنون بالله ولكن يدخلون في هذا الإيمان ما أفسد عقيدتهم، لأنه من سلامة العقيدة الرّبانية وتمامها:

التوحيد: وهو الإقرار بوحدانية الله تعالى إلها واحدا: {الله لا إله إلا هو

الإيمان: بما أمر الله به بالله وملائكته وكتبه ورسله...

لذا فالله سبحانه وتعالى أراد أن يظهر حقّيقة ما يبطنون فقال تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ

---

[618] – التوبة 30.

وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ آَمَنُوا بِمِثْلِ مَا آَمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}619.

فالدين عند الله الإسلام الذي أوحى به إلى جميع أنبيائه صلّى الله عليهم وسلّم وكلّفهم بتبليغه إلى البشر، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، وهذا لا يغير شيئا من حقّيقة العقيدة، وإنما الذي يتغير هو قواعد التعامل في التبليغ من نبي إلى نبي ومن زمن إلى زمن، لأن العقيدة تحكمها الأصول والأسس القائمة على تبليغ حقّيقة الدين، ولذا بدا ما عليه بنو إسرائيل من فساد العقيدة ومن الشرك بالله والكفر بآياته باتخاذهم ما يدعون.

إنّ قوم موسى صلّى الله عليه وسلّم استبدلوا العقيدة السليمة بعقيدة فاسدة تنبئ عن:

كفر صراح

ضلال مبين

نفس خبيثة

طوية سيئة

قول مشين

وقد صرح القرآن الكريم بذلك في مواضع كثيرة حيث نقف على قولهم المشين تنشق منه السماء وتنهد منه الجبال لما فيه من الافتراء على

619 - البقرة 136، 137.

الله تعالى والكذب الصراح والبهتان الواضح، فاستحقّوا غضب ربّهم ولعنته خالقهم بما كانوا يصنعون.

فهم بدلوا كلّام الله تعالى وأخفوا كثيرا ممّا أنزل إليهم ظلما وعدوانا، وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}620.

لقد أعظموا الفرية على ربّهم فيما نسبوا إليه من الولد والصاحبة وغير ذلك من الزور والبهتان فمن أعظم الفساد في عقيدتهم أنهم ادعوا أن لله سبحانه ولدا، قال تعالى: (وقالت اليهود عزير ابن الله)

ولم يتوقف الادعاء عند هذه المقالة الشنيعة، والفرية الكبيرة تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، بل تطور هذا الزعم الباطل إلى أن جعلوا أنفسهم هم الأنبياء والأحباء لله دون سائر البشر من الخلق، قال تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}621.

إنّ زعمهم هذا لا يقف عند استبدال العقيدة فحسب، وإنما يقرر فسادها وبطلانها بادعاء البنوة والمحبة على أي تصور من التصورات سواء أكانت:

أبوة الجسد

620 – المائدة 15، 16.

621 – المائدة 18.

أم أبوة الروح

أم أبوة المحبة

وهذا كلّه فاسد لأنّ خلق الله عبيده، والمؤمنون من عبيده هم عباد له، ولا يكون الإنسان من عباد الله تعالى ما لم تكن عقيدته سليمة ليس وفق تصوره، وإنما وفق ما شرّعه الله تعالى لخلقه وارتضاه لهم.

وأيا كانت هذه التصورات التي حاولوا بها أن يوحوا للآخرين بسلامة عقيدتهم، فإنها تحمل من الشكوك ما يؤدّي إلى اليقين بفساد الاعتقاد، لأن هذه الادعاءات من الأبوة الجسدية أو الروحية أو تبني المحبة تؤدّي إلى الخروج عن العبادة وتساوي بين الخالق والمخلوق كلّيا أو جزئيا، بينما يكون الحدّ الفيصل والأمر الحاسم بين الألوهية والعبودية والمغايرة بين الخالق والمخلوق مثل:

الأزلي والحادث

النسبي والمطلق

الحي والميت

الباقي والزائل

فهذه الفوارق في المتغايرات بين الخالق والمخلوق، لا يستقيم له تصور الاشتراك:

مطلقا أو نسبيا

كلّيا أو جزئيا

ولا تستقيم له سنة الحياة بتقريره من جانب تتوحد الجهة التي يتوجه إليها العباد كلّهم بالعبودية؛ وتتوحد الجهة التي تشرع للبشر وتضع لهم:

القيم والموازين

الشرائع والقوانين

النظم والأوضاع

فإن كان ذلك كذلك فإنها تتداخل الاختصاصات بتداخل الصفات والخصائص، وتداخل الألوهية والعبودية، بتداخل الخالق والمخلوق، فتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

فعندما ندقق النظر في فلسفة هذه النظرة العقدية من قبل قوم موسى صلّى الله عليه وسلّم وأمثالهم، ونتأمل الآراء والمذاهب التي ذهبت فيها تلك النظرة نجد أن المسألة ليست مسألة انحراف عقيدة فحسب، إنما هي كذلك فساد الحياة كلّها بناء على هذا الانحراف لما قدمنها من أدلة المغايرة بين الخالق والمخلوق (الله هو الله واحد أحد) وامتلاك الاختصاص تبعا لامتلاك الصفات!

وبناء على هذه العقيدة الفاسدة فإنه يبنى عليها مترتبات أخرى تكون مدعاة لاتهام الله تعالى بالظلم بادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه كما يقولون، وتبعا لتصوراتهم هذه فإنّه يبنى عليها صور لاحقّة منها:

إنّ الله لن يعذبهم بذنوبهم

إنّهم لن يدخلوا النّار

إذا دخلوا فأياما معدودات

ومعنى هذا: أنّ عدل الله لا يجري مجراه! وأنّه سبحانه وتعالى يحابي فريقا من عباده، فيدعهم يفسدون في الأرض ثم لا يعذبهم عذاب المفسدين الآخرين!

وهنا نتساءل:

أي فساد في الحياة يمكن أن ينشأ عن مثل هذا التصور؟

وأي اضطراب في الحياة يمكن أن ينشئه مثل هذا الانحراف؟

وهنا يجزم الله تعالى بالقول الفصل على هذا الفساد في العقيدة من التصورات الخاطئة الضالة المضلة، وكلّ ما يمكن أن ينشئه تصور مثله من الفساد في الحياة تبعا لفساد العقيدة، بحيث يقرر الله تعالى بعدله الذي لا يحابي به أحدا، مثل ما أقر بطلان التصورات في الادعاء القائم على استبدال العقيدة وفسادها بقوله تعالى: {قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}[622].

وبذلك أقر الله تعالى الحقّيقة الحاسمة في العقيدة السليمة القائمة على الإيمان، وأقر بطلان ادعاء البنوة:

فهم بشر ممن خلق

يجري عليهم ما يجري على مَن خلق

كلّ واحد منهم نفس

كلّ نفس بما كسبت رهينة

من أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها

فهذه هي أسس العقيدة السليمة التي ارتضاها الله لعباده، وتكون محبة الله ورضاه وفق الميزان العام بين البشر الذي يفصل بين خلقه على أساس الطاعة والمعصية لا على تصورات الأماني في الادعاء، وعدل الله

[622] – المائدة 18.

تعالى يقرر قيام المغفرة والعذاب على الالتزام أو عدم الالتزام بأصل العقيدة التي ارتضاها الله لعباده، فيكون الغفران بأسبابه، ويكون العذاب بأسبابه، لا بسبب بنوة أو صلة شخصية كما ادعوا وفق ما يشتهون!

3 . استبدال النّعم

ليست النّعمة التي تمّ استبدالها من قبل قوم موسى ما اقتصر على الطعام والشراب والأشياء المادية ممّا آتاهم الله تعالى، وإن كانت هذه من النعم إلا أنّها أدنى النعم التي أنعم الله تعالى عليهم بها، ولكن النعم العظام كثيرة منها:

نعمة الإيمان

نعمة الإسلام

نعمة الهداية

نعمة الأنبياء

نعمة الكتاب

نعمة الملك

نعمة الآيات

نعمة العافية

نعمة الأمن

نعمة النجاة

وقد أجمل الله تعالى كثيرا من النعم التي بدلوها في قوله تعالى: {سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آَتَيْنَاهُمْ مِنْ آَيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}623.

ففي قوله تعالى: (سل بني إسرائيل) أسلوب يظهر فيه:

التوبيخ

التبكيت

التقرير

على أنّهم بدلوا نعمة الله من بعد ما جاءتهم، وهو دليل إقامة الحجّة عليهم ببيان نعم الله التي كان حقّه عليهم أن يشكروها، ولكن بدلوها ظلما لأنفسهم وكفرا بما أنعم الله عليهم، فقد آتاهم الله آيات كثيرة لأنّ قوله تعالى: (كم آتيناهم من آية بينة) يدل على الكثرة وليس على الاستفهام لأن (كم) هذه تكثيرية وليس استفهامية بمعنى أعطيناهم آيات كثيرة إنعاما منّا عليهم، والإيتاء هنا يشمل:

الإيتاء الشرعي: وهو آيات بينات شرعية جاءت بها التوراة

الإيتاء القدري الكوني: وهو ما ينضوي تحت المعجزات من عصا موسى، ويده التي تخرج بيضاء، وانفلاق البحر وتفجير اثنتا عشرة عينا

الإيتاء المادي: وهو المن والسلوى الذي استبدلوه بما هو أدنى منه

لذلك قال لهم موسى صلّى الله عليه وسلّم مذكرا إياهم ببعض هذه النعم حيث قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ

---

[623] - البقرة 211.

عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ}624.

لذلك فإن تبديل نعمة الله تعالى يترتب عليها العقاب الشديد بعد أن بين الله تعالى فضل هذه النعم التي أنعمها لمصلحة الإنسان بما فيه خير الدنيا والآخرة، وقد خص الله تعالى بني إسرائيل بنعم كثيرة لم يختص بها أحدا من قبلهم، ليس من باب التفضيل المطلق على العالمين دون أن يأخذوا بالأسباب، ولكن التفضيل لا يكون إلا للأفضل، والأفضل هو من ائتمر بأوامر الله تعالى فيما يحبّه الله ويرضاه ممّا أمر به ونهى عنه، فكفروا بأنعم الله، فحقّ عليهم من الله ما يستحقّون، لذلك بين الله تعالى:

1 – كثرة ما أعطاه لبني إسرائيل من الآيات البينة الدالة على صدق رسله؛ لقوله تعالى: (سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة).

2 – تقريع بني إسرائيل الذين كفروا بآيات الله وتوبيخهم، لأن المراد بالسؤال هنا سؤال توبيخ وليس استفسارا أو استفهاما.

3 – أنّ الآيات من نعم الله تعالى لأنها تحمل المرء على الإيمان؛ وفي الإيمان الصلاح والنجاة والكرامة لقوله تعالى: (ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته).

4 – أنّ الآيات مبينة لما أتت به دالةً عليه.

5 – التحذير من تبديل نعمة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: (ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب)

---

[624] – المائدة 20.

6 – إثبات شدّة العقاب من الله لمن بدل نعمته بالكفر، وهذا من تمام العدل والحكمة.

ولم تتوقف استبدالاتهم عند هذا الحدّ، كلّما أراد الله لهم خيرا أبَو ذلك وتمسكوا بما هو أدنى، فقد كتب الله لهم الأرض المقدسة رهينة بأسبابها، فلما وقفوا على الأسباب شقّ ذلك عليهم ورفضوا الانصياع إلى أمر نبيهم تمسكا بالأدنى ورفض ما هو خير فقد قال موسى لقومه: {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ}625.

لم يتغير موقف بني إسرائيل مع ربّهم عمّا عهدناه، ومع رسولهم ومنقذهم موسى صلّى الله عليه وسلّم، عن مواقفهم السابقة ابتداءً من انطلاقهم من مصر عندما أنجاهم الله تعالى من فرعون وجنوده وصولا إلى أبواب الأرض المقدسة التي وعدهم الله إياها إن هم أخذوا بأسبابها، وكلّ ما مرّ من مواقف بداية من الانطلاق والنجاة إلى الوقوف على أبواب الأرض المقدسة كان دأبهم استبدال ما هو أدنى بالذي هو خير مثل:

طلب عبادة الأصنام:

قال تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ}626.

اتخاذ العجل:

[625] – المائدة 21.

[626] – الأعراف 138.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعجل سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ}627.

نقض الميثاق:

قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}628.

السّمع والعصيان:

قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقوّة وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا}629.

فهذه مواقفهم من ربّهم وأنبيائهم على حدٍّ سواء في الاستبدال والنقض والتمرد على الحقّ، ولأن موسى صلّى الله عليه وسلّم يعلم حقّيقة طويتهم كان يذكرهم بنعم الله تعالى

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ قَالَ رَجلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكّلوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا

627 – الأعراف 152.

628 – البقرة 84، 85.

629 – البقرة 93.

أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}630.

إن الانحرافات التي وقعت في عقيدتهم، كانت نتيجة الاستبدالات المتكررة التي لا تقف عند حدّ لأنهم كما وصفهم الله تعالى موبخا لهم: {أَوَكلّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}631.

فكان من طباعهم فيما جبلوا عليه من طلب الاستبدال بالنقض والنبذ المتكرر:

وقع منهم النقض المتكرر لميثاق الله معهم

وقع منهم طلب استبدال الأدنى بما هو خير

وقع في حياتهم آثار هذا النقض

آثار هذا النقض هو الانحراف

هذا الانحراف ظهر في أخلاقهم وتقاليدهم

ولم يقف طلب الاستبدال عند هذا الحدّ، بل طال ذلك الطعام والشراب، حيث أن الله تعالى أكرمهم وتفضل عليهم بالتنظيم والطعام والشراب حيث قال تعالى: {وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كلّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا

---

[630] - المائدة 20- 26.

[631] - البقرة 100.

عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كلّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}632.

إن الله تعالى عاقبهم بالتيه لأنه عصوا الله ورسوله برفضهم دخول الأرض التي كتب الله لهم وقالوا لموسى صلّى الله عليه وسلّم: (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) فكان جزاؤهم أن أبقاهم الله في التيه أربعين سنة، ومع ذلك فقد أنعم عليهم بنعم كثيرة ولم يدعهم للهلاك والموت، وهنا يذكر قوم موسى صلّى الله عليه وسلّم ببعض ما أنعم عليهم من نعم على الرغم ما صدر منهم من معاصي، فقد صيَّرهم اثنتي عشرة فرقة وجعلهم جماعات، وميَّز كلّ جماعة بنظامها منعا للتحاسد والخلاف، وأوحى إلى موسى حين طلب منه قومه الماء في التيه بأن يضرب الحجر بعصاه فضربّه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا بعدد الأسباط، وقد عرف كلّ جماعة منهم مكان شربّهم الخاص بهم، فلا يزاحمهم فيه غيرهم، وجعل لهم السحاب يلقي عليهم ظله في التيه ليقيهم حر الشمس، وأنزل عليهم المنّ والسلوى وقال لهم: كلّوا من مستلذات ما رزقناكم ممّا أنزلناه عليكم. فظلموا أنفسهم وكفروا بتلك النعم وطلبوا غيرها فكان هذا ظلما لأنفسهم، وطلبهم هذا عاد عليهم بالضرر وظلمهم كان مقصورا عليهم، فمن هذه النعم التي آتاهم الله إيّاها وهم في صحراء التيه:

التنظيم: (وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُممًا)

الماء: (أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كلّ أُنَاسٍ مَشْربّهُمْ)

الظل الوارف: (وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ)

---

632 - الأعراف 160.

الطعام: (وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كلّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ)

ومع ذلك فقد ظلموا أنفسهم بجحودهم نعمة الله عليهم واستبدال ما هو أدنى بالذي هو خير قال تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحقّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}633.

لقد كان قوم موسى صلّى الله عليه وسلّم في الصحراء بجدبها وصخورها، وتحت السماء بنجومها ورجومها، فأما الحجر فقد أنبع الله لهم منه الماء، وأما السماء فأنزل لهم منها المن والسلوى، ولكن البنية النفسية، والجبلة الهابطة المتداعية التي اعتادت الذل والاستعباد، أبت عليهم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التي من أجلّها أخرجهم الله من مصر وأنجاهم من فرعون وجنوده، ومن أجلّها ضربوا في الصحراء.

لقد أخرجهم الله على يدي نبيهم موسى صلّى الله عليه وسلّم من الذل والهوان ليورثهم الأرض المقدسة وليرفعهم من المهانة والضعة إلى المستوى الذي يرتضيه الله لعباده وهم له كارهون، ذلك أنّ:

للحرية ثمن

للعزّة تكاليف

للأمانة أهل

للانعتاق تضحية

---

[633] - البقرة 61.

ولأنّ أنفسهم مطبوعة على الذل والهوان، وقد ألفوا الرق والاستعباد، واعتادوا الهوان الدنيء، فهم:

لا يريدون أن يؤدوا الثمن

ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف

ولا يريدون أن يدفعوا بالتضحية

ولا يريدون أن يكونوا أهلا للأمانة

ولذا؛ فقد أبوا أن يتركوا مألوف حياتهم الرتيبة الهينة، وأن يغيروا مألوف طعامهم وشرابهم، وأن يكيفوا أنفسهم بظروف حياتهم الجديدة في طريقهم إلى العزة والحرية وحمل الأمانة والسير في الانعتاق، إنهم يريدون الأطعمة المنوعة التي ألفوها في مصر. يريدون العدس والثوم والبصل والقثاء وما إلى ذلك، وهذا ما يذكرهم به الله تعالى في استبدالاتهم السيئة فيما يطلبونه من نبيهم: (وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا ممّا تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها).

وربّ قائل يقول إنّهم ملّوا ذلك الطعام الذي اقتصروا عليه خلال فترة التيه، فاشتهت أنفسهم ما كانوا يأكلّون من الطعام في مصر.

ونحن نقول: إنّ الخير فيما اختاره الله لأنّه وقع عليهم بعد هذا الطلب وزر الاستبدال مع إجابة الطلب لما أرادوا، فقد استجاب الله تعالى دعاء نبيهم فيما طلبه لهم ليبين لهم سفاهة رأييهم وخسة نفوسهم ونتيجة استبدالهم، ومن هذه أدلة الاستجابة وظهور النتائج أراد الله تعالى ألا تصيبهم فأبوا إلا ما سولت لهم أنفسهم:

. إنكار موسى صلّى الله عليه وسلّم لطلبه: (قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير)

. الإجابة مع الإنكار: (اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم)

. العودة لما كانوا عليه: (وضربت عليهم الذلة والمسكنة)

. تحمل نتيجة أفعالهم واستبدالاتهم: (وباؤوا بغضب من الله)

. أسباب ذلك: (بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحقّ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون)

إنّ إجابة الطلب من الله تعالى في استبدالهم هذا لم يكن من قبيل محبة الله تعالى لهم ورضاه عنهم بدليل ما صرحت به الآيات من الذل والمسكنة التي ضربت عليهم والغضب الذي حلّ عليهم من الله تعالى، ذلك أنهم لم يكونوا أهلاً للرفعة والمكرمات، ولم يكونوا على درجة تحمل المسؤولية من تكاليف ما جاء به نبيهم ولذا:

. أعادهم إلى حياتهم التي ألفوها

. حياة الذل والخنوع

. استبدال المنّ والسلوى بالثوم والبصل

. لم يكن استبدال مادة بمادة أخرى

. إنّما هو استبدل قيمة عليا بقيمة دنيا

. استبدال مكانة بما هو أحط

فإنّ ضرب الذلة والمسكنة عليهم وعودتهم بغضب الله بين الله تعالى أسبابه، ولم يكن البتة من قبيل الرضا عنهم، ولكن بما كسبت أيديهم

من آثام فكان الإخبار عنهم وعمّن يليهم من أجيالهم وذرياتهم، لأنّ الله تعالى علم أنّ أبناءهم وأحفادهم سيحملون الطباع نفسها، وسيتقوّلون ما تقوّل آباءهم وأجدادهم على الله وأنبيائه، فأخبر الله تعالى بما سيكون منهم من:

الكفر بآيات الله: (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله)

قتلهم الأنبياء: (ويقتلون النبيين بغير الحقّ)

الاعتداء والعصيان: (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون)

فقد وقع بعضا من هذا الإخبار في عهد موسى صلّى الله عليه وسلّم، ووقع بعضا منه بعد موسى بأجيال، وعجل السياق بذكر الذلة والمسكنة والغضب لمناسبة موقفهم من طلب العدس والبصل والفوم والقثاء في استبدال ما اختاره الله لهم من خير بما هو أدنى، فلذلك كان قول موسى صلّى الله عليه وسلّم لهم (اهبطوا مصرا) هو تذكير لهم بالذل في مصر وبالنجاة منه، ولكن أبت نفوسهم إلا الذي جبلت عليه.

فقد كان إخبار الله تعالى عمّا سيكون منهم بمثابة التحذير منهم لعباده المؤمنين لأنه صدر منهم وسيصدر من أجيالهم من بعد موسى ادعاءات عجيبة وافتراءات كثيرة على الله سبحانه وتعالى وعلى أنبيائه صلّى الله عليهم وسلّم منها:

. يدعون أنهم هم وحدهم المهتدون

. هم شعب الله المختار

. هم وحدهم الذين ينالهم ثواب الله

. أنّ فضل الله لهم وحدهم دون شريك

وهنا أقرّ الله تعالى قاعدة من قواعده الكلّية، لا تخص إنسان دون إنسان أو قوم دون قوم أو نبي دون نبي وإنما هي شاملة جامعة مانعة بقوله تعالى: (إن الدين عند الله الإسلام) الذي أقر:

. وحدة التوحيد

. وحدة الإيمان

. وحدة العقيدة

. تنوّع الشرائع

وقد بيّن الله تعالى للبشر من أتباع الأنبياء جميعهم قاعدة العدل على التساوي في الجزاء قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}634.

رابعا: استبدال القيم

إنّ الأخلاق تجسيد لمجموعة من الفضائل والقيم تتمثل في الأقوال والأفعال والسلوك والتصرف.

أمّا الفضائل فلا تكون إلا في الخير لأن مصدرها الخير المطلق من الله تعالى

وأمّا القيم فمجموع ما يتصف به الإنسان من صفات أخلاقية سلبية وإيجابية تمثل درجة الخير ودرجة الشر لدى من يحمل هذه القيم، وعلى هذا فإن القيم تنقسم على قسمين:

[634] - البقرة 62.

1 . قيم تدلّ على السمو والرفعة وهي قيم عليا ممّا يستحسنه الإنسان وتدخل في باب الخير سموا باتجاه الفضيلة وان لم ترقَ إلى مستواها.

2 . قيم تدلّ على الدنو والانحطاط من سيء الأقوال والأفعال والسلوك والتصرف تنحدر باتجاه الرذيلة وصولا إليها.

وكلّا النوعين من القيم يندرج تحت مسميات الأخلاق وكلّ منهما يتفرع إلى مكانته، فمثلا:

الصدق قيمة أخلاقية سامية تتوجه إلى الفضائل

الكذب قيمة أخلاقية متدنية تنحدر إلى الرذائل

وكلّ ما جرى هذا المجرى من القيم فإنه لا يخرج على أحد هذين النوعين، وقد ميزنا بين القيمة والفضيلة والأخلاق لأن الفضيلة ليست صفة لازمة للإنسان وإنما يمكن أن يتصف بها و لا يستطيع أن يغيرها أو يضيف عليها أو ينتقص منها مثل فضيلة الإيمان المحددة بشروطها (الإيمان بالله وملائكته.....الخ

أمّا القيم فيمكن للإنسان أن يحتال بها مثل الصدق والكذب كادعائه بالاتصاف بإحدى الفضائل كالإيمان وهو كاذب في ذلك، فادعاؤه هذا أدى إلى تبديل قيمة سامية هي الصدق بقيمة متدنية هي الكذب، ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يغير من حقّيقة الإيمان شيئا كون الإيمان فضيلة من الفضائل لا تخضع لما تخضع إليه القيم.

وعلى ذلك كان دأب قوم موسى صلّى الله عليه وسلّم وإصرارهم على الاستبدالات المستمرة ما انسحب على أخلاقهم محاولين التأثير على الفضائل ولكن دون جدوى.

ومن هذه الاستبدالات الأخلاقية التي ترتبط بالأقوال والأفعال والسلوك والتصرف:

. استبدال طاعة الأمر بالمعصية:

قال تعالى: {ادخلوا الباب سجدا وقولوا.... فلم يدخلوا ولم يقولوا

. استبدال النواهي:

قال تعالى: {وأكلّهم الرّبا وقد نهوا عنه

. استبدال الوجوب:

قال تعالى: {وكتبنا عليهم فيها

وإضافة إلى ذلك:

1 . أنّهم فرّقوا بين الله ورسله، وآمنوا ببعض الرّسُل وكفروا ببعض، بمجرّد التّشهّي وعادة استبدال الأخلاق، لا عن دليل قادهم إلى ذلك، فإنه لا سبيل إليه، بل بمجرّد الهوى الذي يدل على استبدال الأخلاق قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أوّلئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حقّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا}635.

وهذا الأمر وإن كان يشترك فيه اليهود والنصارى، ولكنه في اليهود أظهر وأكثر.

2 . أنهم خذلوا أنبياءهم، ونقضوا العهود التي أخذوها عليهم، قال تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا

[635] - النساء 150، 151.

وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}636.

وآيات أخذ العهد والميثاق على بني إسرائيل كثيرة، ولكن النتيجة واحدة قال تعالى: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ}637.

ونقض العهد والغدر يُنبئ عن أعظم سوء في الأخلاق وفساد في النفوس وضعف في العقيدة لدى هؤلاء.

3 . أنّهم تنقّصُوا بعض الأنبياء والرّسُل، صلّى الله عليهم وسلّم، ورموهم بارتكاب كبائر الذنوب، ورموهم بالنقائص والعيوب والتوراة المحرفة مليئة بهذا اللون، وفيها من الخزي والعار ما يندى له الجبين. فنسبوا لهارون صلّى الله عليه وسلّم، أنّه صنع لهم العجل الذي عبدوه من دون الله، ورموا نبي الله سليمان صلّى الله عليه وسلّم بأنه في أواخر أيّامه مال إلى ممّالأة نسائه على عبادة الأوثان، وبنى لهن المعابد والأوثان، وأنّه لم يكن مخلصًا في إيمانه بربّه عزّ وجلّ.

واتهموا نوحًا صلّى الله عليه وسلّم، بأنّه كان يشرب الخمر، واتهموا داود ولوطًا، عليهما الصّلاة والسّلام بالزنا، إلى غير ذلك من النقائص والتهم التي تنمّ عن سوء الأخلاق وفسادها بعد أن استبدلوا ما أمر الله به.

636 – المائدة 12.

637 – المائدة 13.

وهذه الأمور ليست غريبة على أوّلئك الذين رموا رسولهم ونبيهم موسى صلّى الله عليه وسلّم بالنقائص والعيوب فقد أخبر عنه سبحانه وتعالى بقوله: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا}638.

4 . قتلهم الأنبياء والرّسُل، وقد ذكر الله ذلك في القرآن في أكثر من موضع: {أَفَكلّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ}639.

وقال تعالى: {لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كلّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ}640.

وقال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحقّ}641.

ومن أشهر من قُتل من الأنبياء على يد اليهود زكريا وابنه يحي عليهما الصّلاة والسّلام

هذه عقيدة القوم التي اعتقدوها تبعا لأخلاقهم التي استبدلوها في أنبياء الله ورسله، والذي ينظر إلى مواقفهم مع موسى صلّى الله عليه وسلّم، وهو نبيهم ومنقذهم من فرعون يرى عجبا من شكوى نبيهم

[638] – الأحزاب 69.

[639] – البقرة 87.

[640] – المائدة 70.

[641] – البقرة 61.

إياهم في سوء أخلاقهم وتصرفاتهم حيث قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ}642.

استبدالات قوم موسى صلّى الله عليه وسلّم، ومن جاء بعدهم من ذريّاتهم كانت نتيجته أن غضب الله عليهم وضرب عليهم الذلة والمسكنة بما عصوا واستبدلوا وما كانوا يعتدون.

النبي

موسى من السُنّة

موسى عليه الصّلاة والسّلام نبي ولد في ظروف صعبة حيث كان في زمنه فرعون حاكما لمصر، وهو قد طغى في الأرض حتى أنّه قرر قتل المواليد الذكور خوفا من منافس ومتحدّ يخلّص المصريين من فساده في الأرض، ومع ذلك وُلِد موسى، وسلم موسى، بل وعاش في بيت فرعون كونه آية من آيات الخالق تعالى.

فذلك الطّاغية فرعون ذات ليلة رأي في منامه أنّ نارا تأكل ملكه وتقتّل شعبه وهي آتية من ناحية بيوت بني إسرائيل، قام فرعون مفزوعا خائفا من نومه، فأسرع باستدعاء السحرة والكهنة وحكي لهم ما رأي، فأخبروه تفسيرا أنّه سيولد في بني إسرائيل مولودا يكون سببا في ذهاب ملكه وهلاكه؛ ففزع فرعون وأمر جنوده وحاشيته أن يقتلوا كلّ من يولد ذكرا من بني إسرائيل. وفي تلك الفترة كانت امرأة عمران حاملا بنبي الله موسي عليه السّلام، ولدت موسى في هذه الظروف الصّعبة، قال

642 - الصف 5.

تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حقّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}643. في هذه الآيات العظيمات كانت الأسرار والإعلان عنها؛ فأمّ موسى عليهما السّلام أعلمها الله بكلّ ما سيحدث لابنها، وقد طمّنها يقينا، ولكن يظل الإنسان مهما عظم غير كاملا؛ فكان الخوف مسيطرا على أمّ موسى إلى أن عاد إليها أمّا ومرضعة، وفوق ذلك بشّرت بمستقبل موسى أنّه سيكون رسولا. قال تعالى: {إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}644.

وعليه حفظ الله موسى فلم يعلم جنود فرعون بأمره، وقذف الله في قلب أمّ موسى أنّها إن خافت عليه تضعه في صندوق وتربطه ببيتها وتلقيه في النهر لكي لا يراه أحد من جنود فرعون الظالم، وترضعه كلّ فترة. و ولكن في يوم خرجت أمّ موسي لتضرع ابنها، فإذا بها تجد أنّ الحبل قد قطع وأن الصندوق قد جري في النهر حتي رآه جنود فرعون فأخذوه إليه؛ فعندما رأته امرأة فرعون طلبت منه أن تأخذه ولدا لها، ولكن موسي عليه السّلام رفض أن يرضع من جميع المرضعات، حتي

---

[643] القصص 7 . 13.

[644] القصص 7.

علمت أخت موسى بأمره، فقالت لامرأة فرعون أنّها تعرف من يرضع هذا الطفل، وطلبت من أمّ موسى أن تأخذ الطفل لترضعه؛ فوافقت امرأة فرعون، وعاد موسي لأمّه آمنا.

كبر موسى وكان شابا قويا، وفي يوم وجد رجلان يتقاتلان أحدهما من بني إسرائيل والآخر من جنود فرعون، وهما يتعاركان استنصره من هو من شيعته فنصره موسى حيث وكز جندي فرعون فقتله، وهذا الأمر هو الذي جعله يخرج من مصر مهاجرا إلى مأمن؛ فذهب إلى مدينة مدين.

وعندما دخل موسى مدين وجد أناسا يسقون حيواناتهم، وقد لاحظ فتاتين لم يقمن بالسّقي أدبا وتجنبا للاختلاط بالرّجال، فأخذ موسى أغنامهما وسقي لهما، فعادت الفتاتان إلي أبيهما وقصّتا عليه ما حدث، فاستدعاه واستمع إليه ثمّ طمئنه خوفه، وطلب منه أن يعمل عنده مقابل أجرة، ويزوجه إحدى ابنتيه، فوافق موسى وعاش في مدين سنين التعاقد والتعهّد وأكثر من ذلك استيفاء واضحا لما تم الاتفاق عليه مع ذلك الرّجل الصّالح. فعن ابْنُ مُصَفًّى، نا بَقِيَّةُ، عَنْ مَسْلَمَةَ بْنِ عُلَيٍّ، حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ أَبِي أَيُّوبَ، عَنِ الْحَارِثِ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ رَبَاحٍ قَالَ: سَمِعْتُ عُتْبَةَ بْنَ النُّدَّرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا " فَقَرَأَ طس حَتَّى إِذَا بَلَغَ قِصَّةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ آجَرَ نَفْسَهُ ثَمَانِيَ سِنِينَ أَوْ عَشْرَ سِنِينَ عَلَى عِفَّةِ فَرْجِهِ وَطَعَامِ بَطْنِهِ"[645]

بعد ذلك قرّر موسى عليه السّلام العودة إلي مصر، فلمّا وصل إلي جبل الطور، ناداه الله عزّ وجلّ واصطفاه نبيا لبني إسرائيل فعاد النبي

[645] الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم، 3، ص 63.

موسى يدعو فرعون وقومة إلي توحيد الله وعبادته، إلّا أنّ فرعون تكبّر واستعلاء ورفض دعوته واتهمه بالسّحر، وذات يوم تحدٍّ من فرعون طلب المواجهة مع حجّة موسى عليه السّلام؛ فوافق موسى؛ فجمع له السّحرة ليبينوا للنّاس أنّ موسى ساحر كذاب، ولكن الله عزّ وجلّ نصر عبده فرمي سيدنا موسي العصا فالتقمت كلّ عصيان السّحرة، فآمن السّحرة بالله فعذبهم فرعون حتي الموت. قال تعالى: {وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}[646]. ولأنّ لكلّ قاعدة استثناء؛ فكانت القاعدة أنّ السّحرة ملعونين وسيظلون كذلك، ولكن أن يؤمنوا السّحرة وهم بإيمانهم يتحدّون الكفر فهذا استثناء عظيم.

وبعد هذه المغالبة العظيمة، انتصر الحقّ الذي يمثله موسى وأنهزم الباطل الذي يمثله فرعون، وحفظ الله موسى بأن أنبأ له أن يسري ويخرج من مصر لأنّ فرعون قدّ قرّر متابعته والتخلّص منه؛ فسرى موسى ومن آمن معه؛ فلما اقترب من البحر خاف بنو إسرائيل أن يلحقّ بهم فرعون وجنوده، أو أن يغرقوا، فأمر الله عزّ وجلّ موسى أن يضرب البحر بعصاه، فشقّ البحر إلي ممرات عبر فيها بنو إسرائيل مع موسي، وأغرق الله فرعون وجنوده بظلمهم ونجى موسى ومن كان معه

[646] طه 69 . 73.

من المؤمنين. {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرّحيم}[647].

قصّة موسى تظهر المعجزة وراء المعجزة، وتظهر التحدّي في مواجهة التحدّي، وتظهر الانتصار في مواجهة الهزيمة، وتظهر الحقّ في مواجهة الباطل حتى زهقه؛ وهذه كلّها تدلّ على كمال رعاية الله لموسى عليه الصّلاة والسّلام، في جميع شؤونه: في رضاعته، وكفالته، وعلمه وحكمته، وإعداده بالقوّة، وإحاطته حفظا ورعاية ونصرا.

ومن بين فصول قصّة موسى عليه السّلام أنّه طلب من ربّه تعالى أن يجعل له وزيرا من أهله، وليكن أخاه هارون ليسنده ويناصره ويستفيد من خبرته ومعارفه وحسن تدبّره وإدارته، {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي}[648]؛ أي: طلب موسى من ربّه أن يشدّ أزره بأخيه هارون، فأرسله معه ليكون عونا له في الحِجَاج، وخاف أن يبطش بهما فرعون وجنوده، وأن يقتلوا موسى بالقبطي الذي سبق أن قتله، فكانت له الاستجابة، وأصبح هارون

[647] الشعراء 52. 68.

[648] طه 29. 32.

رسول مع رسول، قال تعالى: {لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}649. وجعل لهما سلطانًا من الآيات تقوم به الحجّة، وتنخلع به قلوب الجبّارين، وتمتلئ بالوهن والضّعف، وبذلك يثبت موسى في ميدان الدّعوة إلى اللهّ، فبات واثقًا بربّه مؤمنًا بما يدعو إليه من الهدى والنّور، وتجلّى في حجاجه صولة الحقّ، وأحسّ من نفسه بالعزّة والقوّة، وبذلك ذلَّ جبروت فرعون، وتلاشى عنده تألّهه وتعاليه، ولم يعدّ يملك من الكيد إلّا الهزيمة.

ولهذا من يكون على الحقّ فلابدّ أنّ يفوز وينتصر، ويسلم من كلّ أذى ومن كلّ تأزّم، ذلك لأنّ الماكرين والكائدين، الله دائما في مواجهة مكرهم وكيدهم، ومن ثمّ فمن يؤمن بالله يقينا فلا مكر يلحقّه ولا يكيد يعيق سبيله عن أداء رسالته التي بها مستخلف في الأرض، قال تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ}650. وقال عزّ وجلّ: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ - قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ}651.

آيات موسى:

آيات موسى (معجزات موسى) التي أحاطه بها الله تعالى وهي تسعة كما قال ابن عباس: الآيات التسع هي: "يده، وعصاه، ولسانه، والبحر، والطّوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدّم"652. وكان

---

[649] طه 46.

[650] غافر 51.

[651] الأعراف 128، 129.

[652] رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب، ص 95.

على رأس هذه المعجزات العصا التي أعجزت فرعون الطّاغية وحاشيته، ولما رأى السّحرة أمرها أيقنوا أنّ الحقّ مع صاحبها، وأنّه مؤيّد من الله الذي يدعو إليه، فخرّوا له ساجدين، وفي ذلك يقول الله في القرآن الكريم: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الحقّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ}653 .

موسى والاستغاثة:

من الأَقْوَال التي فيها من اللبس ما فيها هي تلك التي قيلت فِي قِصَّة مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام، حيث يرى البعض أنّ قتل موسى للقبطي لا يزيد عن كونه تعصّبا؛ ولكن كيف له بذلك وهو يعرف أنّ أَحدهمَا مُؤمنا وَالْآخر يعرفهُ كَافِرًا، وحينما استغاثه الْمُؤمن على الْكَافِر فليس له بدّ إلّا المناصرة؛ فَوَكَزَ الْكَافِر ليحمي الْمُؤمن فصادف موته"654. ولهذا عندما يستغاث بك شخص وأنت تعرفه لم يكن على باطل؛ فعليك بإغاثته بلا مظالم، ذلك لأنّ الاستغاثة هي طلب الغوث والإنقاذ من الشدّة والهلاك؛ والاستغاثة بالله عزّ وجلّ هي من أفضل الأعمال وأكملها وهو دأب الرّسُل عليهم الصّلاة والسّلام وأتباعهم"655 قال تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي

---

[653] الأعراف 117 . 122.

[654] تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء، ص 108.

[655] الإستغاثة بالأحياء العالمين القادرين على الإغاثة فهذا جائز كالاستعانة بهم، قال الله تعالى في قصة موسى عليه السلام: (فاستغاثة الذي من شيعته على الذي من) عدوه فوكزه موسى فقضى عليه) سورة القصص، الآية: 15.

مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ}656 وهكذا فإنّ الاستغاثة بالأحياء العالمين القادرين على الإغاثة جائز كالاستعانة بهم، قال الله تعالى في قصة موسى عليه السلام: {فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ}657

موسى والسيد الخضر:

بدأت حكاية موسى مع الخضر عليهما السّلام، حينما كان موسى يخطب يوما في بني إسرائيل، فقام أحدهم سائلا: هل على وجه الأرض أعلم منك؟ فقال موسى: لا، إتكاءً على ظنّه أنّه لا أحد أعلم منه؛ فعتب الله عليه في ذلك، لماذا لم يكل العلم إلى الله، وقال له: إنَّ لي عبدا أعلم منك وإنَّه في مجمع البحرين، وذكر له أنّ علامة مكانه هي فقد الحوت، فأخذ حوتا معه في مِكْتَل وسار هو وفتاه يوشع بن نون، وحكت لنا سورة الكهف كيف التقى مع العبد الصّالح الخضر، إذ بدأت الحكاية في القرآن الكريم بعزم موسى عليه السّلام على الرّحلة إلى مَجْمع البحرين في طلب العلم ، كما قال تعالى : {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حقبًا فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا}658، أي بتتابع الأحداث نسيا الحوت وواصلا طريقهما، ثمّ تنبّها لنسيانه فعادا، ولقي موسى عليه السّلام الخضر عند مجمع البحرين، والخضر هو: عبد صالح وهبه الله نعمة عظيمة من العلم وفضلا كبيرا: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا}659 فكانت الرّحلة وفقا لشروط التزم موسى بها،" : {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ

---

[656] الأنفال 9.

[657] القصص 15.

[658] الكهف 60، 61.

[659] الكهف 65.

تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}[660]

في هذه القصّة الجميلة التي فيها من الحوار الموضوعي ما فيها حصلت مجموعة من المواقف والتناقضات بأسباب غياب المعلومة الصّائبة؛ فكانت الدروس التعليمة حجّة ومن ورائها حجج، والتي منها

---

[660] الكهف 66 ـ 82.

تعلّم موسى ما لم يكن قد علمه من قبل. وهنا قيل كَانَتْ قِصَّةُ الْخَضِرِ مَعَ مُوسَى امْتِحَانًا لِمُوسَى لِيَعْتَبِرَ[661]

موسى مبشر بمحمّد:

أخبر الرّسول موسى ببعثة محمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِما وَسَلَّمَ كما هو موجود في التوراة "التي جاء بها موسى عليه السّلام، ومصداقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرّسول النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ والإنجيل يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ}[662]؛ فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ، حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا فَبَاعُوهَا، وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا "قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: فَلَمْ يَزَلْ مَا حَرَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، الْيَهُودَ خَاصَّةً، وَغَيْرَهُمْ عَامَّةً، مُحَرَّمًا مِنْ حِينِ حَرَّمَهُ، حَتَّى بَعَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَفَرَضَ الْإِيمَانَ بِهِ، وَأَعْلَمَ خَلْقَهُ أَنَّ دِينَهُ الْإِسْلَامُ، الَّذِي نَسَخَ بِهِ كُلَّ دِينٍ قَبْلَهُ، وقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: فَقِيلَ، وَاللهُ أَعْلَمُ: أَوْزَارُهُمْ وَمَا مُنِعُوا بِمَا أَحْدَثُوا قَبْلَ مَا شُرِعَ مِنْ دِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[663]

وكذلك عيسى– عليه السّلام أخبر بمحمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمر بالإيمان به {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرائيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}[664] ، فعيسى عليه السّلام بشّر بني إسرائيل بمحمّد صَلَّى

[661] فتح الباري لابن حجرن 1، ص 221.

[662] الأعراف 57.

[663] السنن الكبرى للبيهقي، 10، ص 14.

[664] الصف 6.

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا معناه: أنّه أمرهم الإيمان بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فكفروا بعيسى، لأنّه بشرهم بمحمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"665

حدثنا ابن عباس عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: "عُرضت عليَّ الأمم، فرأيت النّبي ومعه الرَّهْط، والنّبي ومعه الرّجل والرّجلان، والنبي وليس معه أحد؛ إذ رُفع لي سواد عظيم، فظننت أنّهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه"666.

كلام موسى مع ربّه:

قال كَعْبًا لما كلم الله مُوسَى: "كَلّمه بالألسن كلهَا قبل أَن يكلّمهُ بِكَلَامِهِ قَالَ لَهُ مُوسَى أيّ ربّ أَهَذا كلامك قَالَ لَا وَلَو كلّمتك بكلامي لم تستقم، أَو لم تَكُ شَيْئا قَالَ ربّ فَهَل من خلقك من يشبه كَلَامه كلامك قَالَ أَشد خلقي شبها بكلامي مَا تَسْمَعُونَ من هَذِه الصَّوَاعِق"667

وَقَالَ وهب نودى من الشَّجَرَة فَقيل يَا مُوسَى فَأجَاب سَرِيعا وَمَا يدري من دَعَاهُ وَمَا سرعَة إجَابَته إِلَّا أنسا بالأنس فَقَالَ لبيْك إِنِّي لأسْمع صَوْتك وَلَا أرى مَكَانك فَأَيْنَ أَنْت قَالَ أَنا فَوْقك ومعك وأمامك وخلفك وَأقرب إِلَيْك من نَفسك فَلَمَّا سمع مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام علم أَنّه لَا ينبغي ذَلِك إِلَّا لربّه عزّ وَجلّ فأيقن بِهِ فَقَالَ كَذَلِك أَنْت يَا إلهى فكلامك أسمع أم رَسُولك؟ قَالَ بل أَنا الَّذِي أُكَلِّمك. ثمَّ قَالَ الرّب عزّ وجلّ إِنِّي أقمتك الْيَوْم مقَاما لَا ينبغي لبشر بعْدك أَن يقومه أدنيتك وقربتك حَتَّى سَمِعت كلامي، وَكنت بأقرب الْأَمْكِنَة مني فَانْطَلق

665 إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، 1، ص 70.

666 إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، 1، ص 85.

667 التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، ص 132.

برسالتي فَإنَّك بعيني وسمعي ومعك أيدي ونصرى وَقد ألبستك جنَّة من سلطاني تستكمل بهَا القوّة فِي أمري"668

وَعَن أبي سعيد الخدري قَالَ: "قَالَ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم قَالَ آدم لموسَى أَنْت الَّذِي اصطفاك الله بِكَلَامِهِ"669.

عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه أَنّ عمر بن الْخطاب رَضِي الله عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم: "إِنّ مُوسَى عَلَيْهِ الصّلاة والسّلام قَالَ: يَا ربّ أَيْن أَبونَا الَّذِي أخرجنَا وَنَفسه من الْجنَّة؟ فَأَرَاهُ الله آدم، فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام: أَنْت آدم فَقَالَ: نعم، قَالَ: فَمَا حملك على أَن أخرجتنا ونفسك من الْجنَّة؟ قَالَ: من أَنْت؟ قَالَ: أَنا مُوسَى قَالَ: أَنْت الَّذِي كلّمك الله من وَرَاء حجاب وَلم يَجْعَل بَيْنك وَبَينه رَسُولا من خلقه، قَالَ: نعم، قَالَ: فَمَا وجدت فِي كتاب الله أَنّ ذَلِك كَائِن قبل أَن أخلق، قَالَ: نعم، قَالَ: فَفِيمَ تلومني فِي شَيْء سبق من الله عزّ وجلّ فِيهِ الْقَضَاء قبلي، فَقَالَ: رَسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وَسلّم فحجّ آدم مُوسَى"670

عن عبد الله بن أنيس عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: "يحشر الله النّاس يوم القيامة عراة حفاة؛ فيناديهم بصوت يسمعه من بُعد كما يسمعه من قرب: أنّا الملك، أنا الدّيان"671. وفي كلامه مع ربّه؛ فعن عبد الله بن أبي جعفر قال: "لما قصّ الله على موسى عليه السّلام شأن هذه الأمّة، تمنّى أن يكون رجلا منه، فقال الله عزّ وجلّ: يا موسى إنّه يصيب آخرهم بلاء وشدّة من الفتن. فقال موسى: يا ربّ

668 المصدر السابق.

669 المصدر السابق.

670 من عقائد السلف (الرد على الجهمية)، ص 213.

671 رسالة السجزي إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت، ص 249.

ومن يصبر على هذا؟ قال الله عزّ وجلّ: إنّي أعطيهم من الصّبر والإيمان ما يهوّن عليهم البلاء"672. أخرجه نعيم بن حماد، في كتاب الفتن.

ولأنّ موسى كليم الله؛ فهو ذو الحظّ العظيم، لأنّه يتكلّم مع ربّه الأعلى جلّ جلاله؛ فعن سُوَيْد ابْن سعيد حَدثنَا الْمُعْتَمِر عَن أَبِيه عَن أبي عمرَان عَن نوف الْبكالِي: "أَنّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام لما سمع الْكَلَام قَالَ من أَنْت الَّذِي يكلمني قَالَ أَنا رَبك الْأَعْلَى"673

تفضيل موسى:

لا شكّ أنّ كلّ الأنبياء مفضلون، ولكن لكلٍّ تفضيله الذي ارتضاه الله، وهنا يعدّ التفضيل تميّز، وبه تميّز جميع الرّسُل عليهم الصّلاة والسّلام تفضيلا من الله تعالى بآيات خاصّة وأخرى عامّة، أي كلّما تميّز رسول بما ميّزه الله به، تميّز آخر بذات التميّز الإلهي.

والتميّز غير التمييز؛ فالتميّز يتعلّق بالشّخص الذي تميّز بما مُيّز به، أمّا التمييز ففيه مفارقة، وقد يكون بعلل الانحياز لغير الحقّ وهذه ليست من صفات الله تعالى.

ومن هنا، نقول: كلّ الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام هم متميّزون، وبتميّزهم الخاصّ (المميز) تمّ اختيارهم واصطفائهم وجعلهم من عند الله على ما جعلوا عليه من نبأ إعجازا لمن سواهم.

وحتى التميّز لا يكون إلّا في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، وذلك لمحدوديّة القدرة والاستطاعة، ومن هنا، عندما تعجز مقدرة أيّ رسول عن أداء المهمّة التي ميّزه الله بها، يلتجئ إلى من بيده القدرة

672 عقد الدرر في أخبار المنتظر، ص 395.

673 العلو للعلي الغفار، ص 124.

المطلقة (يلتجئ لربّه سؤالا ودعاء) لتكون الإجابة حلّا وهي ما فوق القدّرة.

قال تعالى: {تِلْكَ الرّسُل فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ}674 وهنا فالمكلّم هو موسى عليه وعلى جميع الأنبياء الصّلاة والسّلام، ولأنّهم المفضّلون المميّزون فما أوتي نبيٌّ آيةً إلا أوتي نبينا مثل تلك الآية إعجازا.

ولأنّ موسى مفضّل من ربّه تعالى فكلّمه على الخصوص مصداقا لقوله تعالى: {وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا}675 ، قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: وناديناه موسى من ناحية الجبل، ويعني بالأيمن يمين موسى؛ لأنّ الجبل لا يمين له ولا شمال، وإنّما ذلك كما يقال قام عن يمين القبلة وعن شمالها. وقوله (وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) يقول تعالى ذكره: وأدنيناه مُناجيا كما يقال: فلان نديم فلان ومُنادِمه، وجليس فلان ومُجالسُه، وذُكر أنّ الله جل ثناؤه أدناه حتى سمع صريف القلم. ثم ساق بسنده عن ابن عباس: (وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) قال: أُدنِيَ حتى سمع صريف القلم. وقال ابن كثير: وقوله (وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ) أي: الجبل، ومن الجانب الأيمن من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة فرآها تلوح فقصدها فوجدها في جانب الطور الأيمن من غربيه عند شاطئ الوادي، فكلَّمه اللهُ تعالى وناداه وقرَّبه فناجاه. وهنا قال ابن عباس: أُدني حتى سمع صريف القلم، وهكذا قال مجاهد وأبو العالية وغيرهم، يعنون صريف القلم بكتابة التوراة، وقال السدي (وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) قال: أُدخل في السماء فكُلِّم"676.

---

674 البقرة 253.

675 مريم 52.

676 التعليقات السنية على العقيدة الواسطية، ص 86.

عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ذَاتَ يَوْمٍ فَصَلَّى الْغَدَاةَ فَجَلَسَ حَتَّى إِذَا كَانَ الضُّحَى ضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ثُمَّ جَلَسَ مَكَانَهُ حَتَّى صَلَّى الْأُولَى، وَالْعَصْرَ وَالْمَغْرِبَ كُلُّ ذَلِكَ لَا يَتَكَلَّمُ حَتَّى صَلَّى الْعِشَاءَ الْأَخِيرَةَ ثُمَّ قَامَ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ النّاس لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَلَا تَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مَا شَأْنُهُ؟ صَنَعَ الْيَوْمَ شَيْئًا لَمْ يَصْنَعْهُ قَطُّ. قَالَ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: نَعَمْ عُرِضَ عَلَيَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَجُمِعَ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَقَطَعَ النّاس بِذَلِكَ حَتَّى انْطَلَقُوا إِلَى آدَمَ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَالْعَرَقُ يَكَادُ يُلْجِمُهُمْ، فَقَالُوا: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ وَأَنْتَ اصْطَفَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ مِثْلَ الَّذِي لَقِيتُمْ، انْطَلِقُوا إِلَى أَبِيكُمْ بَعْدَ أَبِيكُمْ؛ إِلَى نُوحٍ {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ}677 قَالَ: فَيَنْطَلِقُونَ إلى نوح –عليه السلام– فَيَقُولُونَ: اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ فَأَنْتَ اصْطَفَاكَ اللَّهُ وَاسْتَجَابَ لَكَ فِي دُعَائِكَ، وَلَمْ يَدَعْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا. فَيَقُولُ: لَيْسَ ذَلِكُمْ عِنْدِي، انْطَلِقُوا إلى إبراهيم –عليه السّلام– فَإِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَهُ خَلِيلًا. فَيَنْطَلِقُونَ إلى إبراهيم –عليه السّلام– فَيَقُولُ: لَيْسَ ذَلِكُمْ عِنْدِي انْطَلِقُوا إلى موسى –عليه السّلام– فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَلَّمَهُ تَكْلِيمًا. فيقول موسى –عليه السّلام– لَيْسَ ذَلِكُمْ عِنْدِي، انْطَلِقُوا إِلَى عِيسَى بن مريم –عليه السّلام– فَإِنَّهُ كَانَ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَيُحْيِي الْمَوْتَى، فَيَقُولُ عِيسَى: لَيْسَ ذَلِكُمْ عِنْدِي، انْطَلِقُوا إِلَى سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ، انْطَلِقُوا إِلَى مُحَمَّدٍ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَلْيَشْفَعْ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: فَيَنْطَلِقُ فَيَأْتِي جِبْرِيلُ رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ

[677] آ عمران 33.

وَجَلَّ: ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ، فَيَنْطَلِقُ بِهِ جِبْرِيلُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَيَخِرُّ سَاجِدًا قدر جمعة، فيقول اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، قَالَ: فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ فَإِذَا نَظَرَ إِلَى وَجْهِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَرَّ سَاجِدًا قَدْرَ جُمُعَةٍ أُخْرَى، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ تُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، قَالَ: فَيَذْهَبُ لِيَضَعَ سَاجِدًا فَيَأْخُذُ جِبْرِيلُ بِضَبْعَيْهِ فَيَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الدُّعَاءِ شَيْئًا، لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى بَشَرٍ قَطُّ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ خَلَقْتَنِي سَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ، وَأَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، حَتَّى إِنَّهُ يَرِدُ عَلَى الْحَوْضِ أَكْثَرُ مِمَّا بَيْنَ صَنْعَاءَ وَأَيْلَةَ، ثُمَّ يُقَالُ: ادْعُوا الصِّدِّيقِينَ فَيَشْفَعُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: ادْعُوا الْأَنْبِيَاءَ قَالَ: فَيَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الْعِصَابَةُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الْخَمْسَةُ وَالسِّتَّةُ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، ثُمَّ يُقَالُ: ادْعُوا الشُّهَدَاءَ فَيَشْفَعُونَ لِمَنْ أَرَادُوا، قَالَ: فَإِذَا فَعَلَتِ الشُّهَدَاءُ ذَلِكَ، قَالَ: فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، أَدْخِلُوا جَنَّتِي مَنْ كَانَ لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا، قَالَ: فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ. قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "انْظُرُوا فِي أَهْلِ النَّارِ هَلْ"[678]

موسى أهل علم:

موسى نبي الله ورسوله لبني إسرائيل كان عالما يبحثوا عن العلم؛ أي مع علّمه الذي كان يظنّ أنّه العلم الواسع وجد نفسه في حاجة إلى المزيد وهذا كما تمّ تبيانه مع الرّجل الصّالح، وفي هذا الشأنَ أخرج الإِمَام أَحْمد فِي الزّهْد وابن عبد الْبر فِي كتاب الْعلم بِسَنَدِهِ عَن أبي بن كَعْب قَالَ "أوحى الله عزّ وَجلّ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام تعلم الْخَيْر وَعلّمه النّاس فَإِنِّي منور لمعلّم الْعلم ومتعلّمه قُبُورهم حَتَّى لَا يستوحشوا لِمَكَانِهِمْ قَالَ: فَيَجِدُونَ فِي النَّارِ رَجُلًا، فَيَقُولُونَ لَهُ: هَلْ عَمِلْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ أُسَامِحُ النّاس فِي الْبَيْعِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

---

[678] معارج القبول بشرح سلم الوصول، 1، ص 306.

اسْمَحُوا لِعَبْدِي بِسَمَاحَتِهِ إِلَى عَبِيدِي. ثُمَّ يُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ رَجُلًا فَيَقُولُونَ لَهُ: هَلْ عَمِلْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَمَرْتُ وَلَدِي إِذَا مت فأحرقوني في النّار ثُمَّ اطْحَنُونِي حَتَّى إِذَا كُنْتُ مِثْلَ الْكُحْلِ فَاذْهَبُوا بِي إِلَى الْبَحْرِ فَاذْرُونِي فِي الرِّيحِ فَوَاللَّهِ لَا يَقْدِرُ عَلَيَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَبَدًا. فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ له: لِمَ فعل ذَلِكَ؟ قَالَ: مِنْ مَخَافَتِكَ. قَالَ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرْ إِلَى مُلْكِ أَعْظَمِ مَلِكٍ فَإِنَّ لَكَ مِثْلَهُ وَعَشْرَةَ أَمْثَالِهِ، قَالَ فَيَقُولُ: أَتَسْخَرُ بِي وَأَنْتَ الْمَلِكُ؟ قَالَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَذَلِكَ الَّذِي ضَحِكْتُ مِنْهُ الضُّحَى" رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى"679، وجاء فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ. وَقَوْلِهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي قِصَّةِ سُؤَالِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ مَنَازِلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: "قَالَ يَا رَبِّ فَأَخْبِرْنِي بِأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً، قَالَ: هَذَا أَرَدْتَ فَسَوْفَ أُخْبِرُكَ؛ قَالَ: غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا"680

دعاء موسى:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "قال موسى عليه السّلام: يا ربّ علّمني شيئا أذكرك وأدعوك به. قال: قل يا موسى لا إله إلا الله. قال: يا ربّ كلّ عبادك يقولون هذا. قال: يا موسى لو أنّ السّماوات السّبع وعامرهن غيري والأرضين السّبع في كفّة، ولا إله إلا الله في كفّة، مالت بهنّ لا إله إلا الله"681 رواه ابن حبان والحاكم صححه.

679 شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، ص 159.

680 معارج القبول بشرح سلم الوصول، 1، 352.

681 القول السديد شرح كتاب التوحيد ط النفائس، ص 21.

وَفِي دُعَاء مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام: "اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمد وَإِلَيْك المشتكى وَأَنت الْمُسْتَعَان وَبِك المستغاث وَعَلَيْك التكلان"682

وفي القرآن الكريم جاء الدّعاء على لسان موسى وقلبه: {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى}683 وقال في آية أخرى: {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحيم}684

ثم قال في دعاء آخر: {أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ}685

{قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}686

وَقَالَ عَنْ كَلِيمِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: {وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ}687

موقف موسى من السّحرة:

---

682 المنتقى من منهاج الاعتدال، ص 203.

683 طه 25. 37.

684 القصص 16.

685 الأعراف 155، 156.

686 الأعراف 151.

687 غافر 27.

انتشر السّحر في عهد موسى عليه السّلام، حتى أنّ القوم قد مهروا فيه، فأثروا به على النفوس، وسحروا به أعينَ الناظرين؛ فكان ما آتاه اللّهّ نبيه موسى فوق ما تبلغه القوى والقدر، وما لا يدرك بالأسباب والوسائل، وقد أوضح الله ذلك في كثير من الآيات، منها قوله– تعالى– : {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى}688، ولهذا بُهت السّحرة، وبطل ما جاءوا به من التمويه والتضليل، وامتاز الحقّ عن الباطل"689؛ وهنا استسلم السّحرة وأسلموا إلى الله ربّ العالمين، {وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ}690

وعليه فالسّحر لا أحد ينكره؛ فهو مُتَحقّقٌ وُقُوعُهُ وَوُجُودُهُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا حقّيقَةً لَمْ تَرِدِ النَّوَاهِي عَنْهُ فِي الشَّرْعِ وَالْوَعِيدُ عَلَى فَاعِلِهِ وَالْعُقُوبَاتُ الدِّينِيَّةُ وَالْأُخْرَوِيَّةُ عَلَى مُتَعَاطِيهِ وَالِاسْتِعَاذَةُ مِنْهُ أَمْرًا وَخَبَرًا. وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ كَانَ مَوْجُودًا فِي زَمَنِ فِرْعَوْنَ وَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُعَارِضَ بِهِ مُعْجِزَاتِ نَبِيِّ اللَّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَأَلْقَوْا تِلْكَ الْحِبَالَ وَالْعِصِيَّ فَرَآهَا النّاس حَيَّاتٍ عِظَامًا ضِخَامًا، ولكن بعد ما رمى موسى المعجزة (العصا) لقفت كلّ ما ألقوا من سحرٍ"691.

688 طه 17 . 23.

689 مذكرة التوحيد، ص 61.

690 الأعراف 120 . 122.

691 معارج القبول بشرح سلم الوصول، 2، ص 544.

وهكذا هو حال السّحر والسّحرة تفريق النّاس والإضلال بهم؛ فهم جميعهم لا يعملون شيء إلّا فتنة وفرقة، وفي المقابل دين الله يوّحد المفرّقين تحت كلمة واحدة (لا إله إلّا الله ولا شريك له)؛ فعن عمرو بن عوف رضي الله عنه: "أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "ألا إنّ بني إسرائيل افترقت على موسى عليه السّلام سبعين فرقة؛ كلّها ضالة؛ إلا فرقة واحدة: الإسلام وجماعتهم"692

قصة قارون مع موسى:

يقال دخل موسى دار الذّهب على قارون وحوله عظماء بني إسرائيل؛ فقال موسى لبني إسرائيل: "من كان مواليا لي فليخرج، ومن كان مواليا لقارون فليبقى؛ فخرجوا ولم يبق مع قارون إلا قليل، وقال موسى يا أرض خذيهم، وكان قارون جالسا على كرسي من ذّهب، فأخذت الأرض تبتلع الكرسي، قال وكان الملعون عالما بالأمر؛ فتاب، فلم يجد للتوبة سبيلا فقال له: يا موسى ناشدتك الله والرّحمن؛ فلم يلتفت له، وموسى يقول: يا أرض خذيهم حتى أكمل قارون سبعين مرّة يناشد موسى، وموسى مستمرّ على قوله يا أرض خذيهم، فلما أتمّ السبعين ابتلعتهم الأرض، وغاب فيها قارون بكرسيه، فهو يتجلجل فيها إلى قيام الساعة، فعاتب الله موسى عليه السّلام عتابا شديدا قال له سبحانه وتعالى: هل تدري لما لم ترحمه، لأنّك لم تخلقه ولو خلقته لرحمته"693، وهنا أقول: أنّ الله جلّ جلاله، لا يمكن أن يصطفى موسى رسولا ويكلّمه مباشرة ليقول له ما قيل. والله أعلم.

692 إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة، 1، ص 263.

693 الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية، ص 132.

السبت عند اليهود:

يوم السّبت: وهو (شباث) في العبرانية، بمعنى راحة؛ لأنّه يوم يزعمون أن الله استراح فيه تعالى الله عن قولهم، ثمّ أمر عباده بالاستراحة فيه وباركه. ومدّته كما يدّعون من غروب شمس يوم الجمعة إلى غروب شمس يوم السّبت، وجعلوا أهم شعائره الكفّ عن أي عمل، بذلك جاء الأمر صريحا في الوصايا العشر المنسوبة إلى موسى (واليوم السّابع سبت للرّبّ إلهك لا تصنع فيه عملا لك). وتعدّي السبت والعمل فيه يعتبر من أعظم الخطايا عندهم"694.

وهنا لا يقصد أنّهم بطالة، بل يعني أخذوه يوم عبادة وطاعة لله، أمّا قولهم بأنّ الله قد استراح فيه؛ فهذا لا يليق أن يقال على ربّ يخلق بالأمر لا ببذل الجهد حتى يقال عنه قد استراح.

عصا موسى:

قيلَ إنّ هذه العَصا هَبطَ بها سيّدُنا ءادمُ منَ الجنّة وبقِيَت في الأرضِ إلى أن سلَّمها سيدُنا جبريلُ إلى سيدِنا موسى عليه السّلام. وكان يتوكّأ علَيها، أي: يَستَعينُ بها في المشيِ والوقوفِ. ويخبِطُ بها على أَغصَانِ الشّجَر ليَسقُطَ ورَقُهَا فيَسهُلَ على غنَمِه تَناوُلهَا فتَأكُلَها. وإذا هَجم سَبُعٌ أو عدُوٌّ فإنّها كانت تُقَاتِلُه وتحارِبُه وتُبعِدُه عنهُما وعنه علَيه السّلام. وإذا ابتَعدَت بعضُ الغنَماتِ عن القَطِيع أعَادتها إليه بإذنِ الله. ومِن مَنافِعِها العَجِيبةِ أَنّها كانَت تُماشِي وتحَادِثُ سيدَنا موسى علَيه السّلام في طَرِيقِه وتَجَوُّلِه. وكانَ لها رأسَانِ مُتَشَعِّبانِ مِنها، يُعَلِّقُ عَليها أحمَالَه مِن قَوسٍ وسِهَامٍ. ثم عندَما يَدخُلُ الليلُ كانَ رَأسَا العصَا يُضِيئَانِ كالشّمع. وكانَ إذا أرادَ أن يشرَبَ مِن بِئرٍ تَطُول العصَا بطُولِ البِئر

694 موسوعة الملل والأديان – الدرر السنية، 1، ص 140، بترقيم الشاملة آليا.

مهمَا كانَ عَمِيقًا ويتَحوَّلُ رأسَاهَا إلى ما يُشبِهُ الدَّلْوَ فيَملؤه ويَشرَبُ مِنه . أمّا إذَا عَطِشَ في صَحراءَ ليسَ فيها بِئرٌ ولم يكن معهُ ماءٌ غَرزَهَا في الأرضِ فتَنبُع ماءٌ بإذنِ الله. فإذا رفَعها عن الأرضِ نضَبَ الماءُ. وكان إذَا اشتدَّ علَيه الحرُّ يَركُزُها فتطُولُ شُعبتَاها ثمّ يُلقِي علَيها كِسَاءَهُ ويَستَظِلُّ تحته. وإذا اشتَهَى ثَمرةً كانَ يَركُزُها في الأرضِ فتُورِقُ وتُثمِرُ بإذنِ اللهِ؛ فيَأكُل منهَا ما طَابَ، وكانت تَدفَعُ عنه حشَراتِ الأرضِ وهَوامَّها وهي حَيواناتٌ تُؤذِي كالعقَاربِ. وعن حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عن عَلِيُّ بْنُ زَيْدٍ، عن أَوْسُ بْنُ خَالِدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "تَخْرُجُ الدَّابَّةُ مَعَهَا عَصَا مُوسَى وَخَاتَمُ سُلَيْمَانَ فَتَجْلُو وَجْهَ الْمُؤْمِنِ بِالْعَصَا وَتَخْتِمُ أَنْفَ الْكَافِرِ بِالْخَاتَمِ، وَإِنَّ النّاس لَيَجْتَمِعُونَ عَلَى الْخُوَانِ فَيَقُولُ: هَذَا يَا مُؤْمِنُ، وَيَقُولُ: هَذَا يَا كَافِرُ"[695].

وأوحَى الله تعالى إليه أن يُدخل يدَه في فم الحيّة ففيها تَقويةً لقَلبِه وإنّها مُعجِزةٌ لهُ ولن تَضُرَّه. فأدخلَ موسى يدَه في فَمِها بينَ أَسنانها فعَادَت خَشَبةً كما كانَت. وهذا ليسَ سِحرًا لأنّ السِّحرَ يُفعَلُ مِثلُه وقد يأتِي شخصٌ بسِحرٍ فيَأتيْهِ مَن يُعارِضُه بسِحرٍ أَقوى. أمّا هذا الأمر معجزةٌ من معجزاتِ الأنبياء. ومن أكبر معجزات سيدنا موسى عليه السّلام بهذه العصا أنّه عندما خرج هو والمسلمين المؤمنون الذين هم من ذرية إسرائيل وهو يعقوب كانوا في أرض مصر التي كان يحكمها فرعون تفلق البحر، ولهذا لما وصل سيدنا موسى إلى شاطئ البحر أوحى الله إليه أن يضرب البحر بعصاه؛ فضربه؛ فانفلق البحر اثنتي عشر فرقا، وكان كل فرق كالجبل العظيم، وصار ما بين ذلك أرضا يابسة؛ فاجتاز موسى ومن معه البحر فاجتازوا البحر فلما شعر بذلك فرعون وكان

[695] مسند إسحاق بن راهويه، 1، ص 442.

منشغلا بعيد لهم فسار ليدرك موسى حتى وصل إلى شاطئ البحر. وما أن خرج موسى وقومه ناجين بعون الله حتى عاد البحر وأطبق على فرعون ومن معه فغرقوا وسط الأمواج العالية. وفي هذا الأمر عَنْ قَتَادَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي عَصَا مُوسَى قَالَ: تِلْكَ الْعَصَا أَعْطَاهُ إِيَّاهَا مَلَكٌ مِنَ الْمَلائِكَةِ لَمَّا أَنْ تَوَجَّهَ إِلَى مَدْيَنَ، فَكَانَتْ تُضِيءُ لَهُ اللَّيْلَ، وَيَضْرِبُ بِهَا الأَرْضَ فَيَخْرُجُ لَهُ نَبَاتُهُ، وَيَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِهِ وَرَقَ الشَّجَر"696.

ويقال إنّ هذه العصا توارثها الأنبياء حتى وصلت إلى شعيب عليه السلام؛ فكان مكفوفَ البصر فلما مسَّها هداه الله وأكرمه الله بها697.

وإلى جانب هذه المعجزة معجزات أخرى عظيمة وقد تولّت من العصا، منها ضرب الحجر بالعصا، فكانت السبب في أن ينبثق من الحجر الماء. وكان الماء يخرج اثنتي عشرة عينا على قدر عدد الأسباط، {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ}698 أي مكان شربهم، أي العين التي خصّصت لهم699.

وعن يَزِيدُ، أَخْبَرَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، وَعَفَّانُ، حَدَّثَنَا حَمَّادٌ، أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَوْسِ بْنِ خَالِدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " تَخْرُجُ الدَّابَّةُ وَمَعَهَا عَصَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَخَاتَمُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَتَخْطِمُ الْكَافِرَ. قَالَ عَفَّانُ: أَنْفَ الْكَافِرِ بِالْخَاتَمِ،

---

696 تفسير ابن أبي حاتم محققا، 9، ص 2847.

697 الدخيل في التفسير، جامعة المدينة، ص 89.

698 البقرة

699 زهرة التفاسير، 1، ص 247.

وَتَجْلُو وَجْهَ الْمُؤْمِنِ بِالْعَصَا، حَتَّى إِنَّ أَهْلَ الْخِوَانِ لَيَجْتَمِعُونَ عَلَى خِوَانِهِمْ، فَيَقُولُ هَذَا: يَا مُؤْمِنُ، وَيَقُولُ هَذَا: يَا كَافِرُ"700.

وقيل في عصا موسى عليه السّلام الكثير من الشواهد، ولكن وإن قيل ما يقال عنها؛ فالعصا معجزة وستكون بلا شكّ هي أعظم ممّا سمعنا، ذلك لأنّها آية من آيات الله المعجزات، فعَنْ أَبِي قَبِيلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ كَعْبٍ، قَالَ: كَانَتْ عَصَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ: "مِنْ لَوْزٍ، فَإِذَا جَاعَ نَصَبَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَوْرَقَتْ وَأَثْمَرَتْ وَأَطْعَمَتْ وَانْحَلَّ مِنْهَا، وَإِذَا مَشَى فِي الظُّلْمَةِ وَضَعَهَا عَلَى عَاتِقِهِ فَأَسْرَجَ لَهُ طَرَفَاهَا وَكَانَ يَمْشِي فِي ضَوْئِهَا، وَإِذَا نَامَ حَرَسَتْهُ"701.

خوف موسى:

قال تعالى: {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ}702

ورد تخوّف موسى في أكثر من مشهد فهو قد كان خائفا ممّا فعل بتلك الوكزة التي كانت قاتلة، وله من بعدها مخاوف أخرى، {فَأَصْبَحَ

---

700 مسند أحمد ط الرسالة، 13، ص 321.

701 المشيخة البغدادية لأبي طاهر السلفي، 6، ص 41.

702 الشعراء 10 ـ 19.

فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ}703

وقال تعالى ف مشهد آخر: {فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}704

وهكذا كان الخوف حذر يتكرر مع سيدنا موسى عليه السّلام ذلك لأن جميع خوف موسى هو خوف موج وللضرورة، {فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}705، وهنا يطمئنه الله تعالى بقوله: {يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ706، ويؤكّد له ذلك بقوله: {يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ}707.

وقال تعالى: في مشهد آخر يطمئن الله فيه موس حتى يثق في أنّه محفوظ من كلّ ما يخيف، قَالَ {خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى}708

ومع ذلك فقد أوجس موسى في نفسه من الخوف ما أوجس، وبالرّغم من ذلك الله معه يطمئنه في كلّ مشهد، {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى}709.

---

[703] القصص 18.

[704] القصص 21.

[705] القصص 25.

[706] القصص 31.

[707] النمل 10.

[708] طه 21.

[709] طه 67 . 68.

وعليه فإنّ الخوف توقّع حذري قبل وقوع الفعل؛ فهو يستوجب اتقاء ما سيقع، وقد يُحدث أمرا غير مُرضيا، أو أنَّه يُحقّق ألما، والخوف هو ما ليس بجُبنٍ، فالجبن لا يكون ساكنا إلّا في نفس من يعرف الحقّيقة تجاه ما يجب ولا يقدم عليه، والخوف لا يكون إلّا في دائرة المتوقّع من أجلّ الإقدام على، أو الانتهاء عن، دون تأخّر ولا جبن.

ولذا فالخوف استشعار للمستقبل واستطلاع لِما قد يَحلّ به وقد يؤثّر تأثيرا سالبا على الفرد أو الجماعة أو المجتمع وما يمتلكون، وحتّى لا يحدث تُبْذل الجهود من قِبل مستشعريه وقاية منه أو استبدالا له، أو استغناء عنه في دائرة الممكن.

ومع أنّ معظم معلومات العامّة من النّاس عن الخوف هي معلومات عن سالبٍ، إلّا أنَّ حقّيقة أمره لا تربطه بسالبٍ؛ فالعامة على سبيل المثال يخافون من الظلمة، ولكن هل يوجد شيء من مكوّنات الظُّلمة يخيف؟

بالتأكيد الظلمة لا تُخيف، ولكن ما قد يفاجئك وأنت في زمن الظلمة قد يُلحقّ بِكَ ألما أو ضررا، ولهذا ينبغي أنْ تكون عند الظلمة حذِرا متيقّظا، وإن لم تكن كذلك فقد تفاجأ بما هو غير متوقّع، وعندها قد تحدث الخسارة، ولكن بفضل الله علينا خلق الخوف في أنفسنا وجعله قابلا للاستشعار العقلي ليتّخذ الإنسان حذره ممّا يُخيف.

وعليه فالخوف الذي هو من خلق الله فينا خلقا، هو دائما موجب، ولذا لا حجّة للبعض الذين يرون أنّ الإنسان قد خُلق على السلبية في مقابل قوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[710]؟

---

[710] التين 4.

ولأنَّ الخوف موجب فكلّ عاقلٍ منّا يخاف المرض ولا يخاف الموت، ذلك لأنّ للمرض دواء؛ فكلّنا نسعى إلى بلوغه والعمل من أجلّ الحصول عليه؛ فتجرى التطعيمات الوقائية للناس عن المرض استباقا، خوفا من حدوثه، أمّا الموت فلا دواء له، ولهذا لا أحد يفكّر في علاج الموت.

ولأنّ الخوف يصنع المستقبل؛ فكلّنا نسعى لتوفير الماء قبل أن يلمَّ بنا العطش، ولأنّنا نجوع؛ فنسعى لتأمين غذائنا قبل أن تلمّ بنا أزمة الغذاء وألم الجوع، ولأنّنا نخاف من الوِحدة، فنسعى جميعا من أجلّ تحسين علاقاتنا الاجتماعيّة مع الآخرين أبوة وأخوة وعمومة وقرابة وجيران كرام كي لا يلمّ بنا ما يخيف، وحينها نتمكّن من بلوغ السكينة.

ولأنّنا نعرف ما تتركه السرقة من ألم؛ فنسعى للتأمين على ما نمتلكه قبل أنْ تحدث السرقة، ولذا فمن لم يكن خائفا فطنا سيدفع ثمن غفلته ألما.

وهكذا بأسباب الخوف من الجهل تسعى النّاس لنيل التعليم، ولذلك دائما من لا يخاف على مستقبله لا يسعى لتأمينه، ومن لم يرسم الاستراتيجيات والخطط لمستقبل أفضل، لن يجد لنفسه مكانة يتبوّؤها بين النّاس، ولن يكون له مستقبلا مفضّلا ولا مقدّرا، بل قد يجد نفسه على الرصيف جالسا على قارعة الطريق متسوِّلا، أو سجينا بين الجدران بأسباب فقدانه مشبعات الحاجة.

ولأنّ الخوف نعمة من نعم الله علينا؛ فكلّ عاقل ليس له بدٌّ إلّا أنْ يُفكّر في كلّ ما من شأنه أن يجنّبه ما يخيف.

وعليه: فالعاقل دائما يسعى لتأمين مستقبله من الكوارث. وهكذا كلّ من يخاف من العدوان يسعى لإعداد العُدَّة قبل أن يحدث العدوان، وذلك لأجلّ إرهاب العدو ووضع حدّ له يقف عنده.

ولمتسائل أن يسأل:

الخوف من أجلّ ماذا؟

نقول:

من أجلّ السلامة، ولذا فمن يحرص على الإقدام على ما يخيف من أجلّ التخلّص منه أو تجنّبه بما يحقّق السكينة والأمن، سلم. وإلّا لماذا الآباء هم يخافون على أبنائهم؟

بطبيعة الحال خوف الآباء على أبنائهم هو من باب الحرص عليهم وتحقّيق السلامة لهم. ولذلك فمن خاف سلم، ومن لم يخف ألقى نفسه في التهلكة.

وعليه فالعلاقة قويّة بين الخوف والتدبُّر، وبينه وبين التفكّر، والتذكّر، أي لماذا الإنسان العاقل ينبغي عليه أن يتدبّر أمره، ويتذكر ماضيه، ويفكّر في مستقبله؟

نقول:

يتدبّر حاله في الزمن الآن من أجلّ أن يستمدّ القوّة التي بها يتمكّن من التذكّر والتفكّر، ويتذكّر الماضي لكي يتدبّر حاضره عن بيّنة، ويعرف ما يجب أن يَقدِم عليه في مستقبله، أمّا التفكّر فلا يكون إلّا في كلّ ما من شأنه أن يحفّزه على صناعة المستقبل.

وكما أنّ هناك علاقة موجبة بين الخوف والتدبّر والتفكّر والتذكّر؛ فكذلك هناك علاقة سالبة بين الخوف والوهم؛ فالوهم مجرد افتراضات لا علاقة لها بالواقّع (تخيّل ليس إلّا)، أمّا الخوف فلا وجود له إلّا مع واقع، ولهذا فالفرق كبير بين متخيلات الوهم وبين ما يكشفه الخوف حقّيقة. فالآباء في كثيرٍ من الأحيان يرسمون صور وهميّة في أذهان أبنائهم عن المجهول بالنسبة لهم بغرض السيطرة عليهم وجعلهم تابعين؛ فالغول الذي ليس له صورة لعدم وجوده حقّيقة، صورته لم تمحَ من أذهان الكثيرين من أبناء العالم المتخلّف.

ولأنّ للخوف علاقة وثيقة مع المستقبل؛ فالنّاس تخاف من مفاجِئات الزلازل؛ فتسعى في البحث لأجلّ أن تتمكّن من المعرفة العلمية التي تكشف مؤشرات الزلازل قبل وقوعها تفاديا لِما قد تحدثه من كوارث، ولذا فالمهندسون وخاصة المعماريون هم دائما يبحثون عن كيفية إيجاد تصميم معماري يُسهم في تفادي الهزات الأرضية أو الحدّ ممّا تؤدّي إليه من أضرار.

ولأنّ الخوف فطري؛ فكلّ المخلوقات الحيوانية حالها كحال الإنسان تخاف فطرةً لا تعلّما؛ فالخروف بدون شكّ يخاف الذئب، والذئب يخاف الكلّب، والكلّب يخاف صاحبه ولا يخاف أعداءه، وهكذا الدجاج يخاف الثعالب، والثعالب تخاف الصيادين، ولكن دون تدبّر؛ فكلّ سلوك حيواني يكون الحسم فيه أثناء المواجهة للأقوى، ممّا يجعل للمفاجئة مكانة في إلحاق المغالبة بين حيوانا وآخر.

والفرق بين الخوف على المستوى العاقل والمستوى الحيواني هو أنَّ الإنسان يخاف فيتدبّر أمره مسبقا من أجلّ أن يتفادى المخاطر المقدّرة تقديرا بحسبان؛ فالمسلم يعلم أنّ أمامه مستقبل بين (سكينة وألم) وله أن يختار إرادة (جنّةً أم نارا) ولهذا فالمؤمن في حياته الدنيا يتّقي الشرور

ويبتعد عن ارتكاب المظالم خوفا من النّار وحبّا في الجنّة، ولهذا فهو يُصلّي ويُزكّي ويصوم ويتّبع أمر الله ونهيه، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويسعى للإصلاح في الأرض وإعمارها وفلاحها، أمّا غيره من بني جنسه (الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم)؛ فهم غافلون، ولهذا لم يعملوا على صناعة مستقبلهم وهم في الحياة الدنيا، ولذا فالخوف تفادٍ للفعل المؤلم سواء أكان هذا الفعل في الحياة الدنيا أم أنّه عندما يكون مترتّبا عقابا في الحياة الآخرة على ما لم يُفعل في الحياة الدنيا أو أنّه فُعل عن غير طاعة لما يجب أن يُفعل إرادة.

ولأنّ الخوف يُجنّب الألم؛ فالواعون دائما يتجنّبون لحظة الغضب بحكمة وتدبّر، بغرض إضاعة الفرصة على الغاضب وإعادته لرشده، ولذا فإنْ لم يتمّ تفادي الغضب لحظته تحدث المواجهة المؤلمة؛ فتتأزّم الأمور ويتصدّع البناء الأسري أو العشائري أو أيّ بناء اجتماعي وإنساني على مستوى الأفراد والجماعات وحتى الدول.

وهكذا العالم المتقدّم دائما يَقدم على كلّ شيء يمكن أن يُسهم في صناعة المستقبل الأفضل؛ فبالنسبة له كلّ شيء بحسابه؛ ولذا كلّ يوم نلاحظ أسعار النفط والذهب والفضة والعملات وأسعار الأسهم وما شابهها اقتصاديا تتغيّر وتتبدّل قيمها أحياناً بتعديل رؤية في سياسة منظّمة الأوبك أو تصريح من رئيسها أو تصريح من أيّ رئيس له أثر فعّال على الساحة العالمية، أو إذا وقعت كارثة طبيعية أو غير طبيعية من حروب أو حتّى تهديدات باردة ترتفع بأسبابها أحيانا جميع الأسعار عقاريّة ومالية وذهبية ونفطية وفضيّة وغيرها، وكلّ ذلك بأسباب الخوف التي تجعل الكلّ يأخذ حذره الذي به يتمكّن من تأمين مستقبله.

وعليه: النّاس جميعا يخافون في ظروف متشابهة أو ظروف مختلفة، ولذا فالخوف انفعال طبيعي مرتبط بالفطرة، وثمّة مخاوف تكون وهميّة

لدى البعض إذا تكرّرت بانتظام في غياب مخاطر حقّيقية، وتكون هذه المخاوف ما بعد الفطرة في بعض الحالات، وهي مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بتجربة مخيفة نتج عنها رعب؛ فالذي يخاف من حيوان معيّن أو من أكثر من حيوان قد يكون هذا الخوف تأصّل في نفسه بعد أن تعرّض أو عرف وراء من تعرّض لهجوم من حيوان معين، وهكذا لو وقع طفل في حفرة؛ فهو يخاف أيّ حفرة مشابهة، ممّا يجعله أكثر حذرا في مستقبله من أجلّ السلامة، وهذا النوع من الخوف هو خوف زائد على الفطرة، لأنّه ناتج عن تجربة سبّبت أذى نفسيا كبيرا أو ألما جسديّا، جعلت صاحب هذه التجربة يخاف الأشياء التي مرّت به وسبّبت له ألما أو أذى نفسيّا أو جسديّا؛ فأصبح هذا الخوف نوعا من المرض الذي يجب علاجه، أمّا الخوف الطبيعي فهو خوف فطري لدى جميع البشر، وهو صفة من صفاتهم اللازمة، والذي لا يخاف يكون مريضا وجب علاجه أيضا.

الخوف هو صفة للخائف مثله مثل أيّ صفات أخرى يمكن أن يتّصف بها الإنسان، وطالما أنّ الخائف موصوف بما يمكن أن يتّصف من صفات ومن ضمنها الخوف؛ فإنّ الصفة التي اتّصف بها ـ أيّة صفة ـ إمّا أن تكون صفة عارضة تزول بزوال مسببها، كاصفرار الوجه الذي يسببه المرض مثلا، أو أنّها صفة لازمة خلقية كلّون البشرة والشعر والأعين، أو فطرية غريزية من الصفات الإنسانية التي تنقسم إلى مادية وإلى نفسيّة روحية، فالمادية كالشعور بالجوع والعطش التي تزول بزوال مسبباتها بعد الأكلّ والشرب وإن تكرّرت بانتهاء مشبعاتها ويكون المنبّه عليها داخلي يشغل حيزا ماديا معيّنا، وأمّا النفسيّة الروحية التي لا تنفكّ عن الجسد ولا يعرف موطنها فيه، كالشجاعة والجبن، والكرم والبخل، والخوف والأمن، تسكن في الحيّز الإنساني فطرة غريزيّة لا

يعرف موطنها، وتفترق عن الصفات المادية بأنّها تستثار وتهدأ بمثيرات خارجية وهي ملازمة في الحالين:

. حالة الاستثارة.

. حالة الهدوء.

فالكرم صفة مثل صفة الخوف، ذلك أنّ الذي يتّصف بها يكون كريما، ولا تظهر فيه صفة الكرم إلاّ بمثيرين اثنين:

الأوّل: من يقوم الكريم بإكرامه.

. الثاني: ما يقدّمه لمن يكرمه.

فإذا تلاشى كلّا هذين المثيرين لهذه الصفة أو أحدهما، فإنّ صفة الكرم تهدأ في نفسه ولا تتلاشى، وذلك إمّا لأنّه لم يجد من يكرمه، أو أنّه لا يجد شيئا يُكرم به، وبهذا تبقى الصفة قائمة في النفس لحين استحضار مثيراتها ودوافعها من الأسباب.

والخوف أقرب ما يكون إلى صفة الكرم؛ فهو ليس من الصفات المكتسبة، إذ لو كان الخوف مكتسبا لَعمِلنا جاهدين على إيجاد نقائض أسبابها بطريقة الكسب، وتخلّصنا منه إلى النهاية.

وعليه: فالخوف صفة لازمة للخائف ولغيره، وذلك أنّ الخائف تكون صفة الخوف لديه لازمة ظاهرة، وأمّا غير الخائف؛ فإنّ صفة الخوف لديه لازمة باطنة، وهذا يعني أنّ الخوف جزء من تكوين الإنسان النفسي كونه فطريا غريزيا، ومعلوم أنّ الصفات الفطرية التي ترتبط بالجانب النفسي لها علاقة مباشرة في حياة الإنسان؛ فإن أحسن الإنسان استخدامها، أدّت وظيفتها الإيجابية التي وجدت من أجلّها، وإن كان غير ذلك؛ فلابدّ أن تكون النتائج عكسيّة.

ولما كان الخوف صفة فطرية لازمة؛ فلابدّ أن تتناسب هذه الصفة مع مراحل الإنسان الحياتية وتنمو مع نمّوه بما يناسب التحذير من المخاطر التي تحدق به في كلّ مرحلة من مراحل حياته، إذ لولا الخوف الفطري لهلك كثير من النّاس وخاصة الأطفال الذين لم يصلوا إلى مرحلة التمييز العقلي، وهنا تظهر صفة الخوف نعمة ممّا أنعم الله تعالى بها على خلقه، ولذلك يكون الخوف عندهم نوعا من الحواجز التي تردعهم عن المخاطر في تلافيهم إيّاها، وكلّما كبر الإنسان كبر خوفه بنموّي عقله خوفا تحسبيّا، لا بمعنى الجبن والتخاذل، وإنّما بمعنى تقدير المخاطر التي تؤدّي إلى ضرر، ومعرفة المكاسب التي تؤدّي إلى النفع، وعليه فخوف الإنسان خوفان:

1 . خوف من أن يدركه شيء.

2 . وخوف من أن يفوته شيء.

فكلّ إنسان يشغله حيّز من الخوف منذ ولادته، حيث يكمن هذا الخوف في نفسه وإن كان آمنا، كما يشغل النفس حيّز آخر من الأمن والآمان، ويدور صراع النفس مع الخوف إمّا من أجلّ الحصول على الأمان أو المحافظة عليه حال وجوده، ومن هنا يجب أن يكون الخوف والأمن متوازيان لدى النفس الإنسانية، أو بعبارة أدق يجب أن يكونا متعادلين، بحيث لا تستغني عن الخوف ولا تكتفي به، كما أنّها لا تستغني عن الأمان ولا تكتفي به، ووجود الخوف الفطري المصاحب للأمان في النفس الإنسانية لا بمعنى الاصطحاب وإنّما بمعنى الكمون، يعطي الإنسان فسحة للتفتيش عن الأسباب التي تهدّئ مخاوفه حال الاستثارة من خلال إيجاد المنافذ الأمنية والاطمئنان إليها عندما تطغى على المخاوف، ولذا نرى أنّ الأمان يمنح فرصة أكبر للوقوف على مصادر الخوف، لأنّه يمنح العقل انطلاقة التفكير بما يجب وما لا يجب،

ومن هنا يكون الأمان مستثيرا للخوف في اللاوعي؛ فعندما يقف الإنسان من خلال اللاوعي على مصادر الخوف ومخاطر تلك المصادر؛ فيعود إلى وعيه ويبحث عن مثبتات الأمان من خلال خوفه، ولذلك فالنفس المطمئنة هي التي تتعادل لديها كفتي الأمن والخوف، الأمر الذي يمنحها الاتزان من خلال التوازن بين الجانبين؛ فإذا طغى الأمن على الخوف كان ذلك مدعاة للإفراط في الثقة بالذات، وهنا مكمن الخطر، وإن طغى الخوف على الأمن أدّى ذلك إلى الانسحاب المفضي إلى الجبن، ولذلك لابدّ لأيّ إنسان أن يمتلك قسطا من الخوف يوازي أمنه ويحافظ عليه، ذلك أنّ هذا القسط من الخوف الذي يعتري الإنسان، يكون نواة تبلور السكينة والأمن والطمأنينة ومصدر لها، فإذا تنكّر الإنسان لخوفه، انطلقت نفسه على هواها، وهذا الانطلاق يؤدّي إلى الانزلاق الذي لا يمكن التخلص منه إلاّ بالعودة إلى الخوف استشرافا للمستقبل الآمن من أجلّ التخلّص من القلق والاضطراب، فإذا كان البعض يرى أنّ أزمة الإنسان في الوقت الراهن في عصرنا هي الخوف، فإننا نرى أنّ عدم الخوف هو أزمة أكبر لما يُحدث من مخاطر، فلو كان الخوف قائما في النفس لوجب أن يكون هذا الخوف دافعا للحصول على الأمن والسكينة والطمأنينة من وسائلها الأمنية بأسبابها الخوفية؛ فإن تغلّب الخوف على الإنسان ولم يكن خوفا متوازنا يرافقه جانب أمني، يتحوّل هذا الإنسان إلى جبان فقد اتزانه وقدرته على مواكبة الحياة، وبهذه الحال يكون قد وصل إلى مرحلة الخوف من الخوف، والذي يحلّ المشكلّة برمّتها هو حسن التعامل مع الخوف ضمن دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ولذا وجب على الإنسان أن يواجه خوفه مواجهة عقلية انطلاقا من واقع يستشرف المستقبل بحيث يكون الخوف دافعا للبحث عن منافذ الأمن ومسببا للطمأنينة من خلال نظرة استشرافية للمخاطر التي يمكن أن يأتي بها الخوف مستقبلا،

وبهذه النظرة في طريقة التعامل مع المخاوف، يكون قد سخّر خوفه خدمة لمستقبله إن علم أنّ الخوف صفة لم يتّصف بها إلاّ من أجلّ الانطلاق نحو الأفضل.

فالخوف هو ذلك المحفّز الإيجابي للعاقل الذي يدفعه إلى التحصّن ضدّ الشرور باستدعاء مفردات الخيرات في البحث عنها وتأمين سبلها ومسبباتها خوفا من سيطرة مفردات الشرّ التي تحمل الألم والضرر والأذى، وما يترتّب عليها من حزن وقهر وحرمان، تؤدّي إلى حسرة ولوعة وخسران.

ولما كان الخوف ملازما للإنسان غريزة وفطرة، فإنّه لم يكن قبله، ولم يأتِ بعده، ممّا يعنى أنّ صفة الخوف هي شعور يختصّ بالمستقبل؛ فيبدأ الإنسان من خلال خوفه بتحصين نفسه ضدّ المخاطر التي يدرك أنّها تؤدّي إلى الضرر أو الأذى وأحيانا تصل إلى درجة الهلاك، ومن هنا يبدأ الفرد في تحصين الذات ضدّ أشياء يخشاها بداية أثارت مخاوفه؛ فيتحصّن ضدّ الجهل والفقر والمرض والعدو، وضدّ العطش والجوع والحرّ والبرد، وأشياء أخرى تثير مخاوف الإنسان أكثر من أن تحصى، ولو لم يكن هناك خوف من هذه الأشياء لما سعى الإنسان لتأمين مضاداتها التي تقف حائلة في وجه ما يثيره الخوف وما ينتاب الإنسان من هذه الإثارة، وبذلك يكون الخوف مدعاة لتأمين العلم والمال والدواء والقوّة، وكلّما ازداد خوف العاقل ازداد مع هذا الخوف تحسّبه لما يمكن أن يأتي من مخاطر، فيكيّف نفسه وفق المخاوف التي يتوقّعها بما يعدّ لها من عدّة للمواجهة، وهكذا يكون الخوف سببا للأمان والأمن والطمأنينة.

وكلّما اتسعت دائرة الإنسان، اتسع مع ذلك دائرة المخاوف التي تحدق به، إذ أنّ الامتداد الأسري للإنسان، هو امتداد لمخاوفه، ذلك أنّ خوف الأسرة أكبر من خوف الفرد؛ فالخوف على مستوى الأسرة

يكون أوسع نطاقا وأبعد مدى من مجال الفرد، وبالتالي فهو دافع أكبر وأوسع في استشراف مستقبل الأسرة وما يحيط بها من مخاطر وجب الخوف منها تفاديا لوقوعها.

وهكذا عندما تتّسع دائرة الفرد الإنسانية، يتّسع معها مجال مخاوفه، وبالتالي يجب أن يتّسع مع تلك المخاوف البدائل التي تقف في وجه تحقّيق أهداف الخوف، ولذا نجد أن ما تحقّقه الدولة لا يحقّقه الفرد ولا تحقّقه الأسرة، لا بمعنى الإمكانات المادية، ولكن بمعنى الإنجازات التحسبية الناتجة عن المخاوف ومسؤوليتها تجاه مواطنيها خوفا عليهم.

الخوف معيار التوازن

الخوف هو الوضع الطبيعي لدى الإنسان العاقل؛ فما من عاقلٍ إلّا وللخوف في نفسه مسكن ومكمن، وهذا السكون والكمون للخوف في النفس الإنسانية صفة فطرية لازمة للمخلوق العاقل تحافظ على اتزانه بين المخيفات التي تحمل المخاطر وبين المطمئنات التي تؤدّي إلى الاستقرار، وهذا التوازن في الوضع الطبيعي للخوف الكامن في النفس يشكلّ نقطة صفرية لا سالب فيها.

وعليه فالخوف عاطفة مثل بقية العواطف التي تتّصف بها النفس الإنسانية مثلها في ذلك مثل الحبّ والرحمة، والكره والبغضاء، والفرح والسرور، والحزن والألم، وإن كان بعض العواطف مترتّب على البعض الآخر، أو أنّ بعضها يكون مبعثا للبعض الآخر في السلب والإيجاب، ومعلوم أنّ العواطف لها مثيراتها الداخلية والخارجية، تدفعها هذه المثيرات إلى الظهور بصور شتى من الانفعالات التي تعبّر عنها الحركة والسكون في النطق والصمت، والقول والفعل، والتصرّف والسلوك، وردود الأفعال؛ فنلمس من خلالها حالة نفسية معيّنة ترتبط آثارها

بالعاطفة المثارة، ممّا يدفع العقل إلى إشغال الفكر في البحث دائما عن الأسباب التي تعود بالنفس إلى وضعها الطبيعي نقطة الصفر لا سالب ولا موجب.

فالذي يضحك لا يمكن أن يستمرّ ضحكه إلى ما لا نهاية، والحزين لا يستمرّ حزنه أيضا، والمسرور لابدّ أن يقف سروره عند حدٍّ، وهذا ينسحب على الخوف الذي استنهضته المخاطر من مكمنه، وهو بدوره ينبّه العقل عليها وليس على حجمها، لأنّ تقدير حجمها والبحث عن حلول لها في المواجهة والصدام، أو التلافي والابتعاد هي مهمة العقل كي يعود الخوف إلى مكمنه.

إنّ الإنسان العاقل يحمل خوفه في نفسه، والذي يقول أنّه لا يخاف؛ إمّا أنّه غير عاقل وهو صادق في دعواه، وإمّا أنّه عاقل فأراد أن يخفي خوفه، ولكنّه برهن على وجوده بمعرفة الخوف، لأنّه لو لم يعرف الخوف أصلا لكان سأل عنه، وما كان جوابه أنّه لا يخاف.

والذي يقول أنّه لا يخاف، هو لا يفهم الخوف، ذلك أنّ الله تعالى أودع هذه العواطف في النفس الإنسانية رحمة بالإنسان من جهة، وهي من باب التقويم الأحسن من جهة ثانية، إذ لولا هذه العواطف ومن ضمنها الخوف إن لم يكن في مقدمتها، لما استقرّت حياة الإنسان، وقبل ذلك نفسه التي يقوم عليها استقرار حياته؛ فلو قال إنسان أنّه لا يخاف وقدّمنا إليه النّار، أو قدّمناه من النّار، هل سيستمرّ إلى النهاية أم أنّه سيتراجع وينسحب؟

لا شكّ أنّه سيمتنع عن الاستمرار والمواجهة، فإن لم يقل أنّه تراجع خوفا، سيقول أنّه تراجع بسبب ما تحدثه النّار من أذى.

فما الذي جعله يدرك هذا الأذى الذي تحدثه النّار ويعمل على تجنّبه؟

ربما يقول قائل: إنّ العقل نبّه على خطر النّار بأنّها مؤذية ومحرقة فامتنع عنها وابتعد، ونحن إلى هنا لا نخالفه في دعواه.

ولكن ما الذي جعل العقل يتنبّه إلى ذلك الخطر؟

هنا تنحصر الإجابة في اتجاه واحد لا سبيل إلى غيره، ذلك أنّ النّار التي استثارت الخوف من النفس دفعت العقل إلى التفكير في حلٍّ للقضية؛ فأوعز العقل بالتراجع بداية، وصاحب العقل إن لم يتراجع وأقدم على النّار، فإنّ ذلك لا يعبّر عن عدم الخوف، وإنّما يعبر عن خوفٍ من مخاطر أكبر ممّا تحدثه النّار، والذي لا يتراجع عن النّار بدافع الخوف منها والتجأ إليها، إنّما هو شعور بمخاطر أعظم ممّا تحدثه النّار ظنّا منه بتقدير أقلّ الخطرين، وذلك كمن يدفعه خوفه من خطر وحش أو حيوان مفترس ويهرب أمامه من المواجهة وربّما لا يلتفت الوحش إليه؛ فإذا صادفه أثناء هروبه بئرا أو حفرة عميقة فقد يلقي نفسه بتلك الحفرة، وقد يؤدّي ذلك إلى هلاكه، ولو بقي على حاله الأوّل ربّما لا يقربه الوحش ولا يفترسه، ولو أنّه واجه تلك الحفرة دون الوحش المفترس لما ألقى نفسه بها، لأنّه يخاف من خطر الإلقاء أن تكسر يده أو رجلّه أو أن يهلك، ولكن الخوف الذي نبّه على الخطر دفع العقل إلى طرح البدائل والموازنة بين أنواع مخاطر المخاوف وفوّض الإرادة بتنفيذ القرار، فكان اختيار ما هو متوقّع أن يكون أقلّ خطرا بدافع الخوف، وربّما يكون أكثر خطرا وغير متوقّع بدافع الخوف أيضا.

ولو كان هذا الموقف واجه إنسانا غير عاقل على سبيل الافتراض؛ فإنّ الخوف نفسه هو الذي يدفعه إلى تلافي المخاطر؛ فالفطرة الخوفية

التي كانت تتعامل مع العقل، انتقل تعاملها إلى الغريزة حال غياب العقل، وهنا لا يتساوى الخوف من المخاطر بين العاقل وغير العاقل، لأنّ غير العاقل حال غياب العقل يكون تأثير الخوف على نفسه أقلّ، وذلك لعدم تحفيز العقل المقدّر لحجم الخطر، وبالتالي لا تتساوى لديهما البدائل في إيجاد الحلول التي تدفع المخاطر أو تمنعها، لثبوت العقل عند الأوّل وغيابه عند الثاني، وبغياب العقل تحلّ محلّه الغريزة القائمة على ردّة الفعل؛ فتعمل على التجريب لا من أجلّ اكتساب تجربة وزيادة خبرة، وإنّما تجريب ظنّي بدافع الخوف الغريزي الذي حلّ محلّ الخوف الفطري المرتبط بعلاقة وطيدة مع العقل.

إنّ المعرفة التجريبية لدى غير العقلاء لا يمكن أن تكتسب، وإنّما هي محاولة قد تخطيء وقد تصيب، لأنّها بالنسبة له ظنيّة، وبالنسبة للعقلاء هي افتراضات خارج دائرة التجريب العاقلة كونها لا تمنح استدلّالا يقينيا لمنبّهات الخوف الموصلة إلى النجاة.

لأنّه معلوم أنّ إشارات التنبيه الخوفية تذهب بداية إلى العقل الذي يتعامل مع ما ورد إليه من معلومات يعرضها على ما اختزن في الذاكرة ليجد مضاداتها ومتوافقاتها ويعلم سالبها وموجبها، ثم يتّخذ قراره الذي يدفعه إلى الإرادة، وهذه العملية لا تتمّ إلاّ بسلامة العقل الذي يستقبل المعلومات أو الإشارات ويرسلها بعد معالجتها، ولا ينتهي دوره بعد أن يدفع بها إلى الإرادة، وإنّما يتعاظم دوره بعد ذلك في توجيه الإرادة أيضا؛ فغير العاقل إن كانت أعصابه من خطوط الاستقبال والتوجيه التي تستلم الإشارات والمعلومات سليمة؛ فإنّ ذلك لا يغني عنه شيئا بغياب العقل؛ فالمنبهات على الخوف وإن أثّرت على الأعصاب؛ فهي إمّا أنّها لا توصل الإحساس إلى الدماغ، أو أنّ الدماغ لا يتعامل معها لغياب العقل، وهنا يفقد غير العاقل التوجيه المركزي في التعامل مع

مخاطر الخوف ويلجأ بالغريزة إلى الاستثناء القائم على ردّة الفعل ما يترتّب عليه غياب تقدير النتائج وذلك أنّه:

. فقد القرار السليم الذي كان يتّخذه العقل في قياس حجم المخاطر أوّلا، ومن ثمّ طرح البدائل والحلول التي تواجه الحدث.

. فقد الإرادة التي كانت تبعث في الأعصاب ما تبعثه المؤثّرات في التعامل مع الحدث لحظة استنهاض الخوف للمخاطر، وكيفية التعامل معها بعد تلقي القرار من العقل وتفويضها في التعامل مع المخاطر.

الخوف نقطة الانطلاق الموجبة:

لما كان الخوف من العواطف اللازمة للإنسان ويسكن في نفسه؛ فكان ذلك مؤشّر النقطة الصفرية، وهذا الخوف كامن في النفس عند نقطة الصفر التي يمكن أن نعتبرها بداية الموجب كون الصفر يدخل ضمن الأعداد، وهذا يعني أنّ وجود الخوف في نقطة الصفر هو بحدِّ ذاته موجب لوجوده.

إنّ الخوف يجعل النفس الإنسانية والإنسان بكلّيته عند استثارة المخاطر للخوف في نفسه، يتأرجح بين السالب والموجب إلى أن يتمّ الاختيار من العقل ودفع القرار إلى الإرادة؛ فإن اتجهت الإرادة إلى التوجس والحذر والخشية؛ فتكون قد سلكت مسلكا موجبا انطلاقا من الصفر صاعدا، وإن اتجهت إلى والتخاذل والجبن، فقد نحت منحىً سالبا انطلاقا من الصفر نزولا، وسنتناول المنطلقات الصفرية للخوف حتى نقف على الفوارق بينها وعلاقتها به موجبها وسالبها.

التوجّس:

الوجس الصوت الخفي والتوجس التسمّع، والإيجاس وجود ذلك في النفس، والخيفة هي أدنى درجات الخوف، وهي الحالة التي عليها الإنسان تعادل الوجس وتساويه، فهل يكون الوجس مدخلا للخوف أم مفتاحا لطمأنينة؟

الوجس لا يكون بداعي الخوف المنبّه على المخاطر، وإنّما بحسابات فوت ما يرجو المتوجس من تحقّيقه بما يداخله من حديث النفس، وينقسم الوجس إلى قسمين:

الأوّل: خارجي وهو أقرب ما يكون إلى استراق السمع بداعي الاطلاع أو المحبة أو المعرفة دون أن يطّلع على المتوجس أحد.

الثاني: حسابات ذاتية بين العقل والنفس على التناوب، تنتاب الإنسان عندما يريد أن يقدم على عمل يأمل تحقّيقه بتوجسه منه وإن صاحب ذلك شيء من الرهبة لا ترقى إلى الخوف ولا تدفع إلى الاضطراب.

فهذه التوجسات نوع من الهواجس تميل بالنفس إلى الاطمئنان أكثر منها إلى الاضطراب على عكس الوساوس التي تشرّع الأبواب لما يؤدّي إلى الجبن.

والوجس هو أدنى درجات الخوف، والخوف اسم التكبير، ويُصغّر على خُوَيف، وأصغر من خُوَيف يأتي خيفة، ولذا فإنّ الوجس في القرآن الكريم جاء مصاحبا لأدنى درجة من الخوف:

قال تعالى: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى}711.

قال تعالى: {فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ}712.

قال تعالى: {فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ}713.

فأوجس في نفسه خيفة موسى، وهنا يبدو أنّ الوجس إذا تعاظم ربّما يؤدّي إلى الخوف، لذلك خاطبه الله تعالى بقوله: لا تخف إنّك أنت الأعلى، فلمّا أوجس في نفسه خيفة، جاءته البشرى من الله تعالى؛ فإيجاس موسى لم يكن خوفا ولن يرقى إليه، بدليل أنّ كلّ ما يترتّب على الوجس تكون نتيجته مرضية، لأنّ إثارة شعور التوجس يفتح مغاليق الطمأنينة، فكان أن بشّره الله تعالى بعد توجّسه بأنّه سيعلو على فرعون، وإبراهيم صلى الله عليه وسلّم عندما أوجس من الملائكة، نفوا عنه الخوف وبشّروه بغلام عليم.

وفي الآية الأخرى عندما قدّم إبراهيم طعاما لضيوف امتنعوا عن الطعام (فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً) وهنا يتجلّى معنى الوجس بأوضح صوره، إذ أنّ الضيف الذي يأتي وخاصة في ذلك العصر، إنّما قادم من سفر بعيد وأنّه غريب أوّل ما يقدّم له الطعام والشراب؛ فعندما امتنعوا عنه أوجس منهم خيفة عدم فهم مرادهم في القضية التي جاؤوا من أجلّها، وتوجّسه صلى الله عليه

711. طه 67، 68.

712 – الذاريات 28.

713 – هود 70

وسلّم كان حديثا بينه وبين نفسه، وتساؤلات عمّا يريدونه، ولكن عندما أخبروه بأنّهم قد أُرسلوا إلى قوم لوط علم حقّيقتهم فانتهى توجّسه بالوقوف على مبتغاهم.

وعلى هذا؛ فالتوجّس شعور ينتاب المتوجّس يدفعه إلى البحث عن حلّ للقضية المتوجس منها ليس بدافع الخوف، وإنّما بدافع المعرفة من الذات وليس من الموضوع، لأنّ التوجس قائم على حوار بين المشاعر النفسية وإجابات العقل عنها.

الحذر:

لا يمكن أن يكون الحذر خوفا كما جاءت به المعاجم اللغوية، والذي نراه أنّ الحذر شعور هو أقرب إلى التوجّس، ولكن يفترق عنه بأنّ التوجّس يكون في الذات، بينما الحذر يكون من الموضوع أو من عامل خارجي قبل وقوع الخوف، وهو تنبّه في أخذ الحيطة كي لا يقع الخوف مصداقا لقوله تعالى: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ}714.

إنّ القتل الذي كان يمارسه فرعون بحقّ المواليد الذكور من بني إسرائيل لم يكن خوفا منهم، ولو كان خائفا وقتها ما استطاع أن يقتل من قتل من المواليد الذكور، وهذا القتل الذي كان يجريه عليهم، إنّما هو حذر في أخذ الاستعداد والحيطة كي لا يقع خوفه منهم، ولذا الآية بهذه الصيغة في النصّ، ذلك أنّ الحذر هو احتراز من مخيف، ليس من الخوف وإنّما أتى الحذر قبل وقوع الخوف.

---

[714] – القصص 5، 6.

إنّ فرعون وهامان وجنودهما كانوا يحذرون جميع المواليد الذكور لا عن علم بهم ولا عن دراية، ولكن الذي يعلمونه أنّ مولودا بعينه من هؤلاء ستكون نهاية فرعون على يديه، فدفعهم الحذر إلى قطع الطريق على الخوف الذي سيأتي لاحقّا بدليل قوله تعالى: (وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) وحذرهم هذا من المولود الذي سيأتي معه الخوف، إذن فالخوف أمر يقع بالمواجهة، والحذر هو احتياط لأمر كي لا يقع بالمواجهة.

الخشية:

الخشية وإن وردت في معاجم كثيرة بمعنى الخوف، إلاّ أنّ سياق نظم الكلّام نادرا ما يأتي بهذا المعنى، ولذا فإنّ لها أكثر من معنى حسب سياق الكلّام مثل الرجاء والكره، فقد جاء في مختار الصحاح قول الشاعر:

ولقد خشيت بأنّ من تبع الهدى ..سكن الجنان مع النبي محمّد715

وهي بهذا المفهوم لا تدلّ إلّا على الرجاء، فلو كان الخوف هو الخشية ما اجتمعا في آية واحدة للدلالة على مفهوم واحد في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَشون سُوءَ الْحِسَابِ}716.

فلو كانت الخشية خوفا لكان الكلّام (يخافون ربّهم ويخافون سوء الحساب) ولو كان الخوف خشية لكان الكلّام (وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ).

715 – مختار الصحاح ج1، ص196.

716 – الرعد 21.

ولكن لما كان لكلّ كلّمة معناها في مفهومها الدلالي اجتمع الخشية والخوف ليؤدّي كلّ منهما مفهومه ودلالته فيما أُريد له من مضمون؛ فكان الرجاء من الله تعالى، والخوف من سوء الحساب، ولا معنى لمفهوم: يخافون ربّهم ويخافون سوء الحساب لضعف التركيب وركاكة اللفظ.

وأمّا قوله تعالى: {وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا}717. فهي أبعد ما تكون عن الخوف لما يأتي:

آ . لو كان العبد الصّالح خائفا من الله تعالى في هذا الموضع ما كان ليقتله.

ب . لو كان خائفا من الغلام ما تجرّأ على قتله.

ج . لو كان خائفا ما أدخل موسى صلى الله عليه وسلّم في هذا الخوف، لأنّ موسى لم يصرّح له أنّه خائف أم لا، إذ قال (فَخَشِينَا) وأدخل موسى في الخشية.

إنّ فلسفة اللغة ليست بمعاني ألفاظها، وإنّما بدلالة مفاهيمها على تلك المعاني بما تحمل من مضامين، فإذا انتفى الخوف عن العبد الصّالح وعن موسى في مواضع احتمال الخوف؛ فلم يبقَ للخشية هنا إلّا مفهوما واحدا من الدلالة وهو(الكره).

ولو أعدنا صياغة معنى الكلّام من مفهوم الآية في مثالين من مضمون الآية على مفهوم الخشية في هذا الموضع وفق هذا السياق لتوضيح المفهوم بعبارتين نستبدله بالخوف مرة وبالكره مرة أخرى مكان الخشية، سنقف على حقّيقة المفهوم فنقول:

---

717 – الكهف 80.

1 . فخفنا أن يرهقهما طغيانا وكفرا.

2 . فكرهنا أن يرهقهما طغيانا وكفرا.

فأيّ العبارتين أقرب للخشية وأدلّ على مفهومها؟

وتأتي بمعنى العلم والمعرفة في مواطن التخصيص كقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النّاس وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}718.

ومثل هذا جواب هارون لموسى صلّى الله عليهما وسلّم حين قال: {إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}719.

من الملاحظ في قوله تعالى:(ألم ترَ) هو خطاب للعموم، ثمّ ذكر بعد ذلك آيات الدلالة على الخلق والقدرة والعظمة، وليس كلّ أحد يدرك هذا، ولما كان ذلك كذلك، حوّل خطاب العموم إلى إدراك الخصوص الذين يعرفون هذا ويعلمونه، فجاء بأداة الحصر(إنّما) التي قصرت الخشية على العلماء لعلمهم ومعرفتهم بما ضرب الله به المثل من آيات الخلق الدالة على قدرته، وبالتالي فأهل الخصوص بعلمهم ومعرفتهم (خشيتهم لله) يبيّنون ذلك للعموم من خلال الخشية.

وأمّا من قرأ (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) برفع لفظ الجلّالة (اللهُ) ونصب (العلماءَ) وهي إحدى القراءات، فتكون الخشية بمفهوم

---

718 - فاطر 27، 28.

719 - طه 94.

التكريم والتبجيل والإعظام من الله تعالى للعلماء بسبب معرفتهم به حقّ المعرفة والعلم.

ومفهوم الخشية الذي يدل على العلم ورد في أكثر من موضع في القرآن الكريم لاسيما أنّها عندما ترتبط بالتذكير، منها قوله تعالى: {طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى}720.

وقوله تعالى: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}721.

وقوله تعالى: {فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى}722.

فالتذكير لا يكون إلاّ لمن عنده معلومة سابقة كان قد نسيها، فتأتي الخشية التي اختزنها في ذاكرته؛ فتذكره بها، لأنّ التذكير لا يكون للخائف، وإنّما للعارف.

وسبب اختلاط مفهوم الخوف بالخشية على ما نعتقد، هو اللبس الذي يحصل لدى الكثيرين بين الذات وبين الفعل المخيف الذي يصدر عنها، فالخشية تكون للذات والخوف يكون ممّا يمكن أن يصدر عنها من فعل كما قال موسى صلّى الله عليه وسلّم: {وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ}723.

إنّ موسى صلّى الله عليه وسلّم لم يكن خائفا من فرعون وملئه، وإنّما من فعل القتل الذي سيصدر عنهم.

---

720. طه 1. 3

721 – طه 44.

722 – الأعلى 9، 10.

723 – الشعراء 14.

ولذا فالخوف يرتبط بالفعل الذي يصدر عن الذات، والخشية تكون من الذات نفسها كما قال تعالى: {إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً}724.

التخاذل:

التخاذل من الصفات غير الحميدة؛ فقد ترتبط بالخوف حينا وترتبط بالإرادة حينا آخر، والتخاذل هو عدم فعل ما يجب أن يفعل في الموقف الذي يجب فيه ممّارسة الفضيلة أو إظهارها، ويكون ذلك في مواطن نصرة الحقّ وإظهار العدل أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر وما إلى ذلك من إظهار الفضائل أو ممّارستها؛ فالذي لا يفعل ما يجب أن يُفعل؛ فقد ركب من التخاذل مركبا قلّ ذلك أم كثر، قد يكون بإرادة وليس خوفا مباشرا، ونقصد بغير المباشر ما يظنّه المتخاذل خوفا من وقوع خوف يترتّب عليه خطر؛ فيتّخذ من ذلك موقفا، ولذلك نهى الله تعالى عن هذا النوع المرتبط بالإرادة بأسلوب الاستفهام الإنكاري الذي يفترض أن لا يكون، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ}725.

فهنا لم يكن التثاقل في عدم النهوض إلى الجهاد في سبيل الله خوفا مباشرا من المواجهة في القتال، لأنّها مرحلة لم يصلوا إليها بعد، وإنّما كان التنبيه على التخاذل خوف ترك ملذّات الحياة الدنيا بدليل ذكر المتاع الذي يتمتّع به الإنسان؛ فالخوف الذي يؤدّي إلى التخاذل في هذا الموقف، لم يكن خوفا من الشيء، وإنّما خوف على فوات الشيء وتركه، بحيث أنّهم لم يصلوا إلى مرحلة الخوف من الشيء.

724 – النساء 77.

725 – التوبة 38.

وفي هذا المقام مسألة لابدّ من التنبيه عليها، حيث أنّ الخطاب عام لجميع المؤمنين في التثاقل المفضي إلى التخاذل الذي أمر الله تعالى بعدم الركون إليه، فكيف يتخاذل الجميع وفيهم المهاجرون والأنصار الذين رضي الله عنهم في أكثر من موضع من القرآن الكريم، ويدخل النبي صلّى الله عليه وسلّم في جملة المؤمنين وهو أوّلهم إيمانا وأعلى درجة فيه، والخطاب شمل جميع المؤمنين (يا أيّها الذين آمنوا).

إنّ الذي يريد أن يقف على المفهوم، لابدّ من معرفته للأدوات والوسائل التي تؤدّي المفاهيم، واللغة هي الأداة التي توصل المفهوم إلى دلالة معناه، فمن المعلوم أنّ بعض الخطاب اللغوي يشمل الجميع في التلقي مع استثناء البعض من الحكم، وهذا واضح جلّي في النصوص القرآنية وغيرها من النصوص مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ}726.

فهناك من المؤمنين من يكون رزقه على قدر حاجته أو أقل من حاجته، فهل دخل في تلقي الخطاب؟

نقول أنّه دخل الخطاب وخرج من الحكم، وبالتالي فقد خرج من التخاذل، إذ أن الخطاب وإن كان عاما؛ فإنّ حكمه مخصوص على المقتدر.

وقد يأتي الخطاب على عموم العموم تلقيا وحكما، ومن يخرج عنه فقد دخل في التخاذل، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}727. فالصلاة هنا غير الصلاة

726 - البقرة 254.

727 - البقرة 153.

المفروضة، وإنّما هي صلاة تطوّع من أجلّ الاستعانة بها على الشدائد في تثبيت الصبر؛ فمن ترك ذلك وقت الشدّة فقد دخل في التخاذل عن أمر كان وجوب الأخذ به أوّلى.

وقد يأتي الخطاب مخصوصا في الحكم، ويُدخل العموم في التلقي لدفع التخاذل بالخصوص عن العموم، وأنّ العموم داخل في الحكم وإن لم ينصّ عليه الخطاب مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}[728]. فما كان للذين لم يتخلفوا من الأعراب وغيرهم، أن يتخلفوا في المرات القادمة كونهم لم يخاطبوا بما خُطب به المخلفون، وإنّما هم داخلون في الحكم قطعا وإن لم يردْ ذكرهم.

وعليه فإنّ اللغة تخاطب الجزء بالكلّ، وتخرج البعض من الحكم، وتخاطب الكلّ وتدخل البعض في الحكم، وتخاطب العموم بعموم الخطاب والحكم؛ فيكون شاملا.

الجبن:

الجبن تنبيه سالب من الخوف على عدم الإقدام على الفعل، أيّا كان هذا الفعل، في النجدة والمروءة، أم في البيع والشراء، أم في الحرب والقتال، أم في الجدال والخصام، بحيث يستنهض الخوف من النفس الإنسانية أدنى درجة من الانهزام وعدم مواجهة المواقف، سواء أكان الجبان منفردا أم معه صحبة ليلا أم نهارا، لما تظنّه نفسه أنّه يترتّب على الموقف الذي يفترض أن يكون، مخاطر تؤدّي إلى التهلكة وقد يكون الأمر ليس كذلك.

---

[728] - الفتح 16.

فهذه القضية مرتبطة بالجانب النفسي الذي فرض نفسه على العقل بطغيان العاطفة التي تصوّر للنفس أشياء غير واقعية وأحيانا غير منطقية، وتبدأ النفس بتحويل هذه التصوّرات إلى إشارات معلوماتية مصدرها التهيؤات النفسية الإنسانية وتخيلاتها؛ فتزوّد العقل بمعلومات خاطئة عن حقّائق طبيعية نتيجة اضطراب نفسي يجيّش العاطفة بحيث تطغى العاطفة على العقل، فينصاع العقل إلى روافد النفس بما تحمل من معلومات يختزنها العقل في الذاكرة، ويتخذ قراراته بناء على تلك المعلومات السلبيّة؛ فتكون النتيجة الطبيعية أن تنصاع الإرادة للأوامر والقرارات العقلية في اتخاذ الموقف القائم على الحكم النفسي وليس على الاستنتاج العقلي.

إنّ الوضع الطبيعي الذي يفترض أن تكون عليه النفس هو تقبل الواقع والتعامل معه وفق المساعدات العقلية السليمة في مواجهة حقّائق الأمور خيرها وشرّها ونفعها وضرّها، ذلك أن كلّ أمر من الأمور له أدواته الخاصة به في التعامل من النفس والعقل والجوارح، وعندما تكون النفس مطمئنة والعقل سليم؛ فإنّ الإنسان يتعامل مع المخاطر التي ينبّه عليها الخوف في هدوء وسكينة وارتياح وطمأنينة، ولا يقف أثرها عند هذا الحدّ لدى البعض، بل ربّما تمدّه بقوّة إضافية تدفعه إلى الأمام وتحول بينه وبين الانسحاب؛ فتجعله يكرّ ولا يفرّ، يقدم ولا يحجم، بحيث لا يبالي أوقع على الخطر أم وقع الخطر عليه، وهنا ينصرف العقل باطمئنان النفس إلى الطريقة والأسلوب والأداة التي يتعامل بها مع الخطر، غير أنّ الانسحاب المفضي إلى الجبن بتنبيه الخوف السالب القائم على انعكاسات نفسية سلبية، يؤدّي إلى الانسحاب والهزيمة أمام الخطر الداهم، وهذا ما نجده عند قوم موسى صلّى الله عليه وسلّم عندما دعاهم إلى دخول الأرض المقدسة فقال لهم: {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا

الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ}729

إنّ موسى عليه الصّلاة والسّلام يعلم أنّ الجبن متمكّن في نفوسهم، ولذلك أراد أن ينتزعه من نفوسهم قبل أن يسمع جوابهم بدليل قوله (وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ) ومع ذلك فقد صدّقوا موسى بظنّه بهم أنّ هذه الأرض فيها قوم جبّارون؛ فهذا الجواب ينمّ عن نفسية منهارة سكنها الجبن عن طريق السماع وليس من قبيل التجربة، ومع العلم أنّ رجلّين منهم يخافون الله أوضحوا لهم سبل المسالك التي تفضي بهم إلى تجاوز الخوف السالب وتحوليه عن طريق الأسباب إلى خوف موجب، لم يدفعهم ذلك إلى إطاعة موسى صلّى الله عليه وسلّم، وخوف الرّجلّين يختلف تماما عن خوف بقية قوم موسى مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ رَجلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}730.

فهذان اللذان يخافان الله قد أنعم الله عليهما بهذا الخوف الموجب الذي يفترض أن يكون قائما في نفوسهم جميعا، إلّا أنّ خوفهم من الجبارين جعل الجبن يتمكن منهم؛ فدفعهم إلى الانسحاب والهزيمة والعصيان، ولم يلتفتوا إلى نصيحة الرّجلّين، ولم يناقشوهما، لأنّه ليس لديهم أدنى استعداد للموقف بسبب الجبن الذي يتملكهم، لذلك أرادوا أن يصرفوا أنفسهم عن هذا الأمر وعدم الخوض فيه إلى أن ينجلّي لهم

729 - المائدة 21، 22.

730 - المائدة 23.

بأسباب غيرهم: {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}731.

فهذا التأبيد الذي تمسّكوا به اتجاه خالقهم واتجاه نبيّهم بما قذف الخوف من جبن في قلوبهم، كان سببا في أن تكون الأرض المقدسة محرمة عليهم، ويتيهون في الأرض أربعين سنة نتيجة لذلك.

إنّ الرّجلّين من الذين يخافون قد أنعم الله عليهما، وهذه النعمة لابدّ أنّ سببها التقوى، فكان خوفهما مختلف، وبعبارة أدقّ أنّ منبّهات خوفهما كانت مغايرة لمنبّهات الخوف عند قومهما، ولذا كلّ ينظر إلى منبّهات خوفه وعمل على تلافي خطرها، فكان التلازم والترابط بين التقوى والخوف من الله، أمّا بقيّة القوم لم يتزودوا بزاد التقوى؛ فكان خوفهم من مخاطر الجبّارين، ولذا فإنّ هذا النوع من الخوف المفضي إلى الجبن يترتّب عليه أشياء أخرى من الألم النفسي الذي ينتج عنه الهم والحزن الذي يؤدّي إلى اضطرابات نفسية، حيث أنّ نسبة كبيرة من أسباب الأمراض الخطيرة ترجع إلى القلق النفسي والهموم والأحزان التي يسببها الخوف السلبي، والجبن يترتّب عليه عجز وكسل يؤدّيان إلى زيادة الهم والحزن، ثم إن الجبن يترتّب عليه مضارّ كثيرة؛ فالجبان مترقبٌ لا يهدأ باله ولا تسكن نفسه، لأنّه يخاف من نفسه ويخاف على نفسه، ويعيش في الخوف الذي يصبح له كابوسا يطارده، فيحدث له الهمّ والحزن، وكذلك الجبن في الإنفاق، إذ أنّ الذي يُمسك ماله لخوفه عليه من الضياع والهلاك تراه فقيرا، فإذا أنفق شيئًا أو أجبر عليه؛ فقد تلزمه الهموم ويتراكم عليه الخوف، ولذا نرى كثيرا من النّاس فقراء خوف الفقر وهم أصحاب مال وما ذلك إلاّ خشية الإنفاق.

---

731 - المائدة 24.

إنّ الجبن شرّ ما يتّصف به الإنسان من صفة يدفعه خوفه إلى التمسّك به، ولذا فإنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم كان يكثر من الاستعاذة بالله تعالى من هذه الصفة لما يترتّب عليها من مضارّ، مصداقا لقوله صلّى الله عليه وسلّم: " اللهمّ إنّي أعوذ بك من الهمّ والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال"732، وعليه لو كان للخوف شيء من هذه الصفات لكان الرّسول قد استعاذ منه كما استعاذ من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل.

الخوف بين الفطرة والغريزة:

إنّ خوف العاقل هو الذي يقوده إلى البحث عن مكامن الأمن على تشعّباتها المادية والمعنوية، والدنيوية والأخروية على الرغم ممّا ينظر إليه البعض على أنّه سيف مسلّط على رقاب النّاس، أو أنّه سوط من الأذى يسوقهم إلى المكاره ويقضُّ عليهم مضاجعهم، إلاّ أنّ هذا السوط من الخوف هو أيضا يجعل الإنسان في مأمنٍ من المكاره التي يخاف منها وليس من الخوف، إذ لو فقد الإنسان خوفه؛ لفقد الأمن والاستقرار والطمأنينة والسكينة، فالشعور بالخوف عندما يستثار من مكمنه، يولّد نوعا من الألم النفسي على الرغم ممّا يصاحب هذا الألم من الرجاء في الانتقال من الاضطراب إلى الهدوء ومن القلق إلى السكينة، وهذا يعني أنّ الخوف وإن كان من العاطفة، إلاّ أنّه يدفع بالعقل إلى درجة عالية من توقّد الذهن ولا يغيّبه؛ بل يجعله يُجدّ البحث عن سبل تهدئ الخوف وتسكّنه وتعود به إلى مكمنه من خلال تأمين وسائل مسكّنات الخوف، ولذا أقرب ما يكون الخوف عند الإنسان إلى الفطرة والعقل، على عكس بقية المخلوقات التي يرتبط خوفها بالغريزة،

732 – مسند أحمد، ج26، ص484.

ولذا نقول فطرة الإنسان وغريزة الحيوان، وإن كان للإنسان غرائز حيوانية كالجوع والعطش والنكاح التي يستوي فيها الإنسان والحيوان، إلاّ أنّ الإنسان يفارق الحيوان بالخوف، لأنّها فطرة عند الأوّل وغريزة لدى الثاني، بدليل أنّ الإنسان عند خوفه يلجأ إلى عقله ويحتكم إليه، وبالتالي فإنّ العقل في حالة خوف الإنسان، يدفعه إلى التفكير بما يجلّب له المصالح ويدرأ عنه المفاسد، ومن هنا لا يستبعد العقل إمكانية التخلّص من المخاوف التي أثارها الخوف، فالعقل بهذا الاعتبار حال الخوف يستطيع أن يضغط على العاطفة ويسيّرها وفق مشيئته بما يراه مناسبا من حذر المكروه اقتناصا للمصلحة ودفعا للمفسدة بما يعود عليه بالمنفعة التي يراها من خلال حجم المخاوف، وإن كان العقل لا يدلّ على حُسن الأشياء وقبحها والأخذ بالأفعال وتركها قبل بيان الشارع لها في الوجوب والمنع والأمر والنهي، إلاّ أنّه يدرك مخاطر الأشياء والأفعال عن طريق الخوف، ومن هنا ارتبط الخوف بالعقل عند الإنسان، وارتبط الخوف بالغريزة عند الحيوان، فالعقل يكون شاهدا على المخاوف، ويكون مقرّا بخطرها ومؤيدا لوجودها، لا ناقضا لشهادته ولا رافضا لها، ويكون موضحا للأمر، والخوف هو الذي يدفع العقل لاتخاذ القرار فيما يمليه عليه الأذى والضرر من المخاطر الذي دفعها الخوف إلى العقل ليسبر غورها.

ومن هنا نرى أنّ علاقة وطيدة تقوم بين الخوف والعقل؛ بل إنّ الخوف يدفع العقل إلى إعمال إمكاناته إشباعا لمتطلّبات الخوف، بما يثره الخوف من قضايا ويدفعها إلى العقل من أجلّ البحث عن حلولها، وهذه المخاوف التي يبثّها الخوف في النفس، يكون للعقل منها النصيب الأوفى لا من حيث الخوف، وإنّما من حيث التعرُّف على حجمها

ومقدار ضررها، وإن كان خوفا عكسيا من أن يفوته خير، فيستطيع أن يقدّر صلاحها ومنفعتها وفائدتها والحكم على الحرص في استحواذها.

ومن خلال المخاوف يحكم العقل باستحالة غير الممكن، وقبح الشرّ والظلم، وضرر المفاسد، ويحكم من خلال الخوف أيضا على حُسن الخير والحقّ والعدل، وعلى المصالح التي تعود بالمنافع التي تبدّد الخوف.

وعليه ممّا يثيره الخوف لدى العقل، يستطيع العقل أنّ يردّ كلّ حدث خارجي إلى سببه، وكلّ هاجس داخلي - في النفس - إلى علّته، بحيث لا يمكن للنفس التشكيك فيه؛ فتطمئنّ إلى قراراته وما يمليه على الإرادة اندفاعا من الخوف الذي أرسل الإنذار بالمخاطر، ذلك أنّ الإنسان يتمتّع بأشياء كثيرة من الملكات، ويتمتّع إلى جانب خوفه بالعقل والقدرة، فالعقل يفهم الخطاب الصادر عن الخوف ويميّز به حجم المخاطر ويقارنها بالقدرات، والقدرة تباشر الأسباب التي يكلّفها العقل بمعالجتها استجابة لإنذار الخوف، ولذا وإن كان الخوف يصنّف ضمن العواطف التي تتمتّع بها النفس، إلاّ أنّ هناك علاقة إيجابية متبادلة بين الخوف والعقل في تقدير حجم المخاوف ومخاطرها، ومن ثمّ البحث عن الأسباب العلاجية لها أو الوقاية منها في عملية تشابكية بين الخوف والعقل والقدرة، إضافة إلى الملكات الأخرى التي تنصاع للعقل في تنفيذ أوامره استجابة لإنذار الخوف.

إنّ خوف الإنسان فطري له علاقة وطيدة بالعقل، بينما خوف الحيوان غريزي عشوائي؛ فالحيوانات الضارية قد تدفعها غريزتها إلى الخوف والهرب والفرار حتى وإن عضّها ألم الجوع أحيانا، وقد تهاجم وتقتل وتبطش دون خوف وإن كانت شبعى أحيانا أخرى، ذلك أنّ الغريزة أملت عليها أشياء لا نستطيع أن نفهمها نحن، ولا هي تستطيع

أن تفسّرها لنا، إذ أنّ الحيوانات المفترسة تخاف الإنسان في أحيانٍ كثيرة على الرغم من أنّها لم تجنِ جناية ولم تقترف ذنبا بحقّ هذا الإنسان، وكثيرا ما تهاجمه وتبطش به مع أنّها ليست جائعة، ولا الإنسان جنى عليها جناية، أو اقترف بحقّها ذنبا، فهي تفعل هذا وذاك لصفتها وسطوتها وبطشها، وتفعل ما تفعل ولا تبالي، فإن قتلت وبطشت لم يرقّ قلبها ولم تتألم، وإن تركت فريستها، فهي لم تتركها رحمة بها ولا شفقة عليها، وكلّا الحالين لا يقدح في حيوانيتها.

إذن التساؤل المطروح ما الذي يدفعها إلى الخوف أو عدمه؟

إنّ الإجابة على هذا التساؤل هي ظنيّة أكثر منها يقينية، ذلك أنّ الإنسان عندما يتملّكه الخوف، تظهر منه ردود أفعال تجاه ذلك سلبا أو إيجابا، ويستطيع أن يعبّر عن خوفه لنفسه، وأن يفصح عن خوفه للآخرين، ومن ثمّ يتصرّف تجاه المخاوف بطرق شتى ووسائل عديدة، أمّا هذه الحيوانات ولاسيما الضارية منها، لا نستطيع أن نحكم على خوفها وإن أدبرت أمامنا مسرعة، ولا يمكن أن نحكم على عدم خوفها وإن أقدمت على البطش في ضحيتها، غير أنّ الذي يبدو لنا أنّ مقياس الخوف الذي أسقطه الإنسان على الحيوان، هو تعبير عن شعورٍ ذاتي للإنسان حال الإقدام والإحجام في الخوف وعدمه، فإن هربت هذه الحيوانات مدبرة أمام الإنسان، ظنّ أنّها خائفة، وإن أقبلت عليه حكم بأنّها غير خائفة.

فمن أين أتى بهذا الحكم؟

نحن لا نشكّ أنّها تخاف، ولكن نشكّ أنّنا نستطيع تقدير لحظة الخوف، لأنّ تعبيرها عن حاجاتها أو ما تشعر به في انفعالاتها وردود أفعالها لا يستقيم القياس عليه بالإقبال والإدبار أو بالهدوء والثوران،

لأنّها لا تحتكم في ما يواجهها إلى موجّهٍ عاقل، ولا تفصح عمّا ينتابها، وإنّما هي غريزة تتحكّم بها أو تفرض نفسها عليها؛ فتنصاع لذلك استجابة للغريزة، إذ أنّها لو كانت تعرف الخوف بالمعنى الإنساني، لما أكلّ الضبع أوّلاده، فكيف تخاف الضبع على أوّلادها ثمّ تأكلّ بعضهم، ولو أنّ ابن الضبع كان يستشعر الخوف من والديه لهرب قبل أن يأكلّه أحدهما.

ثمّ إنّ كثيرا من الحيوانات العاشبة كالغزلان والظباء والأبقار والجواميس في الغابات، تعيش جنبا إلى جنبٍ مع الحيوانات اللاحمة مثل الأسود والنمور والفهود والضباع، فالحيوانات العاشبة تشكلّ مصدر غذاء يكاد يكون وحيدا للحيوانات المفترسة، فلو كانت ترى فيها مصدر خوف لما أقامت معها، نعم تكون المطاردة على أشدّها بين المفترس والطريدة، ويثير ذلك بقية القطيع، إلاّ أنّ النهاية الحتمية للطريدة لا تدفع القطيع إلى مغادرة المكان، وكأن الأمر يعني الضحية ذاتها ولا يعني نوع الضحية، وهذا يعطينا مؤشرا على عدم خوفها، وذلك عندما تهاجم طريدة واحدة، يبدأ القطيع بالسير على غير هدى، وعندما تقتل الضحية وتُفترس، يعود الأمر على ما كان عليه من المعايشة في الرقعة الجغرافية بين الضحيّة القادمة والقاتل المفترس.

إنّ الخوف عند المخلوقات الأخرى غير الإنسان هو غريزي بحت، قائم على فعل وردّة فعل، وبانتهاء الفعل تنتهي ردود الأفعال المضادة، إذ لو أنّ الحيوانات يسكنها الخوف كما يسكن الإنسان وهو جزء منه لا يفارقه، لاتخذت تلك الحيوانات سبلا تناسب حيوانيتها باتقاء مخاوفها، والذي نظنّه أنّ خوف الحيوان ليس خوفا بالمعنى الإنساني، وإنّما هو نوع من استشعار خطر قد يكون أيّ واحدٍ من أفراد القطيع هو الهدف، فإذا تمّ اقتناصه زال بزواله الخطر المستشعَر.

وهكذا نرى علاقة الخوف بين بقية الحيوانات الأخرى من الأكبر والأصغر، والأقوى والأضعف، وتبقى مسألة مهمة في هذا الصدد، وهي أنّ الله تعالى بيّن لنا تصرّف حيوان وإن كان حشرة، ولكن هذا ينسحب على جنس الحيوان، حيث قال تعالى عن النحل: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كلّي مِنْ كلّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا}733.

فعدم العقل يشترك به جميع الحيوان، من الحشرات والطيور والسباع والحيتان وما إلى ذلك، ولما كان النحل من الحيوان، والله سبحانه وتعالى أوحى إليه وأخبر عنه؛ فيمكن القياس أنّ الله تعالى أوحى إلى بقية الحيوان واكتفى بالإخبار عن النحل الذي أوحى له، والوحي هنا أقرب ما يكون إلى نوع من البرمجة التي تعمل بها الحيوانات وفق ما قرّر الله تعالى في خلقها حسب غريزتها الذي يكون الخوف جزءا منها لحظة الخوف، لأنّ الخوف لا يسكن الحيوان كما يسكن الإنسان؛ فالإنسان خوفه فطري، والحيوان خوفه غريزي، وعليه فالخوف يبقى قائما في الإنسان لأنّ الفطرة ثابتة، بينما إن كان ثمّة خوف عند الحيوان؛ فهو خوف غريزي يزول بمشبعاته بطريقة يدركها الحيوان نفسه بما قرّر الله تعالى في نفسه من وحي واستشعار لا عن فطرة ولا عن فطنة، وبون كبير بين الفطرة المرتبطة بالعقل والعاطفة، وبين الغريزة في استشعار الخطر وما يقابلها من ردّة فعل تجاه الخطر المستشعر.

إن الخوف لدى الإنسان لم يرتبط بالغريزة، وإنّما ارتبط بالفطرة والعقل المميّز الذي أثقل كاهله بالمخاوف، ولذا فإنّ هذا الأمر يسبب له كثيرا من الهموم والضغوط النفسية، مصدرها التحسّب من المخاوف التي يبحث لها عن حلول، أو دوافع تدفع عنه المخاطر التي تحملها

[733] - النحل 68، 69.

مخاوفه، ولذا يسعى جاهدا في إشغال عقله للتوصّل إلى الموانع التي تقف حائلا أمام المخاوف ومخاطرها، وعندما لا يحصل على ما كان متوقّعا، يظلّ الخوف قائما في نفسه، وحتى لو حصل على ما يريد؛ فقد لا يكون راضٍ عنه تمام الرضا، ذلك أنّ الصورة التي كان يتخيّلها قبل تحقّيق مصدّات الخوف، كانت في عقله أبهى من الواقع.

ولذا بعد حصوله على ما يريد من درء مخاوفه، يظلّ يعاني من القلق خوفا من زوال ما حصل عليه، ولذا فالخوف عند الإنسان لا يفارقه بحال من الأحوال.

الخوف صفة فطرية ملازمة:

يكمن في نفس الإنسان العديد من الصفات التي يمثل مجموعها تحقّق التمايز الإنساني المتفرّد عن غيره من المخلوقات، لكن هذه الصفات لا تكون ظاهرة دائما لتطرح نفسها بمناسبة أو بدونها، فهي تعتمد على إثارة خارجية تمنحها ظهورا متباينا لا يكون فيه تشابهٌ حاصلٌ، وهذا يطرح التفاوت الإنساني في الكيفيات التعبيرية التي يكون من ورائها، فلا يكون هناك أيّ اتفاق ممّا يطرح أن الكيفية الحاصلة لا تنتمي إلى أيّ مرجعية أو إلى أيّ معيار يكون من ورائه وضع ضوابط أو شروط يكون من ورائها وضع حدود واضحة المعالم، وهذا الأمر يتبيّن من خلاله، أنّ الخوف يرتبط بالفعالية الإنسانية ضمن توجيه يتّسم بوجود إدراكات واعية تسيّر الأمور نحو مدارات واضحة المعالم، فيكون الانزواء غير حاضر كونه يتقوقع على نفسه ولا يقرأ الأمور الحاصلة بالكيفية التي يعقبها إيضاح واضح يمنح الحلول ارتماءً في أحضان واضحة المعالم بعد أن تجد ما يمنحها سمة المرور الصحيح ضمن التشكيلات الحياتية الحاصلة، إلّا أنّ من المفارقة أن نجد الكثير ممّن يختلق الأطروحات المختلفة من أجلّ أن يصل إلى حالة البينية المفترضة

التي تغيب فيها الإحالات المقنعة، فتكون بعد ذلك السببية المطلوبة خارج إطار التنظير المرتقب، وهذا يجعل الأمور تتّجه نحو تبعات متعدّدة، يكون من ورائها الاتساع المفاهيمي غير خاضع لحدود واضحة المعالم، رغم أنّه أدخل نفسه في مدارات واضحة منحت نفسها أسلوب التوقّع المنضبط ضمن أصول لا يمكن الانفكاك منها.

والخوف هو أحد هذا الصفات الكامنة في النفس الإنسانية، لا يمكن أن تظهر علاماتها أو دلالتها دون وجود مؤثرات خارجية، ومن العبثية القول أنّ الخوف دائم الظهور على الإنسان، وذلك لأنَّ هذا القول يطرح التعدّد المماثل لباقي الصفات، وهي بدورها تريد حيزا في هذا الظهور ممّا يؤدّي الأمر برمّته إلى:

انتفاء وجود استثارات متحقّقة في وقت واحد، وهذا يلغي التعدّد الافتراضي الذي يدخل الإنسان في إعدادات غير منتمية له، ولا تصلح له.

الفطرة التي خلق عليها الإنسان تحقّق فيها التعدّد في الصفات لكن لم يتحقّق فيها التعدّد في الظهور في آن واحد.

ولأنَّ الإنسان قد خُلق في أحسن تقويم مصداقا لقوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}734، فإذا ما قورن مع غيره ممّا خُلق؛ فهو بدون شكّ لم يخلق على الكمال، ولأنّه كذلك إذن لابدّ أن يكون الخوف معطية من معطيات خلقه، وهنا يكون الخوف أحد الامتدادات التي تطرح أساليب البحث المختلفة ضمن تدويرية مقنعة، يكون وجودها حافزا إلى وجود بقية الصفات التي يكون توقّعها حاصلا في المستقبل ضمن سياق الادراكات الاستشرافية التي تجعل المستقبل

[734] – التين 4 .

قريب الوقوع من خلال الوقوف على ثنائية الممكن المتوقّع والممكن غير المتوقّع؛ فبهذه الثنائية الافتراضية يمكن تسجيل الكثير ممّا يمكن تسجيله دون الخروج عن الخطّ النّمطي المتعارف عليه، ذلك أنّ كلّ التداخل الحاصل يمثّل إفضائية تراتبية تطرح الاستمرارية، لكن هذا الطرح يكون بوعي واضح يقف على السبب والمسببات، فيمنح الوقوف مديات بعيدة يكتسب من خلالها زخما من التوقّعات التي يُبنى عليها الكثير ممّا يراد له أن يكون في دائرة التحقّق.

ولذا كلّ ما خُلق يكون الخوف معطية من معطياته، فيكون التشكيل الخلقي حاصلا في الكيفية التي عليها الإنسان، سواء أكان على الضعف أم على القوّة، فلا يكون هناك انزياح مفترض، لأنَّ الانزياحات تكون غير حاصلة؛ كون الإنسان يكتنفه تعدّد حاصل يظهر في الأوقات التي يكون ظهوره حالة مطلوبة، تتحقّق من خلالها جوانب مختلفة؛ فيكون من ورائها غايات تمثّل النهاية التي أرادها المستثير الأوّل، وهذه الإرادة أيضا تدخل باب التعدّد السلبي والايجابي الذي يفضي دائما إلى نهاية مفتوحة الوقوع ممّا يصاحبها افتراضات متعدِّدة تكون أكثرها ملبّية لمستثير الخوف.

إنَّ قضية المستثير نجد أنّها تمثل المركزية التي يجب أن تكون في ظهور الصفات المتعدّدة والمتنوعة، بوصفها الإيقونة التي تحرك الظهور المطلوب للخوف، ونعني بالظهور المطلوب أنّ صفة الخوف الكامنة تكون متماثلة للسبب الذي أخرجها إلى حيِّز الظهور، وهنا يكون في الأمر تفاوتا مرتبطا بين الصفة ونسبة المثير، فيكون الظهور متباعد الحضور في الحيّز الافتراضي الذي يجب أن يشغله، فيتعدّد شكلّ الحضور بتفاوت وقوع المثير، وهنا تظهر الصفة التي يفترض أن تحقّق ما يمكن تحقّيقه من خلال الظهور التي تكون عليه.

ويمثّل الخوف مفردة من مفردات الإنسان فتكون الإخافة حاصلة ضمن ارتباط واضح بثنائية (الضعف – القوّة)، وهذا يفضي بنا إلى أن نقول:

كلّ مُخيف يخاف إلّا المخيف المطلق يُخيف ولا يخاف، وبما أنّ الخلق كلّ الخلق لم يخلق على الكمال، إذن خُلق والنقص فيه، ولكن إن جدّ بلغ التمام الذي يمكّنه من البقاء على حسن التقويم، وهذه خاصية بالذين يتذكّرون ويتفكّرون ويتدبّرون، وهنا تنبري مجموعة من الانفتاحات النصّية التي يكون من ورائها بلورة الأفكار المرادة؛ فيكون التعالق سمة افتراضية بينيّة تحاول أن تجول في أروقة تكون نهايتها قريبة من التمام المنشود.

إنّ الخوف غريزة لا علاقة لها بأنّ تكتسب؛ فما يكسب هو الذي يتمّ تعليمه أو الذي يتمّ التأهيل به، ولذا فإنّ الخوف لا يحتاج إلى مهارات، فالخوف غريزة فطرية مثله مثل غريزة الظمأ والجوع والجنس، إلّا أنّ الخوف يتعلّق بالمعارف العقلية، أمّا الغرائز الأخرى فهي تتعلّق بما يستوجب اشباعات مادية، فالظمأ مشبعه الماء، والجوع الطعام، والجنس الممّارسة.

أمّا الخوف فلا يحتاج إلى مثل هذه الاشباعات، بل يتطلّب إجراءات وقائية حتى لا يحدث ما هو متوقّع وما هو غير متوقّع.

وهنا يكون الخوف قد سار في طريق تتعدّد فيه الإجراءات المختلفة والمتنوعة، فتظهر بذلك الاختيارية القائمة على رؤية واضحة الملامح، فيكون الاختيار ملبيا لما يجب أن يكون وفق المنظور المطلوب، ممّا يحدث انفراجا في التقلُّبات الحاصلة والتي تسعى إلى إيجاد أمكنة لها، تكون إيضاحاتها ذات سمة تنويرية، تتّسع بحسب الحاجة التي تملي

عليها كي تصل إلى الافتراضات المتعدِّدة، والتي يكون من ورائها إيجاد أنساق حقّيقية تختطّ البداية التي يكون من بعدها التحقّق المطلوب.

وتكون الإجراءات باحثة عن أصول تريدها وأصول هي تبتدعها نتيجة القراءة الواعية التي تمنح الخوف أبعادا جديدة؛ فتكون فيما بعد حالة من الحالات التي يُراد منها تثبيت أماكن واضحة المعالم تعدّ منطلقا لما يجب أن يكون وفق المنظور الأوّل الذي تَبنّى البحث عن التحقّق، هذا الأمر يفضي إلى إيجاد ارتباطات بينيّة حلولها قد تكون غير متوافقة كثيرا، إلّا أنّها تصب في قالب واحد يكون من ورائه المراد.

عليه يكون الخوف حالة استباقية يبنى على أساسها الحلول المفترضة، فالاكتناف حاصل، والظهور حاصل، إلّا أنّ الاتساع المطلوب يسمح بإيجاد حركة حرّة تمنح الإحالات المقترحة مديات ايجابية في كثير من الأحيان، وهذا الأمر يجعل الخوف مرتكزا قويا وإن كان النظر إليه من باب الفطرة يمنحه خمولا ارتداديا يجعله من بين السلبيات التي يمكن أن تحصل، والتي تكون نتائجها خاضعة في كثير من الأحيان إلى افتراضات بالية، وهذا الأمر ينافي الايجابية التي يكون عليها، فالسلبية التي تلكّها الألسن أرادت أن تطمس الملامح الايجابية التي تظهر في الخوف، وذلك من خلال الارتماء في أحضان الفطرية التي يرون فيها أنّها مدعاة للسلب المفترض.

تتعدّد الغرائز وتتعدّد مشبعاتها بطبيعة الحال، وبما أنَّ الغرائز المادية لها مشبعات مثل ما ذهبنا إليه في الظمأ والجوع والجنس، إذن فما هو المشبع لغريزة الخوف؟

ألا تكون السكينة هي المشبعة لغريزة الخوف؟

إن كان الأمر كذلك فما هي محقّقات هذه السكينة؟

ألا تكون السكينة والأمن والطمأنينة مشبعات للخوف؟

إذن الخوف لا تشبعه المادة، ولذا يتماثل مع تلك الغرائز من حيث كونه لا يلتقي معها ماديا، ولهذا فهو لا يتماثل معها في مشبعاتها المادية.

ومع أنّ السكينة هي المشبع الرئيس للخوف إلّا أنّ هذه السكينة لها من المحقّقات ما هو مادّي وما هو معنوي، فالإيمان جزء من محقّقات السكينة والاطمئنان، والمعاش بالنسبة للعمل، والغذاء بالنسبة للإنتاج، والسكن بالنسبة للإيواء، والدفء بالنسبة للأبوة والأمومة.

هذا الحضور المادّي والمعنوي في المشبعات يطرح التغاير بينها، ممّا يسمح بوجود افتراقات عدّة تكون منتمية لأصول لا يمكن الانفكاك عنها دون تحقّيقها، وهذا يوضّح النتائج الظاهرة ضمن صيرورة الوجوب التي يكون من بعدها الانتهاء؛ فتكون النهاية أشبه بسور عظيم تسقط عنده بعد ذلك كلّ الافتراضات التي لا تنتمي في حقّيقتها إلى ما يسمح لها بأن تكون منزوية.

عليه: يمكن القول أنّ الاندماج بين الروح والمادة يفضي إلى ما هو مشبع للخوف، ولسائل أن يسأل كيف يمكن للمادة أن تكون مشبعة للخوف؟

نقول:

يتعرّض الإنسان في حياته إلى كثير من المخاطر المتعدّدة والمتنوّعة، فيمكن له أن يقدّر حجم هذه المخاطر، هذا التقدير الذي يصل إليه سيكون على أساسه التصرّف المستقبلي الذي يكمن فيه درء المخاطر أو الابتعاد عنها بشكلّ يكون هو بعيدا عن كلّ خطر، هذا التصرّف يكون مبنيا بطبيعة الحال على أسس واضحة المعالم تتّفق مع نوع

المخاطر، فالسيول والأعاصير والزلازل المدمّرة على سبيل الافتراض يكمن فيها الخطر، فتكون النهاية الافتراضية حاصلة حين يكون التقدير مبنيا على قراءة علمية صحيحة، وهنا يكون الخوف مستشريا لدى النّاس ممّا يحملهم على إيجاد حلول يكون من ورائها إسقاط الخوف؛ فالذي ترتّب على القراءة سيتحقّق حين تصل السيول والأعاصير إلى منازل النّاس، ففي السيول يكون الحلّ مثلا محاولة تصريف أكبر قدر من المياه إلى أماكن بعيدة تكون ملبيّة لهذا التصريف، فيقتضي الأمر شقّ كثير من القنوات التي تقوم بهذا الإجراء، وكذلك الأعاصير التي يكون من نتائج القراءات العلمية لها، التفكير في إيجاد كيفية ملبية لبناء جديد يحمي ما يمكن حمايته حين تجتاح الأعاصير المدن، حتى بالنسبة إلى الزلازل نجد في اليابان وغيرها من البلدان التي تحصل فيها الزلازل باستمرار، أنّ أساس البناء يكون خاضعا لكلّ ما من شأنه أن يكون قادرا على مواجهة الهزات الأرضية، فعند حصول هذه الهزات يبقى البناء كما هو، لأنّ بناءه كان خاضعا للأسس التي تمنحه المقاومة والاستمرار التي نبّه عليها الخوف.

عليه ألا يكون الجانب المادّي هو المشبع لغريزة الخوف؟ فحين يتحقّق ما ذهبنا إليه في مواجهة السيول والأعاصير والزلازل، ألا يكون الخوف قد تلاشى نتيجة الإشباع المادّي الذي أفضى أن تكون النتيجة بهذا الشّكل؟ وهنا يكون التشكلّ المادّي والروحي متحقّقا، بل ويؤسّس إلى إيجاد مشبعات للخوف ضمن تراتبية تنمّ عن وجود ائتلاف حقّيقي يشارك في بلورة الكثير من النتائج التي يكون من ورائها تحقّق المشبعات بصرف النظر عن طبيعة التشكيل المراد.

أمّا السكينة مع أنّها روحية (غير مادّية) إلّا أنّها لا تتكون على الكمال والتمام إلّا بتداخل الجانب الروحي مع الجانب المادّي أو

الجانب العاطفي مع المادّي؛ فعلى سبيل المثال عاطفة الأبوة والأمومة ليست مادّية ولكنّها لا تنتج إلّا من أب وأم (مادة) أي أنَّ الإنسان في ذاته مكوّن مادّي ولكن في عقيدته وإيمانه وسكينته هو مكوّن روحي، ولهذا أنتج الأبوة والأمومة والإخوة والعمومة التي تحقّق سكينة الأبناء جيل بعد جيل.

تتناوب الصفات بالحضور في النفس حين يتحقّق الإشباع، فالسكينة تحلّ محلّ الخوف، والشبع يحلّ محلّ الجوع، والارتواء يحلّ محلّ العطش، ولأنّها تتناوب فهي لا تنتهي، ولكنّها ستظل تتناوب إلى النهاية، هذا التناوب يطرح الاستمرارية التي يتشكلّ معها البحث عن المشبعات في كلّ تنوّعاتها ممّا يخلق صيرورة مكرّرة تفضي إلى وجود ترابطات بينيّة بين كلّ الثنائيات التي يكمن فيها التناوب، فالإنسان نتيجة هذا التناوب سيمتلك نظرات متّسعة تتجدّد دائما؛ فيكثر عنده الخزين المعرفي الذي يؤدّي به إلى إيجاد بدائل متعدّدة، لكنّها غير متكرّرة؛ لأنَّ المتكرّر لا يعود، وهذا يطرح التحديث الحاصل الذي يكون من ورائه طرح كلّ ما هو جديد بعيد عن الماضي وبدائله.

كيف يكون الخوف طبيعيا حاله كحال الغرائز المادية؟

نقول:

كلّ شيء مؤسس على الفطرة التي خُلق عليها، سواء أكان على أحسن تقويم أم أنّه ما دون ذلك. ولذا فإنّ كلّ مُخيف بين الحين والحين يملؤه الخوف، فالأفعى على سبيل المثال التي تُخيف فإن تمت مواجهتها بالقوّة سيكون الخوف هو المتحكّم بها أو المسيطر عليها، وإذا نظرنا إلى ملك الغابة كما يقولون (الأسد) فهو الآخر كما يُخيف يخاف، وهكذا

الإنسان الذي هو على حسن التقويم؛ فهو من الخائفين إذا ما تعرّض لمواقف تتطلّب منه أن يعدّ العدّة كي يتخلّص من الخوف.

وعليه فإنّ الخوف الذي هو شعور داخلي لا تناوب له إلّا بمعطيات خارج عنه.

ونتساءل:

إذا أجزنا أنّ الخوف هو فطري ألا يعني ذلك أنّنا نجيز أنّه لا علاقة له بالإرادة؟

نقول:

نعم إنّه فطري ولكن له علاقة بالإرادة.

فالإرادة توجّه الخوف نحو إيجاد كلّ ما يمكّنه من تحقّيق المشبعات، لأنَّ بقاء الأمر ضمن حدود لا تشير إلّا لوجود الخوف مدعاة للتقوقع الصفاتي الذي يُرى فيه الجانب السلبي دون الايجابي، كما أنّ الأمر المهمّ الذي لابدّ من الإشارة إليه، أنّ كلّ الصفات ومن بينها صفة الخوف، لابدّ من تأصيل أمر الإرادة فيها، وذلك كي يتحقّق فيها ثنائية (الإيجاب والسلب)، فهذه الثنائية لا يكون تحقّقها وفق الفطرية التي تنتمي إليها الصفات، بل وفق الإرادة التي يكون من نتائجها السلب والإيجاب.

ولسائل أن يسأل:

بما أنّ الأمر في دائرة الممكن يتحقّق أو يشبع بإرادة الإنسان، ألا يعني ذلك أنَّ علاقة طبيعية تربط الطبيعي بما هو إرادي؛ فالجوع يحتاج إلى إرادة حتى يشبع، والخوف يحتاج إلى إرادة حتى يحقّق الاطمئنان.

ولذا من حيث أنّ الغرائز تخلق خلقا إلّا أنَّ جميع الغرائز وفقا لقوانين الطبيعة ونواميس الحياة وشرائعها لا تشبع إلّا عن إرادة، فالعلاقة قويّة بين ذلك الغريزي وبين الإرادة المحقّقة للإشباع.

والإنسان بإرادته قادر على أن يشبع غرائزه بالعمل، وبإرادته إن لم يعمل فلا يشبع غرائزه، ولهذا كلّ شيء على المستوى الإنساني إن تحقّق سلبا أم إيجابا فلا يتحقّق إلّا بأيدي الإنسان، فإنْ عمل صالحا كان مصلحا لا مفسدا، وإنْ عمل طالحا كان على الفساد لا على الإصلاح؛ فعلى سبيل المثال: الإنسان الذي تقدّم علميا وتقنيا وغزا الفضاء ولازال يغزو، وأنتج العدّة التي تحقّق السلام والتي تحقّق الفناء له وللآخرين؛ فهو بهذا قد سلك مسلك البحث عن اختيارية تكون مدعاة للوصول الافتراضي الذي كان عند البداية، ممّا يجعل من النهاية الصورة الواضحة التي يظهر فيها الصلاح وعدمه.

إنّ المخلوقات الأخرى غير الإنسان تخاف من غيرها الذي يشكلّ خطرا عليها، ولا تخاف من جنسها كما هو حال الإنسان الذي يخاف من جنسه أكثر من خوفه من غيره؛ فأصبح الخوف هو اللغة السائدة بين بني الإنسان (بين أنا وآخر) وكأن الأنا والآخر ثنائية ليست من جنس واحد، ولذا فالإنسان الخائف إذا استمدّ القوّة يصبح مصدرا للخوف أو الإرهاب.

وعليه: فالقاعدة (الخوف المتحقّق يحقّق القوّة) أي لو لم يكن الخوف ما تحقّقت القوّة، ولذا فالخائفون عندما يستقرئون المستقبل ويعدّون العدّة لتفادي ما يملؤهم من مخاطر، يصبحون على القوّة التي بها يتّصفون بعد أن كانوا يتّصفون بغيرها (بالضعف).

أمّا الخوف كون فطريته ملازمة، فإنَّ هذه الملازمة تطرح الخوف بديمومة جبرية إن صح إطلاق مثل هذه التسمية، ذلك أنّ الوقتية غير متحقّقة، لأنّها لو تحقّقت لحدث الآتي:

لسقط الإنسان من الإنسانية التي ينتمي إليها، ذلك أنّ الخوف صفة تنفتح من خلالها تشعبات متعدّدة، ترمي إلى إيجاد حالة ترابطية بين النّاس؛ فالخوف يحتّم على النّاس جميعا البحث عن الأسس التي تجعلهم يلتفّون حول مركزية يكمن فيها البقاء ضمن الدائرة الإنسانية، وإن كانت في بعض الأحيان هذه الدائرة مفترضة، إلّا أنّها محاولة للبقاء ضمن تواصل مراد.

يمنح الخوف الإنسان البقاء بعيدا عن المخاطر التي يمكن أن تحدق به، ذلك أنّ الخوف يكون مانعا للإنسان من خلال التحسّب المستمر الذي يمدّه بوقائية تجعل كلّ ما من شأنه أن يكون خطرا ضمن انزواء في غياهب بعيدة.

يمثل الخوف حالة إدراكية تتّسم بامتدادات بعيدة؛ فيبنى على أساسها تبعات كثيرة، فتنساق الأمور المختلفة نحو هذه الادراكات ليكون البناء بعدها مستوفيا للشروط البنائية التي تكون فيما بعد الأساس الواضح.

إنّ الخوف بفطريّته الملازمة، صفة تمثّل القوّة التي تدفع بالإنسان نحو المضي إلى تحقّيق كلّ ما من شأنه أن يثبت إنسانيته أوّلا، ويدرأ عنه كلّ ما من شأنه أن يمثّل خطرا عليه ثانيا، وفي كلّا الحالتين تكمن الايجابية التي يتمثّل فيها الخوف.

والحمد لله ربّ العالمين